M. I. Quandour

روايه
NOVEL

محي الدين قندور

المؤامرة الثلاثية

قصة تاريخية

الجزء الثالث
من
ثلاثية القفقاس





محي الدين قندور

المؤامرة الثلاثية

قصة تاريخية



ترجمة

محمد أزوقة

الجزء الثالث

من

ثلاثية القفقاس



ثلاثية القفقاس ـ الجزء الثالث
المؤامرة الثلاثية / رواية
محي الدين قندور / مؤلّف من الأردن
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمود الوزني

لوحة الغلاف :
م. م. غورلوف / روسيا
الصفّ الضوئيّ :
سمير اليوسف
ترجمة :
محمد أزوقة
التنفيذالطباعيّ :
مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-744-2

المؤامرة الثلاثية

هذه ملحمة مثيرة للمشاعر تجتذب القارىء بثرائها وتعدد شخصياتها . يجب قراءتها من قبل جميع الأشخاص الذين يرغبون في فهم ما يجري اليوم في الإمبراطورية السوفييتية السابقة .

منذ زمن اعتلاء بطرس الأكبر العرش الروسي وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، ضاعفت روسيا تقريباً من حجمها بالحيازات الإقليمية . الأسلوب الذي حققت به هذا الإنجاز أمر ذو أهمية هائلة ، خاصة على ضوء عهد ما بعد السوفييت وأزمة القوميات التي نشأت ضمن جمهورياتها العرقية .

حدث ذلك في الجنوب ، في القفقاس ، حيث كانت جهود روسيا في إنشاء الامبراطورية الأقل انكشافاً لتمحيص أو نفوذ الأمم الأوروبية . كان هنا أيضاً في القفقاس المكان الذي رفعت فيه أزمة القوميات رأسها البشع على أثر «الجلاسنوست» و«البيريسترويكا» .

هذا هو الكتاب الثالث في ثلاثية الكافكاز . كازبك مقاتل كبير السن مع الشراكسة الغربيين . والزمن هو ثلاثينات القرن التاسع عشر حين جاء الإنجليزيان بيل ولونجوورث لمساعدة الشراكسة في حروبهم الطويلة ضد الغزاة الروس في القفقاس .

لقد أصبح ناخو ، حفيد كازبك ، شاباً ناجحاً الآن ، قائداً واعداً يتمتع بثقة شعبه .

خلافاً لجده ، هو رجل ذرائعي ، مفكر ، يستخدم عقله بدلاً من سيفه لتحقيق طموحاته . اثناء رحلة الى القسطنطينية ، يكتشف الاتفاقيات السرية بين روسيا وعدوها الأكبر تركيا لإجلاء الشراكسة الغربيين خارج القفقاس .

يقوم طابور خاص من المبشرين الأتراك المسلمين بإغراء السكان على الهجرة إلى مملكة السلطان . يقطع الأحرار البريطانيون وعوداً كثيرة لمساعدة الشراكسة ، ويمنحونهم آمالاً غير مجدية للاستمرار في الصراع . لكن الاحتلال الروسي للقفقاس يستمر بلا هوادة مع الحملات النهائية للأمير بارياتيسنكي ، والتي تؤدي إلى استسلام الشراكسة يوم ١٢ أيار عام ١٨٦٤ .

تتوحد جميع هذه المؤامرات والقوى لتقدم النتيجة المحتومة : التهجير الكارثي لمليوني شركسي إلى تركيا العثمانية .

شكر واعتراف

هنالك العديد من الأصدقاء والزملاء الذين أرغب في شكرهم، وهم الذين ساعدوا على جعل إخراج هذا الكتاب ممكناً. الأولى بين هؤلاء هي زميلتي وباحثتي، الفاضلة فرانسيس كينيت. فقد ساعد إخلاصها وقدراتها التحريرية على تشكيل هذا العمل في شكله الحالي. وأنا مدين لها بأصدق امتناني..

كذلك أرغب في توجيه الشكر إلى صديقيّ محمد حافظ من نالتشك (جمهورية قباردينو بلقاريا) والدكتور إيجور تيموفييف من موسكو، على تشجيعهما ومساعدتهما المستمرين في بحثي عن الحقيقة التاريخية في متاهات الأرشيفين السوفييتي والروسي.

هنالك العديد من الأصدقاء الآخرين الروس، القباردييين والأتراك (أكثر من أن يمكن ذكرهم بشكل إفرادي) الذين ساعدوا في البحث وتقديم المشورة: الذين ترجموا أو ساعدوا في ترجمة وثائق حيوية من الأرشيفين الروسي والتركي. أنا مدين لهم جميعاً بكلمة شكر صادقة.

***

الفصل الأول
1833

وجد أصدقاء ديفيد أوركهارت في إنجلترا موقفه صعباً على التحديد –لكنه لم يهتم لذلك على الإطلاق– فقد أرسل إلى القسطنطينية بناءً على توصية شخصية من صاحب الجلالة الملك وليم الرابع لاستطلاع الوضع، ممثلاً للمصالح البريطانية. كان قد تم تعيين صديقه وحليفه السياسي جون بوسونبي لتوه سفيراً لدى الباب العالي، سلطان البلاط التركي، وعليه فقد كانت لديه اتصالاته الحسنة، بوجود حامٍ له إلى جانبه، وأصبحت الأبواب مفتوحة له.

هذا في البداية، أما الآن فإن الأمور قد بدأت تتغير قليلاً.

عدّل ديفيد أوركهارت من وضع قفطانه وثوبه التركيين، ولف العمامة المصنوعة من الموسلين حول رأسه. لم يتوقف ليتأمل مظهره بإعجاب: فهو يرتدي هذا الزي من باب الالتزام والبحث عن الراحة، وليس التأثير في الآخرين. لم يكن لديه سبب للشعور بالغرور: فهو متوسط القامة، بشعر أحمر متراجع خفيف وعينين زرقاوين حادتين نموذجيتين لدى اسكتلندي كريم المولد. اضطجع على الوسائد الحريرية في صالته بانتظار قدوم زواره.

لقد تحدى أعراف المستعمرة البريطانية في القسطنطينية باستئجاره بيتاً متواضعاً بعيداً عن الأحياء السكنية الرسمية إلى الشمال من المدينة، (المتمركزة بشكل مناسب خلف بطارية المدافع المشرفة على مضيق البوسفور). اختار ديفيد أوركهارت أن يعيش في عمق قلب الحي التركي، إلى الجنوب من القرن الذهبي وقريباً من الجهة الغربية لميناء جالاتا. فقد أحب هذه المنطقة لأن بإمكانه

الاختلاط بأصدقائه الأتراك بسهولة أكبر، بدون أن تجري مراقبته والتعليق عليه من قبل المثرثرين الأوروبيين، ولكي يتمكن من حضور المدارس الدينية الملحقة بالمساجد ودخول الحمامات التركية براحته.

قام بالدراسة في المكتبات الدينية، واستكمل فهمه للعديد من المسائل، كما أصبح مدمناً على الحمامات البخارية من أجل الاستجمام الخفيف، ولو على الأقل فقط لأنها خففت من ضيق صدره وساعدته على التنفس بحرية.

كان عديم الصبر على جسمه الضعيف – لكن حالته كانت مسؤولة عن وجوده في القسطنطينية، بشكل غير مباشر. فقد ظل عليلاً على الدوام، وقضى معظم سني طفولته في البيت مع مدرس خاص وأمه – فقد توفي أبوه وهو ما يزال مجرد صبي. نشأ وحيداً وبالتالي حاذقاً– بما يكفي من الحذق لأن ينجح في امتحانات الالتحاق بجامعة أوكسفورد عندما كان في السادسة عشرة من عمره. تأجل دخولـــه في مهنة ما إجبارياً بسبب اعتلالاته (ظلت أمه تأمل على الدوام بدخولـــه في السلك الدبلوماسي): سافر ديفيد إلى اليونان بصحبة صديق للعائلة، هو اللورد كوكرين، الذي كان شقيقه تشارلز يخدم لديه كنقيب بحري أثناء حرب الاستقلال.

ارتحل لعدة سنوات في العديد من بلاد الشرق، ولكن البلاد التي سحرته في نهاية تطوافه كانت تركيا. لم يكن واحداً من أولئك الإنجليز الرومانسيين الذين ينغمسون في بلد أجنبي ليفقدوا شيئاً من أنفسهم. لم يكن لديه الكثير من العاطفة: ولم تكن حياته محكومة بالمثاليات، كما فكر العديد من الناس. لقد كان محكوماً بشكل أساسي بثقافته التي لم يكن فيها متسع لمشاعر الآخرين التي تسبب الاضطراب. فإذا كانت لديه نقطة ضعف، فذلك هو موقعها، وهو أمر اعترف لنفسه به..

ببساطة، لم يكن يفهم لماذا لم يستطع الآخرون رؤية المنطق. فقد رآه الملك وليم الرابع. لقد أمَّن أصدقاء أمه الذين يحتلون المناصب الرفيعة وصول نسخة من كتابه المتكامل الأول إلى الملك: "تركيا وإمكانياتها" – وهو نتائج دراساته للمسألة الشرقية. لقد أعجب الملك بالآراء الرئيسة الواردة فيه، بصفته رجل بحرية. تدور أفكاره الرئيسة حول مبدأ "إبقاء البحار مفتوحة لبريطانيا – خاصة البحر الأسود! تاجروا مع تركيا – وليس مع روسيا!" لقد كان الأساس الذي تقوم عليه أفكاره ولا يزال، يقضي بأن تصادق بريطانيا الأتراك، وتتبادل معهم التجارة وتعيد الحيوية إلى الدولة التركية المتدهورة، بدلاً من التحالف مع روسيا، وهي القوة التي يعتبرها خطراً وتهديداً. وافقه اللورد بونسوبني على أفكاره.

لفت الملك انتباه اللورد بالمرستون، وزير الخارجية، إلى كتابات ديفيد أوركهارت، والذي بدوره جعله يعود إلى تركيا كعميل متجول، للبحث في إمكانيات التجارة البريطانية..

كانت ظاهرة الخشية من روسيا في بداياتها، ولكن بسبب نفخ أوركهارت في نيرانها، فإن احتمال اشتعالها بشكل حاسم يصبح احتمالية.

دفعت نقرة على الباب بأوركهارت إلى الوقوف إلى قدميه. تحدث الخادم إليه باللغة التركية.

"لقد بدأ الضيوف بالوصول، يا داود بك".

كان هذا الموعد السري الصغير ضربة عظيمة. فقد تمكن ديفيد أوركهارت من إقناع السفير وزوجته بالحضور إلى بيته الصغير لتناول طعام العشاء "على الطريقة التركية".

فقد قام كذلك بدعوة صديقه الشركسي المقرب ومستشاره في الشؤون الروسية – التركية، ظنوكو السفير بك، للانضمام إليهم، بدون أن يخبر اللورد بونسونبي.

يتمتع السفير بك بهيئة مذهلة، طويل القامة، أسمر البشرة، وسيم، رياضي شهير، وخطيب مفوه بليغ. قضى هو وديفيد عدة ساعات في بحث الأوضاع العالمية حول كوب من الشاي: كان السفير بك يسحب من أنفاس النرجيلة العطرة ولكن داود بك لم يكن ينضم إليه بسبب انحراف صحته الولادي.

قالت الليدي بونسونبي "هذا ساحر!" عند دخولها إلى غرفته المتواضعة، المؤثثة بالكامل على الطراز التركي، غير واثقة كلياً من أنها مسرورة أو مصدومة من الغياب الكلي للكراسي.

كان ديفيد أوركهارت مضيفاً غير محرج إلى حد بعيد: فقد أشار ببساطة إلى الوسائد المهيأة حول مائدة بسيطة منخفضة وانتظر بصمت بينما عالجت الليدي بونسونبي مسألة جلوسها المعقدة، بما أمكنها من الرشاقة بسبب فستان السهرة المنفوش بعظام الحيتان. قدم لها مدبر شؤون بيته صينية فضية ملأى بالأطايب والشاي بالنعناع. مرة أخرى بدا ذلك غاية في الصعوبة لأن الليدي بونسونبي كانت ترتدي قفازات بيضاء ضيقة.

لم يكرمها أوركهارت بمجرد نظرة. فهو لا يرى فيها سوى امرأة أنيقة كنتاج مثالي لطبقتها: ذات بنية متوسطة، ربما تكون جذابة، جرى تعليمها لتصبح غبية بطريقة سارة. من حسن حظها أن لون بشرتها يميل إلى السمرة، وبدا أنها تأقلمت مع الحرارة بدرجة أفضل من معظم النساء الأوروبيات. مع أنها لم تكن تقضي الكثير من وقتها مع أي منهن.

قال ديفيد بسرعة "أحمد، أحضر الشوك" متعجلاً إنهاء الرسميات. فإن الحياة قصيرة على مثل هذه المسائل، خاصة عندما تكون مسائل العدالة مستوجبة الحل في العديد من الأمكنة في العالم.

سألت الليدي بونسونبي بتردد لطيف "ديفيد، لم تكن لدي فكرة عن اعتناقك طريقة الحياة العثمانية إلى هذه الدرجة من الكمال. لماذا؟".

قال، وهو يبتسم قليلاً، ولكنه أكثر اهتماماً بأن يفهمها من أن يبدو ساحراً بنظرها "يا ليدي بونسونبي، الموضوع هو هذا، لقد قاتلت ضد تركيا في الحروب اليونانية. وقد قتلت رجلاً.

كان الذي علمني بأن ما فعلته خطأ أسير تركي مسلم، لقد أقنعني بشخصه بجريمة القتل، لأنها كانت حرباً غير عادلة. وقد تعلمت منه القواعد الأولى للنظافة، المجاملة، إنكار الذات، والخطاب الصادق... لقد استغرقني الأمر ست سنوات من الدراسة هنا..."

هتفت به "لكن ذلك ليس صحيحاً! لقد كانت قضية عادلة".

قال ديفيد "ليس بحسب قناعاته" كانت عيناه صافيتين وبراقتين إلى درجة إنهما كانتا ساحرتين" قال لي، الأمر هكذا: إذا أنا حملت هذه البندقية غير المباركة من الله تعالى، فأنا إنما آخذها من الشيطان." لقد سمح لنفسه ولرفاقه بأن يطردوا من معقلهم من قبل الروس بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة، لأن الحرب لم تكن قد أعلنت بموجب فتوى.."

حضته على الاستمرار "والتي هي؟"

شرح ديفيد بسرعة: "إنها قَسَمٌ من رجل الدين. لقد أثرت فيَّ كلماته إلى درجة أنني كنت مستعداً لأقدم نفسي إلى المحاكمة، لو كان هنالك شيء من هذا القبيل..."

"ولكنك لست....."

أطلق ديفيد ضحكة قصيرة "مسلماً؟ لست مسلماً على الإطلاق. لقد كانت العدالة في كلماته هي التي أثرت فيَّ، وليست ديانته. كلا، إنني أبحث فقط عن الحقيقة والنزاهة. لو كان لي أن أنجذب إلى أية ديانة، فإنني أجرؤ على القول أنها ستكون الكاثوليكية".

أحمرَّ وجه الليدي بونسونبي قليلاً، لم تكن معتادة على الأحاديث الصريحة إلى تلك الدرجة. لقد كان الابتعاد عن الثرثرة

الكسولة للدوائر الدبلوماسية أمراً مثيراً. لقد حذرها الناس في لندن من أن ديفيد أوركهارت "شاذ" -خيالي- وأصبح بإمكانها أن تعرف ما عنوه.

أعلن ديفيد لزوجها "لدي مفاجأة سارة لك" وكان يتجول حول الغرفة، يبحلق باهتمام بكل الخرائط والرسوم والتحف العائدة لرحلات ديفيد في تركيا والشرق. "سوف يزورنا السفير بك".

أجفل جون بونسونبي واستدار ليواجهه "هل ذلك أمر ينطوي على الحكمة؟".

ظهرت الحيرة على وجه ديفيد "ولم لا؟ سيكون الأمر مثيراً للاهتمام إلى أقصى حد. آه! فهمت الآن! منصبك! لا تقلق يا بونسونبي، فهذا "غير رسمي" - لا حاجة لأحد أن يعرف".

أطلق اللورد بونسونبي ضحكة خفيفة "أنت هازل ولا بد! لقد لاحقنا جاسوس الروس منذ غادرنا بيتنا، ولا بد أنك تعرف أن كل خدمنا مدفوع لهم من قبل الباب العالي. يتم إرسال تقارير إلى البلاط عن كل مكان نذهب إليه".

قال ديفيد براحة "لا أعتقد أن ذلك سيحدث في هذه الحالة، فهم يعرفون أنني أساند قضية تركيا ضد روسيا. وأنا مهتم فقط بالحقيقة".

"حسناً، أنا بالطبع أتفق معك ولكن يجب علينا أن لا نجعل الأمور تبدو واضحة أكثر مما يجب. إنني فعلاً أتمنى لو أنك تكون حذراً.."

بدأ ديفيد أوركهارت يشعر بأن كل هذا الانتباه لمراعاة البروتوكول مزعج له. "هل تفضل أن لا أسمح للسفير بك أن يدخل عندما يصل إلى هنا؟ بإمكاني أن أبعث له برسالة تعترضه، إذا كنت تحب ذلك..."

تدخلت الليدي بونسونبي، وهي تتحدث بصوت عالٍ إلى درجة أنه يخترق المصاريع المخرّمة للشبابيك بكل وضوح. "أعتقد أنه في منتهى الكياسة منك أن ترتب لي مقابلة رجل مهذب على هذه الدرجة من التميز ضمن خصوصية هذا البيت التركي اللائق! أمر ساحر حقاً لا أعتقد أن أحداً سيشعر بالإساءة من أمر مكتوم إلى هذه الدرجة. لقد كان أمراً على درجة لا تصدق من التهذيب أنك رتبت الأمر لأجلي، يا ديفيد. سوف أكتب إلى أمك لأخبرها كم الأمر رائع ببساطة، الطريقة التي أصبحت تتحلى فيها بطلاقة باللغة التركية، وكيف كونت هذا العدد من الصداقات مع المحليين. لا يمكن إلا أن يكون مفيداً أن يكون لدينا متمكن من اللغة ومثل هذا الخبير في الثقافة هنا في القسطنطينية. ستكون مفيداً لي بدرجة عظيمة، يا عزيزي ديفيد. لا تكن ضيق الأفق إلى هذه الدرجة، يا جون!" تبادل اللورد والليدي بونسونبي نظرة إعجاب مشتركة. لا داعي لأن يضع أحد أذنه عند ثقب الباب لالتقاط هذا الإعلان. لقد كانت الليدي بونسونبي تخوض مغامرة، وهي التغطية المثالية لما هو على وشك أن يحدث.

بينما الليدي بونسونبي تشعر بالنشوة، رست مركبة سفير بك الصغيرة إلى جانب المرسى في جالاتا، حيث ركب عربة أجرة مغلقة حتى باب منزل أوركهارت.

السفير بك هو السفير غير الرسمي لشراكسة الأراضي المنخفضة – تلك الأمم القفقاسية التي تعيش على الأراضي العالية الواقعة بين الجبال والبحر الأسود.

حياه ديفيد قائلاً "مرحباً بك. لقد وصل اللورد جون قبلك وهو سعيد برؤيتك هنا".

كان ذلك شرفاً غير عادي، طرح عليه السفير بك التمني أو التحية التركية، وهي تمنح من حيث الأصول لمن ينتمون إلى الدين الإسلامي، قال "داود بك" مستخدماً اللفظ التركي لإسمه، مضيفاً

بذلك لقب تشريف له كنوع من التكريم "ما هي الأخبار؟ إنني واثق أن لديك المزيد من الأخبار..".

قال ديفيد بعجالة "دعني أقدمك..." وهو يقوده بعيداً عن القاعة والخدم الحائمين. لم يكن السفير بك قد قابل الليدي بونسونبي من قبل فانحنى بعمق. خلافاً للعديد من بني قومه، اعتاد على رؤية النساء الأوروبيات في لباسهن المسائي الرسمي (كان يكره ياقاتهن المفتوحة على صدورهن بشدة، لكنه تعلم أن الغربيين لا يعتبرون اصطحاب نسائهم خارج البيوت إلى المجتمع وهن نصف عاريات أمراً معيبا – حتى لو كن في منتصف العمر مثل الليدي بونسونبي).

قال بنبرات ناعمة "إنه شرف أن أقابل السفيرة الجديدة. سوف نتحدث هذه الليلة عن الشعر والموسيقى والأساطير، فقط. وكما قال شاعر قديم مرة "أنظر إلى الوردة"." استدار السفير بك مبتسماً إلى الرجلين وخفض صوته حتى غدا بالكاد مسموعاً. "كلا، لن نتحدث عن حصن جديد آخر يجري بناؤه بتعليمات واضحة من نيكولاس على شاطئ البحر الأسود في إيلورا – مما يوصل التحصينات إلى عشرة حسب آخر إحصاء".

أضاف أوركهارت، بصوت خفيض جداً "وجعل الأمر أكثر وضوحاً من أي وقت سابق بأن الروس سيقومون بقطع أي نوع من المتاجرة بين القفقاس والأتراك والبريطانيين، هل من أنباء عن رحلتي المقترحة إلى بلاد الشراكسة؟ إنني بشوق غامر إلى الإبحار حتى أرى بنفسي"

"نعم، لدي أخبار، لكن ربما لا تريد أن تبحثها هنا، أليس كذلك؟"

قالت الليدي بونسونبي بنبرات مرحة "كلا، لن نفعل ذلك، أيها السادة، إذا كنتما راغبين في التدخين، لماذا لا تذهبان إلى المكتب؟ وتتركاني لأتحدث مع السيد السفير بك، إذا أحببتما...".

راقبت بعينين براقتين بينما قام السفير بك بإخراج وثائق من بين ثنايا أرديته المخمل الثمينة. استدار بونسونبي وأوركهارت وقد عقدا ذراعاً بذراع للذهاب إلى المكتب وبحث آخر التقارير الواردة من القفقاس الغربي – بلاد الشراكسة.

نادت وراءه "ديفيد، يجب أن تحضر لتناول الشاي. نحن لا نراك مطلقاً في السفارة وأنت تعرف كيف يتكلم الناس. أنت أدرى بأنه يجب عليك أن لا تهملنا".

قال بشرود ذهن "إنني مشغول جداً، لكنني سأحاول، إن لدي الكثير لأعمله، مع اقتراب أجل هذه المرحلة المقترحة إلى بلاد الشراكسة..."

تراجعت الليدي بونسونبي قليلاً في وسائدها، بينما جلس السفير بك قريباً منها وقد بسط أثوابه البراقة فوق ساقيه المعقودتين، بحيث كشف عن وجود خنجر هائل الحجم محشور في جانب حزامه. ما كانت لتعرف أنه "قاما" لا يكتمل لباس أي شركسي بدونها. كانت تلك الليلة أكثر إثارة لها من كل أحلامها الطائشة التي راودتها كفتاة صغيرة. المؤسف أنها كانت أكبر سناً من أن تنظر إليها بجدية...

***

استمر كازبك ورفيقه حَشِرْ، في التحرك باتجاه الغرب أثناء هروبهم من القباردا، سالكين دروباً ملتوية أخذتهم صعوداً في الأودية الواقعة باتجاه شمالي – جنوبي، ثم عابرين سلاسل جبال متعامدة مع الأودية حتى أصبحت الأودية تميل باتجاه قطري إلى محور شمالي – شرقي، خائضين جداول تجري باتجاه عرف كازبك أنه سيؤدي بها إلى نهر الكوبان في نهاية المطاف.

عبرا من وادي إلى الآخر خلال ممرات عثر عليها كازبك بالتفحص الحذر للأرض. أصبح تدريب "الأتالق" تميروقا طبيعة ثانية له: لو أن مجرد جواد واحد قد سلك هذا الطريق في الشهور

الستة الماضية، فإن كازبك سيتمكن من اقتفاء خطواته بأمان. دفع الرجلان بالجياد صعوداً بثبات إلى الأعلى نحو مناطق أكثر أماناً.

أصبحت كل بقعة معزولة من الأرض وسط حقل الثلج القفقاسي حديقة خريفية ذهبية. تفتحت أمام حوافر الخيل سجاجيد متعددة الألوان الحية على المرتفعات الأدنى، البالغ ارتفاعها حوالي ثلاثة عشر ألف قدم: أزهار الجنطيانا، آذان الفأر، إبرة الراعي، زهرة الحواشي، مع غيضات كثيفة من الخلينج الوردية التي تعدت وقت روعتها، تنغلق على خواصر الجياد. تحرك كازبك وحَشِرْ بسرعة متجاوزين مستوطنات صغيرة نحو المنطقة العالية من الأحراش حيث تكاثرت الشجيرات الحاملة للفواكه حتى وصل ارتفاعها إلى الكتف: النسرين الكلابي، أشجار البندق، التفاح البري الحامض والغبيراء الممتلئة بالثمار.

كافحا لمدة أخرى صعوداً نحو منطقة من الأحراش العالية ذات أشجار القضبان، الحور الرجراج، والبلوط، المختلطة بأشجار الزان العملاقة الأكثر مهابة. عندها تذكر كازبك كلمات شاعر جوال، تلقى مدائحه من شفاه المريد المقاتل، شامل: ألا ليتني أستطيع أن أدهن أحراش القفقاس بالزيت المقدس، وأسكب مشاريب العسل على طينها وحمأها، فتلك هي أفضل حماية لاستقلالها..".

أخذت الطريق الرجلين ببطء نزولاً إلى السهول الخصيبة مرة أخرى، أدرك كازبك أنه يقترب من مناطق البزادوغ والشابسوغ لأن المراعي وشجيرات الفاكهة صارت تبدو أكثر ارتواء من جراء تساقط الأمطار الأشد غزارة وتكراراً، وكذلك لأن خطوط القمم العالية التي تزنر الأودية التي عبروها أصبحت مغطاة بالثلوج إلى عمق أكبر – بسبب ازدياد تساقط الثلوج. كانت هذه أول مشاهدة للطرف الغربي لسلسلة جبال القفقاس. فقد كانت جبال بلاد الشيشان حسب ما يتذكره، أكثر ميلاً إلى اللون الرمادي، وقممها جرداء أكثر.

ظهر أمامه، خلف نقطة يضيق فيها ممرهما، جدول جميل يترقرق داخل وادٍ منعزل: زادت الجياد القوزاقية التي أسرها كازبك من قتلة إبنه، من سرعتها، فأرخى كازبك العناق للفرس الأولى حتى يسمح للجياد بالجري إلى الأمام للشرب. ترجل هو بدوره وأنعش نفسه بملء قبضته من الماء الطيِّب القراح. توقف ليشبع إعجابه بشجرة بلوط عملاقة - أوحى له حجمها وعظمتها بأن هذه البقعة الشاعرية لا بد وأن تكون مقدسة، ويحتمل أنها مكان مخصص لدفن نبيل معين منذ القدم، أو موقع لبعض الشعائر القديمة، حيث يتم تقديم فروض الولاء لصليب عتيق أو المخلفات المغبرة لقديس ما في أيام أعياد معينة، أو حيث يتم رفع القرآن الكريم عالياً فوق بندقية ضمن احتفال لتأدية قَسَمٍ أو معاهدة ما. انقطع سهومه عندما شاهد فارساً وحيداً يعدو خبباً باتجاهه، خارجاً من دغل من أشجار الزان حيث يتسع النهر قليلاً، بدون أي تكلف. إذ لم يكن يتوقع وجود أحد في هذه الفسحة المقدسة بين الأشجار. حين أحسَّ بحضور ما، تغيرت خطواته على الفور إلى المشي وشد عنان مطيته، متردداً. كان مجرد فتى.

تمتم كازبك "لا تتحرك، يا حَشِرْ" مستمراً في نزع السرج عن حصانه العربي بكل هدوء. أقعى حَشِرْ على حقويه، وقد جعل بندقيته في حجره وهو يبرد يديه في مياه الجدول. أضاف بهدوء، بدون أن يحرك رأسه "يبدو وكأنه واحد منا - حتماً هو "أديغه"!"

وضع كازبك بندقيته على الأرض وأشار إلى الفارس طالباً منه أن يقترب "لا بأس عليك أيها الفتى - ليس هناك ما تخشاه منا.."

لأن كازبك لم يكن يحمل سلاحاً غير "القاما" في حزامه, ولأنه كان مترجلاً، فقد قرر الفارس الفتيّ أن يغامر.

سأل بفضول "من أية قبيلة أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟" بلهجة شركسية إيقاعية مرحة أنيقة.

أدرك كازبك في هذه اللحظة المكان الذي وصل إليه. فقد ثبتت ظنونه العينان الزرقاوان، والبشرة الشقراء والملامح الوسيمة الراقية إضافة إلى اللهجة.

"نحن قبارديان من منطقة التيريك، ولا بد أنك من الشابسوغ بالنظر إلى صوتك. إترك جوادك وتعال أجلس معنا لبرهة. سرعان ما نتناول شيئاً من الطعام.."

لكن الفارس الشابسوغ حوَّم بضع مرات حول أمتعة كازبك وتفحص الخيول. ثم أشار فجأة "هذه جياد قوزاقية – عليها علامات روسية فارقة!" عبثت يده ببندقيته بعصبية وهو ينزع زناد الأمان..

ابتسم كازبك ابتسامة عريضة "نعم، لقد كانت كذلك، فيما مضى. لكنها جيادي الآن".

لم يتجاوب الفارس مع دفئه وبقي في سرجه. توتر كازبك. فقد كان واعياً تماماً للقصص العديدة التي مفادها أن تكتيكات "الجاور" في سياسة فرق تسد في المناطق الغريبة من الجبال قد زرعت بذور الشك والخيانة التي ازدهرت واينعت كما الأعشاب.

عشيرة ضد عشيرة، نبيل ضد نبيل، لم تعد الثقة أمراً مسلَماً به بين جميع الأديغه هنا. لكن الفارس بدا مضطرباً – ظهر عليه التردد أكثر من العدائية. قال متلعثماً "لا بد وأنك تعرف أن التخييم هنا ينطوي على الخطورة، إلا إذا طبعاً – "

تميزت لهجة كازبك بالجدة "إلا إذا ماذا؟ أفصح أيها الغلام".

تلفت الشاب حواليه بعصبية كأنما يخشى وجود الجواسيس. ثم استدار نحو كازبك وأشار إلى أعلى مجرى الجدول" الضفة الأخرى من هذا النهر – وعلى مسافة ركوب تـق عن ساعة – يوجد معسكر لجنرال روسي وجنوده القوزاق. إذا كنت قد عبرت النهر من الجهة الشرقية فلا بد وأنك مررت بهم".

نظر كازبك من فوق كتفه بلا مبالاة "إذا كان الأمر كذلك أيها الفتى فنحن لم نرهم. لقد جئنا من خلال بعض الأحراش، ثم عبرنا شعباً ضيقاً – حتى رأينا هذا النهر- لقد كنا محظوظين، أليس كذلك؟" نهض حَشِرٌ، وهو أقل توتراً ودموية من زعيمه "هل تقول أن التخييم هنا خطير؟".

هز الشابسوغ رأسه "يحتمل ظهور الجنود في أية لحظة ليعيدوا سرقة الجياد. يجب عليكما الابتعاد". ولكن قبل أن يخبرهما إلى أين يذهب، قفز عن جواده وتحرك بسرعة نحو جذع البلوطة العملاقة. انحنى وأزاح ما بدا وكأنه قطعة من لحاء الشجرة، ولكنه كان في الواقع مغلفاً من الجلد، يغطي ثقباً محفوراً بعناية ودقة. كان ذلك مكان إسقاط رسائل.

جاء دور الفارس في الابتسام بمرح ولو أن ابتسامته بهتت إلى شيء من الارتباك والخجل. "هذه هي الطريقة التي يتصل بواسطتها الجنرال الروسي بزعمائنا – وهم يتصلون به..."

كاد كازبك يقتله الفضول لأن يعرف أن كان هذا يعني أن هذه القبيلة من الشابسوغ تحديداً تتعامل مع "الجاور" أو تتلقى معلومات خاصة، أم أنهم ببساطة يؤدون دور الوساطة في مفاوضات أعم وأشمل. لكن هذه الأسئلة يجب أن تطرح على رجال أكبر سناً، وليس على حامل الرسائل هذا.

قال الصبي "يجب علي أن أعود إلى الشابسوغ"، وهو يحشو كيس الوثائق داخل قميصه "الأفضل لكما أيضاً أن تركبا معي".

حمل كازبك سرجه متعباً وقال "يبدو أن هذا هو الأفضل". قرر أن يخاطر، ويطرح اسماً "بالإضافة إلى أنني أبحث عن صديق قديم من الشابسوغ. إن اسمه هو حاتقواي دانيل. هل تعرف عنه شيئاً؟"

بدا على الفارس الارتياح لهذا السؤال، إذا عاد إلى امتطاء جواده بالمزيد من الاسترخاء.

قال بصوت أكثر دفئاً "نعم أعرفه، أن "الحجي" دانيل موجود في الشابسوغ الآن، حيث يقابل الزعماء. هيا بنا، اركب وسوف أساعدكما في قيادة الجياد وآخذكما إليه".

خلال ساعات، اخترق كازبك وحَشِرْ إلى قلب منطقة الشابسوغ، وهي إقليم مزين بحقول الذرة الخصيبة المعتنى بها بشكل جيد، بساتين الخضار والقرى الصغيرة النظيفة المسقوفة بيوتها بالأغصان والقش. كانت البيوت مرصوصة بشكل خطر إلى جوانب التلال الصخرية ولذلك بدت فاتنة، لأن كل بوصة من الأرض المستوية الصالحة للزراعة حولها كانت مخصصة للمحراث والفأس.

قاد الفارس الشابسوغ الغريبين إلى قلب واحدة من هذه المستوطنات الصغيرة حيث حوصرت الجياد على الفور بجمهور من الأولاد المثرثرين. بينما كان كازبك يترجل، خرج رجل شركسي هائل الجسم من بوابة منزله مصحوباً بخمسة رجال مسلحين تسليحاً ثقيلاً. لم نقلل لحية هذا الرجل الطويلة الناعمة من مظهره المخيف بأي شكل: قد يكون مسناً رمادي الشعر لكن كتفيه العريضين، كرشه الهائل وطوله الفارع جعلوا منه رجلاً يحسب حسابه في أية مواجهة.

شرح الصبي "إن ضيوفنا من القباردي، يا موسى بك".

جلجل صوته "مرحباً بكم! اعتبرا نفسيكما في بيتكما" وهو يرفع يداً في حجم ورقة تين.

غمر موسى بك كازبك في عناق حميم وفعل نفس الشيء مع حَشِرْ، الذي اختفى داخل أكمام سترة الرجل الهائلة بسبب صغر حجمه. شرح كازبك في عجالة هروبه وغايته من القدوم إلى هذا الإقليم.

قال بخشونة "لقد قام ضابط روسي بقتل إبني، تيقنت من أن حاميته دفعت العقوبة. دعونا نقول إنهم لن يعودوا بحاجة إلى هذه

الجياد بعد غارتي. لقد قررت أن أحمي عائلتي من الغارات الانتقامية بمغادرتي لإقليم القباردي. إنني في خدمتك: لقد أدى "الحجي" دانيل فريضة الحج إلى مكة المكرمة معي، ولقد فكرت في أنه ربما يمنحني الملاذ... إذا كان بإمكاني أن أكون مفيداً...".

كانت حالة الحرب متطورة إلى تلك الدرجة في الجبال، بحيث أن موسى بك استوعب القصة المختصرة الرهيبة بدون أي رد فعل – على أساس أنها تعبير عن الواقع. لا أكثر. مثل هذه الخديعة، مثل هذا القتل كان شائعاً وعادياً بالنسبة له. "سوف تقابل "الحجي" دانيل قريباً – استرح أولاً وسوف يقوم أولادي بالعناية بالجياد".

بعد بضع ساعات، وبعد أن استحما واستراحا، جلس كازبك وحَشِرْ في صالة مضيفهم مع كبار القرية.

كان كازبك قد خبر السفر كثيراً ولذلك فهو معتاد على الرفاهية التركية لكن حَشِرْ لم يكن قد شاهد مثل هذه الفخامة "العثمانية" فأخذ يحملق في المفروشات بمزيج من الانبهار وعدم الموافقة. صحيح أن القبارديين مشهورون بحبهم للنعومة والراحة والأناقة، ومع ذلك فإن هذا يصل إلى حد التدهور الخلقي.

كانت هناك أريكة طويلة تكومت فوقها الحشي والوسائد، تلتمع بتطاريز من خيوط الذهب والنفائس الأخرى، كاللآلئ وغيرها، مما بدا له لائقاً بحريم أحد الباشوات، بينما ظهرت الأسِرَّة التي اضطجع عليها العديد من الكبار وهم يرشفون الشاي، غير لائقة بالرجال. ولكن الأمر اختلف بالنسبة للأحاديث... لذلك قرر أن يتحفظ في حكمه.

قال موسى بك "لقد أرسلت في طلب "الحجي" دانيل، يؤسفني القول أنني لم أجد الوقت الملائم لأداء فريضة الحج – فقد انشغلنا طيلة الوقت في مقاتلة "الجاور" غزاة بلادنا..."

تقدم الشاب الشابسوغ إلى الأمام وسلّم مغلف الوثائق الذي حصل عليه في وقت سابق. لم يفتحه موسى بك في الحال بل دسه تحت وسائده بأمان.

"لقد سمعنا بوفاة الملاّ غازي، وكذلك سمعنا بأن نودي على حمزاد بك إماماً، قائداً للداغستان، فما هي الأخبار من قباردا؟"

أصغى حَشِرْ بانتباه، لأن هذه شؤون الدولة التي لم يكن يعرفها هو كلياً. لقد كان بالتأكيد يعرف عن الملاّ غازي وحمزاد بك وشامل، ما يدور حولهم من أساطير: فمن هو الذي لم يسمع أن المريدين في الشرق هم العصابة الأكثر إثارة للخوف من المتطرفين، المقاتلين الثوار اللامعين، الذين يقودهم إمام هو مزيج من الرسول، والجنرال والطاغية؟

"لقد اعتنق الشيشان المريدية، وأنا أعتقد أنهم سيبقون الروس مشغولين في الشرق لمدة طويلة... أما بالنسبة للقبارديين... "وتجهم وجهه" فقد عانينا، لكننا نحاول أن نبقي على سلام متفاوض حوله مع "الجاور".

قال موسى بك وهو يفكر "إن القتال في الشرق يساعدنا هنا..." وكان سيستغرق لو لم يصل دانيل في تلك الدقيقة.

كان هو وكازبك في نفس العمر تقريباً، وقد تعانقا بحرارة مردها الإدراك الناتج عن كونهما قد تشاركا في تجربة خطيرة وغاية في الأهمية. أبديا لبعضهما ألفة وثقة تتولد أحياناً ليس عن سنوات قضيت في الرفقة الخاملة، كما يحدث مع صداقات الطفولة، بل عن فترة قصيرة ومكثفة من التحدي، الذي اختاره كلاهما عن وعي – وفي هذه الحالة رحلة الحج إلى مكة المكرمة.

كان الحاج دانيل رجلاً ضخم الجسم هو الآخر، لكنه ذا مظهر ينم عن طيبة أكثر من موسى بك. بدأ حياته كتاجر، شخصية باسمة بعينين نصف مغمضتين وموهبة طبيعية في الحديث السهل، كان يمكن أن يصبح أكثر ثراءً ورفعةً في أيام السلم: رفيق يتحلى بنعمة

المرح، روح متحررة، ملأى بالحزم والمنطق السليم – ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الفضائل الاجتماعية فقد كان جاهزاً (وذلك على الأقل في أيام ما قبل الحج) للذهاب إلى المعركة مدججاً بالسلاح:

شعر كازبك بفيض من المحبة نحو أحد القلة من الرجال الذي القوا بمجرد لمحة إلى دخائل قلبه.

"إن شاهدتك أمر يسرني يا دانيل! بصحة جيدة ومبتسماً، تماماً كما تذكرتك! كيف حال عائلتك – وأطفالك؟"

"بخير، بخير – وكيف هي عائلتك أنت؟"

لحظتها فقط أدرك كازبك فجأة بصدمة رهيبة، السبب في وجوده هنا.

كان قد نسي حياته لثانية. امتقع وجهه حتى البياض "بخير. بخير تماماً.." نظر إلى دانيل، الذي عرف على الفور أن أمراً لا يمكن التحدث به وقد وقع.

لم يستفسر موسى بك. فإن ذلك لم يكن لائقاً. لاحظ الاحترام القوي بين الرجلين، وقدر ذلك عالياً.

قال موجهاً كلامه لكل الكبار "نحن محظوظون بوجود "الحجي" كازبك بيننا، ويضاعف تشريفنا أن نقابل الابن البكر لرجل في مثل شهرة أحمد الكوباني وثانياً أن يكون تحت سقفنا مؤمن حقيقي تتبع خطى سيدنا ولينا النبي محمد صلوات الله عليه...".

شعر كازبك بالحياء في وجه كل هذا المديح، من موقعه كشخص خالف وحطم كل عهوده المقدسة.

"أنكم تشرفونني بما يزيد عن الحد، أيها الأخوة النبلاء. إنما أنا مجرد "أديغه" مثلكم جميعاً، يرغب في مقاتلة الغازي الكافر لأراضينا.. لقد أحضرت حوالي أربعين جواداً معي كهدية

لمقاتليكم. بإمكاني أن أقول لكم... (وهنا ألقى بنظرة باتجاه دانيل، الذي سيصعق حتماً من هذا الاعتراف من "حجي") أن أصحابها السابقين، وكلهم من القوزاق، لم يعودوا في هذه الدنيا. فقد أرسلوا جميعاً إلى جهنم "بالقامات" القباردية.

فهم دانيل أن هذا معناه بأن كازبك نفسه هو المقترف لهذا العمل، واحتفظ بصمته. غرق موسى بك بدوره في التفكير، لكنه قابل مقولة كازبك وتصريحه بحماسة رفاقية "وأنا الذي ظننتك في البداية مجرد تاجر خيول قباردي! يا أخي، أنت على الرحب والسعة في مجالسنا ومرحب بك في أن تحمل سيفك مع أشجع الناس بيننا. لدينا الكثير من الروس والقوزاق هنا ممن يحتاجون إلى أن يقتلوا!"

لاحظ دانيل الأنوار المتلالئة في عيني كازبك وشعر بالحزن من أجله – مع أنه كان فرحاً لأجل الشابسوغ. أدرك من فوره أنه مهما كان السبب الذي جعل كازبك يتحول من رجل دين إلى مقاتل فقد قدم للقفقاس قائداً من نوعية رائعة. فمهما كانت مشاعر كازبك بالذنب تجاه تحوله عن طريق السلام باعتباره "حجي"، فإن دانيل آمن بأن العناية الإلهية قد أرسلته إلى الشابسوغ، وأدى صلاة شكر خاصة إلى الله سبحانه وتعالى.

* * *

الفصل الثاني

قال موسى بك بحزم "والآن أيها الأخوة، موضوع عمل هذا المساء. فليقرأ لنا إيجوراء هذه الرسائل الجديدة القادمة عبر شجرة البلوط..."

كان كازبك قد قضى سنة مع الشابسوغ بحلول هذا الوقت، وشارك في عدة هجمات على الحاميات التابعة للجيش الروسي. كانت الحرب قد بدأت تستعر.

دخل المترجم، إيجور، وابتسم باتجاه موسى بك بينما تم تسليم الرسائل إليه. جلس متربعاً أمام المجلس، وجهه الأشقر العريض مفتوح وصادق بينما هو يتفحص المحتويات. هو بولندي هارب من الخدمة العسكرية لدى الجيش الروسي ويساعد الأديغه. حرره كازبك من تاجر عبيد أرمني كان يأخذه إلى سوجوك كاله، حتى يباع إلى الأتراك. في البداية اشتغل كخادم، ولكن بعد أن أصبح أهلاً للثقة، سمح له أن يقاتل مع الشابسوغ. لغته الشركسية في تحسن مطرد – وبشكل خاص، منذ أن بدأ يعمل كمساعد لكازبك.

بدأ أيجور يقرأ ترجمته بصوت مسموع: "هو يقول... كل الشراكسة ينتمون إلى القيصر. هو يقول تركيا ليست جيدة. انجلترا ليست جيدة. ضعيفة جداً. هو يقول... الرجل الإنجليزي مع الشراكسة، هو جاسوس. خائن. لا ينفع. يجب إرساله لبيته. هو يقول ضابط روسي كبير، جنرال كبير، يقابل زعيم شركسي كبير عند شجرة لابا. هو يقول الجمعة، الظهر. أنت تأكد، يا كازبك".

نظر كازبك خلال الرسالة بسرعة. كالعادة فقد أدى إيجور ترجمته بشكل جيد، وقال الحقيقة...

خاض الكبار في أحاديث متحمسة، الجميع يتحدثون في نفس الوقت. تنهد كازبك، ووطن نفسه لانتظار سيطول. لقد اعتاد هذا الأمر الآن. لم ينظم الشابسوغ –شأنهم شأن البزادوغ وشعوب الجبال الأخرى، أنفسهم كما فعل القبارديي. لم يكن لديهم أمراء بالوراثة: لا نبلاء، ولا درجات في المنزلة الاجتماعية والمراتب بحيث يعرف كل شخص موقعه – والأهم من ذلك، حتى يستطيع الزعماء المعينون أن يفاوضوا نيابة عن الأغلبية. كان زعماء العشائر هم الذين يحكمون القرى: وكانت الصراعات الدامية القاتلة كثيرة الحدوث. وكل مجموعة تتحدث عن نفسها، ويتحتم على جميع القرارات أن تؤخذ بالإجماع. لم يفهم كازبك مطلقاً كيف يمكن لهذا النظام أن ينجح، لكنه اكتفى، من باب الاحترام، بالمراقبة والامتناع عن الحكم عليهم...

كان موسى بك يحدجه بنظرة حادة "إذن. ماذا تعتقد، يا "حجي" كازبك؟".

"سمعنا أثناء عودتنا من الغارة قبل بضعة أيام من بعض الرعاة أن هناك قوة كبيرة من الروس تتجمع على ضفة الكوبان. الآن، وبما أن روسيا تسيطر على شاطئ البحر الأسود فمن الوارد جداً أن يحاول الروس أن يدفعوا بنا باتجاه الغرب إلى خارج الجبال".

هزَّ دانيل رأسه بالموافقة. "لم تعد تلك شائعة. إن الجيش ينتظر فقط قدوم الجنرال "الجاور" فيليامينوف من تيفليس. كنت أتمنى على الله لو أنه طرد من الخدمة إلى جانب "الشيطان" ذلك الشيطان المتجسد بشكل بشر".

أطلق موسى بك وابلاً من السباب – ثم شرح لكازبك بالتفصيل مواقف المقاتلين الجبليين الآخرين. تأثر كازبك بعمق. ظهر في هذه المرة أن شعوب الإقليم الغربي ينسقون جهودهم في المقاومة: البزادوغ، إلى الشمال من الشابسوغ، الوبيخ، الأقرب إلى

شواطئ البحر الأسود، والأبخاز قد وحدوا قواتهم جميعاً. هنالك مجلس من زعمائهم منعقد حالياً ومنذ وقت لبحث الخطط والتكتيكات.

لقد ظهر اشتداد في التصميم عبر القفقاس كله، من الغرب إلى الشرق وبقوة. لم يستطع الجنرال فيليا مينوف ولا "الشيطان" ييرمولوف أن يتوقعا هذا الأمر قبل حدوثه... مما أشعر كازبك بالحبور.

بعدها تملقه دانيل، مع أنه لم تكن به حاجة إلى ذلك، لأن كازبك كان قد سبق والتزم، "يا كازبك، نحن بحاجة إلى حكمتك وقيادتك".

حال "النيمس" لدى كازبك بينه وبين إظهار فهمه لمثل ذلك الإطراء، لكنه ابتسم ببطء في وجه موسى بك و "الحجي" دانيل، ثم استمر في الانتباه إلى النقاش الدائر.

كانت النتيجة محتومة. وافق جميع زعماء الشابسوغ على التعبئة العامة. وهكذا حدث بعد أسبوع، إذ وجد كازبك نفسه وسط مئة من الفرسان من الشراكسة، وقد تجمعوا عند شجرة البلوط إلى جانب نهر اللابا. كان موسى بك يمتطي جواداً قبارديا أسود رائعاً، ويرتدي لباس الحرب الكامل: صدرية من سلاسل الزرد، "قامتين"، سيف طويل وبندقية.

شكل كازبك تبايناً مدروساً إلى جانبه. فهو يرتدي ثوباً حرشفياً أبيض فوق درعه، ويعتلي صهوة حصانه الفحل العربي الأبيض، وقد اعتمر عمامة مميزة من صوف الخراف الأبيض على رأسه.

فكر كازبك ملياً وبعمق خلال السنة الماضية، وطوَّر أفكاره حول زعامته. فقد ظلت الكلمات تمرر على شكل أساطير منذ أيام الشيخ منصور العظيم، يرويها العديد من "الأشوغ" الشعراء الجوالون إلى جانب المدافئ، ووصلت هذه إليه أثناء تأملاته. ما الذي كان الشيخ منصور قد قاله؟ "لست أميراً ولا أنا برسول ولم

أسمي نفسي يوماً كذلك، لكنني لا أستطيع أن أمنع الناس من النظر إليّ بتلك الصفة لأن أسلوب أفكاري وطريقة حياتي يبدوان إعجازيين بالنسبة إليهم.." كان كازبك مدركاً لحقيقة أن يكون القائد جديراً بإتباع الناس له. أصبح يدرك أثناء فترة نفيه والتي بدت مؤهلة لأن تمدد لتصبح حملة طويلة عبر سنة أو أكثر، بأن هذا الإحساس بالعزلة، (وهو أمر بدأ ينمو في داخله حتى وهو في موطنه بالقباردي، منذ عودته من مكة المكرمة)، قد كان تحضيراً لهذا الاختبار الهائل.

لكن كان من الصعب عليه أن يقبل بأن الله سبحانه وتعالى قد احتاج إلى موت ابنه إمام، حتى يتخذ هو مكانه هنا في بلاد الشابسوغ. لأن فقدان الطفل الأوحد للشخص أمر صعب.

طمس كازبك هذه الأفكار. فمن المهم أن يبقى متعالياً، يحتفظ بآرائه لنفسه، ويظهر على الدوام حازماً، شجاعاً، وفي كل الأوقات: عنيداً لا يقبل الصفح ولا التغيير. حتى، إذا احتاج الأمر، أن يلعب دور البطل حتى ينمي أولئك الذين هم أقل ثقة بأنفسهم، درجات البطولة في دواخلهم. أن يكون غير متساهل في مظهره الشخصي: أنيقاً ومثابراً على لباسه الأبيض: عديم الرحمة في توقعاته للطاعة والإخلاص... تلك كانت الصفات التي ظل يسعى بوعي وتصميم للحفاظ عليها ونيل الإعجاب بسببها.

تأخر الروس في الحضور لأجل "المحادثات" عند الظهيرة كبادرة تكتيكية. ظل كازبك يفكر في الإشاعات الأخرى بينما هو والمندوبين ينتظرون في الطراوة إلى جانب النهر، سأل موسى بك "ما هي أخبار هذا الرجل الإنجليزي الذي وعد بالمساعدة؟ لم تتحدث عنه مؤخراً – هذا الذي استضافه أمير الناتخوي، على ما أذكر... وأعطي توصيات وادلاًء لتنقلاته داخل الجبال... ما أسمه؟ هل هو نفسه الشخص الذي يتحدث عنه الخطاب؟" هزّ موسى بك رأسه موافقاً "داود بك. أنا أعرفه فقط بالسمعة لكنه وعد بأن يمثلنا لدى "الإنجليز قارال" (ملك الإنجليز)، وأقسم أن يرسل لنا الذخائر

والإمدادات. ما زلنا ننتظر. يقول الزعماء أنه رجل شريف. أعتقد أننا سنرى بعض المساعدة من قبله.." أضاف الحاج دانيل "لقد غادر عائداً إلى "استنبول". لكن الروس يعتقدون أنه ما يزال في القفقاس. إن وجود "الإنجليز" إلى جانبنا يقلقهم.."

نسيت الأنشطة الدبلوماسية فجأة عندما حصلت حركة بين الفرسان جعلت الرجال يديرون رؤوسهم. كان صف طويل رفيع من فرسان القوزاق التشيرنومورا يتجمع على الضفة المقابلة لنهر اللابا. بدوا عدائيين بشكل هجومي بسراويلهم السوداء الفضفاضة، ستراتهم الضيقة وطواقيهم المختالة، حتى وهم يشكلون مجرد حرس عسكري... ركب عقيد روسي أشيب ونائبه، نقيب قوزاقي من مرتب الحرس الإمبراطوري، خائضين في وسط المجرى: كان القوزاقي يحمل العلم الأبيض المألوف.

قال كازبك "أعتقد أنهما يريدان منك أن تقابلهما في منتصف الطريق، في النهر، للتحدث"

زمجر موسى بك من هذه اللهجة المذهلة من الرمزية لدى "الجاور" – وكأنما المياة أكثر حيادية من الأرض، وكأنما أحد ضفتي اللابا تعود إليهم أكثر من الأخرى!

أمسك بعنان فرسه بقوة بين أصابعه الضخمة "أنا لا أثق بهم. لكننا لا يمكن أن نظهر الخوف. فهل تجيئ معي يا كازبك؟ أنت تتحدث الروسية وقادر على التفاوض أفضل مني..."

"بكل سرور"

بدا على "الحجي" دانيل القلق وأوقفهما، متسائلاً:

"ألا يجدر بكما أيضا أن تحملا علما أبيض؟"

لكن كازبك قد بدأ التحرك. "لا حاجة لذلك. إنهما يحملان واحداً عنا جميعا".

عندما وصلا قبالتهما، دار رأس العقيد الروسي جيئة وذاهباً من موسى بك إلى كازبك، محاولاً أن يقرر من منهما الزعيم، ومن المترجم. عندما لم يتمكن من التوصل إلى استنتاج مؤكد، خاطب كليهما بإلقاء ملاحظاته باستعلاء من فوق رأسيهما.

"أنا العقيد بارتوك، مساعد الجنرال كلو جيناو. إنني هنا بتفويض من القيصر العظيم للتحدث إلى زعيم الشابسوغ. سوف يقوم مترجمي التركي بالترجمة لكما..." وأما برأسه باتجاه النقيب القوزاقي الذي، شأنه شأن كل الجبليين سواء أكانوا مع روسيا أو ضدها، يتكلم اللغة التتارية، اللغة المشتركة.

تجاوبت أصداء صوت كازبك بحزم فوق المياه بحيث سمعها الجميع "لا حاجة إلى مترجمك. أنا أستطيع التحدث بلغتك".

أصيب بارتوك بالذهول. فهذا الرجل الشركسي لا يكتفي بإجادة الكلام، بل هو يستخدم صيغة الخطاب المحددة التي يستعملها الأنداد في التخاطب. هذه لهجة روسية بطيئة ولكنها مدينية وفي أفضل حالاتها. كيف بحق الشيطان تسنى له أن يتعلمها؟ حتماً ليس كما لو أنه قد أرسل إلى مدرسة مرشحين كرهينة...

أجاب بقدر قليل من التهيب "ذلك رائع، ومن تكون أنت؟ هل أنت الزعيم أم هو؟" وأشار إلى موسى بك.

"اسمح لي أن أمثل صاحب السعادة موسى بك، زعيم الشابسوغ، أنا صديقه. لقد قرأت رسالتك. انت الذي طلبت هذا الاجتماع، وسوف أقوم بالترجمة...".

لم تغب لهجة السخرية في هذا النمط من الخطاب عن العقيد بارتوك. فبذل قصارى جهده لاستعادة السيطرة "أنت تتطرق إلى لب الموضوع مباشرة. ذلك يعجبني. حسناً. أرجو أن تشرح لـــ – آه– لموسى بك أننا نرغب في تجنب إراقة الدماء إذا كان ذلك ممكناً". لوح العقيد بكفوف ناعمة من جلد الشاموا في الاتجاه العام للمنطقة الخلفية "لقد أعطيت كل هذه الأراضي التي تراها من نهر

الكوبان إلى البحر إلى صاحب الجلالة القيصر بموجب معاهدة – لذلك فأنتم وكل من يعيش على هذه الأرض، من رعايا جلالته".

"ومن هو ذاك الذي وهب هذه الأرض ووقع مثل هذه المعاهدة؟ هل كان زعيماً أو أميراً شركسياً؟" تساءل كازبك ببرود.

اتخذ العقيد بارتوك موقفاً عدائياً "لا، طبعاً لا. لقد كان ذلك هو السلطان التركي. وهكذا فأنت ترى مدى الخطأ في قيام الشراكسة بإجراء الاتصالات مع أعداء روسيا وفي قيامكم بمهاجمة جنودنا وحامياتنا. إذا لم تخضعوا فسوف ندمر قراكم ونحرق حقولكم. ليست لديكم أية فرصة ضد جيوشنا".

ألقى كازبك بنظرة باتجاه موسى بك، الذي فهم من هذا الكلام ما يكفي ليس فقط من الكلمات المألوفة بل أيضاً من أداء العقيد التسلطي.

انطلق صوت موسى بك مثل هزيم الرعد "أخبر هذا الروسي أننا شعب حر، ولا يستطيع أحد أن يهب أراضينا أو يجعلنا رعايا لدولة أخرى بالتوقيع على قطعة ورق. نحن أمة، نحن شعب حر".

تعالت همهمة حتى أصبحت هتافاً عندما عبر كل الشراكسة عن موافقتهم على هذا التصريح".

لم يعد العقيد بدوره بحاجة إلى الترجمة، لكنه انتظرها، حتى يبدي تعبيراً غبياً عن عدم تصديقه ومله من هذه "البلاغة المحلية".

عندما رأى كازبك ردة فعل العقيد، تحدث مرة أخرى بهدوء، وكأنما ليشرح ردة فعل موسى بك.

أشار إلى شجرة البلوط العملاقة "أيها العقيد بارتوك، هل ترى تلك الشجرة هناك..."

"نعم؟" قال العقيد، وقد شعر بقليل من الانزعاج ولكنه ظل راغباً في إطالة صبره لحظة أخرى "ماذا عنها؟"

"على تلك الشجرة يوجد عصفور. أنا أعطيك ذلك العصفور، إذا كنت تستطيع الإمساك به".

لم يفهم بارتوك في البداية، ولكنه عندما فهم، امتدت بقعة حمراء ببطء صاعدة من رقبته حتى سوالفه.

"من أنت؟ ما هو اسمك!" قال بفظاظة أقرب إلى البصق.

في مكان ما من المياه المترقرقة، من النسيم العليل الذي يهب من شجرة البلوط التي تعلقت عليها الخرق المرفرفة المحملة بالأدعية العديدة المعلقة إلى غصونها الخشنة المعمرة، بدت وكأنها أيدي الآلاف من الناس التعساء، يلوحون كأنهم يقولون "لا تنسوني! أنا هنا! أنقذوني!" – في مكان ما، توحدت أصوات أبناء شعبه وأقاربه المظلومين في الإعلان المدوّي الذي أطلقه كازبك:

"أنا كازبك. وأنت لست روسياً. أنت تابع نمساوي خانع مثل سيدك كلو جيناو. أنتم خدم لأمير أجنبي. مرتزقة تباعون وتشترون بالذهب. أنت لا تستطيع أن تفهم الحرية!"

اكتفى بارتوك من هذه الممارسة الأرستقراطية في الإهانة. فقد لمس كازبك عصباً حسَّاساً. كعب أخيل. فالمرتزق يعتبر نفسه على الدوام محترفاً ومثل هذه التذكيرات المبدئية تجعل وظيفته غير قابلة للدفاع عنها.

نبح بارتوك :استمع إليَّ يا كازبك، استمع جيداً، أنتم لستم أمة. أنتم شعب قبلي صغير يسبب المتاعب، الأفضل لكم أن تخضعوا وتصبحوا رعايا مخلصين، وإلا فإن الدم سيجري بمثل غزارة ووفرة هذا النهر. إن روسيا تشبه دباً عملاقاً وأنتم لستم أكثر من ذبابة صغيرة تضايق مؤخرتها مرة في كل زمن. بإمكانها أن تبيدكم في أي وقت تشاء. أنني أنذركم للمرة الأخيرة – نحن ننوي أن نبني مدينة حامية قرب النهر. إذا بدر منكم أي استفزاز سوف نقوم بإبادتكم جميعاً. فهل أوضحت لك قصدي؟"

سحب بارتوك لجام جواده بوحشية واستدار عائداً إلى جنوده، متبوعاً بمساعده العاجز عن الكلام.

عاد كازبك وموسى بك أدراجهما بخطوات بطيئة إلى درجة الإهانة باتجاه جانبهما، لا حاجة للاستعجال...

"ماذا كان كل ذلك الكلام عن الدببة والذباب؟" تساءل موسى بغير اكتراث، مع أنه لم يخفق للحظة في فهم محتوى الرسالة.

مازحه كازبك – فكل هذا الذي يجري هو عرض لصالح الشراكسة المنتظرين. سيصبح هذا التبادل الكلامي مادة للقصص حول نيران المخيمات وأغاني الشعراء المتجولين خلال ليالٍ قليلة...

"لقد قال إننا مثل ذباب الصيف الذي يضايق مؤخرة الدب الروسي – وأن بإمكانهم سحقنا في أية لحظة يرغبون فيها بذلك...".

ضحك موسى بك، مطلقاً رعدة خفيضة من التفكه "لقد أعجبتني قصتك عن العصفور. أعتقد أنه كان غبياً وبطيئاً حتى فهم معناها..".

"ربما" أجابه كازبك بهدوء.

بعد أن تلقى المقاتلون الشراكسة المعنى العام للمحادثات، تفرقوا ليحملوا الأخبار كل إلى أبناء عشيرته. اتخذ موسى بك وكازبك والحاج دانيل طريقهم خلف غبار الخيالة الآخرين. اختتم موسى بك كلامه قائلاً "يمكننا أن نتوقع الأسوأ. آمل أن يكون هؤلاء الأصدقاء "الإنجليز" يقولون لنا الحقيقة. سوف نكون بحاجة إلى الرصاص، وكمية ضخمة من ملح البارود".

اقترح دانيل "يتحتم علينا أن نرسل شخصاً لينزل إلى الشاطئ ليرى إن كان أي شخص قد وصل".

لم يكن كازبك متفائلاً كلياً "ألم يعد "الإنجليز" بإرسال رجال مقاتلين مزودين بالمدافع؟"

نفض الحاج دانيل كتفيه العريضين المعبرين. "لم يكن هناك شيء على هذه الدرجة من التحديد. يعتقد داود بك أنه إذا قام الشراكسة بالمتاجرة بحرية مع بريطانيا فإن ذلك سيثبت استقلالنا عن روسيا وسوف يقوم الإنجليز بعدها بالانضمام إلينا في تحالف ضد "الجاور".

كان كازبك قد سمع بهذه النظرية من قبل "نحن نحتاج إلى الجيوش والمدافع، وليس إلى التجار". قال بنفاذ صبر، واستمر في الركوب قدماً بصمت.

***

جالاتا، تركيا
1836

جالاتا هي منطقة الميناء في القسطنطينية، وهي تواجه الجنوب نحو بحر مرمرة على الطرف الشمالي للقرن الذهبي، وتشرف على مدخل مضيق البوسفور. وهي تشكل ما يحتمل أنه أحد أجمل المرافئ الأوروبية من النواحي الطبيعية: كل السفن التي تبحر خروجاً منه باتجاه الشمال، مارة بأسوارها، تدخل ذلك المضيق السحري الذي يفصل قارة أوروبا عن آسيا بما لا يزيد عن بضعة أمتار. كانت السفن المتجهة شمالاً، مارة بقصور السلطان، وقبة كاتدرائية هيجيا صوفيا الهائلة، وأسوار المدفعية، تصل في نهاية إبحارها إلى البحر الأسود. هي ميناء مزدهر، لكن سلعتها الأكثر تبادلاً لم تكن ملموسة.

لقد كانت الموانئ الشركسية الشاطئية: أنابا، بوتي، سوخوم كاله في وقت ما مزدهرة بدرجة ثراء جالاتا، لكن ذلك تغير الآن.

فقد قامت تركيا "بتحويل السلطة الأسمى" على القفقاس إلى روسيا بجرة ريشة – مع أن تركيا نفسها لم تكن لديها حقوق ملكية في الإقليم، لا من الناحية التاريخية، ولا الأدبية ولا حتى الواقعية...

تركزت جميع الأنشطة التجارية والسياسية على الموانئ الواقعة ضمن الإمبراطورية العثمانية، مثل جالاتا. يلتمع بياض أسوار البلدة المحصنة بنقاء، ومع ذلك فهي متوترة باحتوائها على التسليح من أثقل العيارات. وفي داخل الأسوار، في الشوارع الضيقة المنتشرة بدون تنظيم من المراسي مارة بالأسواق صعوداً إلى جانب التلة نحو بيوت التجار (والتي يقع بينها منزل ديفيد أوركهارت) وإلى ما وراءها، نحو أكواخ أكثر الحثالات البشرية فقراً التي كان يلقي بها حطام السفن وما يطرح منها لتخفيف الحمولة أثناء العواصف إلى هنا، فإن الضوضاء التجارية هي مجرد واجهة للتجارة الحقيقية التي يتم تبادلها هنا: المعلومات. الذخيرة الشفهية.

هنا، الشرق يلتقي بالغرب، كما يلتقي الشمال بالجنوب. يريد الجواسيس الأتراك أن يعرفوا حجم الجيش الروسي الذي يضغط على حدودهم في آسيا الصغرى: وتبحث المناطق المفتتحة من شبه جزيرة القرم والبلقان عن أية وسيلة لزعزعة قوة "الحضورات" الروسية في مناطقهم: أحضر التجار من المشرق السجاجيد، المدافع، الرصاص، براميل الطعام، إلى أي شخص قادر على دفع أسعارهم الابتزازية: مثل عرض الاستراق الذي يجبر المراقب على أن يلقي بفلس أخير، أو يجرب دوره للمرة الأخيرة، وهكذا قدم تتار النوغاي، القالموق، الشراكسة، الأبخازيون، الوبيخ، الخزر، الداغستانيون، البخاريون، اليونانيون، الأرمن، الجورجيون، الروس – والذين لا يزيد مجموعهم عن ألفي شخص في المجموع – لبعضهم البعض نتف المعلومات كما تهدى قطع الحلوى المغمسة بالعسل بين البيوت المدخنة المسقوفة بالقش والأغصان، وأكواخ

الخشب والطين. أما الإنجليز - آه، الإنجليز، والذين كثيراً ما كان ينظر إليهم على أساس حملة الكأس المقدسة للحرية الديمقراطية - فما الذي كانوا يفعلونه في جالاتا، ببذلاتهم البيضاء الأنيقة، يتشمسون تحت المظلات المخططة للمقاهي التركية الصغيرة؟ راقب مطلقو الإشاعات والمثرثرون وحاولوا أن يخمنوا... ماذا عن هذين الاثنين، الجالسين قرب الواجهة البحرية يحملان الجرائد والمنشورات، يحاولان جاهدين تجنب النظرات المغرية لعيون العاهرات المقنعة والمضمخة بالكحل أثناء ذهابهن إلى السوق، متدثرات بأثوابهن الفضفاضة الضخمة من الحرير الدمشقي الداكن التي لم تفعل الكثير لتخفيف الوعد المتستر لأجسادهن الرجراجة المغرقة في بدانتها... ربما كان الإنجليزيان يفضلان الأولاد، مثل كثير من أبناء قبيلتهم.

في واقع الأمر لم يكن ديفيد أوركهارت يفكر في شيء بعيد عن افتراضاتهم: وهو أن فون كلابروث كان يقول على الدوام أنه لا توجد تجارة في العبيد من القفقاس إلى إقليم البحر الأسود. فإن ذلك يخالف قواعد "الخابزه" الشركسية. لقد أوحت له رحلته إلى بلاد الشراكسة بأعظم درجات الإعجاب لهذا الشعب النبيل، الشجاع إلى حد التهور في عدائه لروسيا، والذي يقاتل أبناؤه بالسيوف القديمة والبنادق الصدئة ضد مدافع القيصر. ولكنه كان يعرف، باعتباره دارساً متحمساً للتاريخ، أن النساء والأولاد هم الضحية الاقتصادية لألعاب القوة على امتداد الدنيا كلها: يتحتم عليهم أن يبيعوا أنفسهم حتى يبقوا على قيد الحياة وهنالك على الدوام وسطاء راغبون جاهزون لجني الأرباح. في عصر أصبحت تعتبر فيه الحياة رخيصة، حين كانت القرى تحرق بحيث لا يتبقى منها سوى التراب من قبل الجنود الروس أو المستضيفين القوزاق، فإنه مما يثير الدهشة أن لا يتم العثور على الجمال الشركسي، بين الذكور والإناث، وقد حملتهم الأمواج طافين فوق مياهها بمنتهى العجز،

إلى موانئ الإمبراطورية العثمانية، يبحثون عن الملجأ والملاذ على أريكة أحد الباشوات العثمانيين الكرماء...

تفحص الشاب الجالس قبالته. السيد جيمس ستانيسلاوس بيل هو حليف تم العثور عليه مؤخراً. كان دفيد أوركهارت قد عاد إلى إنجلترا ليقدم تقريراً بكل مشاهداته إلى اللورد بالمرستون. وقد تم استقباله بحفاوة. وكانت مكافأته أنه استطاع أن يعود إلى القسطنطينية في منصب جديد: أصبح الآن رسمياً سكرتيراً لسفيره اللورد بونسونبي، وقد بدأ صبره ينفذ من انتظاره للمواجهة.

لقد منحته رحلته إلى بلاد الشراكسة معرفة مباشرة فريدة حول الموقف، وقد قام بالتخطيط، وكتابة المنشورات، وإلقاء الخطب في لندن، وبكلمات أخرى، قام بالتحريض، بكل ما أوتي من قوة. قال "ما رأيك فيه؟"، متشوقاً لمعرفة رد فعل بيل، كان بيل يقرأ بتمعن منشوراً صغيراً بغلاف أحمر، هو الأول من سلسلة كان قد بدأ نشرها في لندن عندما كان هناك.

"حقيبة الوثائق" (بورتفولبو).

"إنها مادة رائعة، سيسر بها الشراكسة".

"إعلان للاستقلال... مطبوع ومنشور في لندن؟ طبعاً سيكونون سعداء! اسمع يا بيل، إنني أعتقد أن الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها أن نرغم الحكومة على التوقف عن ترددها السخيف والخروج بموقف داعم كلياً لحرية الشعب الشركسي هي رفع مستوى الوعي الشعبي، يجب علينا أن نجد طريقة نتغلب فيها على المصالح الراسخة هناك في الوطن. آمل في أن يجعل نشر "حقيبة وثائقي" الناس يرون ما يجري هناك – بأن الروس هم أعداؤنا، وليسوا أصدقاءنا".

ما لم يقله أوركهارت إلى جيمس بيل، وما جعل قلبه يخفق بعنف كان معرفته السرية.

فقد استطاع أن يفهم، من خلال المحادثات المتعددة في أوقات متأخرة من الليل مع رئيسه، اللورد بونسونبي، أن السفير يحمل مفتاح نصر عظيم.

لقد كان اللورد بونسونبي يحمل تفويضاً خطياً من وزير الخارجية بالمرستون نفسه، يمنحه صلاحية استدعاء الأسطول البريطاني، وجعله يبحر عبر مضيق الدرد نيل إلى بحر مرمرة ويتحدى سلطة القيصر الروسي على البحر الأسود. لم يكن بونسونبي مضطراً حتى إلى انتظار التفويض من قيادة الإمبراطورية – باستطاعته أن يأمر بقيام العملية فوراً. بسبب بطء البريد، فإن أنباء مثل تلك الحادثة سوف تستغرق أسبوعين على الأقل حتى تصل إلى لندن، بحلول ذلك الوقت، سيكون الأمر قد خرج عن السيطرة.

كان اللورد بونسونبي قد كتب إلى ديفيد سراً لتوكيد ذلك

"مع أن الحرب مع روسيا لا بد وأن تكون النتيجة لذلك العمل، إلا أنه لا يمكن تجنبها بنفس المقدار إذا لم تنقذ من "قبلهما" (إنجلترا وفرنسا) وتترك لارتكاب جرائم طموحات روسيا.." وعليه، فإن كل ما أراد أوركهارت أن يفعله، هو توفير التبرير لهذه الحادثة التي طال انتظارها: هذه المنازلة مع روسيا.

في الأثناء، كان بيل مستمراً في ثرثرته المرحة "كل ذلك طيب وجيد يا أوركهارت، لكن اهتماماتي عملية كلياً. أريد سفينة. نحن بحاجة إلى استئجار سفينة. دعنا نمضي في هذا الأمر".

فكر أوركهارت، أن بيل هو الرجل المثالي لهذه المهمة.

فهو رجل مرح الطباع، تاجر ورحالة مستنير، يعمل ما بوسعه لأن يكون فعالاً ومؤثراً عندما يشاهد الظلم، ولا يتركه يمر بدون مساءلة". كان هو وشقيقه الأكبر رجلي أعمال: يؤمنان بأن التجارة الحرة هي أفضل السبل لنشر الديمقراطية – إن التجارة الحرة تضمن الحرية السياسية. لتحقيق تلك الغاية، فقد أسس جورج وجيمس بيل مؤسسة تجارية في القسطنطينية، ونجحا في القيام

بكمية محترمة من المتاجرة مع الأبخازيين والشراكسة عبر البحر الأسود خلال السنوات القليلة الماضية. ولكن مؤخراً، فقد بدأ الحصار الروسي يؤثر على هذه التجارة. كل ذلك تحت مسمى "حماية" تركيا العجوز الضعيفة.

ينحدر جيمس بيل من تلك الطبقة من رجال الإنجليز، حملة الكأس المقدسة، الذين يعتقدون أن لديهم إلماماً بأساليب عمل الحكومات الصالحة، الإدارة العادلة، (قواعد اللعب المنصف) وبأنه من واجبه أن ينقل هذه المفاهيم إلى كل شخص يبدو عليه الاستعداد لتقبل هذه المعتقدات أو هو بحاجة إليها.

ربما أثرت حقيقة كون أم جيمس بيل بولندية المولد تشكيل طريقة تفكيره. لقد حارب البولنديون الروس عشرات السنين حفاظاً على استقلالهم: لقد شهد موطن أمه ثورة عارمة كبيرة قبل خمس سنوات. من خلال علاقات متعددة مختلفة، ومن خلال مزايا طبقته الاجتماعية، تم تقديم بيل إلى الفايكونت بالمرستون، وزير خارجية ملك إنجلترا الذي كان بدوره لديه اهتمامه الشخصي القوي الخاص بالشؤون البولندية وأعجب هذا بالتاجر المغامر الشاب. لذلك وافق بسرعة على تزويد جيمس ستانيسلاوس بيل بخطابات تقديم إلى سفيره لدى الباب العالي، وطبعاً، إلى قائد مجتمع الناطقين باللغة التركية في المدينة: ديفيد أوركهارت.

رفع جيمس بيل نظرة عن صحيفة. "لا بأس عليك يا ديفيد، أنت لست مضطراً إلى الإمساك بيدي لإرشادي، كما تعلم".

قال أوركهارت بهدوء "هل أنت واثق تماماً من أنك ستمضي قدماً بهذا الأمر؟"

وهو مدرك تماماً لحقيقة كونه يسيطر على جيمس كأنما بفعل تعويذة سحر.

"أنت تعرف أن لدي موافقة الملك الشخصية على هذه المغامرة.."

"طبعاً أعرف! وأخي يساندني بالكامل! وذلك يعني لي أكثر حتى من وليام الرابع، أنا واثق! لقد استطاع أن يجمع بضعة مئات أضافية وقد سبق له أن قام بتجهيز المركب "فيكسين" ذي الشراعين. سوف أستبقه من هنا بمركب أصغر وأجري التحضيرات اللازمة لوصول المركب إلى سوخوم كاله. بإمكاني أن آخذ معي جزءاً صغيراً من بضاعتنا". حتى أبدأ في إجراء بعض الصفقات.."

"حسناً، تذكر ذلك وأبقه سراً وإلا فإن الأتراك الذين نتصل بهم سيضاعفون سعرهم مقابل أخذك إلى هناك بكل تأكيد:

سحب أوركهارت ساعة جيبه "لقد حان وقت ذهابي. لن يبدو الأمر نافعاً لو رآني أحد معك هنا في هذا الموعد..."

"إلى اللقاء أيها الصديق القديم. سوف أحضر لتقديم تقريري بمجرد أن تستقر الأوضاع".

تمشى أوركهارت مبتعداً، وشعر جيمس بيل، الممتلئ بالأمل والجرأة، بعصبية مفاجئة شديدة. كان ينتظر ليقابل وسيطين شركسيين رتب أوركهارت لقاءه بهما. شعر أنه جاسوس إلى حد ملفت للانتباه.. لكنه لم يكن شخصاً من هذا القبيل. فقد كان مجرد تاجر...

كان الوجود البحري الروسي فوضوياً إلى حد بعيد: فقد كانت السفن التركية من موانئ سينوب، جالاتا، وأماكن أخرى تخترق الحصار بانتظام. وكانت شركة بيل التجارية قد قامت برحلات تجارية عديدة على نطاق صغير قبل هذا الوقت. من بين القفقاسيين الغربيين، كان شراكسة الكوبان يحصلون على لوازمهم من هذه التجارة السرية إلى درجة أنهم كانوا قادرين فعلاً على مقاطعة التجارة الروسية على حدودهم.

كره بيل، وهو في حالة نفسية بيرونية، أن يرى القبائل القفقاسية النبيلة المستقلة وقد أجبرت على الوصول إلى حالة

الضياع. كان يمتلك عقلية تاجر داهية فاستطاع أن يخمن أسباب بالمرستون الكبرى التي تجعله يرغب في إبقاء موانئ البحر الأسود على الشاطئ الشرقي مفتوحة – وقد دعم ديفيد أوركهارت انطباعاته الخاصة حتماً، بأن هنالك إمكانيات هائلة في الأسواق التركية والقفقاسية – فقط إذا كانت متحررة من تأثير روسيا المتجبر. شكلت الموانئ الشركسية حلقة وصل مهمة في سلسلة التبادلات الممتدة من الشمال وحتى الشرق الأوسط. وعليه فلا يصح أن يسمح لروسيا بأن تسيطر على هذه الطرق. بصريح العبارة وعلى أسوأ الاحتمالات، لا أحد يريد أن تكون روسيا قوية إلى درجة تمكنها من الاعتداء على "دائرة النفوذ" العظيمة التابعة لإنجلترا: الهند.

نهض بيل واقفاً وتمشى باتجاه الرصيف حيث تعرف على رجل طويل القامة بين الجموع المحتشدة، يرتدي الحرائر الفخمة وعلى رأسه عمامة تشير إلى أنه "حجي". التقت عيناهما في تعرُّف مكتوم: هز "الحجي" رأسه بالموافقة على لباس السيد بيل الغربي: فقد كان يحب التأكيد السامي للرجل الإنجليزي بأن له كامل الحق في أن يرتحل إلى أي مكان. لقد كانت حماية ملكية "الإنجليز قرال" حتماً واسعة النفوذ.

أشار "الحجي" وهو إمام أو رجل دين تركي، إلى شخص آخر حتى هذه اللحظة متكئاً بشكل مريح إلى جدار مؤسسة لشحن الخمور. هذا الرجل، الذي يرتدي ملابس الجبليين الكاملة، هو "الحجي" سلطان أوغلو.

التقى الرجال الثلاثة إلى جانب الرصيف البحري بقرب مركب صغير، كايك بوسفوري بمقدمة ومؤخرة مرتفعتين – مركبة شحن من النوع الذي يحتاجه بيل.

باستطاعة أي شخص بعينين تبصران أن يعرف ما يفعله شركسي يرتدي ملابس إمام، وشركسي يحمل ملامح ومظهر

المقاتلين ورجل إنجليزي متشوق بمثل هذا القارب: لا شيء ضمن مصالح روسيا، حتماً. ولكن لو سئل المستر بيل، فهو حتماً يأمل في كتابة حكاية رحالة عن السنة التي قضاها في بلاد الشراكسة.

اصطحب قبطان السفينة، وهو رجل قذر الهيئة يصلح شكله لأي كتاب مصورً عن مغامرات السندباد، إلى العنبر الذي هو عبارة عن مساحة مزدحمة ممتلئة بالمؤن، صناديق البضائع المجففة والمواد التموينية الأخرى.

قال القبطان بلهجة تركية غير مؤدبة "اجلسوا، سنتحدث، سيحضر خادمي الشاي".

نفض بيل المتأنق الصعب الإرضاء كرسيه بمنديل كتاني ثمين قبل أن يتخذ مجلسه عليه. قدَّم الشاي الحلو المتوفر في كل الأمكنة وكل الأوقات في كاسات دبقة من قبل بحار بائس كثير الندوب.

قال بيل، وهو يسرح شعره البني الحريري الناعم إلى الخلف بيده "والآن يا رجلي الطيب، لقد اتفقنا على شروط استئجار سفينتك إلى الشاطئ الشركسي. أعتقد أن ما يتبقى علينا عمله هو الاتفاق على كلفة الحمولة – ونوع الحمولة التي يجب أخذها؟"

دارت عينا القبطان الجامدتان في محجريهما من شدة اهتمامه "أنت وافقت على سعري. أنت تدفع خمسة آلاف قرش. نحن نبحر بسهولة – بسرعة. لدي هنا مئتي كيلو جرام من الملح. خمسة قروش للكيلو الواحد. لدي هنا قماش خام. نوعية جيدة. قمصان. عندي "الودجا- جيد أيضاً- قطن جيد جداً لنساء الشركس- ماذا تريد أن تأخذ غير ذلك، مستر؟" تكلم بيل بالإنجليزية إلى "الحجي" أحمد، الذي يوحي قفطانه الحريري النظيف وعمامته البيضاء الرائعة بدراية تجارية أعمق بكثير من الأسمال المبقعة بالنبيذ التي يرتديها القبطان.

"قل له بأننا سنأخذ كل ما لديه في العنبر بشرط أن توافق على أنها بضائع تستحق المتاجرة بها، ولكن هل هناك متسع متروك لما

احضرته أنا البارحة – ماذا تقول، يا "حجي" أحمد؟" دحرج الحاج احمد حجارة مسبحتّه في يده اليمنى ببطء. فقد كانت لديه وسائله المفضلة في الاتصال هو الآخر. فمع أنه فهم ما قاله السيد بيل، إلا أنه اختار أن يرد عليه باللغة الشركسية من خلال مواطنه. "أخبر صديقك... أربعة قروش تكفي لكل كيلو من الملح. سوف نتفاوض مع القبطان على البضائع الباقية نيابة عنه. كذلك يجب إبقاء موضوع ملح البارود والرصاص سراً بين ثلاثتنا، خوفاً من الجواسيس الروس. كذلك يجب التحميل في الليل، قبيل الإبحار مباشرة. أنا لا أثق بهذا القبطان الكلب. كل ما قلت معرفته كان ذلك أفضل".

هزَّ سلطان أوغلو رأسه موافقاً ونقل هذه الخطط بلغة إنجليزية بسيطة واضحة إلى جيمس بيل. أصاخ القبطان السمع بجهد واضح في محاولة للإمساك بأية معلومة مفيدة، لكنه لم يستطع إلا أن يعبس عند سماعه النبرات الأوروبية المحملة بالأنفاس.

***

الفصل الثالث
1837

"من شامل، تاشوف حاجي، كيبيت ماهوما، عبد الرحمن الكراخي، محمد عمر أوغلي، والرجال الآخرين الشرفاء العلماء من الداغستان. لقد قمنا بتسليم رهائن إلى محمد ميرزاخان، وبذلك أقمنا سلاماً مع الإمبراطور الروسي لن يخرقه أحد منا، بشرط، على كل حال، أن لا يقوم أي جانب بأية إساءة مهما صغرت إلى الآخر. إذا أخل أي جانب بوعوده فإن ذلك سيعتبر عملاً خيانياً، وتحل اللعنة على الخونة أمام الله والناس.."

هذه الكلمات، المكتوبة مؤخراً والمرسلة إلى الجنرال فيسي، قائد الحملات الروسية لهذا العام، ترددت أصداؤها في ذهن الإمام شامل بينما كان واقفاً إلى جانب تلة كئيبة وينظر إلى الأسفل، نحو خرائب أشيلتا.

الخطوط العميقة تملأ وجهه، الذي يملأه الحزن. كان جسمه القوي الحيوي مليئاً بالندوب من العديد من المعارك. ومع ذلك، فقد أصبح شامل بالنسبة لنفسه ولأتباعه، قريباً من الخلود. فمنذ هروبه المعجزة من حصار جيمري، أصبح يؤمن بطيبة ربه بلا قيد أو شرط.

لقد صعد إلى مرتبة الإمام بعد أن ذبح سلفه حمزاد بيج عام 1834، ومنذ ذلك الحين استطاع أن ينشر القضية المريدية عبر بلاد الآفار، الداغستان، وبلاد الشيشان.

لقد تمكن من تحقيق هذا الإنجاز لأنه قاتل والحق إلى جانبه، ولذلك بات يؤمن أنه في مأمن من الموت إلى أن يكتمل "الجهاد".

مما جعله أكثر جرأة، ودهاء، وجاذبية شخصية، وحقوداً لا يعرف الصفح. منذ تسنمه المرتبة، والذي حدث في نفس مسجد هذه القرية أشيلتا نفسها – لم تعد مئذنته قائمة ومرئية، بل نسفت إلى أشلاء – ولمدة ثلاث سنوات، قام بشن الحروب وإشعال الحرائق على امتداد الإقليم الشرقي كله. لقد كانت حملته الصيفية الأخيرة هذه عديمة الرحمة – ولكنها أشد قسوة على الروس من قسوتها عليه وعلى قواته المريدية.

أصبح معقله الحصين في أخولجو خرائب، وكذلك القرى الجبلية البريئة تيليتل واشيلتا – سويت جميعها بالأرض بنيران المدفعية والبنادق ثم تضمخت بالدماء من جراء القتال بالأيدي والسيوف. في المنطقة الواقعة تحته، أحرقت حقول الذرة اليانعة حتى اسودت، وديست الكروم بالأرجل وسنابك الخيول، اقتلعت الأشجار، وأحيلت أبراج مساكن الجبليين الحجرية إلى ركام بواسطة المدفعية الروسية المتفوقة.

لكن قوة الجنرال الروسي أصبحت في حالة من الفوضى الشاملة. فقد خسر ستة وعشرين ضابطاً، وألف رجل. كانت الخسائر في الخيول هائلة هي الأخرى، وحتى الجنود الذين نجوا من الموت كانوا يجرون أنفسهم بصعوبة وهم يغادرون الجبال، لابسين الأسمال وبدون ذخيرة، إلى موقع أكثر أماناً عند سفوح التلال. كانت العربات لديهم قليلة – لأن كل ما كان لديهم منها. قد تم "تحريره" من قبل القرويين مع استمرار القتال.

ما الذي تم تحقيقه؟ سمح شامل لنفسه بابتسامة مريرة، واستدار نحو مساعديه من المريدين – الدعاة لعقيدته. التقت عيناه بعيني أصلان جيراي في الصف الأول. كان هو الآخر يدرك ما يعنيه أن يفقد المر مملكة، أن يرى الحقول والحدائق التي كانت خصيبة مثمرة يوماً ما وقد أحيلت إلى خرائب يتصاعد منها الدخان.

"يبرهن الجنرال فيسي على أنه غبي لقبولـــه رسائلي. إنه يعترف بسلطتي. أما بالنسبة لمعاهدة السلام: فإنها لا تساوي قيمة الورق الذي كتبت عليه. أنا لم أقسم على شيء. إضافة إلى ذلك، فإنهم بالكاد يبدون بمظهر الأبطال الفاتحين..".

أشار برمحه إلى آخر الروس، وهو يمشي بعرج ظاهر عبر الوادي في المدى البعيد. "لقد أجبرتهم على الانسحاب. إن النصر لي".

حدَّق الدعاة المريدون غير مصدقين. رفع شامل رأسه الضخم الملتحي وأسرتهم عيناه فيما يشبه الغيبوبة السحرية مرة أخرى. "لم تقترف كل هذه الفظائع انتقاماً لأعمالي – فأنا لم أرتكب أية جريمة في حق "الجاور". لقد شننت هذه الحملة بدافع الخوف مما سأفعله، في المستقبل!" انطلقت صرخة، تجاوبت أصداؤها في جنبات الجبال الصخرية الرمادية للداغستان. خفقت أعلام المريدين السوداء مهددة بالخطر. ترددت أصداء الصرخة بدون تعب ولا كلل، وارتدت ذبذبات كلمات شامل من صخرة إلى الأخرى حتى دخلت واستقرت في قلوب وعقول كل فرد من شعبه. لقد خلَّف الروس وراءهم تركة بغيضة من الكراهية سوف يستفيد شامل منها لسنوات قادمة.

لذلك لم يكن مستغرباً أن يصدر شامل الأمر بإعادة بناء معقله الحصين، أخولجو، بعد أسابيع قليلة، بحيث يصبح أكثر منعة حتى مما كان عليه قبلاً. حفرت الخنادق، بنيت المتاريس المرتجلة حتى ارتفاع الصدر، أقيمت المتاريس العالية، أكواخ الحماية، أبراج الاستطلاع، الثكنات – وإذا دعت الحاجة في أمكنة منسوفة من الصخور الصلدة. عرف أن الروس سوف يعلمون عن أنشطته. ولم يبال. عرف أن القيصر نيكولاس قد قرر القيام بجولة انتصار في أملاكه الجنوبية، وأن الغبي فيسي قد وعد بأن ينزل شامل المهزوم من معقله الجبلي ويخضع راكعاً على ركبة مطوية – ويشكل بذلك لوحة صغيرة يختتم بها جولة القيصر بنجاح. لم يكن يهتم.

كان يعرف كل شيء: فهو لديه نظام من العدائين يسافرون في طول مملكته وعرضها. ولم يحدث شيء بدون معرفته به خلال ساعات. عوقب اللصوص بقطع أيديهم: وعوقب الزناة بالموت: والمرتدون عن الإيمان بالتعذيب.

لقد كان أداة الله سبحانه وتعالى. وسوف يقوم بتدمير الكفار.

عندما وصلت الدعوة إلى محادثات مع القيادة الروسية العليا بعد بضعة أيامٍ، حوصر شامل على الفور بمستشاريه، "المرشدين والحجاج"، يدعونه إلى عدم الانحناء إلى حد الحضور. اتسعت ابتسامته وأصبحت أكثر بهجة وإشراقاً، وانتظمت طقطقات مسبحته أثناء إعطائه الجواب.

"سوف أذهب. ولكن إلى المكان الذي أحدده بنفسي، وليس إلى المكان المحدد من قبل الكفار".

لم يحضر الجنرال فيسي بنفسه، فقد نال كفايته من الداغستان فأسرع بالاتجاه جنوباً.

عين بدلاً منه محارباً قديماً خبيراً بالعديد من حملات فيليامينوف، هو الجنرال العجوز كلوج فون كلوجيناو. كان هو الذي حاصر بلدة جيمري قبل ثلاث سنوات، ضارباً بسيفه خلال قوة المريدين القليلة العدد بالنسبة إلى قواته، وقد أمسك بسيجار بقوة في فمه. كان هو الذي حاصر حمزاد بيج عند ممر إيربيلي... وهو ما ظهر لاحقاً أنه الإجراء الحاسم في هجوم جيمري.

كان كلوجيناو رجلاً شريفاً. التزم بتعليمات شامل وحضر في البقعة المحددة، وهي شريط من الأرض المحروثة يرتفع فوق جدول سولاك، الذي يسيل في هذا الموقع بين صخرتين شاهقتين من الجرانيت الأسود. وقف على حافة ضيقة إلى جانب الماء هيكل شامل المتلفع بالسواد. كانت الصخور ملأى بالمريدين، الذين ينشدون صلوات من القرآن الكريم بأصوات حزينة ويلوحون عالياً رايات وحداتهم العسكرية وأعلامهم المثلثة. وقد زاد من حدة

أصواتهم ضيق الشق الصخري وارتفاعه وعمقه العمودي الذي يسبب الدوار.

ظهر كلوج فون كلوجيناو مع جنرال مرافق، هو يفدوكيموف، وخمسة عشر خيالاً مرافقاً من قوزاق الدون بالإضافة إلى عشرة من مواطني قرية كاراناي.

انتظر شامل على صهوة حصانه الأسود حتى اتخذ كلوجيناو موقعه تمهيداً للتفاوض. قام أصلان جيراي بمساعدته في الترجل، بسط "بوركا" على الأرض الصلدة واتخذ موقعه كحارس مع اثنين آخرين من "المرشدين" بينما جلس شامل والجنرال الروسي متقابلين وجهاً لوجه.

تقرر أن يقوم أصلان جيراي بدور المترجم لشامل.

لم يكن هذا الناجي من العائلة القرمية الملكية يفكر بشيء إلا الدقة والكمال للغته الروسية. فقد كانت الحجج والذرائع بين الفريقين جدية ومليئة بالشغف العاطفي: مطالب ومطالب مضادة سمعتها جبال الكافكاز وتدربت عليها مرات تفوق العد... كانت المفاوضات شاقة، وتستغرق ساعات عديدة، لكن الذرائع والحجج لم تتغير مطلقاً.

من المحتمل أن كلوجيناو، الضخم الجثة، السريع الغضب، ذو السوالف والندوب، كان في وضع غير مناسب. لأن إحساسه بالشرف يمنعه من التدخين وذلك يؤثر في أعصابه. إضافة إلى أنه لم يكن مرتاحاً لكون ساقيه مطويتين تحته. فهو يعرج في إحدى قدميه – إذ نجا من معركة أخرى ضد سلف شامل العديم المبادئ، حمزاد بيج.

جلس شامل مثل تمثال حجري، هادئاً، بارد الأعصاب، قاسياً. "لن أوفر أي مشهد لقيصرك الزائر ولا تحت أي اعتبار. ليست هناك حجة في الدنيا تجبرني على النزول من الجبال والذهاب إلى تيفليس. ولن استسلم أيضاً أبداً: ربما تسحبون مدافعكم في كل موسم

قتال أيها "الجاور" إلى الجبال، تقصفون تحصيناتي، وتشتتون شعبي. ولكنكم بذلك ستخسرون الوقت، المال، والطاقة والرجال، وسوف تستقيل أنت وتنسحبون". سيقوم المريديون بإعادة البناء بكل بساطة. سيقوم شامل بفرض الضرائب على "رعاياه" المخلصين (أو ربما غير المخلصين ولكن المذعورين) وتستمر الحرب إلى الأبد.

"سوف نقوم ببساطة بشد وثاق الأنشوطة حول رقابكم. سنجوعكم، نذبحكم، نخسف أعدادكم..." أعترض كلوج فون كلوجيناو. "يجب أن تستسلم. يجب أن تصغي إلى شروطنا، وتتعلم أن تعيش تحت حكمنا بسلام".

همس شامل بغمغمة تكاد لا تسمع ولكنها كافية لأن تشل العمود الفقري "لقد تأثرت بعمق بإخلاصك، أيها الجنرال". بعد لأي توصل إلى كلماته الافتتاحية. ارتفعت نبرات أصلان جيراي الطليقة عند نغماته الرفيعة وانخفضت عند النغمات الرخيمة. "أنا مدرك للشرف الذي تسبغه علي بالسفر إلى هذه المسافة وهذا البعد حتى تعبر لي عن رغباتك. ولكنني لا أستطيع أن أعطي أي جواب بدون التشاور مع حلفائي".

فهم كلو جيناو الإهانة كما كانت مقصودة: لم يكن لدى شامل أي "حلفاء": فقد كان هو القائد المطلق، القانون. الشخص الذي ينطق بالفتوى.

نهض كلو جيناو واقفاً على قدميه بصعوبة بالغة. لقد استغرق التفاوض النهار كله: نظر إلى الأعلى ليشاهد الشمس التي بدأت تضعف وتتحول إلى الرطوبة بحيث لا تكاد تقوى على اختراق النتوءات في الصخر. لم يملك إلا أن يتأثر رغماً عنه إلى حد الرعب من الطاقة المتعصبة لهذا المقاتل العظيم. مدَّ يده ليصافح يد القائد الأعلى للمريدين، مدركاً أنه أصبح جزءاً من التاريخ، بصرف النظر عن ما سيتمخض عنه هذا اللقاء. كانت تلك بادرة من جندي محترف.

لكن سورخاي خان، الواقف حارساً لشامل، وأحد أكثر المريدين إخلاصاً، رأى في تلك البادرة إهانة، قبض المقاتل على اليد الممدودة، وهو يطلق الاتهامات، وامتدت يده الأخرى نحو "القاما"

قفز أصلان إلى الأمام ليسحب سورخاي خان إلى الخلف، وحاول أن يشرح الهجوم المجنون للمريد لفون كلو جيناو "كيف تجرؤ على أن تلمس جسم قائدنا؟ قائد المؤمنين؟ هذا إلحاد!"

وصل الغضب العارم بفون كلو جيناو إلى حد أنه كاد ينفجر. تراجع إلى الخلف متعثراً هو الآخر لأن قدمه كانت تنبض وكأن مليوناً من الدبابيس قد انغرزت فيها. مما جعله يفقد السيطرة: رفع عكازته وصوبها باتجاه عمامة سورخاي خان وكاد أن يخلعها عن رأسه.

لقد كان من المغضب والمعيب أن تكشف رأس مؤمن.

لم تحط عصا الجنرال مطلقاً. فقد اعترضت الضربة يد حديدية عظيمة القوة، نفضت ذراعه، وألقته إلى الخلف وهو يدور على كعبيه. كان ذلك هو شامل الذي نزع فتيل الأزمة. لم تكن هناك حاجة إلىمترجم، فإن أوامر شامل ذات النبرة الأبح واجبه الطاعة على المؤمن والكافر على حد سواء.

أمر الروسي بقولـــه "أخرج من هنا! قبل أن تذبحوا جميعكم، وأنتم أيها المريدون امتنعوا عن إطلاق النار! وإلا فعقوبة المخالف هي الموت، لا يرفعن رجل منكم سلاحه أو يوجهه!".

كاد كلوجيناو أن يصاب بسكتة دماغية لشدة اهتياجه وبدا أنه سيلقي بجسمه باتجاه غريمه. هجم اثنان من القوزاق اللذين خشيا من وقوع مذبحة على الجنرال، مدفوعين بغرائزهم البحتة. صارع فون كلو جيناو للتخلص من قبضتيهما، وهو يطلق وابلاً من الشتائم "حشرات طفيلية، حثالة! رعاع! كفرة! قتلة! مجرمون! سوف أقتلكم حتى آخر رجل فيكم! سوف أشن عليكم الحرب حتى لا تبقى عينة

واحدة من جنسكم المنحط لتوسخ هذه الكرة الأرضية! أقسم بكل ما هو مقدس – أقسم باسم القيصر- بروسيا الأم – يا تجار العبيد القذرين، سوف أدمركم جميعا!".

جاء يفدوكيموف وخاض في الماء: أمسك بالجنرال بقوة وساعد القوزاقيين في رفعه إلى ظهر جواده.

زمجر صائحاً "اتركوني! سأغادر هذا المكان في الوقت الذي أحدده بنفسي! ليقتلني أبناء الزنى هؤلاء أولاً – لن أسمح لأحد أن يطردني من هنا، وأقسم بالله إنني لن أسمح!".

دفع فون كلوجيناو بالجنرال يفدوكيموف بعيداً عنه. تعثر الجنرال المرافق. قفز أصلان جيراي لمساعدته، وأمسك به حتى ثبته.

"أخرج جنرالك هذا من هنا بأسرع ما تستطيع. هذه مهزلة مشينة. أنت تخاطر بالموت".

ألقى يفدوكيموف بنظرة مستغربة باتجاه أصلان جيراي. لم تكن نظرة غير ممتنة: ولم تكن ودية، ولكنها تخاطر برؤية الحقيقة كما يراها هو.

"اعتذر لقائدك. اعتذر، ولكن اجعله يصغي. هذه كارثة. لن يكون هناك أي إظهار للرحمة، وسوف يعاني العديد جداً من الناس بسبب هذا الإخفاق".

سمعه أصلان جيراي ولكنه لم يحر جوابا.

رفع يفدوكيموف نفسه إلى سرجه "نحن لن نتخلى عن هذا الواجب، لن نتوقف عن المجيء. أنت لا تدرك مدى ما تفعله".

بعد ذلك، رسم يفدوكيموف إشارة الصليب على نفسه بأبسط الحركات، ثم قاد الركب خارجاً من الشق الصخري. تبعه القوزاق في صمت. راقبهم فون كلوجيناو من صهوة سرجه، مغيظاً، وكأنما

يراقب عرضاً عسكرياً احتفالياً عملاقاً أثناء مروره. كان آخر من يغادر، وتحرك مغادراً ببطء متعمد، يقصد به الإهانة.

***

أصبح مصدر الفرح الوحيد في حياة أحمد المترمل، هو وجود ناخو، ابن حفيده. كان أحمد سيستمتع بقد رمن العرفان بالسلام النسبي الذي ما زال القباردي يستمتعون به. لكنه، مثل مراد – سمع أكثر مما يجب بقصص الثورة والعصيان على جانبي وطنهما – فقد دأب شامل، إمام الداغستان على شن حملة مستمرة لا تعرف المهادنة ضد الروس من موطنه الجبلي وكان يظهر عليه أحياناً أنه سيجبر القبارديين على الدخول في المعترك. وفي الغرب، بمستوى تأثير أعمق على أحمد، فقد كسب الوبيخ، البزادوغ والشابسوغ انتصارات هامة في الأشهر القليلة الماضية. رجعت أخبار مساهمات كازبك في هذه الانتصارات إلى أحمد عن طريق التجار المسافرين، الشعراء المغنون الجوالون، والهمسات الموصلة إليه شخصياً من خلال اتصالاته الشخصية. لقد أصبح كازبك شهيداً، بطلاً عسكرياً، ومخططاً تكتيكياً ألمعياً.

كانت تلك قصص بعيدة بالنسبة لأحمد، تملأه بأحاسيس متضادة متعاكسة. فقد كان عجوزاً إلى الحد الذي يرغب فيه بالملذات البسيطة المأمونة، ولكن ناخو جعله يستمر في الحياة فعلياً.

هنالك حدّة لاذعة في صحبة الصغار بالنسبة للطاعنين في السن: فإن انبهار الطفل في وجه الخليقة، تطلعاته اليومية المتغيرة، تفعل أكثر من تسلية شخص محزون ساخر عجوز. إن الطاقة نفسها الكامنة في ذلك الانبهار، ذلك السعي الحثيث إلى كل ما هو مستجد، يفتح مساحة لحب جديد عند المسنين – نوع بسيط من المحبة خالٍ من التحفظ الشخصي، أعزاز أكثر نقاءً. جائزته الوحيدة هي في جعل الشخص الحزين الحكيم يتذكر الأشياء المستحبة في الحياة، بعد أن يكون أملهم الخاص بتلك الملذات قد

ولى منذ زمن بعيد. إنها المزية التي يتمتع بها أولئك الذين جربوا حباً عظيماً لنفسهم: أن يحبهم الآخر ويبادلونه ذلك الحب بعمق. يصبح الوصول إلى اهتمام وحدب ليست لديه رغبة في العوض المقابل، سهلاً بعد ذلك. هذا ما كان موجوداً لدى أحمد في هذا الوقت.

فوجئ بأن هذه العاطفة تعمقت في روحه إلى أبعاد سحيقة وكأنما ذهبت كل العواطف الأخرى في حياته إلى حالة التعليق المؤقت وتركته ليتفرغ لهذه وحدها. مجرد مراقبة ناخو وهو يكبر وتمني الخير له يومياً، كان كافياً لجعله يشعر بالقناعة.

كان أحمد مستلقياً يستريح فوق سرير مفروش بجلد الخراف على شرفة بيته، بينما ناخو يلعب مع جروه السلوقي في الساحة الواقعة تحته ببضع درجات. صبي قوي البنية في الرابعة من عمره، كان بإمكانه أن يركب الخيل بإجادة، يطلق السهام من القوس باتجاه سليم، ويتصيد مثل صبي في ضعفي سني عمره.

في الساحة الأمامية، كان أنور، الذي تركت إدارة مزرعة الاستيلاد تحت إشرافه لوحده كليا، يرحب برجلين قبارديين يعرفهما جيداً – وبالتأكيد، فإن أباه سيتذكر هو الآخر. فقد كان أحمد ضعيفاً في جسده فقط، وليس في عقله، برغم سنوات عمره الثمانين: وبمجرد أن تم اصطحاب الزائرين إليه، تعرف على ناورز، شقيق ستناي.

قام أنور بواجب المجاملات "أنت تعرف أنسوقه ناورز، يا أبي، وصديقه هذا هو شامرزا عمر. لقد حضرا للاطمئنان على صحتك..".

تحمس أحمد وانفعل "شامرزا! لا بد إذن وأنك ابن شوكت؟" تذكر بوضوح كيف جامله الأخوان شامرزا بالسفر إلى التشيجيم لطلب العروس لكازبك، عندما رغب في الزواج من نورسان، قبل سنوات وسنوات، كان ذلك.....

كان شامرزا عمر شاباً قوي البنية في ثلاثينات عمره، له ملامح بارزة وبشرة داكنة، عالي التهذيب، يتعامل بالرسميات، ومع ذلك فهو سهل في التواصل.

قال عمر "نعم يا "تحمادا". وإن أبي يرسل لك تحياته وكان سيحضر معنا في هذا اليوم لكن ساقاه لا تحملانه لمسافات طويلة هذه الأيام..".

عبس أحمد في بادرة تعاطف. بقي أنور واقفاً خلف أبيه، ليخدمه إذا لزم الأمر. لقد تعود على دوره كمدير لمزرعة الاستيلاد رغم أن ذلك لم يكن ما توقعه على الإطلاق. فقد كانت لديه مرة أحلام في أن يصبح ثائراً ومحرضاً على الثورة، وأن يركب مع الشيشان – لكن الله سبحانه وتعالى لديه خطط عديدة، وليست كلها سهلة على التوقعات.

تكلم أنسوقه ناورز ببلاغة، وبقدر أكبر من التحفظ فأدرك أحمد وقتها أن هذه أكثر من زيارة مجاملات. "أنا أيضاً أحمل إليك تحيات من أبي، يا "تحمادا". فكيف حالك؟" ظهرت على أحمد دهشة آنية "كيف حالي؟" ابتسم له "أنا عجوز، هذا هو حالي. لا أستطيع أنا الآخر أن أمشي مسافة طويلة. هذه هي الحقيقة. لقد بعث لأبيك شامرزا بضعة جياد رائعة، قبل سنوات طويلة. هل تحتفظون بالخيول، أيها الصبي؟".

ابتسم عمر في رضى، فهو لم يعد صبياً على الإطلاق، بل هو مزارع ناجح "نعم يا "تحمادا". لا زالت لدينا" قال بمحبة واحترام ظاهرين.

شعر أحمد بالسرور "أحضر بعض الشاي لضيوفنا يا أنور، أهلاً بكما أيها الصبيان، أهلاً بكما".

مال أنسوقه ناورز إلى الأمام بشكل غريزي مدركاً أن سمع أحمد ليس على ما كان عليه سابقاً " يا "تحمادا"، أنت وباقي كبارنا

مصدر بركتنا وقوتنا – منحك الله العديد من السنوات القادمة لتستمتع بأحفادك".

استقبل أحمد هذه المجاملة الحسنة التعبير بابتسامة عريضة أخرى "أنه ولد رائع، أليس كذلك؟" قال بكبرياء، وهو يراقب ألعاب ناخو مع الكلب وكأنما قد سحبت الدنيا كلها باتجاه هذه البوصلة الضيقة.

كان ناخو طويل الجسم بالنسبة لسنه، نحيلاً ذا شعر أشقر كثيف مثل أبيه إمام، لكن وجهه ذا الملامح الراقية تميز بعينين باللونين الأزرق الضارب إلى الخضرة تحملان صراحة ساحرة.

ران عليهم الصمت. فقد كان لدى أنسوقه ناورز أمر أكثر أهمية ليوصله، بالإضافة إلى النيات الحسنة، وبات أحمد يعجب متى سيتطرق إليه. نظر باتجاه الباب بانتظار عودة أنور، ولكن لسبب ما يعرفه أنور أكثر من غيره، فقد اختار أن يغيب نفسه لمدة أطول قليلاً خلال هذا الحوار. نادى بصوت لطيف "ناخو، اذهب وابحث عن عمك" وركض ناخو مبتعداً، سعيداً بأن يعهد إليه بمهمة.

سأل ناورز فجأة " "تحمادا"، هل لديك أية أخبار عن كازبك؟".

لم يجب أحمد على الفور. لأن ذكر اسم كازبك يستثير ذكريات حية نابضة من حياته هو كمقاتل، مع مراد والشيشان: الغارات، الهجوم على كيزليار، ذلك الأعز من العزيز الأخ حمزات... تنهد "آه، كازبك، إنه مقاتل... يريد أن يبقى كذلك. كما كنت أنا في شبابي. نعم نحن نسمع أخباراً عنه بشكل متقطع. هو في بلاد الشابسوغ، في الجبال. إنه بخير في حدود معرفتي..."

تململ ناورز، راغباً في عودة أنور، ولكنه لم يستطع أن يتطرق إلى موضوع حساس بدون حضوره لأنه يتوجب عليه أن يوافق على طلبهما لأن ذلك من حقه.

لحسن الحظ عاد أنور إلى الظهور حاملاً الشاي، فانطلق ناورز في الحديث من فوره.

" "تحمادا"، لقد جئت إلى هنا لأحدثك في مسألة حساسة. فأنت الوجيه في هذه الأسرة. إننا نطلب رأيك ومباركتك – كنا نحب أن يسمعنا كازبك هو الآخر ولكن يبدو أن ذلك غير مقدر".

كان أنور مطلعاً على رغبات ناورز وابتسم بخبث باتجاه قريبه، وهو يشجعه.

استطرد ناورز بكلمات منتقاة بصعوبة بالغة "بما أن ناخو الصغير قد كبر بما يكفي لأن يذهب قريباً إلى "الأتالق"، فإننا نحن آل أنسوقه – وأنا أتكلم نيابة عن أبي– نطلب منك أن تعفي شقيقتي ستناي من التزاماتها تجاه عائلتك".

بات ناورز يأمل أن كلامه هذا لم يبد خالياً من الكياسة وألقى بنظرة باتجاه أنور مرة أخرى – فإن لأنور دور كحام لستناي بصفته شقيقاً لكازبك وتشكل موافقته دعماً لناورز في مطلبه.

"نحن نشعر أنها أدت التزاماتها تجاه ذكرى حفيدك رحمه الله. ونحن نطلب أن يسمح لها بالزواج من هذا الرجل، الحاضر هنا أمامك، ابن شامرزا".

شعر أحمد بالأسى لكنه انحنى أمام الأمر المحتوم "وماذا عن ستناي، هل هي راغبة في هذا الزواج؟" أطلق سؤاله بألفاظ خشنة.

لم يتردد ناورز في هذه المرة "نعم يا "تحمادا". إنها موافقة ولكن فقط إذا أنت سمحت به".

نظر أحمد إلى أنور، وهو يشعر بالقلق من أن تكون لديه اعتراضات، فقد كانت ستناي عضواً محبوباً بشدة من أسرتهم، وناخو متعلق بأمه. لكن أنور استمر في التحديق بعيني أبيه فأدرك أحمد انه يعتقد بأن لستناي الحق في حرية جديدة، حياة جديدة....

كان أحمد مدركاً بشكل عميق للتنازلات التي قدمها أنور ويحترم ابنه بعمق لأجلها.

قال "لقد ظلت عروستنا مثالية، نحن لا نستطيع أن نقف في وجهها إذا كان ذلك هو ما ترغب فيه. لكن يجب علي أن أسمع هذا الطلب من فمها. أنور، اذهب وادع ستناي للحضور إليَّ".

تمتم أحمد بصوت خفيض وكأنه يخاطب نفسه "كنت أفضل لو أن كازبك أصدر قراره في هذه المسألة بصفته والد الزوج، ولكن بما أن ذلك غير ممكن - سوف أعطيكما قراري... من غيركما يعلم بهذه النوايا؟"

أجاب ناورز بسرعة "وحده أنور والآن أنت يا "تحمادا"، ما كان بمقدورنا أن نتكلم في المسألة قبل أن تمنحنا مباركتك".

بات أحمد مسروراً من مراعاة ناورز "للخابزه". فذلك يجعل اتخاذ القرار أسهل.

دخلت ستناي، مرتدية ثوباً أزرق بسيطاً وغطاء رأس من الموسلين الأبيض. عندما شاهدت أخاها أضيئت عيناها من السعادة، ولكنها عندما أبصرت عمر، بدأ وجهها يحمر، فأدرك أحمد بقلب يعتصره الألم إنها ما تزال شابة صغيرة السن جداً، ينتظرها الحب، الشغف، والمسرات الأخرى حتى تعثر على التعبير الكامل لوجودها. حزن على إمام: كانا سيعيشان حياة رغيدة هانئة، لأن ستناي تمتلك قدراً من الطيبة والقوة لم تستطع المأساة أن تتغلب عليهما بالكامل.

وقفت ستناي، حسب ما يتطلبه مركزها أمام أحمد، مشيحة بعينيها عن الزائرين، ووهبته كامل انتباهها.

قال أحمد بدفء "أيتها "النِسَّا" العزيزة، يا ستناي الجميلة، لو أنني بوركت بابنة لي لكنت أردتها أن تكون كما أنت تماماً، يا جميلتي. هل تعرفين لماذا هذان الرجلان موجودان هنا؟".

رفعت ستناي بصرها وأبصرت فجأة انعكاساً لحب إمام في وجه أحمد العجوز المحب. نفس تلك الحدة المظلمة التي يمكن أن تتحول في بعض الأحيان إلى الحزن، والتي لم تعبر بالنسبة لها عن شيء سوى الحنان على الأغلب. امتلأت عيناها بالدموع. أمالت ذقنها في شموخ "نعم، يا "تحمادا"، أعرف".

أراد أحمد أن يتأكد. فإن الشباب يرسمون العديد من الخطط الكبرى... فقد كانت ستناي عزيزة على قلبه لذلك تصارع مع استقامته لينتقل إليها قوة تعلقه بها.

"هذا بيتك.. ولديك كل حقوق وامتيازات ابنة لي. لا أحد يستطيع أن يرغمك على مغادرتنا – ولا حتى عائلتك نفسها – هل تفهمين ذلك؟".

مدَّ يده بعفوية وأمسك بيدها. ركعت ستناي ولامست أصابعه الطويلة الناحلة بشفتيها. هزَّت رأسها موافقة غير راغبة في المخاطرة بالكلمات.

"يجب أن أعرف أنك ترغبين في المغادرة برغبتك واختيارك. يجب أن أسمع ذلك من فمك أنت".

ارتعدت ستناي، ورفَّت أهدابها لتطرد الدموع " يا "تحمادا"، لقد كنت بمثابة أب ثانٍ لي وعزيزاً علي مثل أبي، لم أوافق على الزواج مرة أخرى بسبب رغبتي في مغادرة هذا البيت..." ألقت بنظرة باتجاه عمر لتستمد منه الشجاعة على الاستمرار. "إنني صغيرة وأريد أن أنشئ عائلة أخرى، لقد عرفت شامرزا عمر منذ الطفولة. وما كنت لأستطيع أن أتزوج رجلاً غريباً!".

تفحص أحمد النظرات التي انطلقت جيئة وذهاباً بين الخطيبين. لم يكن هناك غياب للمحبة والألفة والاحترام المتبادل. واضح أن ستناي لم تكن "واقعة في حب" عمر كما كانت تحب إمام، لكنها تؤمن بقدرتها على حبه، وذلك حسب خبرة أحمد الطويلة أساس أفضل للزواج بكل الأحوال.

"أشكرك يا عزيزتي "النِسَّا". بإمكانك أن تذهبي.."

غادرت ستناي الشرفة مسرعة: لم تكن المقابلة سهلة على أي منهم.

شعر أحمد بقلبه ينخلع وهو يراقبها تتصرف. شعر بواجبه في حمايتها: أراد أن يعرف كيف ستكون حياتها بفضول إلى حد اليأس. "قل لي يا شامرزا عمر، ما هي خططك؟".

أراد عمر بدوره أن يخلق انطباعاً حسناً - وأكثر من ذلك، أراد أن يغادر هذا الرجل الشهير المحترم وقد استطاع أن يخفف قليلاً من قلقه.

" يا "تحمادا"، أولاً وقبل كل شيء، وأعني إذا منحتنا موافقتك، وعندما نحصل على مباركتك، بعدها طبعاً سوف نتزوج، ثم إن لدي خططاً للمغادرة إلى "استنبول".

جاء رد فعل أحمد قوياً. أصبح بإمكان عمر أن يرى بأن هذا التطور يفوق توقعات الرجل العجوز بقدر كبير، ولكن لأنه كان بدوره رجلاً قوي العزيمة وحذراً، فقد عرف أن بإمكانه أن يوحي بالثقة.

"لدي أقارب في تركيا، وقد وعدوني بمركز مرموق هناك. إن عمي يعمل في بلاط السلطان وهو صاحب نفوذ لدى الباب العالي. سوف يتم تأمين مستقبل طيب بالنسبة لي".

بالنسبة له شخصياً، فقد كره أحمد هذه الخطة. فقد ألقت رحلة حياته الكاملة مراسيها على تراب هذه الأمة. لكنه لم يشأ أن ينزعج أي من ستناي أو عمر بأية تحفظات من نياته الطيبة.

قال بترو" إن عملية مغادرة الشخص بيته، لأرضه وطريقة حياته هي محض غباء. أنا لست أوافق عليها، وهذا الأمر بالنسبة لي شخصياً طبعاً. لكنني أكبر سناً بكثير من أن أبدأ في إخبار

القبارديين ما يجب أن يفعلوه أو لا يفعلوه. لن أقف في طريقك يا عمر. بارك الله فيك".

غادر الرجلان وهما يشعران بانفراج وارتياح عظيمين، مظهرين أقصى درجات مراعاة الرسميات في الاستئذان بالمغادرة.

ظلت طريقة "الأديغه" في الحياة مهددة على الدوام، طيلة حياة أحمد. الصراعات الداخلية، القوزاق، الوباء، والآن هذا: التسلل الخفي للتأثيرات الأجنبية، التي تهدد قيم إنجازاته وإنجازات الكبار الآخرين. لأنه إذا فكر الكثير من أفضل الشباب مثل تفكير عمر، فإن "الجاور" لن يكونوا بحاجة إلى رفع سيف واحد للاستيلاء على الجبال.

سيتخلى المدافعون عن متاريس القلعة الجليدية، ويغادرون السهول الخصيبة الواسعة الواقعة خلف تحصيناتها، ويتركونها بدون دفاعات: بلاده القباردا.......

* * *

وقف ديفيد أوركهارت وحيداً في صالونه الصغير. كان يحمل في يده رسالة من سفيره، اللورد بونسونبي، يعلمه فيها أنه تم طرده من الخدمة تمهيداً لإرساله عائداً إلى الوطن. كان هذه خيانة من أعلى طراز، لكن ديفيد أوركهارت كان يتوقع شيئاً من هذا القبيل. سعل الخادم بأدب وأدخل صديقه، السفير بك.

قال ديفيد أوركهارت "تحياتي، أيها الصديق العزيز، لطف منك أن تزورني بهذه السرعة".

"عندما تلقيت ملاحظتك، أدركت أنه لن يحصل أي ضرر من القيام بزيارتك في وضح النهار".

ضحك أوركهارت. لم يكن الصوت بسيطاً: فهو ليس ميالاً إلى المرح، لكن الموقف جدي إلى درجة إنه ربما أجبره التوتر على البحث عن التخفيف.

"كما تعلم، فقد وصلت السفينة "فيكسن" إلى ميناء سوجوك كاله. استطاع بيل أن يبيع بضائع للشراكسة لمدة يومين، قبل أن تكشف السفينة الحربية الروسية اللعينة وجودها في الميناء وتعترض خروجها. سيحل الدمار بالأخوين بيل يا سفير بك، الدمار".

"وكيف ذلك، يا صديقي؟"

"أنت تعلم أن الروس صادروا السفينة ويخبرني صديقيّ العزيزين بيل أنهما فقدا البضائع ويترتب عليهما مواجهة تعويض كلفة السفينة على صاحبها".

"نعم، وكذلك قلت أنه ربما توجد طريقة يحصلان بموجبها على التعويض.... حسبما أذكر".

بقيت عينا ديفيد أوركهارت الزرقاوان البلوريتان تحدقان فيه.

"لقد طرحت عدة أسئلة في مجلس الأمة. قرر بالمرستون أن لا يتحدى الروس. لقد خسرنا، ياسفير بك. لم يكتفوا بطردي، ولكن ليست لدي أية فرصة الآن، في العودة إلى كسب الرضى".

"لماذا؟ لماذا؟"

"لقد توفي الملك. ويجب أن أعود إلى إنجلترا. يجب أن تنتهي إجازتي، كما تلطفوا وسموها عندما أعفوني من مهماتي. بدونه، الملك، ليس لدي حليف قوي. سوف ينقلب بالمرستون عليَّ. لقد انقلب بونسونبي ضدي منذ الآن".

فوجئ السفير بك "لقد كنت بمثابة الابن للسفير".

"أعتقد أنهم سيجعلوا مني كبش الفداء. إن سيرته الوظيفية عزيزة عليه جداً..." نظر أوركهارت إلى الأسفل نحو الرسالة التي يحملها.

"أرى هنا أنه يتذمر من أنني لم أنفذ واجباتي السكرتارية. أنني أقضي وقتاً أطول مما يلزم وأنا أرتدي الملابس التركية وأدردش مع المحليين.."

ضحك مرة أخرى، ولكن في هذه المرة بإحساس أكثر صدقاً.

"هل تعلم، يا سفير بك؟ إن القيصر في منتهى القسوة. إنني حتى لأعجب إن لم يكن قد رشى بالمرستون حتى يغير موقفه. إنني لأعجب حقيقة..."

قال السفير بك "لا يمكن سبر أغوار أساليب الأوروبيين..." بشيء من اللوم، ولكنه شعر بالقلق، مما شاهده من مظاهر الاستحواذ لدى صديقه القديم.

استجمع ديفيد قواه "إسمع، أنا ضد الروس لأنني متعاطف مع الأتراك. بونسونبي يتعاطف مع الأتراك فقط لأنه ضد الروس. سيجد هو وبالمرستون طريقة أخرى معينة للحد من تجاوزات روسيا. تحالف آخر، صفقة أخرى. سوف ترى..."

"متى ستغادر؟"

"على الفور. إن أملي الوحيد ينحصر في تبرئة اسمي والكفاح من أجل قضيتكم من مكان أقرب في الوطن. وإيقاف الإشاعات"

"أنت أكثر نزاهة وصدقاً بكثير من أن تصلح كدبلوماسي، يا داود بك. هذه هي مشكلتك".

نفض أوركهارت كتفيه "من يدري؟ لم يكن رئيس الوزراء ويلنجتون خلف هذه المسألة، لكن بالمرستون يقف خلفها. أعتقد أنه في نهاية المطاف، سيتضح أنها مسألة بسيطة، مثل مجموعة ضغط من مالكي المعامل في مانشستر يحاولون إقناع الحكومة أن لا تدمر صفقاتهم التجارية مع روسيا المتعلقة بخيوط الكتان أو خيوط القنب "ظهر القرف في نبرات أوركهارت "مصالح شخصية ضيقة. لا يستطيع الناس أن يروا الصورة الأوسع عندما تكون لديهم هوامش

ربحية يودون المحافظة على ارتفاعها. سوف أقوم بحملات دعائية لجعل مسألة "فيكسن" تثار مرة أخرى في مجلس الأمة. أريد للحقائق الكاملة أن تصبح معروفة. بعد ذلك سيقف الشعب البريطاني خلفنا داعماً. إنني واثق من ذلك. إن مكاني الصحيح هو في لندن.." أشغل ديفيد أوركهارت نفسه بمحتويات مكتبه، متجنباً عيني السفير بك. لم تكن إجراءات الوداع من شيمه. لكن هذا التصرف بدا غير طبيعي على الإطلاق بالنسبة للسفير بك وأدرك فجأة مدى اختلاف هذا الشخص وغربته عنه. فعلى الرغم من كل تعاطفه مع "الشرق"، ومعرفته بالقرآن الكريم، وتمكنه الخالي من الإخطاء باللغة التركية، ورؤيته الواضحة في فكره الاقتصادي – كان هنالك عنصر استحواذي، يكاد يكون غير متوازن، حول رغبة هذا الرجل في تنظيم الأحداث وترتيب وقوعها.

تعجب السفير بك، بمنتهى العقلانية، من دوافع هذا الصديق الأجنبي الغريب الطباع.

هو يعتقد أن مثل هؤلاء الرجال مفيدون عندما يتم توجيه طاقاتهم بالطريق الصحيح... لكنهم يمكن أن يصبحوا خطرين عندما ينطلقون من روابطهم، مثل ثقل التوازن في السفينة إذا ترك يتدحرج فوق سطح السفينة أثناء هبوب العاصفة. فهل هو الرجل المناسب لأن يكون حليف الشراكسة، أم أنه سيقودهم جميعاً نحو الهلاك والسقوط؟

انتظر حتى رفع الإنجليزي رأسه عن مكتبه "هل كان هناك أمر آخر، يا سفير بك، سامحني، فأنا منشغل الفكر.."

"كلا، يا داود بك. فأنا لا أريد سوى أن أودعك وأتمنى لك كل ضروب النجاح والتوفيق" تحول داود بك إلى ديفيد أوركهارت في لمحة عين. "ذلك أمر في غاية النبل منك! إلى اللقاء أيها الصديق المقرب – أنا لم أهزم بعد!".

***

الفصل الرابع
1837

انطلق ثلاثة من القوزاق يعدون بخيلهم بجنون باتجاه الشركسي الشاب: إن الغبي يمتلك من التهور ما يجعله يجلب جواده ليشرب من المخاضة على مرأى من الجميع. ألم يعرف أن مكان العبور هذا على نهر اللابا يستعمل من قبل فصيلتهم على الدوام – الواضح أن هذا شخص غريب، ولذلك فهو صيد سهل متاح!

أطلق إيفان ايفانوفيتش رصاصة من بندقيته وضحك عندما كبا جواد الفارس الشركسي. لكنه لم يضحك في المرة التالية. فقد أزّت من جانب إذنه إحدى تلك الرصاصات التي يعمل فيها الشراكسة شرخاً حتى يجعلونها تطن، ثم سمع السقوط المحزن لجسم ما في مجرى الجدول خلفه مباشرة. أطلق إيفان وابلاً من السباب العالي وتراجع " يا أسنان الرب" كما فعل زميله جريجوري. فقد ارتمى الرجل الثالث في دوريتهم، بوريس ميتاً، إذ كان الثقب الكبير في جبينه يملأ الجدول باللون الأحمر.

"لعنة الله على ذلك الشيطان الشركسي!" شتم جريجوري، زميل إيفان بأعلى صوته، لأن الثائر الوقح كان قد اختفى – تبخرً في الأرض الحرجية بكل السرعة التي يتمتع بها جربوع هارب. "في المرة القادمة، لا تتسرع بإطلاق النار على شركسي، إنهم يردون على إطلاق النار، وهم لا يخطئون" اشتكى جريجوريَ.

أمره إيفان بقولـــه "ألف لعنة حقيرة على رأسه. اذهب وأمسك بجواد بوريس. ستنزل بنا عقوبات رهيبة على هذه المصيبة".

بعد أن استنزل إيفان كل اللعنات الموجودة في مخزونه اللغوي والديني، رسم إشارة الصليب، انحنى بأقصى ما يستطيع سحب ثقل بوريس الميت من نهر اللابا. ألقى به عبر السرج الفارغ وعاد الجنديان متجهين إلى "الستانيتزا" التي ينتميان إليها.

راقبهما عظمات أثناء انصرافهما وهو يشعر باقتناع ورضى عميقين. لقد دخل في لعبته قدر رائع من ردة الفعل فبات سعيداً لأنه أدى المهمة بشكل سليم، فلم يجرح ضحيته أو يخطئه. كان قد سمع قديماً قولاً مفاده أن واحداً من مسألتين تحولان الفتى إلى رجل: مذاق الدم أو حب إمرأة ما.

كان قد استقر مع امرأة منذ وقت طويل. وهو شخصياً يعتقد أن ذلك ليس صحيحاً تماماً: أن يحب "امرأة" بدلاً من أن تحبه هي، هو العامل المحوّل: فإن العديد من الشباب محبوبون من قبل النساء ومع ذلك فهم لم يبلغوا مرحلة النضوج....

كيف يمكنه أن ينغمس في مثل هذه الأفكار وهو قد أطلق النار على رجل وقتله لتوه؟ لأن هذه هي المرة الأولى. لقد أصبح قاتل رجال الآن، بالإضافة إلى كونه محباً. إن المطلب الأساسي والأهم هو دم الأعداء... يمكنه على الأقل ان يقول بأن ضحيته الأولى كانت على مذبح كفاح بلاده. زادته هذه الفكرة قوة على قوته.

تحرك عظمات بحذر أشد خلال خط الأشجار الذي يحاذي اللابا. لقد حقق فائدة واحدة علي الأقل في رحلته من بلاد حوض الكوبان. فحيثما ذهب كانت إنجازات أخيه الأكبر الموضوع الرئيس في الأحاديث التي تدور حول نيران المخيمات. أحسَّ الرعاة، تجار الأسلحة، وتجار كافة أنواع السلع بالذهول إن لم يشعروا بالتشريف عند مقابلتهم قريباً لكازبك العظيم، أسد القفقاس. ولكنهم، على الرغم من ذلك، لم يكونوا راغبين في إعطاء معلومات دقيقة عن أماكن تواجد كازبك.

لذلك، استنتج عظمات أن أفضل خطة هي التحدث عن تحركاته هو – فقد كان يتجه إلى بيته في القباردي – آملاً أن يمرر مخبرو كازبك وجواسيسه المعلومة إلى قائدهم. يفيد آخر ما كان قد سمعه من أقاويل، أن كازبك متواجد في مكان ما من هذا الإقليم من بلاد الشابسوغ، وكل ما على عظمات هو أن يستمر في التجوال حتى يصطدم به. كان همه أن كل يوم ينقضي هو يوم آخر ضائع على اقترابه من والده المريض..

بدأت شجرات الزان تقل في كثافتها، بحيث شاهد عظمات دخاناً على البعد فطرد جواده بقوة حتى يقطع المسافة المفرغة من الأشجار الواقعة بين غطائه والجدار المحيط بالمستوطنة. بمجرد أن وصل نقطة الأمان، التقط أنفاسه واتجه نحو البيت الأكثر إيحاءً بالنفوذ وقعت عليه عيناه. كان ينوي أن يقدم نفسه للوجيه ويرى إذا كان يستطيع أن يحصل على شيء من المساعدة في مسعاه. لكنه توقف فجأة بعد تقدمه بضع خطوات. فهناك في أحد الأزقة، كان حصان عربي فحل أبيض رائع، مربوطاً إلى أحد الأعمدة.

إن الولد سر أبيه، وعظمات ابن أبيه، يميز الجواد الكريم حين يراه. لم يكن قد شاهد هذا الحيوان الرائع من قبل، لكنه سمع عنه الأقاويل الكثيرة – فهذا هو الصقلاوي الأسطوري الذي يمتطيه أسد القفقاس بكل براعة. ترجل عن مطيته وسار باتجاه الحصان، داعب أنفه، وهو يتمتم له بكلمات التحبب، فأدرك الحيوان فوراً أنه صديق وليس عدواً. قال عظمات، وهو يشعر بالانفراج والراحة لأنه اقترب من غايته أخيراً "أين هو سيدك إذن، إيه؟"

انفتح باب أحد الأكواخ بقوة على اتساعه، رفع عظمات رأسه ليشاهد أخاه الأكبر يضحك ملء شدقيه.

"أخي الصغير! الحمد لله والشكر، ما الذي جاء بك إلى هنا قاطعاً كل المسافة من الكوبان؟" فتح كازبك ذراعيه على اتساعهما واندفع عظمات إليه في عناق حميم.

ذهل عظمات من التغير الذي طرأ على مظهر أخيه. فهما لم يلتقيا لما يقرب من ثلاثين عاماً: أصبح كازبك نحيلاً، وقد حفرت قسماته التجاعيد، وأطلق لحية بيضاء ناعمة – رجل شديد المهابة والاحترام. كان جسمه صلباً: قبضة يده قوية، وملامحه حادة كأنها قدت من صخر الجرانيت. عندما أمسكه أخوه على بعد الذراع من جسمه، بحث عظمات في وجهه عن دلائل على تلك الكراهية التي لا تحد والقدرة على العنف التي خلقت منه ذلك القائد العسكري الذي لا يعرف الرحمة. لكنه لم يعثر عليها: كل ما استطاع أن يراه هو ابتسامة عريضة مذهلة خلفت لديه نفس الانطباع الذي تركته عندما كان مجرد صبي – مثل إشراقة شمس تدفئ وجهه. لقد كان العابد الأول للمعبود، قبل كل الشهرة بزمن طويل.... ضحك قائلاً "لم أعد ذلك الأخ الصغير الآن" وهو يرد قبضة كازبك الحديدية على ساعديه. بنية عظمات في مثل قوة تكوين كازبك، لكنه أصبح رجلاً بهي الطلعة راقياً، يميزه صوته العميق الرخيم عند تحدثه، وذكاء حاد يشع مشتعلاً من عينيه. شأنه شأن كازبك، ورث عظمات يدي أبيه الرشيقتين... أمسك الشقيقان بيدي بعضهما بعضاً – وقد انتبها إلى هذه الخصائص العائلية المميزة التي أشعرتهما فجأة بدرجة قرابتهما بحدة.

"إنني أبحث عنك منذ عدة أيام: إنك رجل يصعب العثور عليه لأن حلفاءنا يحافظون عليك ويحمونك بشدة، يا كازبك!"

"نعم، لقد تلقيت ما يفيد بأنك في طريقك إلى هنا...".

وضع كازبك ذراعه حول كتفي شقيقه وقاده إلى داخل بيت متواضع. الصالة صغيرة، مريحة ولكن فراشها متقشف. كانت شبابيكها موصدة بالمصاريع لأجل الخصوصية، وهناك أريكة ضخمة مغطاة بقماش تركي فخم مسندة إلى أحد الجدران – بإمكان الصالة أن تستوعب عشرين رجلاً براحة. لم يميز عظمات سوى قطعة ممتلكات واحدة تعود إلى حياتهما البيتية في التيريك – سجادة جميلة باللونين الأحمر والأزرق الغامقين كانت والدته تسيما قد

حاكتها قبل سنين طويلة. لكن المساحات الجدارية حولها كانت مغطاة بأشياء لاقى عظمات صعوبة في ربطها بأخيه. بعض بنادق القوزاق، سيف دمشقي هائل الحجم تعرف عليه فجأة كجزء من ترسانة أبيه، وبذلة متقنة الصنع من سلاسل الزرد. قامات، خناجر، سيوف وحراب.. موجودة بكثرة متزايدة..

"إن هذه البلاد تخوض حرباً جدية" قال ذلك مبدياً اهتماماً حاداً "لقد أطلقت النار عليَّ وطوردت عبر كل الطريق من نهر اللابا. لم استمتع بهذا القدر منذ أيامي مع "الأتالق"، عندما كنت أتصيد".

جاءت ابتسامة كازبك موافقة ولكنها بطيئة "ليس هناك شيء اسمه حرب غير جدية، يا أخي الصغير. على أية حال، ما الذي جاء بك من الكوبان – أم أنك جئت من بلاد القباردي؟".

تحول مزاج عظمات إلى الجدية "لا، أنا لم أعد بعد إلى البيت. لقد أرسل أنور خبراً لي يطلب مني أن أعثر عليك لنعود كلانا إلى البيت. الوالد ليس بصحة جيدة. لا يعتقد أنور أنه سيبقى معنا مدة طويلة...

أراد أن يقول أن أهم شيء عنده هو أن يقدم احتراماته ويودع أباه. فهو لم يشهد جنازة أمه. ولذلك أحسّ بحدة هائلة تجاه عدم مشاركته في تلك الإجراءات. لقد علم بما حدث. قصته جريمة قتل إمام، وفاة جدته، وكيف أصبح انتقام كازبك مادة تحاك منها الأساطير وتروى، بحيث ترددت أصداء أغاني "الأشوق" عنها عبر الجبال حتى وصلت إلى أسماع عظمات الذاهلة. ولذلك فقد أصبح لديه دافع مضاعف في العودة إلى البيت – حتى يقدم فروض الاحترام النهائية إلى والديه الاثنين.

لم يتكلم كازبك. فقد أحزنته الأنباء بأكثر من القدرة على الكلام.

استطرد عظمات بنبرات خافتة "هناك المزيد إلى جانب هذا، لقد تم إرسال حفيدك ناخو إلى "الأتالق" للتدريب. لقد وجدت ستناي زوجاً جديداً وهاجرت إلى استنبول".

قفزت عينا كازبك في محجريهما لشدة المفاجأة. وحده هذا الخبر، الذي يفيد بأن ستناي قد أتمت فترة الحداد وشفيت من حزنها، جعله يدرك الطول الفعلي للوقت الذي انقضى منذ مغادرته بلاد التيريك.

تمتم بقوله "لا بد وأنه انقضت خمس سنوات... هل انقضى كل هذا الوقت...؟ لقد شهدت من إراقة الدماء أكثر مما ينبغي. ربما حان الوقت للذهاب إلى البيت.."

أحسّ عظمات بدفء العاطفة تجاه أخيه. لم تكن القشرة الخارجية القاسية تمثل كازبك الحقيقي، وقد أحس بمزيج من الارتياح والانزعاج عندما اكتشف ذلك. الارتياح، لأنه يحبه: الانزعاج والقلق لأن تأجيل كل الأحاسيس وإبعادها في وجه اضطراره إلى عمل ما توجب عليه القيام به، قد جعل حياة كازبك جحيماً.

استعاد كازبك سيطرته على أحاسيسه واعتذر: "إنني أنسى: لا بد وأنك جائع وعطشان – أيجور، أيجور، أيجور!"

صفق بيديه فظهر على الفور شاب في حوالي العشرين من عمره، يرسم ابتسامة محببة على وجهه، وكأنما تقول "ماذا أستطيع أن أعمل الآن؟".

لم يجد عظمات صعوبة في التعرف إليه على أنه بولندي، فقد كان يحمل وجهاً عريضاً بعظام خدود عالية، أشقر البشرة والشعر على بنية نحيلة.

قال كازبك "هذا هو رجلي أيجور، إنه يقاتل إلى جانبي في النهار، ويخدمني كشقيق أصغر في بيتي".

شعر أيجور بالفرح لكونه يقابل قريباً للرجل العظيم وأمسك بيد عظمات في مصافحة ودودة.

"أنت على أشد الرحب والسعة.. إنني في خدمتك.." كانت لغته الشركسية سريعة رغم أنها لم تكن دقيقة لأنها لغة عصية على الاختراق لمن لم تكن لغته الأصلية. على أية حال فقد تعلمها أيجور بدافع الحماس، وليس لمجرد الإحساس بها كواجب.

أدرك عظمات كم كان يتضور جوعاً من استماعه إلى تبادل حديث سريع عن الدجاج والمعجنات. غادر أيجور ولكنه عاد مسرعاً يحمل إبريقاً من "الباخسمه" ليطفئ به ظمأ عظمات. لم يفكر أي من الأخوين في الاستحمام أو الاستراحة- فقد كان هناك الكثير جداً مما يجب قوله. أجاب عظمات بسرعة على جميع أسئلة أخيه حول الحياة في الكوبان، بينما كان يمكن سماع أصوات طرقات أيجور وهو يعمل بجد في الغرفة المجاورة.

"نعم أنا سعيد هناك: لقد تزوجت منذ زمن طويل وأنعم الله علي بطفلين... صبي وفتاة. والأمر الأهم، يا أخي، هو أنني أحتل مقاماً رفيعاً بين شعب القباردي في الكوبان".

لم يكن كازبك قد خاض حديثاً أسرياً طيلة سنوات. لذلك صعب عليه استيعاب كل هذه الأنباء. استمر عظمات في وصف وضعه ولم يستطع كازبك أن يفعل شيئاً إلا التعجب من الفارق بين قدريهما.

"هل تذكر شقيقة أبينا – يا كازبك؟ تلك التي تزوجت "الوَرْق" الكسول – ذلك الذي كان أبي يكرهه واضطره إلى مغادرة الوطن؟ حسناً، أفواسا هذه، لم ترزق بأولاد. وعندما توفي محمد، زوجها، توليت إدارة شؤون البيت. ليس لدى عمها، الأمير العجوز، أي وريث ذكر بين الأحياء. وقد قال في عدة مناسبات بأنه يفكر فيَّ أو في أحد أولادي لوراثة اللقب!".

"حسناً، حسناً، هذا أمر رائع يا أخي. لا عجب أنه لم تكن لديك أية رغبة في العودة إلى التيريك. فأنت لديك مستقبل زاهر...".

قال عظمات "ربما" وهو الحذر بطبعه على الدوام. "يجب علينا أولاً أن نهتم بمسألة الوالد. لقد كانت رسالة أنور في منتهى الاستعجال. إنني متشوق للانطلاق – وأنا واثق من أنك كذلك.." لم يكن كازبك قد رأى عائلته منذ مذبحة القوزاق. لم يكن يعرف رأي أبيه في "الحجي" الذي أمتشق السيف كما فعل هو. لم يكن هناك أي اتصال بينهما طيلة هذه السنوات، كان يأمل، ويفترض، أن أحمد سيتفهم ويشعر بالفخر...

قال كازبك "لدي الكثير مما يجب أن أخبرك به يا عظمات" وقد استطاع أخيراً أن يصعِّد تنهيدة انفراج، لأن بإمكانه الآن أن يفرج عن همومه الثقيلة مع شخص قريب له بأمان. "سننطلق مع بواكير الصباح ونتحدث أثناء الطريق... لدينا أيام نستوفي فيها الأحاديث. والآن أعتقد أننا يجب أن نأكل وننام. لقد قمت برحلة طويلة".

لقد أعجب عظمات بأخيه الأكبر على الدوام إلى حد التوقير. لذلك أحسّ في هذه الآونة بشعور غريب لأن يرى كازبك مهموماً – إلى حد يكاد يقترب من التشكيك – فإن يحسّ بأن لديه فعلاً ما يمكن أن يقدمه إلى أخيه الأكبر. الدعم أو القبول.

"أنا أعرف عن إمام. أعرف عن القوزاقيين". قال عظمات فجأة، آملاً أن يفهم كازبك أنه يتفق معه: "أي والد كان سيفعل الشيء نفسه". ألقى إليه كازبك بنظرة سريعة من الامتنان، مما أسعد عظمات.

قاطعت دقة خفيفة على الباب تبادلهما للأسرار: دخل الحاج دانيل، وقد أخبره أيجور أن شقيقاً لكازبك قد حضر.

"يا لها من مفاجأة سارة! مرحباً بك، مرحباً بك!" فاضت طيبة قلب الحاج دانيل على عظمات كأنها العسل الدافئ. رأى أن هذا الرجل هو صديق كازبك المقرب وأعجب به في الحال.

قال كازبك بدون تكلف "تعال يا دانيل، قدم لي نصيحتك، يجب أن أغادر إلى البيت بدون تأخير – وماذا سأفعل بأيجور بعد رحيلي؟"

منع "النيمس" دانيل من السؤال عن السبب في رحيل كازبك المفاجئ. لكنه ظل على ثقة من أن صديقه سيخبره إذا كان ذلك لائقاً.

استعلم عظمات مندهشاً، وهو يدير رأسه من رجل إلى الآخر "هل هو عبد؟"

شرح دانيل "لا يعامله كازبك معاملة العبد، ولكن نعم، لقد كان إيجور عبداً فيما مضى. خلّصه كازبك من تاجر عبيد أرمني عندما كان في طريقه إلى سوجوك كاله. لكن أيجور يقسم على أنه كان رجلاً حراً طيلة حياته – وأنه مجرد هارب من الخدمة العسكرية في الجيش الروسي. هو قادر على القتال، وهذا أمر مؤكد – إنه في مثل شجاعة أي واحد منا".

احتار عظمات فيما سيقوله "إذن لماذا لا يحاول أن يهرب؟ لو كنت في مكانه لفعلت، سواء كنت عبداً أم لا".

"هل تتوقع منه أن يهرب من الحياة الكريمة التي يحياها مع شقيقك؟ لن يفعل ذلك أبداً. إنه يفضل أن يهلك جوعاً أو يعاد القبض عليه – يفضل حتى أن يباع في العبودية مرة أخرى".

طرأت لكازبك فكرة. فوجئ لأنه لم يفكر فيها قبل ذلك، ولكنه كان منشغلاً في قيادة الكثير من المعارك بحيث لم يتسن له التفكير في مثل هذه الأمور..

"لو كانت لديه الوسيلة والإمكانيات للعودة إلى بلاده، أنا أفترض أنه كان سيغادر – ولكن في نهاية الأمر، فإن الرجوع إلى بولندا..." هز رأسه متشككاً.

دخل إيجور حاملاً صينية مترعة بالأطعمة ووضعها أمام الرجال إلى جانب المدفأة . نهض وهمَّ بالخروج لكن كازبك رفع يده ليوقفه.

"إيجور، سوف أغادر الشابسوغ في وقت قريب. أنا مضطر للعودة إلى بيتي مع أخي. فما الذي ستفعله؟"

هزَّ النبأ كيان إيجور، لكنه سرعان ما استعاد السيطرة على مشاعره "سأذهب معك، يا "تحمادا". أنت بحاجة إلى مساعدتي" قال باقتضاب.

تأثر كازبك طبعاً بإخلاص الشاب، لكنه أراد أن يتيقن كلياً من أنه يقوم بالتصرف الصحيح.

"لكنني قد لا أعود أبداً إلى هذه الربوع. إن بلاد القباردي بعيدة جداً من هنا. أليست لديك رغبة في العودة إلى بولندا؟"

كان إيجور يراقب وجه كازبك بتركيز أثناء حديثه، حتى يتأكد من أنه يفهم بدقة، ولكنه كان أيضاً يحاول أن يستشف ما يريده منه كازبك. فتح فمه ليجيب، لكنه فقد الثقة في نفسه. أشار كازبك بالطريقة المعهودة، محركا يده ومطأطئاً برأسه، حتى يشعر أيجور بأنه يحق له أن يبدي رأيه "هيا، هيا، دعني أسمعك..."

قال إيجور، بعد أن سحب نفساً عميقاً واستحضر شجاعته ليقول شيئاً أراد أن ينفس به عن صدره منذ زمن طويل "يا "حجي"، لقد منحتني بيتاً. وأنت تعاملني مثل أخ لك. أشعر وأنا معك – إنني رجل حر. لقد قتل الروس والديَّ الاثنين... قتلوا أختي الصغيرة الوحيدة". توقف أيجور قليلاً وفرك قبضته بغضب في وجهه "أنا، أخذوني سجيناً. جعلوني أنضم إلى الجيش لأذهب إلى الحرب في

القفقاس". أبقى الشراكسة الثلاثة عيونهم مسمرة في الأرض بتبلد وصلابة خلال هذا الاعتراف، فقد جعل الدم يغلي في عروقهم.

اختتم إيجور كلامه بقوله "أنا أريد البقاء، معك. لا أريد الذهاب إلى بيتي".

لم يكن بحاجة إلى أن يضيف بأنه لم يعد لديه بيت حقيقي ليعود إليه.

قال كازبك بهدوء "أشكرك يا أيجور" غادر أيجور الغرفة مسرعاً، كأنما يريد أن ينفض عن روحه الذكريات التي ما كانت لتفيده، ويعود إلى عمله. لقد كانت شجاعته في إعادة بناء حياته، وكرامته وانعدام شكاويه جديرة بالانتباه.

حاول كازبك أن يستخف بالأمر – مما أدهش عظمات، وذكّره فجأة بالطريقة التي كان أبوه يقول فيها أشياء قاسية، حتى يغطي على مشاعره الحقيقية.

"سيكون لدى "الوَرَق" القباردي الكثير ليقولوه عن هذا الأمر.. سوف يتهمونني بالتعامل في العبودية. لكنني وكما ترون مجبر على الاحتفاظ به".

لم ينخدع دانيل بهذا التعليق الذي يقصد به التخفيف، ورفع كاسه "إسمع، لنشرب نخب أخينا الصغير – نخب صحته وأخلاق "الأدياغه" لديه."

أفرغ الرجال الثلاثة الإبريق دفعة واحدة كما تقضي بذلك التقاليد. كان دانيل منشغل البال بأمر ما بدوره. موضوع يهم العديد من الناس. "هل ستغادر قبل أو بعد عمليتنا في اللابا؟" وجه سؤاله إلى كازبك، وقد التمعت عيناه.

صمت كازبك هنيهة وحدق في عظمات عبر زجاج كأسه. امتدت ابتسامة ماكرة عبر شفتيه "كلا، أعتقد أننا سنذيق أخي

الصغير طعماً من المعركة قبل أن نغادر. بإمكانه أن يروي قصصاً عنها لأحفاده عندما يشيخ ليصبح عجوزاً".

قفز عظمات واقفاً على رجليه، وقد أحسّ فجأة بأنه مقاتل شاب في اندفاعه. "هل تعني أنه ربما تقع معركة - قريباً- وأن بإمكاني الانضمام إليكم فيها؟"

غمر الحبور كازبك. فقد أظهر هذا القباردي الكوباني الفصيح، الذي يطمح إلى أن يصبح أميراً عن الجانب الآخر من طبيعته.

"هذه هي الفكرة. أنا أرحب بمشاركتك...."

***

انطلقت الصرخة "الله أكبر"! وتجاوبت أصداؤها: صدرت عن قوة كبيرة من مقاتلي الشابسوغ، وعلى رأسهم كازبك، موسى بك، دانيل، وعظمات، المسلحين بكل ما يخطر بالبال. تمتد أمامهم "ستانيتزا" قوزاقية غير مكتملة البناء: كان السور والحفرة المحيطين بها قد قاربا على الاكتمال، والخيام في الداخل متكومة إلى جانب بعضها مع أوائل الإنشاءات الخشبية، أجنحة الضباط، مخازن الذخيرة والمهاجع التي كان يرتفع منها عمود دخان رفيعاً وبطيئاً.

دوّى صوت موسى بك الأجش العالي بقول "الله أكبر"! مرة أخرى، وكرره الخيالة فيما يشبه الصدى بصوت واحد رهيب. هجموا على الستانيتزا مثل انهيار الحجارة من الجبال - هكذا ببساطة وكأنما قد ذاب الجليد وأطلق جداراً من الصخور في إطلاق راعد للقوة.

أصيب القوزاق بالذهول، لكنهم كانوا مستعدين بما يكفي لهذه الاحتمالية. رغم أنهم كانوا نصف عراة (فقد كان الوقت قبيل الفجر) حملوا البنادق في أيديهم واندفعوا خارجين من البوابات وقد

عباوا أسلحتهم فأطلقوا وابلاً من الرصاص باتجاه الموجة الأمامية من الخيالة.

كان الشابسوغ قد تدربوا جيداً. كانت السرعة أمراً حيوياً: لم يترددوا أو يتقاعسوا بل طردوا خيلهم مباشرة نحو البنادق بشراسة جعلت الجنود يترددون - ربما مجرد ثانية أو اثنتين- لكنهما كانتا قاتلتين. وقت كان كافياً لإفقادهم مزية القوة النارية. وصل الشراكسة الذين لم يتوقفوا عن الحركة والتمايل في سروجهم واخترقوا تلك الصلية الأولى بأعجوبة بعدد أقل من الجرحى مما كان يعتقده أي مضيف قوزاقي ممكناً، وصلوا فوقهم بسيوفهم المشرعة وبدأ الذبح بكفاءة وحشية رهيبة.

استغرقت الغارة عدة ساعات. بدت لعظمات وكأنها الأبدية. لم يكن قد شاهد مثل هذه الوحشية في حياته كلها. لقد بدا الموقف وكأن جيشاً من "الجن"، شياطين الجبال قد أصابه مسٌ من الجنون ويقوم أفراده بتكسير الصخور، البيوت والقاطنين في هذا الوادي، قطعة بعد قطعة، وعضواً بعد عضو.

لم يكن بوسعه أن يتأكد كيف جاءت النهاية. في لحظة كان يضرب قوزاقياً بسيفه، وفي التالية ملأت الأجواء تنهيدة شبيهة بحشرجة الموت: فقد غادرت الطاقة تلك اللحظة. مع حصول هذا الشعور كان كل شيء قد استمال إلى اللون الأسود: أجساد الأموات، البقايا المحترقة لأبنية "الستانيتزا"، جياد الشابسوغ تلتمع بخيوط من الدماء الدبقة التي بدأت تجف: حتى وجوه المنتصرين، التي كانوا يمسحونها لتنظيفها بأكمام "التشيركيسكا" التي مزقتها ضربات السيوف.

شاهد عظمات في الطرف البعيد من هذا الحطام موسى بك يطرد أمامه مجموعة من القوزاق الأسرى. كانت فرقة مطاردة أخرى تقوم بتجميع خيول الفرسان. بينما انهمكت مجموعة أكبر في تفتيش منظم لكل مستودع بدوره بحثاً عن أي شيء مفيد ليأخذوه

معهم. كانوا يعملون مثل الآلات، بسرعة متدرب عليها، بدون جدال، بدون أي انعدام للكفاءة، بحيث شكلوا غاية محددة.

بعد أن امتلأت سروجهم، انطلقوا ببساطة، ارتحلوا راكبين. احتار عظمات فيما سيفعله تالياً.

لحق به كازبك، وقال بنبرات تفيض بالقوة والبأس "حسناً يا أخي الصغير. لقد حصلت على فرصة لتذوق طعم المعركة. فهل هي مثيرة إلى الحد الذي كنت تظنه؟"

برقت أسنان كازبك بيضاء مشعة مثل الحلي المقلدة وسط وجهه المغطى بالسخام والدم. لم يستطع عظمات أن يسمح لنفسه بأن تعجب بدم أخيه البارد أو طاقته: فهو شخصياً كان يشعر بأن معينه قد جف، متعب حتى العظم، بينما ظهر كازبك وقد أنعشه مسيل الدماء. لقد كان وضعه نذير شؤم، غير طبيعي...

تحدث عظمات بصوت خفيض "هل يمكننا أن نذهب إلى البيت الآن؟ أعني إلى التيريك؟ لست على ثقة من أنني أرغب في تكرار هذه التجربة. لم أجد فيها مجداً ولا فرحاً..."

لم يجب كازبك، بل أدار جواده إلى الخلف بسحب عنانه وأشار إلى عظمات لكي يلحق به. ركبا مسافة لا بأس بها مبتعدين عن "الستانيتزا" وتوقفا تحت ظلال إحدى الشجرات القليلة التي تركها القوزاق واقفة. هنا ترجل كازبك لكن عظمات استمر في التحديق بالمعسكر في الفسحة الواقعة تحتهم من نقطة مراقبة سرجه.

"انظر إليهم. هل هذه هي الطريقة التي يقاتلون بها؟ بالنهب والسرقة؟ لقد كانت لدي مفاهيم أعلى...."

فهم كازبك الأمر بما يستحقه من عمق "لا تشعر بخيبة الأمل أيها الأخ الصغير" قال بنبرة صبورة "إن الروس يفعلون الشيء نفسه عندما يكسبون معركة ما. أحياناً يقومون بأفعال أسوأ بكثير.

تلك هي الحرب. يشعر المقاتلون العاديون أن من حقهم الأخذ.... هذا أمر تقليدي - وتذكر، أن لا أحد يدفع لهم مالاً حتى يجيئوا ليقاتلوا".

"لقد أخبرنا الوالد عن هذه الأمور، لكنني كنت أظن أنه يتكلم عن الشيشان. لم يؤثر الأمر فيّ وقتها كما يؤثر في هذا المنظر" اعترف عظمات.

تمدد كازبك على الحشائش. بدا مظهره متناقضا، فقد كان يشعر بالسلام والأمن فوق الخضرة بينما تملأ ثيابه خطوط الدم. أراح رأسه على يديه ونظر إلى فوق حيث تتراقص أوراق الشجرة تحت الضوء.

قال "هل رأيت أيجور؟ يجب أن نتحرك مغادرين من هنا ونخيم لقضاء الليلة - ونبدأ رحلتنا باتجاه القباردا في الصباح الباكر..."

دهش عظمات من السهولة التي استطاع بها كازبك أن ينحي مسألة المذبحة جانبا. جعله ذلك يحسً ببعد شاسع عنه. انزلق عن جواده وارتمى على الأرض قبل أن تتداعى رجلاه تحته.

قال "ذلك هو إيجور قادم الآن. مثقلاً بالغنائم." ولم يستطع أن يمنع ظهور البرودة في صوته. نهض جالساً ليلوح حتى يتمكن أيجور من رؤيتهما، لكن أيجور كان قد لمح حصان كازبك العربي الأبيض وبدأ يصعد المنحدر باتجاههم بصعوبة وتعب. كان يقود جوادين قوزاقيين محملين بالبضائع، كلها مربطة بشكل منظم ومغطاة ببطانيات الجيش وفوقها الحبال.

ضحك كازبك بينما كان الآخر يقترب "ماذا ستفعل بكل ذلك يا إيجور؟ نحن سنسافر إلى التيريك بخفة وسرعة".

ابتسم إيجور بغير ارتباك أو خجل "سلع جميلة، يا "تحمادا". تنفع كهدايا رائعة للعائلة في التيريك".

لم يكن هناك ما يمكن قوله على ذلك الكلام "هل رأيت صديقي دانيل؟" سأل كازبك.

"ليس بعيداً. بجانب الجسر، هو يجلس مع موسى بك" قال إيجور وهو يشير بيده.

"إذن فلنقم بالتوديع وننطلق في طريقنا..." قفز كازبك قائماً وتمشى مبتعداً وهو يقود حصانه. تبعه الآخران، إيجور سعيداً ومقتنعاً بنهاره، وعظمات قد عقدت الدهشة لسانه.

***

ارتحل أبناء أحمد لأيام عديدة. كان عظمات بصحبة مقاتلين ذوي خبرة طويلة في شن الحملات فشعر بسعادة أكثر بكثير من الفترة التي قضاها عندما قطع المسافة من بلاد الكوبان إلى الشابسوغ لوحده.

كذلك كان إيجور رجلاً سعيداً بدوره، وهو يدرك أنه ذاهب إلى الحرية وحياة جديدة مسالمة. ظل يمسح الريف بعينيه باحثاً عن طريدة ليصطادها، بحيث ظلت مخيماتهم الليلية إلى جانب النار تفوح بروائح لذيذة من اللحم المشوي، أو الطير أو حتى السمك الطازج المصطاد من الجداول الجبلية ذات المياه الباردة. كانت الممرات في هذا الوقت من السنة ممتلئة بشجيرات التوت البري: بحيث أكلت الجياد حتى الشبع أثناء ركوبهم على الطريق.

لكن الجزء الأكثر التصاقاً بالذاكرة بالنسبة لعظمات هو رؤية وسماع التغيير الذي حل بأخيه. فقد دأب كازبك، ليلة بعد ليلة على إمتاعه بقصص عن الغزوات التي قادها: الأعمال الوحشية التي شهدها، وأعمال الانتقام التي قام بتنفيذها. أدرك عظمات بأنه مجبر على الاستماع: فإن نصف ذلك الرعب لم يؤثر فيه لأنه لم تكن لديه خبرة في مثل هذه الأمور. كان يشعر بالقرف في بعض الأحيان، ولكنه تمسك بهذه المحادثات بطريقة ما، وهو مدرك بأن كازبك إنما

ينقي نفسه من هذه الذكريات تمهيداً للعودة إلى الحياة العادية، والأهم من كل ذلك، حتى يلتئم شمله بأبيه.

استذكر كازبك بمرارة "في إحدى المرات، قمنا بدفن رجل رائع من الشابسوغ، كان قد قاد العديد من الغارات بشجاعة هائلة. لكنه تعرض لحظ عاثر عندما قاد غارة ضد ضابط "جاور" شرس بشكل مميز. كانا قد قاتلا ضد بعضهما بعضاً مرات عديدة. سقط البزادوغ المقاتل: أنقذنا جثته وأقمنا له إجراءات الجنازة اللائقة به والمستحقة له كبطل. في اليوم التالي، عثر ذلك الضابط على القبر – نبش الجثة وقام بتقطيعها. تلك هي طريقة القتال".

لم يتمكن عظمات من عمل شيء سوى الاستماع. "لقد انتهى ذلك، يا كازبك. نحن ذاهبان إلى البيت". دحرج كازبك نفسه داخل "البوركا" وغاص عميقاً في ذكرياته "إن ذلك لا ينتهي أبداً، يا أخي الصغير". وعلى أية حال، فإن هذه الذكريات لم تفلح في إبقاء عظمات صاحياً، فقد كان شعوره بالإرهاق طاغياً، لذلك ظل ينام بدون كوابيس.

أدت الرحلة إلى تقوية جسم عظمات بدرجة كبيرة. فقد أمضى في الكوبان أسلوب حياة مستوطن سلمية إلى حد كبير لسنوات عديدة. والآن هو هنا، يجلس في السرج لمدة أربع عشرة، خمس عشرة ساعة كل يوم، ينام على الصخر العاري، يتناول كميات قليلة من الطعام مرة واحدة في المساء، ويبقي عينه مفتوحة وتراقب الطبيعة المحيطة به بحثاً عن دوريات القوزاق المغيرة النَّهابة. فقد الكثير من وزنه، وتصلبت يداه وطالت لحيته حتى أصبحت كثيفة.

أصبح الطقس أكثر برودة في الجبال. قال كازبك عند بلوغهم القسم الثاني من رحلتهم "يجب أن نسرع فأنا لا أرغب في أن تدركنا الثلوج المبكرة في هذا المكان المرتفع".

أخذ عظمات يئن في داخله من فكرة الإسراع: ولكنه بالطبع استطاع أن يعدل توقيته، وتعوَّد على النوم في سرجه بالتناوب مع

الآخرين، حتى في بعض الأيام التي قضوها راكبين عبر سحب من الضباب البارد الذي كان يلفُّهم، مما يجعل الممرات بين الواجهات الصخرية العالية عملية محفوفة بالمخاطر إذ أصبحت زلقة بفعل الرطوبة.

اقتربوا من سفوح القمتين العملاقتين لجبل البروز العظيم. جمَّعت الجبال عاصفة رعدية على شرفهم، وكأنها تتكهَّن بالترحيب بهم. حملق فيهم عمالقة القفقاس في تهديد غاضب، بينما تجمعت سحب في مثل سواد الجحيم مزنرة أطرافها بالأصفر الملتهب أو الحواف الحمراء الدامية وزادت من سرعتها لتجري عبر السموات العلى فوق القمم.

ألقت السحب أثناء توحّدها، بصواعق البرق المتشعبة الرهيبة، وكأنها جيش سماوي، وقد اكتست بالألوان الحمراء والزرقاء لشدة قوتها وما تحمله من طاقة، فألقت سطوعاً مرعباً فوق بياض المنحدرات العليا.

وقف كازبك فوق جرف عالٍ، تاركاً العاصفة الغاضبة تبلله حد الغسل.

نادى على أخيه "عظمات! تعال قف إلى جانبي!" أطاعه عظمات رغم أنه لم يكن يرغب في أن ينقع في الماء حتى جلده. أحاط كازبك كتف أخيه بذراعه الضخم.

"أليس هذا رائعاً؟ كأنما الآلهة سعيدة بعودتنا!".

قال عظمات "حتى الجبال تقاتل، أعتقد أن هذه هي طبيعة بلادنا".

"أنت كالعادة على حق، يا أخي الصغير، ليس هناك مهرب من هذه الحقيقة".

تمنى عظمات لو أن جسمه يظل جافاً، لكن قوة مزاج أخيه أبقته هناك، مقيداً إلى جانب كازبك حتى هدأت العاصفة.

تراجعت الغيوم بعد ساعات من هذه المعركة الليلية. وفي النهاية، تسرب قمر فضي هادئ من خلف الصفوف المتراصة من قواتها، كأنه المنتصر الصامت في السموات، وشع بضيائه السحري من خلال قوس قزح دام لحظات نادرة قصيرة.

عن هذا الحد، قال كازبك "لقد حان وقت النوم، غداً يوم حافل كبير" وكأنما قد شدت العاصفة السماوية من أزره.

على مسافة أكثر من مئة ميل من نقطة بدايتهم، بدأوا عملية النزول من الجبال باتجاه أراضي سهوب نهر التيريك، زاحفين إلى جانب قواعد الصخور الواقعة على حافة النهر فيما بدا وكأنه مضيق لا يفتأ ينغلق عليهم. فجاة، انفرجت واجهات الصخر، كأنها ستارتان هائلتان من الصخر تسحبان إلى الخلف لتكشفا حوض النهر الأوسع، المنقط بمستوطنات صغيرة موزعة على أرض المراعي الفسيحة الخضراء.

"إيجور، ذلك هو التيريك العتيد. ذلك هو النهر الذي تحدثت عنه كثيراً... نحن على مبعدة مجرد ركوب يوم واحد من البيت".

على الرغم من السرعة المضنية التي حافظوا عليها طيلة رحلتهم، تمكن الرجال الثلاثة من استنباط احتياطيات جديدة من الطاقة ودفعوا خيلهم على المسير بسرعة أكبر من ذي قبل عبر المروج حتى وصلوا إلى ضفة النهر. أصبحت نهاية الرحلة واضحة للعيان...

تكونت كتلة من التأثر الحاد في حلق إيجور وهو يراقب رفيقيه وهما يرتفعان في سرجيهما، بينما تتلاعب البسمات في وجهيهما إذ تنبعث الذكريات القديمة حيَّة من مشاهد لم يرياها منذ سنين. بدا كلا الرجلين مثل صبيين... ولم يستطع أن يغالب التفكير في تلك الأيام البعيدة عندما كانت لديه هو الآخر ساحة في مزرعة يلعب فيها وأختاً يناكفها.

تماماً مثل هذه: وصل الثلاثي إلى أطراف مستوطنة متواضعة، مزرعة نظيفة حسنة التنظيم محاطة بأشجار الزان العالية ومسيجة بأوتاد من الخشب الأبيض. وقف كوخ محكم البناء بداخل السياج، في مواجهة ساحة يقاقئ فيها الإوز حول مذود ماء: كان قطيع صغير من الأغنام يثغو في حقل خلف الساحة، رفعت بضع بقرات رؤوسها وهن يمضغن طعامهن أثناء مرورهم بجانبهن.

كان صبي أزرق العينين وكومة من الشعر الأشقر يلعب في الساحة. سحب كازبك عنان جواده ومشى باتجاه السياج لمجرد تزجية الوقت. ركض الصبي باتجاههم، وقد غلبه الفضول للنظر إلى المسافرين.

"كلمني أيها الصبي، هل يمكنك أن تخبرني عن اسمك؟" سأل كازبك.

كان الصبي في حوالي الخامسة من عمره. نظر إلى وجه كازبك بجرأة، لكنه لم يستطع أن يرى الكثير منه لأن كازبك كان واقفاً بوجه الشمس وشكّل بذلك صورة ظلّية عملاقة لمقاتل، متناسقة بالضبط مع جميع أحلام هذا الصبي الصغير عما يبدو عليه شكل الأبطال العظام.

لكنه لم يكن خائفاً. لأنه أثناء رفعه يده ليظلل عينيه، رأى المقاتل الضخم يميل إلى الأمام، بينما استقرت يده على مقبض سيفه بكل أناقة.

"كلمني أيها الصبي..."

وقف الصبي منتصباً في تلك اللحظة "أنا ناخو. وأنا من القبارديي".

ناخو! تبخرت مفاجأة كازبك على الفور. هذا صحيح إذن: بمجرد أن شاهد الصبي يقفز واقفاً ويركض باتجاه السياج، انفتح

شباك ما بداخل قلبه. فكر لحظتها أن هذا ببساطة سببه الفرح بعودته إلى شعبه، لكنه أدرك الآن أنه تعرف على كل عضلة، كل وتر، أنعم جزء من لحمه بل وكل لفافة شعر على رأس هذا الصبي قبل أن تنطلق كلمة واحدة. بدا الصبي أثمن من الذهب بالنسبة له، لأن هذا هو حفيده، التابع له، المعروف وحتى الآن غير المعروف – وهذا إمام وقد أعيدت له الحياة. كان يمكن أن يكون ابنه البكر، هذا الذي تنطط عبر الساحة. عاد إليه الإدراك الكامل في مثل وميض البرق.

ظهر في الباب رجل مسن قوي البنية. عرف فيه كازبك ماميلا، أحد أقرباء الأمير عمر، أمير الحابسا، وأحد أفضل رجال "الأتالق" في الإقليم.

أدى الرجل المسن تحية احترام "للحاج" كازبك، بطل القفقاس، لكنه لم يقل شيئاً.

لأن قرار الكشف عن شخصيته عائد إلى كازبك نفسه.

انحنى كازبك بقوة ورفع ناخو إليه. احتضنه جالساً على مقدمة سرجه للحظة، ليغذي روحه من لون عينيه الأزرق الضارب إلى الرمادي. ثم طبع قبلة كبيرة على جبين الصبي.

"هذه القبلة هي الأولى والأخيرة التي ستحصل عليها مني أيها الفتى... فلتكفيك حتى تصل مرحلة الرجولة".

أنزل ناخو إلى الأرض بحركة دائرية. نظر الطفل إلى الأعلى، نصف مستغرب بأن ما يجري ليس حلماً، بأن مارداً نارتياً مقاتلاً مثل هذا يدخل راكباً إلى نهاره، يكتسحه رافعاً إياه فوق حصانه الهجومي الأبيض، ويشرفه بعناق.

ابتعد الخيالة الثلاثة عدواً. وركض ناخو عائداً إلى عتبة الباب وحاصر "الأتالق" بالأسئلة، التي لم يجب على واحد منها.

***

اضطجع أحمد فوق فراشه النهاري على الشرفة. يستمع ويميز أصوات العمل اليومي في العزبة آتية من كل مكان حولـــه. جيرانه يضحكون وهم ينضمون إلى عماله في الحقول لجني المحاصيل وجلبها إلى الإهراء. كان يجري حصاد حقول الذرة العائدة لقرية الحابسا واحداً تلو الآخر، وكما تقضي العادة، فقد كان كل القادرين على العمل ينتقلون من قسيمة إلى الأخرى، يضمون قواهم إلى بعضها للمشاركة في واجب يقتضي تنفيذه بسرعة.

ستقام الليلة وليمة شكر لجيرانه من باب الامتنان والشكر على مساعدتهم. في الحظائر القريبة، كان بإمكانه أن يسمع صوت أنور وهو يصدر تعليماته بصبر وأناة إلى أولاده حول كيفية عسف الأفلاء: وعلى مسافة أقرب منه، في الجانب الآخر من المنزل، كان يمكن أن يسمع أغاني النساء الخادمات وهن يعشبن حدائق الخضار ويدخلن سلالاً ملأى باليقطين والفلفل للطباخين.

أدرك أحمد انه يموت. وأن الأمر مسألة وقت قبل أن يحين انعتاقه، فواجه مسألة موته برباطة جاش. لقد أحسنت الحياة إليه: فقد حصل على نصيب متواضع من المآسي بالمقارنة مع الآخرين ونال أكثر من حصة من الحظ السعيد. لكن أمرين إتحدا مع الحزن الأكبر – خسارته لتسيما- التي أضعفت قلبه وجعلته يشعر بالتعب إلى حد الموت. أحدهما كان مغادرة ستناي. ظل يهجس في أهمية هذه الحادثة ودلالاتها: اعتبرها نذيراً رهيباً لما قد يحدث لشعبه. وعلى مستوى أقرب إليه شخصياً، شعر بأن زواج ستناي للمرة الثانية هو انفلات لإحدى حلقات الوصل بالأجيال القادمة.

الحادثة الثانية كانت مغادرة ناخو. لم يكن هناك مفر من إرسال الصبي إلى "أتالق". فقد كان أحمد في هذه المرة أكبر سناً وأكثر عجزاً من أن يتولى الإشراف على الصبي بنفسه كما فعل مع إمام. وعليه فقد انصاع لقرار العائلة بوجوب إبعاد ناخو عن البيت والأسرة ليتعلم فنون الحرب. فمع هجرة أمه ستناي، أصبح هناك شرخ مسبق في حياته الأسرية جعل من افتراق الصبي عن أقاربه

خطوة منطقية. لم يكن ناخو في مكان بعيد، فهو في مكان ما من إقليم الجلاخستني، ولكن حسب قواعد النظام، لم يكن مسموحاً له الاتصال بأقاربه. حزن أحمد بصمت على فقدان الحضور الحيوي لابن حفيده، وبانعدام الحافز الذي وفرته صحبته، بدأت معنوياته وروحه تهبطان بسرعة.

عبر خيال أمام وجهه ففتح عينيه ببطء. لقد جاء مراد زائراً.

جلس صديقه بهدوء إلى جانبه لفترة طويلة. لم تكن هنالك حاجة للمحادثة بين هذين الاثنين: فقد تم التعامل منذ وقت طويل مع كل ما كان بحاجة إلى أن يقال.

أحضر خادم "بشله" إبريقاً من عصير الفواكه وملأ مراد كأساً وقربه إلى شفتي أحمد قائلاً: "المحاصيل جيدة هذه السنة. ستمتلئ المخازن عما قريب".

انطبقت أجفان أحمد وأحنى رأسه، معلناً عن فهمه وقبوله للنبأ. شعر بالرضى لأن الأمور على خير ما يرام. "الدور تالياً على حقولك، يا صديقي". قالها بصوت جاف مخنوق، صوت ضرب في قلب مراد بعمق، لأن أحمد ظل على الدوام يمتلك صوتاً عميقاً محملاً بأسلوب سلطوي في الكلام، حتى رغم افتقاره إلى الفصاحة التي كان الآخرون يعزونها إلى مراد نفسه.

سأل أحمد مرة أخرى "أما من خبر؟" كما طفق يسأل في كل صباح عندما يعرِّج مراد لزيارته. هزَّ مراد رأسه نافياً. كلا، ليس بعد. أنا واثق من أنهما سيكونان هنا قريباً. لكن لدي أخبار أخرى، إذا لم تكن متعباً جداً، وتحب أن تسمع ماهية حديث الساعة..."

رفع أحمد يداً معروقة شبه شفافة "هيا تكلم. سلّيني، أيها الثرثار العجوز..." تمكن من رسم شبح ابتسامة، ثم عاد إلى إغماض عينيه، جاهزاً للاستماع.

"لا بد وأنك سمعت الأحاديث التي تروى عن شخص اسمه زان –أوكو السفير بك. هذا الوجيه الشركسي الموجود في تركيا لطلب المساعدة لقضيتنا..."

أومأ أحمد برأسه، وظهر عليه للحظة ما أنه يتأهب للنوم مع بداية مراد في سرد حكاية ما. لكن الاسم جعل ذكرياته تتركز ففتح عينيه وحدج مراد بنظرة قاسية. ثم قال:

"ألم يكن هذا هو الذي تزوج أبوه من مرتبة أدنى منه؟ إذا لم تخنني الذاكرة... فقد بيع على طريقة العبودية بعد أن توفي أبوه.

انشرح قلب مراد عندما أحسً بوجود رد فعل اهتمامي، حتى ولو كان انتقادياً، يبعث الحيوية في صديقه القديم.

"نعم، هو ذلك الشخص. لقد تمكن من الوصول إلى مصر وجمع لنفسه ثورة ونفوذاً هناك. وهو مستقر الآن في استنبول وقد تبنى قضية "الأديغه" لإخواننا في الغرب. حسناً، يبدو أنه قد كان على اتصال بالإنجليز مرة أخرى وأرسل خبراً مفاده أن وفاداته واتصالاته بهم سوف تثمر خيراً بالنسبة لنا".

هز أحمد رأسه. "ذلك أمر طيب.." قال ذلك وهو يطوي يديه برشاقة في حضنه. مال مراد إلى الأمام "ولكن هناك المزيد. الظاهر أنه دعي إلى العشاء من قبل صاحب السعادة السلطان محمود، حفظه الله، في البلاط".

قال أحمد "ذلك أيضاً أمر طيب..".

"وقد كان السفير الروسي حاضراً في نفس المناسبة".

"ذلك أمر غير محمود كلياً. أن تتعشى على نفس المائدة التي يجلس عليها الخائن..."

"لا، لا. لقد كانت المناسبة يوماً رياضياً في الأوك ميدان. طلب السلطان من السفير بك أن يظهر مهاراته، وهو ما فعله، وقد أبدع في ذلك كما هو متوقع من أي شركسي أن يفعل".

اكتفى أحمد بهز رأسه بقناعة سامية.

"لقد أنعم عليه السلطان بجائزة ثمينة لقاء إجادته – طبعاً هناك العديد من الروايات للقصة – ذهب، فضة، خيول، يمكنك أن تطلق لخيالك العنان..".

اغمضت عينا أحمد.

دنا مراد مقترباً. فقد كان تمسك أحمد بالحياة في غاية الأهمية بالنسبة لمراد، حتى يتصالح مع ولديه.... وحتى الآن، لم يكن قد وصل أي خبر بأن كازبك وعظمات في طريقهما إلى البيت.

أكمل حكايته بأكثر نبراته إقناعاً "يبدو أن السفير الروسي، وهو من أحقر أنواع البشر على الإطلاق، شعر بالإساءة إلى درجة أنه أعلن بأن القيصر قد أهين من أسباغ مثل ذلك التكريم على أحد قادة الثوار. لقد هدد بأن يغادر منصبه إذا لم يتم إقصاء هذا "السفير" الشركسي من البلاط – ومن كل القسطنطينية".

انفتحت عينا أحمد مرة أخرى "آمل أن لا يكون السلطان قد استجاب لهذا الاقتراح المشين".

نفض مراد كتفيه "لا فرق هناك. لأن السفير بك غير مضطر لاستجداء المساعدة من السلطان إذا كان يتمتع بدعم الإنجليز... ألا توافقني؟"

عرف أحمد بالضبط السبب الذي من أجله فتح مراد هذا النقاش ومدَّ يده إليه. شعر بأنه متعب إلى درجة لا تمكنه من الاستجابة، رغم أنه قدَّر جهود مراد. "ينبغي على الآخرين أن يفكروا مسبقاً الآن، يا مراد. إن آرائي لا تمثل آراء الأغلبية... أنا لست أثق بالأتراك. وكذلك يعتقد صديقنا القديم، أصلان جيراي".

قال مراد "لدى جيراي أصلان مطلق الحق في أن لا يثق بهم. لقد ظل الأتراك يعتبرون الخانات معقلاً حصيناً بينهم وبين قوة الروس الرهيبة وأحسنوا معاملتهم إلى أن قام القيصر "بالحاق" الإقليم بأراضيهم. فلم تصدر عنهم وقتها أية كلمة احتجاج...".

"هكذا تماماً" قال أحمد وقد بدأ ينفعل" تماماً كما سمح الأتراك لروسيا بأن "تلحق" القفقاس بأراضيها. أنهم يفعلون ما يلائمهم، إنهم غير مهتمين بمصالحنا مطلقاً".

"إلا بإجبارنا على إتباع الدين القويم..."

"سوف نصبح من أتباع السلطان... ليست هذه طريقتنا في الحياة.. ذلك سوف يضعف تقاليدنا وعاداتنا، المتمثلة في حكم الأمراء و "الوَرْق"... استقرارنا... الأمر ملائم جداً للروس إذا قام الأئمة الأتراك بتعليم شعبنا أن كل الناس سواسية أمام الله!" بدا على أحمد وكأن انفعاله وغضبه يتصاعدان، وهذا ما لم يكن القصد من وراء محادثة مراد له.

"أنا أتفق معك، لأن "وضعية مختلطة" أكثر ملاءمة "لنا.. أن "الخابزه" أهم بالنسبة لنا من الانصياع المتشدد لتعاليم الإسلام، وأنا على ثقة من أن الله سبحانه وتعالى يفهم هذا الوضع بحكمته المطلقة الكلية... لقد أقامت العادات بيننا رابطة ووحدَّتنا منذ بداية تاريخنا..."

استمر مراد في بحث المزايا النسبية للدين الإسلامي والأساليب القباردية القديمة بطريقة استطرادية غير مترابطة. في تلك الأثناء أحسّ بقبضة أحمد فوق يده تتراخى. تمنى لو أنه يتمكن من إنعاشه بالخبر الوحيد الذي أراد أن يسمعه: أن ولديه الغائبين قد عادا لتوديعه. ذبلت كلمات مراد إلى أن صمت كلياً وظل ممسكاً بيد صديقه قريبة إلى قلبه، كأنما يأمل في أن ينتقل بعض من قوة احتماله إلى صديقه.

كان يعلم أنه الأقوى بينهما لأن معاناته في شيخوخته كانت أقل. فقد كانت زوجته مدينا ما تزال إلى جانب مدفأته بحمد الله، وكذلك ولداه، تيمور وجعفر وعائلتيهما.

فتح أحمد عينيه فجأة "عندما يعود كازبك، يجب أن يتواصل مع الخان القرمي أصلان. إنهما أخوة بالدم منذ أيام الصبا. ربما يكون ذلك مفيداً لنا".

ثقل جفناه مرة أخرى، لكن مراد استمر في الثرثرة والتفكر وقد رفع هذا الاقتراح من معنوياته تجاه صديقه القديم، فانطلق يقص عليه حكايات من حياته كطفل على ضفة التيريك والمنافسة مع أخيه عمر، كما استذكر أيامه عند الشيشان وذكّر أحمد كيف قام كلاهما بالصيد والقتال سوية. انقضت نصف ساعة على هذه الشاكلة، ثم أستيقظ أحمد.

"يقولون أن الرفيق الودود الذي لا يفكر بمسائل الشرف هو عديم الجدوى. لقد كنت على الدوام شريفاً ومفيداً، يا صديقي، وأنا ممتن لك". قال أحمد بصوت خفيض، ونظر لمرة واحدة في وجه مراد مباشرة. لم يعد هناك خوف الآن من إظهار مشاعره الداخلية الحميمة، لأن أحمد لم يعد موجوداً هناك، بطريقة ما. رأى مراد الابتعاد في عينيه: لم يكن هناك مجال للخطأ فيما تحمله من معاني الوداع.

لمرة في حياته، لم يتمكن مراد من أن يفكر في جواب ملائم فاكتفى بالجلوس هادئاً إلى جانب أحمد لأطول مدة يقدر عليها. لقد كانت لديه رغبة محمومة في وصول كازبك بسرعة لكنه بات يخشى أن الوقت لم يعد يسعفه.

حضر أنور إلى الشرفة "بإمكاني أن آخذ مكانك، يا "تحمادا" إذا كنت ترغب بذلك".

"يا أنور، هذا عمل الرجال المسنين. إنني سعيد بالجلوس هنا. ولكن، لا بأس، اجلس معي قليلاً".

تتنازع أنور مشاعر مختلطة كثيراً ما يحس بها الابن الذي يبقى في البيت: لقد كان هو الذي قدم أكثر التضحيات لأبيه ببقائه، ورغم ذلك فقد كان يعرف أن أحمد بقي متمسكاً بأهداب الحياة في هذه الدنيا لمجرد رؤية كازبك مرة أخرى.

جلس في هذه اللحظة وقد ارتسمت على وجهه نظرة حزينة، وأرهقته العواطف المتصارعة المترددة بين الغضب والألم أكثر مما فعلت واجباته بكثير.

أدرك مراد كل هذا. فقد غادر هو الآخر بيت العائلة بعد خلاف مع أبيه، ولكنه عاد في نهاية المطاف ليعقد صلحه. فقد ظل أخوه عمر الابن "البار"، بينما بقي هو الابن المفضل الذي لا يستحق الإمارة.

"يا أنور، هناك طرائق عديدة لاكتساب البطولة، كما يقول المثل: "البطل هو أول من يتحمل الأعباء". ما كان كازبك ليذهب طالباً الثأر لشرف عائلته لو لم يكن يعرف أنك موجود هنا لحماية إرث العائلة".

فجأة، انطلق صوت أحمد قوياً رناناً، كما لو أنه ما يزال في عنفوانه ويسيطر على قواه سيطرة تامة، وليس رجلاً عجوزاً يحتضر على سريره النهاري.

"ما يقولـــه مراد صحيح يا ولدي. بالإضافة، لقد كنت أنت على الدوام الفارس الأفضل بين الثلاثة.... إنني شديد الفخر بك يا أنور. بارك الله فيك".

بهذه الكلمات، استدار أحمد ليواجه الجدار، وفاضت روحه.

ركع مراد وأنور على ركبتيهما وبدآ يصليان "الله أكبر..."

"الله يعلم ويوجه! تبارك اسمه المقدس!"

شكراً لله العلي القدير على أن هذا الرجل العجوز، الذي قدم نصيبه من القتال في شبابه، قد كان محظوظاً بما يكفي لأن تجيء منيته بسلام في صحبة المؤمنين، وليس بين أيدي أعدائه.

بينما كان كازبك وعظمات يقتربان من نهاية رحلتهما المضنية، كذلك كان أحمد الكوباني يُحمَل في احتفال مهيب إلى مكان دفنه. كان أنور حامل النعش الرئيس: وكان جعفر، تيمور وروسلان ابناء أنور الثلاثة، الآخرون، وكلهم مرتدين التشيركيسكا السوداء كما تقضي العادة. حملوا النعش لغاية بوابة عزبتهم، حيث اجتمع القرويون الآخرون وتناولوه فوق أكتافهم يتبعهم أقرباء أحمد في تتابع واجم إلى الأرض المقدسة التي تتشكل منها مقبرة "الحابسا". كان الموكب بقيادة شيخ مسلم، يحمل القرآن الكريم في يد، وفي الأخرى مسبحة.

تحرك الموكب إلى الأمام، وبينما هو كذلك انطلق عويل مدوٍ من نساء البيت، وهن ينتحبن في خلوة جناحهن. المؤسف أنه لم تكن لدى أحمد زوجة ولا "نِسَّا" تقيم الحداد عليه، لكن قريباته من النساء والخادمات ملأن السكون بشكل عفوي بأصوات نحيبهن.

لقد جاء حزنهن صادقاً: فقد كان وجيهاً شديد الاحترام والتقدير، وسيداً كريماً، ولم يبق في القرية شخص واحد لا يعاني من الإحساس بعظم الخسارة.

مشى مراد متمهلاً خلف الأقارب، متكئاً بقوة على ذراعي اثنين من المشاركين، هما ولدا شقيقه الأكبر الأمير عمر، الذي كان يسير بدوره إلى جانبه. لقد أضعفه موت صديقه بحدة، وشعر بالأسى لعدم نجاحه في الإبقاء على معنويات أحمد متغذية بما يكفي من الحب والإيمان. كان على ثقة من أن ولدي أحمد الغائبين سيعودان خلال أيام قليلة... لذلك أحزنته المأساة الكامنة في عدم تمكنهما من حضور هذه المراسم بعمق وحدّة.

أنزل أحمد ملفوفاً بالكتان الأبيض ليستقر في قبر ملبس من الداخل بعوارض من خشب الصفصاف، وقد أدير رأسه باتجاه مكة المكرمة، ووضع أفضل سيوفه إلى جانبه.

"بسم الله واسم نبيه، تبارك اسمه... هذا، هو المصير النهائي للإنسان... إن أقدارنا هي في أيدي الله سبحانه وتعالى.. إنا لله وإنا إليه راجعون".

لم يكد مراد يسمع كلمات الشيخ الذي كان يتلو آيات من القرآن الكريم فوق قبر أحمد. فقد كان يكافح حتى لا يجعل دموع رجل عجوز تقلل من هيبة وكرامة الحدث: لم يحدث الأمر كما كان أحمد يريد له أن يحدث. لأن أحمد يمثل قمة النبل القباردي: وقد عبَّرت حياته عن الثقافة الروحية لشعبه في كل خطوة خطاها، في درجة تحفظه الرائعة وذوقه المرهف، كبريائه الهادئة، التي كانت حاضرة فيه منذ رحلته الأولى من الكوبان، وحتى في الاحتقار الخفيف الذي عامل به جميع جيرانه الأقل تمدناً.. جلبت تلك الفكرة طيف ابتسامة إلى وجه مراد، وكان سعيداً لأن صديقه أنهى أيامه كوصي وحامٍ للأساليب والتقاليد القديمة. وذلك هو جل ما كان يتمناه على الدوام. لكن الدموع انهمرت على أية حال مع الخاطرة المؤلمة التي خطرت له "آه يا أحمد، يا أخي العزيز، لماذا كان عليك أن تغادر قبلي... وأنا الأكبر سناً".

***

اقترب كازبك وعظمات من قرية الحابسا في صمت. تغلبت العواطف على كليهما عند مرأى الحقول العريضة، التي تم حصادها بالكامل، الضفاف السحيقة الحادة لنهر التيريك، خط أشجار الصفصاف القديم المألوف يصدر موسيقى ناعمة بينما ترفرف الأوراق الخضراء اليانعة مثل الستائر فوق المياه.

لكن، لم يخرج إليهم رتل من الصبية المرحين طاردين خيلهم بسرعة رهيبة، يطلقون نيران بنادقهم ابتهاجاً ويستديرون مبتعدين

ليخبروا القرويين بأنهما أصبحا في مرمى البصر. كانت الحقول عارية: توقف العمل في مؤشر على الاحترام.

قال كازبك "لقد تأخرنا كثيراً، يا عظمات"

"آه، يا إلهي، لا!" واندفع عظمات إلى الأمام باتجاه عزبتهم والحزن يكاد يفطر قلبه. يتبعه أيجور مسرعاً خلفه.

سيطر كازبك على حزنه على هذه الحادثة كما تعلم أن يسيطر على العديد من المآسي. لحق بالآخرين ودخل إلى بيته، حيث تجمهر الخدم حوله مطلقين وابلاً من الصرخات العالية التي تعبر عن الدهشة والحزن.

خرجت زوجته نورسان، متلفعة بثوب أسود للترحيب به.

"إن الشيخ موجود الآن إلى جانب القبر، يا كازبك".

جلس كازبك على الأرض ممسكاً برأسه بين يديه. استدارت نورسان نحو عظمات.

"مرحباً بك، يا شقيق زوجي. أتمنى لو أنك عدت إلى البيت في يوم أفضل".

ركع عظمات هو الآخر ودفن وجهه بين يديه. أن يكون قد سافر كل هذه المسافة، وأن يفشل... حضنتهما نورسان بقولها "يجب عليكما أن ترتديا ملابس لائقة، سرعان ما سيعود المشيِّعون. تعال من هنا يا عظمات وسوف ألبي لك احتياجاتك". أصدرت أوامرها بهدوء إلى الخدم الذين سرعان ما أحاطوا عظمات بعنايتهم.

قادت نورسان بنفسها كازبك الذاهل إلى جناحه، حيث نزعت عنه معطفه، درعه الزَرَدْ، أسلحته، ووضعتها جانباً، لم تخطر ببالها أية واحدة من كلمات الترحيب الحميمة التي كان يفترض، بحكم الارتباط أن تتداول بينهما. فقد تخلت عن تخيل مثل هذا التبادل منذ سنين ماضية.

استحم كازبك وارتدى ملابس الحداد السوداء التي تليق "بالحاج". دخل إلى صالة بيته وجلس جاهزاً لاستقبال المعزّين، متجاهلاً إرهاقه من السفر. كانت العادة تقضي بتحضير احتفال تعزية، وقد صمم كازبك على أن لا يخذل أباه، في هذا الأمر على الأقل.

تم شرح كل هذه الإجراءات لإيجور، الذي اضطلع بدوره، عندما جاء الوقت، بعناية مفرطة، يُدخِل الضيوف ويقدم لهم المرطبات. كان أنور أول العائدين: عانق شقيقيه بدفء ولكن بحزن على أن يرحب بعودتهم في هذا الظرف، وأحسَّ بقدر كبير من الانفراج لأنه سيسلم مقاليد تقبل لعزاء إلى شقيقه الأكبر.

"مرحباً بك! آه يا أخي، كم أنا سعيد بعودتك إلينا!" قال أنور، وقد أصبح بإمكانه أن يشارك أحداً آخر في حمله للمرة الأولى منذ أسابيع.

"بارك الله فيك يا أنور. إن امتناني وأسفي يفوقان الكلمات.. يا أخي العزيز. تعال، أجلس إلى جانبي الآن... وأنت يا عظمات، اجلس إلى جانبي الآخر".

كان طابور الوجهاء الذين دخلوا وخرجوا من وإلى بيت كازبك في ذلك اليوم غير مسبوق من حيث العدد أو المهابة. لم يكن القرويون قد رأوا مثل هذه الهيبة العظيمة في حياتهم التي تعيها الذاكرة.

حضر الأمراء، "الورَق"، الملالي، الشيوخ، وعِلية شعب "الجلاخستني" إلى بيت كازبك. أدى رجال الدين العديد من الصلوات مستذكرين فضائله: استجاب أبناؤه باحترام وبكلمات قليلة لكل تعابير التعاطف هذه.

همس عظمات بحزن "أتعلم يا أنور، كان يجب أن تعيش أمي حتى ترى هذا، كانت ستفخر بلا حدود..."

أجابه أنور "لا، إنني سعيد لأنها ستكون مع أبي".

نظر عظمات إلى أخيه وقد فوجئ. لأن أنور هو أقلهم التفاتاً إلى مثل هذه الأفكار. لاذ عظمات بالصمت، وقد ازداد إدراكه من تلك الملاحظة الوحيدة لمقدار الكبر والتغير الذي أصابهم – ظل يأمل، باسم أبيهم، إنهم تغيروا نحو الأفضل.

***

الفصل الخامس
1837

كان الوقت أواخر الصيف في بلاد الأبزاخ، الشابسوغ والبزادوغ: القفقاس الغربي، حيث تتطاول الجبال فوق سهل ضيق يمتد إلى شواطئ البحر الأسود. تمتد الجبال أحياناً إلى حافة المياه، جاعلة الطريق ملأى بالمهاوي لأي مسافر، مضطر إلى المرور صعوداً ونزولاً في الأودية الضيقة شديدة الانحدار أو يتسلق ممرات ضيقة فوق الصخور العالية التي توقف دقات القلب رعباً، حتى يصل إلى المركز المأهول التالي.

حيث يتوسع السهل الساحلي، قام الجيش الروسي بتعرية مساحات واسعة حتى أصبحت جرداء، فقد كان يحتل بضعة مرافئ على هذا الجزء من الساحل بدون أن يشعر بالأمان. كان من الممكن بنظرة واحدة، أن يعرف المرء أين تبدأ "السيطرة" الروسية وأين تنتهي. فقد كانت تكتيكات القطع والإحراق تترك حلقة سوداء محدبة حول البلدات التي تحوي حاميات عسكرية. بعد ذلك، وعلى مسافة مجرد أميال قليلة، بإمكان المسافر أن يصل إلى قرية مزدهرة من السكان المحليين حيث تتفتح الأرض بالخضرة مثل واحة في الصحراء. حيث الأكواخ النظيفة المنظمة المحاطة بحقول من الذرة والخضروات.

كان الطقس حاراً، رطباً، ولكن كان السلام يحيط بالمكان بينما ذرعت تلك المجموعة طريقها بتفاخر متجهة نحو قرية صغيرة أو" كوناغ" فوق جرف عالٍ مفتوح للرياح، مشرف على البحر. كان هدفهم حتماً هو لفت الانتباه إليهم. ركب في المقدمة جندي شركسي

بكامل عدته القتالية، وتبدو عليه سيماء المقاتل الأديغه في كل بوصة من كيانه. كان هذا السيد بك، أحد قادة قبيلة البزادوغ. كان يركب بخيلاء الأسد. وكأنه لا يخشى الهجوم من أي حيوان مفترس آخر، مهيباً وعديم الاهتمام في نفس الوقت. من الصعب تقدير سنه، فقد كان نحيلاً ويتمتع بلياقة بدنية تكفي لأن تضعه في منتصف عشرينات عمره، ولكن بالحكم من سيماء التجارب في وجهه فهو أقرب إلى الأربعين. يحمل وجهه تكويناً إغريقياً كلاسيكيا بعينين بنيتين داكنتين وتعبير ينم عن نزاهة لا تقبل التنازلات أو المساومة.

نظر إلى الخلف وابتسم مأخوذاً بينما كان أول رفاقه، وهو رجل إنجليزي شاب يعبس قليلاً وهو يحاول أن يسلك ممراً ضيقاً بين صخور شاهقة عمودية تسبب الدوار.

قال السيد بك "لم يعد المكان بعيداً". واستمر في ركوبه كما لو أنه يعبر شاطئاً رملياً. شتم جون لو نجوورث في داخله ولكن بسبب كون شرفه كأنجليزي في الميزان، فقد تجاهل العضلات المشتعلة من الألم والجلد المكشوط في مؤخرته وحث جواده على التقدم بمهاميزه. ففي نهاية المطاف، هذه هي مغامرة حياته...

لونجوورث هو المراسل الأجنبي لصحيفة التايمز اللندنية. مما يعطيه حق المرور والدخول إلى المناطق الساخنة في العالم. لقد كان متواجداً في اليونان (ليس هناك من ليبرالي يحترم نفسه غاب عن ذلك العرض) والآن فقد خصص نفسه بحماس للقضية الشركسية – لقد كانت تقاريره حول تطورات حرب الثوار ضد روسيا تمنح لرئيس تحريره الكثير من السرور.

لا أحد يناصر الطرف الأضعف برغبة أكثر من الجمهور البريطاني، والآن، بعد أن تم نشر "بورتفوليو" التي كتبها أوركهارت بنجاح، وتقارير لونجوورث المتعاطفة بشكل كبير، فإن "القضية" الشركسية في طريقها إلى أن تصبح محترمة ومعاصرة في نفس الوقت.

كان لونجوورث نحيل البنية، أسمر البشرة، قوي الجسم، ورابط الجأش إلى حد بعيد. كانت بنيته صغيرة لكنه كان يتحامل على نفسه: وبالنتيجة كان يبدو أكبر من سنه الفعلية: الخامسة والعشرين.

جاء خلف لونجوورث نبيل شركسي لم يكن قد شارك حتى الآن في الحملة: إسلام جري. لم يكن لونجوورث ميالاً إلى عبارات المبالغة، بسبب كونه صحفياً محترفاً، لكن ربما كان إسلام جري أكثر الرجال وسامة ممن وقعت عيناه عليهم – فهو يحمل نفس المزايا البدنية التي جعلت قصص أوركهارت وبيل قابلة للتصديق بالضبط. طويل القامة، راقي، ملابسه أنيقة حد الكمال، مقل في الكلام والإشارات، وفارس عظيم، كان إسلام جري من الأبزاخ في الأصل. كان في سن قريبة من الرجل الإنجليزي، لكن لونجوورث كان يشعر إلى جانبه مثل تلميذ مدرسة قليل الأدب، وكان يغار بشدة من برود أعصاب إسلام جري الذي يتمتع به بدون بذل أي جهد...

في هذه اللحظات بالذات كان إسلام جري يظهر أكثر جرأة من ذي قبل، راكباً أمام الجندي اليوناني الذي اصطحبه لونجوورث بصفة مساعد شخصي وحارس لشخصه. لم يكن هو نفسه يحمل أية أسلحة (على الأقل ليس رسمياً). فإن حمله للسلاح سوف يتسبب في نشوء مشكلة دبلوماسية، وقد تسببوا بالعديد من هذه المشاكل مؤخراً... إن جيورجيو من أبناء جزيرة كوس، القاحلة حيث كان القتال (اليونان ضد الأتراك من أجل الاستقلال) عنيفاً لا يعرف المهادنة. لقد أصبح ضحية أخرى لزمن صار فيه القتال أسلوباً للحياة لدى العديد من ذوي المشاعر الوطنية الجديدة. لم تكن لديه عائلة ليعود إلى بيتها وكان يشعر بمنتهى السعادة لأنه يقاد إلى قضية أخرى ويتلقى من لونجوورث مبلغاً ضئيلاً من المال يغطي به نفقاته. كان مغامراً بالفطرة مثل كثير من اليونانيين، واسع الحيلة وإن لم يكن مخادعاً، وحاذقاً في اللغات. كان الشرط الوحيد الذي

فرضه هو الإصرار على ارتداء ملابسه الخاصة للمغامرة: سترة من المخمل الأسود، مطرزة بطريقة رائعة، وبنطال صواري من الصوف الأخضر المتين. أكمل الوشاح الأسود المربوط حول رأسه زيه غير التقليدي الأنيق. كان في هذه اللحظة يرفع علم الأمم الشركسية عالياً فوق رأسه بطريقة ملفتة للنظر، وهو العلم الذي لم يصممه أحد غير ديفيد أوركهارت نفسه: حقل مرفرف من الحرير الأخضر يحمل الأسهم المميزة الثلاثة التي تشير إلى الأعلى: (في حالة أن روسيا، الواقعة إلى الشمال، تنتابها أية شكوك حول الجاهزية الدائمة للقبائل التي ترمز إليها هذه الحزمة العارية). تلك كانت الخلفية التي جعلت إسلام جري يظهر بمظهر البطل المثال. سجل لونجوورث ملاحظة ذهنية: إن لديه استعداداً جيداً.... قام بحراسة المؤخرة جنديان شركسيان آخران اضطرا الآن إلى المسير في صف إفرادي مع وصول المجموعة إلى الكوناغ. عند مدخل المستوطنة، والذي لا يحميه أكثر من سياج خفيف من قضبان الوتل المضفرة بالأغصان والخشب، وقف الوجيه، كريم بك الرجل الذي خط الشيب الرمادي رأسه، وتدل ندوبه المتعددة على سنوات مقاومته. كما هي العادة دائماً في مثل هذه الاجتماعات، فقد كان الوجيه الرئيس مصحوباً بسبعة من الوجهاء.

"مرحباً بك يا إسلام جري وأنت، يا السيد بك. لقد نالنا الشرف باستضافة مثل هؤلاء الضيوف المميزين..." مرَّت نظرة كريم بك العجوز من فوق رفاقهما الزوار الأجانب بدون أي تعليق. ترجل الرجال الشراكسة وعانقوه: بقي لونجوورث في الخلف ولكن عندما حان دوره في التقديم مدَّ يده إلى الأمام. لم يتردد كريم بك الذي يتمتع بالتربية الحسنة الطبيعية لدى شعبه، في أن يمد يده هو الآخر ويتبادل معه المصافحة اليدوية الغريبة عليه.

سأل موجهاً كلامه إلى إسلام جري "هل يتكلم لغتنا؟"

طمأنه إسلام جري بقوله "أنا أقوم بالترجمة إلى اللغة التركية "للجاور" اليوناني. الذي يكلمه بعدها بلغته الخاصة".

تلقى كريم بك هذه البادرة بطيب خاطر "حسناً، قل له أنه مرحب به في قريتي وفي بيتي كضيف مكرم عندي". ثم كرر باللغة الشركسية للبقية "وأنتم جميعاً على الرحب والسعة كضيوفي".

بعد إتمام الرسميات، توجهت المجموعة إلى مسكن صغير من اللبن الطيني لعقد المحادثات.

لقد شهد لونجوورث العديد من هذه المقابلات في الأسابيع القليلة الماضية، ولم يتوقف عن الشعور بالانبهار من التمسك الرسمي بالآداب الحسنة، والصبر الحذر الذي لا يخيب في الطريقة التي يقوم فيها كل من السيد بك وإسلام جري بالدعاية للقضية. لقد استطاع بحلول هذا الوقت أن يفهم المغزى العام للنقاش.

أعلن كريم بك "... أن أملنا الوحيد في الوقت الحاضر مركز على انجلترا". لقد أظهر أنه برغم كبر سنه، داهية بشكل ملفت للنظر ومتابع لمجرى الأحداث في الحرب. "لقد تخلى السلطان عنا. لقد فكرت في مرحلة ما أن مصادقة الروس ربما تكون مفضلة". هز رأسه بالندم "ولكنني كنت مخدوعاً. لأن غايتهم الوحيدة هو أن يجعلوا منا عبيداً ويأخذوا أراضينا ليمنحوها لفلاحيهم. يجب أن نقاوم حتى الموت.."

نظر باتجاه لونجوورث الذي كان يصغي بانتباه شديد بينما كان جيورجيو يهمس له بترجمة متزامنة. قال:

"نحن شعب فقير ومنقسم على نفسه ولا نملك الوسائل لمقاومة الغازي. إن مخزوننا من ملح البارود يعاني من النقص. أنتم وحدكم القادرون على تخليصنا من الروس".

كان لونجوورث قد سمع هذه المقولة عدة مرات، وساهمت كل مرة في تعظيم إحساسه بالالتزام. لم تعجبه الطريقة التي يحدق فيها العجوز باتجاهه بقوة، في سعي واضح لتأكيد نفوذه وقوته بالتحديد.

مال جون لونجوورث إلى الأمام "أرجو أن تخبر مضيفنا العزيز بأنني أشكره على كرم ضيافته وكلمات ترحيبه. أخبره أيضاً أنني أحمل تحيات من ديفيد أوركهارت.."

شعر لونجوورث بالامتنان لسماعه همهمة من التعرف وترديد الاسم "داود بك" بنبرات حماسية خفيضة.

استطرد لونجوورث "لقد جئت بأخبار طيبة، وهذه سوف أعلنها في المؤتمر الكبير، "مجلسكم". إنني متلهف على الالتقاء بمواطني السيد بيل والذي فهمت أنه موجود منذ فترة في مكان الالتقاء، حتى نستطيع سوية أن نطمئنكم إلى النوايا الحميدة لبلادنا – وآمالنا العظيمة في نجاحكم".

بان على كريم بك الرضى بهذا الخطاب – بدا راضياً أكثر منه مضللاً. فقد سمع العديد جداً من الكلمات بحيث لم يعد يتأثر بسهولة بأجنبي يحمل الهدايا... قال بأدب موجهاً كلامه إلى المجتمعين بشكل عام "لنأمل أن تكون الأخبار التي يحملها ذات قيمة، فنحن مشرفون على الحرب وإراقة الدماء. لدي أخبار عن وجود جيش آخر يستعد للتحرك خروجاً من إيكاتيرينودار، بالإضافة إلى القوات الموجودة حالياً في غيلينجيك. فهل لديك أية أخبار حول ذلك الموضوع يا السيد بك؟"

نفض السيد بك كتفيه "كل الأخبار سيئة. ما عدا أنني أظن أن هذا "الإنجليزي"، قد أحضر معه حمولة كبيرة من الرصاص وملح البرود والذي افترض مسبقاً أنه سوف يبيعنا إياها... أو ربما سيهبها لنا. من يعلم. ربما يتوضح ذلك في "المجلس".

تمت ترجمة هذا الكلام بسرعة إلى لونجوورث، فأحسَّ بانزعاج رجل يريد أن يحقق نواياه من كل قلبه، ولكنه غير واثق تماماً من أنه سيتمكن من ذلك.

مع تقدم الوقت مساءً، بدأ يشعر أنه في وضع حتى أكثر حراجة، رغم أنه تم تكريم مجموعته بوليمة فاخرة، أخبره فهمه

المحدود "لخابزه" الأديغه أنها إلزامية: بات يتعجب من عدد القرويين الذين تناولوا طعاماً بهذه الدرجة من الفخامة في الأسابيع الماضية. أطباق من معجنات الأرز والذرة المغمسة بالصلصات بكميات سخية: أطعمة محلاة بالعسل... هو يحب الطعام، وهذا شهي. ما كادت الوجبة تنتهي حتى وصل مقاتل حاملاً جراب رسائل جلدي. تصفح كريم بك المحتويات باقتضاب ونظر عبر المائدة إلى لونجوورث "إنها رسالة من صديقك الموجود في أدهينكوم. أعطها له يا أخي: لا بد وأنها مكتوبة بلغته".

شعر لونجوورث بالإثارة والأمل. فقد بدأت الأحداث تستجمع الزخم.

"إنها من جيمس بيل. إنه يحثني على الذهاب إلى أدهينكوم بأقصى سرعة أستطيعها. إنه يقول بأن المؤتمر على وشك أن يبدأ. يجب أن أستميحكم العذر في رغبتي بالمغادرة في أبكر وقت ممكن في الصباح.."

أعجب كريم بك بحماس الأجنبي.

قال "نعم، نعم" وهو يلوح للخدم لكي يزيلوا الوجبة "العديد منا أيضاً سيحضرون "المجلس". لذلك سنذهب جميعنا مبكرين سوية".

سرعان ما ألفى لونجوورث نفسه وقد أسكن في منزل ضيافة قريب من مسكن كريم بك.

حاول أن ينام، لكن مزيجاً من الطعام الدسم، عويل الكلاب، نقيق ذكور الضفادع وآماله العالية الخاصة به بنجاح المؤتمر أبقته صاحياً حتى الساعات الأولى من الصباح. في الواقع أنه ما كادت عيناه تغمضان حتى أيقظه خادم يحمل ماءاً بارداً وسلطانية ملأى بالشاي.

احتجب بعض من حماسه وراء إدراكه بأن جسمه كله متيبس ومغطى بندوب سببها ركوب السرج. لكن روح المشروع كانت قد

استحوذت على أحاسيس جون لونجوورث، فركب فرسه بأعمق مشاعر الصوفية الرواقية.

***

كان قد تم استدعاء كازبك بدوره إلى "المجلس". فقد أصبحت معرفته بتكتيكات الروس الحربية هي الأعمق بعد حملاته في الشابسوغ وعليه فقد أصبحت قيادة الأديغه الغربية بحاجة ماسة إلى مشورته وتطلبها بإلحاح.

حضرت نورسان إليه بينما هو يستعد للرحلة.

"لقد حملت هذه الأشهر الماضية التعزية، يا زوجي.. ليس فقط بالنسبة لي، بل بالنسبة لأنور أيضاً. إنني آسفة لاضطرارك إلى الذهاب.."

أمسك كازبك بيديها بقوة. "لن يطول غيابي كثيراً هذه المرة". وابتسم لها بمحبة "لقد أصبحت عجوزاً ولينا الآن. إن مكاني هو هنا".

لكن ذلك لم يكن الانطباع الذي حملته نورسان عندما تمشى خارجاً من البيت لكي يشرف على قيام الخدم بتحميل الخيل القباردية بمستلزمات الرحلة. بمجرد أن ظهر خارجاً، تقدم منه إيجور وهو يقود جواده المجهز، وقد وقف إلى جانبه الصبي الصغير. ناخو، مرتدياً لباس التشيركيسكا القتالي الكامل.

وقف أنور على عتبات البيت، وهو ما زال متشككاً حول هذا المشروع.

اعترض قائلاً "ما زلت أقول أن ناخو أصغر بكثير من القيام بمثل هذه الرحلة. سيكون أفضل حالاً مع "الأتالق". فهناك سيتعلم شيئاً ما على الأقل، وليس مرتحلاً بعيداً لمجرد المتعة".

ضحك كازبك "سيتعلم ناخو بصحبتي في شهر واحد أكثر مما يمكن أن يتعلمه في سنة مع "الأتالق". أنا أعرف ما أفعله يا أنور، فلا تقلق عليه. بالإضافة إلى ذلك، فأنا لست مغادراً لمدة طويلة... سوف نرى بعد هذا "المجلس" العظيم ما يحمله لنا المستقبل – الحرب الشاملة أم السلام الفوضوي..."

ظل انعدام الرضى بادياً على أنور، ولكن لأن ناخو هو حفيد كازبك، فهو غير قادر على عمل أي شيء لمنع حدوث المغامرة. فاجأ نفسه بقوة اعتراضاته. فربما قد أقام في الحابساي أطول مما يجب، منغمساً في أساليبه أكثر مما يصح...

كان عظمات يسرج جواده هو الآخر، لم يكن أنور سعيداً بتوديع نصف عائلته في يوم واحد، تلك كانت حقيقة الوضع.

نادى عظمات "أنت لا تنوي امتطاء الفحل العربي يا كازبك، ألم تعد تحبه؟"

كان أنور سيحمر خجلاً لو أن مثل هذا الفعل ممكن عند رجل قباردي. فقد كانت هذه هدية التعزية من كازبك...

قال باقتضاب "نحن بحاجة إلى الفحل هنا من أجل الاستيلاد، لقد أصبح كبيراً جداً على العمل بكل الأحوال. سوف يستفيد قطيعنا من الدم الجديد".

ذهب كازبك إليه وعانقه بدفء "سيكون أداء الفحل العربي رائعاً. لدي جواد طيب من رسن الشولوخ سيحملني بأمان. اعتن بشؤون البيت جيداً، يا أنور".

قال أنور "إنني أفعل ذلك دائماً" ثم استدار إلى عظمات. وهذا أشد ايلاماً. "ابعث لي بخبر عندما تصبح الأمير. سيعجبني ذلك، يا أخي الشقيق".

انحنى عظمات من سرجه إلى الأسفل ليقبض على يد أنور بقوة. "سوف أخبرك إذا ورثت اللقب... ولكن يا أنور، لماذا لا

تحضر بكل الأحوال؟ يجب أن تشاهد الكوبان، عائلتي – سوف أشتاق إليك. سوف أشتاق إلى الجميع..."

"اعتنِ بنفسك. انتبه إلى ظهرك، سوف نكره أن نسمع بأن سكيناً أو رصاصة من قوزاقي قد أودت بحياتك"

ضحك عظمات بدهاء، لأن أساليب أنور الخشنة كانت تذكره بشدة دائماً كيف كان أبوه يتكلم عندما كانت لديه مشاعر عميقة يرغب في إخفائها.

في هذه اللحظة، تحدث كازبك بصفته كبير العائلة: إذ لا يليق بالأخوة أن يفترقوا في وضع مشبع بالعواطف "سيكون كل شيء على ما يرام" قال بسلطوية "فقط أنت قم بالإشراف على مزرعة الاستيلاد حتى أعود يا أنور. سيرافقنا عظمات حتى نهر اللابا. بعد ذلك يفترض أن يكون بأمان حتى يصل إلى لاشابسينا. ليس هناك الكثير من الأعمال الحربية في ذلك الاتجاه..."

عانق أنور الصغير ناخو ولوح به إلى صهوة جواده. لم يكد الصبي يبلغ السنة السادسة من عمره، لكنه جلس على جواده بثقة، ورفع سيفه القصير من فوق كتفه مثل مقاتل متمرس.

نظر كازبك إلى الخلف بينما كان ناخو يجمع أعنته بأناقة وحاول جاهداً أن لا يظهر أية إثارة أو توجس من الرحلة العظيمة التي تنتظره. ذكرته هذه الحادثة برحلته العظيمة عبر البحار إلى الخان القرمي جيراي عندما كان في نفس هذه السن، وشعر بقلبه يحنو بعمق على الصبي. فقد أصبح الآن بلا أب ولا أم: لم يكن سهلاً على ناخو أن يغادر بدون تلك الكلمات المريحة التي تذكرها وقد ترددت أصداؤها حتى في أحلامه طيلة تلك السنين الماضية. لقد أصبح ناخو يتمتع بصلابة متفردة تشع منه. لسوء الحظ، ربما كانت تلك هي الحماية الفضلى له.

قال أنور مداعباً "أنت، يا ناخو الصغير، المغادر مع جدك مثل مقاتل حقيقي! اعتنِ بنفسك وعد إلينا سالماً. سوف نشتاق جميعنا إليك" متوقفاً عند ركاب فرس الصبي، ويربت على ركبته.

قال ناخو بلهجة مرحة "أشكرك يا عمي، سوف اعتني بجدي عناية طيبة".

ضحك الرجال من هذا القول: وتحركت قطيرة الخيل خارجة.

أدام أنور النظر. فقد أصبح الأمر غاية في التأثير عندما وصل إلى حد ذهاب الأطفال والفارين البولنديين لحضور "المجلس" بينما بقي هو في البيت.

ولكن في تلك اللحظة بالذات، نادى روسلان عليه بصوت عالٍ من داخل الحظيرة، فنسي أنور حزنه مع بداية يوم آخر من العمل.

***

تجلس قرية أبون بشكل جذاب على سهل صغير إلى الجنوب من نهر الكوبان، الذي يلتف حولها في نصف دائرة عملاقة من الشمال إلى الجنوب. تمتد خلف النهر هضاب روسيا التي لا نهاية لها، ورغم أن تلك الأرض كانت موطن تتار النوغاي، إلا أن الجنرال سوفوروف دمرها قبل نحو سبعين عاماً.

تظهر سلسلة جبال القفقاس الكبرى على مسافة قصيرة من القرية باتجاه الشمال الشرقي، عالية معتمة وتمتد إلى داخل السهل بأصابع صوانية حادة طويلة، وفيها شُعُبٌ ومداخل عميقة تطلق العديد من الجداول إلى المراعي المعشبة.

في الجنوب الشرقي، تنغلق الجبال: عارضة جداراً ثلاثياً من القمم. من هنا كان انطلاق نهر أبون ونزوله، مع أن العثور على منبعه كان أمراً عسيراً، في القنوات المتعرجة الملتوية التي حفرها، لدرجة أن الصوت وحده المندفع من خلف واجهة صخرية متشققة، يقدم الدليل على وجوده. يتجول النهر النازل من المنحدرات القاسية

للجبال، ويتلوى خلال السهل مغذياً عمقاً جميلاً من الغابات على منحدرات التلال. تفسح الغابة حول أبون المجال لأراضي رعوية وحقول محروثة، يقوم النهر بتغذيتها حتى الإرواء.

إنها بقعة رعوية زراعية مثالية لتواجد ريفي لم يتغير على مدى مئات السنين – بشكل أدق حتى قرر القائد العام باسكيفيتش أن يباشر في تنفيذ خطته المتعلقة بإنشاء الخط الموازي الثالث، وهو طريق عسكري محمي من غيلينجيك على شاطئ البحر الأسود إلى أولغينشو على نهر الكوبان – اندفع "طريق عسكري" ثانٍ يحاكي طريق ييرمولوف السريع خلال مضيق داريل. سيسيطر هذا الخط على القفقاس الغربي سيطرة تامة: سيتم قطع الجبليين كلياً عن كل مصادر تموينهم.

كانت أبون الصغيرة مجرد مركز تجميع في مخططه الكبير المميت. لم يكن هناك أي شيء يستطيع مزارعو السهول أن يفعلوه عندما استيقظوا ذات يوم ليكتشفوا لواءً من الجنود الروس وسرية من القوزاق إضافة إلى قوافل من العربات، مخيمة عند عتبات أبوابهم. نصبت الخيام بسرعة في خطوط منتظمة: أقيم سياج محيط من الأغصان المقطوعة على عجل، تتخله قطع المدفعية على مسافات منتظمة. تم بناء ملاجئ بدائية للعائلات الروسية والقوزاقية الرائدة – والمؤلفة من توابع المعسكر في هذه المرحلة، مع أنهم كانوا ينوون بناء بيوت خشبية لأنفسهم بمجرد أن يتم "تطويع" الإقليم.

في هذه الآونة، كان بإمكان المرء أن يشاهد امرأة جالسة خارج كوخ مائل السطح من الشادر، تقوم بتقشير الخضروات وتحاول السيطرة على الأطفال الذين لوحتهم الشمس والذين يزحفون حول تنورتها بينما يقوم ابن أكبر سناً بسحب بعض الأدوات الزراعية من داخل كيس، متسائلاً أية أرض سيتم إرساله للعمل فيها. كانت لدى العائلة القوزاقية متاعبها هي الأخرى بسبب ترحيلها بالقوة. فقد ارتفعت بضعة أكوام من التراب خارج المحيط

مباشرة فوقها صلبان خشبية تحمل الدليل على الصعوبات التي يعانيها هؤلاء الناس. فإذا لم تقض عليهم رصاصة قناص جبلي، فإن سوء التغذية والمرض سيتكفلان بهم.

لم يكن أي من هذه المسائل مثار اهتمام أو قلق الجنرال الروسي الكونت آدم دافيدوف المقيم مؤقتاً في "الستانيتزا"، الذي لم يمض وقت طويل على انتدابه إلى القفقاس بعد خبرة طويلة في الحملات الأوروبية، ولم يكن معجباً بمنصبه الحالي.

فالمناخ رهيب، والهواء ممتلئ بالحشرات التي تسبب الحمى: ويستحيل فرض النظام، ووضعية التموين فوضوية على الدوام. لم يكن يحب أن يعترف بأن كل ما تعلمه في كل من أكاديميات موسكو وعلى جبهات القتال في بولندا والنمسا، كان غير مفيد له أو ذا فائدة قليلة في هذه الحملة. لذلك أصبح رد فعل دافيدوف تجاه هذا الوضع هو الالتزام القريب من الاستحواذ بالقواعد المكتوبة، من مسائل اللباس وحتى إدارة مسلكية كل غارة. قال باقتضاب، مخاطباً الضباط المساعدين الأربعة الواقفين حول طاولته الميدانية: "أيها السادة، لقد تلقيت توكيداً على أن إيفانوفيتش قد تمكن من النزول على الشاطئ في آدلر، على الشاطئ هنا". وأشار إلى نقطة على الخارطة قريباً عن مصب نهر مزيمتا. انحنى الضباط إلى الأمام مبدين اهتمامهم.

قال العقيد المدعو مارلينسكي "أخبار طيبة أيها الجنرال" وهو قائد حملات محنك زاد عظم خده المهشم من التعالي في مظهره وتعابيره.

ظهر خادم حاملاً صينية فضية وإبريقاً.

قال دافيدوف بطريقة متعمدة "لا، أشكرك" آملاً بذلك أن يثبط رغبة الآخرين.

لكن العقيد مارلينسكي لم يكن ينوي أن يسمح لواحد من "الرجال الجدد" للقيصر نيكولاس أن يخيفه.. "هل لدينا معلومات

عن حجم تلك القوة؟" طرح ذلك السؤال بينما كان يصب كأساً من البراندي إلى مؤخرة حلقه مباشرة.

رفع دافيدوف نظارة أحادية الزجاج وألقى بنظرة شؤم على التقرير الذي وصله. "ثلاثة آلاف رجل وستة عشر مدفعاً. والآن أيها السادة أريد أن أعرف ما هو أسرع وقت وأية طريق يمكن بواسطتها الانضمام إلى رفاقنا على شواطئ البحر الأسود – أريد أن أسمع آراءكم لطفاً!"

تلكأ مارلينسكي في إعطاء رأيه، متلذذاً بوقاحة بانفجار النكهة الفرنسية في فمه ومنتظراً شخصاً آخر ليقوم بتملق دافيدوف أولاً. وكما توقع كان ذلك الشخص الذي استجاب هو زاخارين الصغير السن. متلهف، ذكي، منقول من لواء خيالة الحرس، كان زاخارين يمثل نمطاً من المثاليين الجدد الذين يحيلون حياة مارلينسكي إلى تعاسة. إن مجرد النظر إلى تفصيلة سترته (ضيقة، مع غرز علوية وأربعة أزرار من الذهب عند الردن) يجعل مثانته تبدأ بالغليان والقرقرة.

"سيدي، إذا كان يسمح لي بالاقتراح، نحن لم نصادف إلا مقاومة قليلة حتى الآن على هذا الطريق. حتماً ليس بالقدر الذي توقعناه. إذا افترضنا أن الشراكسة ليست لديهم خطط لاشتباك مباشر، يمكننا أن نختصر رحلتنا بالتوجه مباشرة على هذا الطريق". أشار إلى الخارطة بيد تلبس قفازاً رائعاً من الشاموا بطريقة تكاد تكون مستقيمة تماماً عبر الجبال– "إلى غيلينجيك".

أدرك مارلينسكي أن هذا ضرب من الجنون ولم تكن لديه أية نية في الخوض في أعمال بطولية وكأنهم ينفذون يوماً ميدانياً في إحدى أكاديميات موسكو. "من بعد إذنك، أيها الجنرال، لا يمكننا أن نفترض مثل ذلك الشيء. إن الشراكسة مستمرين في مضايقتنا مراراً وتكراراً طيلة الطريق. إذا حدث وهوجمنا في هذا الممر الضيق هنا، قبل الوصول إلى حصن نيقولاي، فإن بإمكان الثوار

أن يوقعوا بنا خسائر جسيمة. يجب علينا أن نبقى في المناطق المكشوفة حيث لا تصبح هجمات الخيالة نداً لمدافعنا الكبيرة". امتنع مارلينسكي عن أن يضيف بأنه حتى مقابل المدافع الضخمة، فقد شاهد حفنة من الشراكسة تحتل معقلاً. إنهم لا يتوقفون عن الهجوم: حتى من خلال غمامة من دخان المدافع، تكون دائماً هناك دورية مطاردة منهم، ما تزال تهاجم متقدمة وتضرب بسيوفها ذات اليمين وذات اليسار.

توقف الجنرال دافيدوف متفكراً. "إنه أمر غريب أيها السادة، لأننا لم نتعرض لأية تحديات جدية من قبل رجال القبائل بعد المناوشات القليلة في البداية. كيف يمكنكم أن تفسروا ذلك؟" انطلق صوت مارلينسكي برنين وخشونة أعلى فوق الآراء المتنوعة التي قدمت. "نيران المدفعية. الاشتباكات بالخيالة عند حدها الأدنى. تلك هي ميزتنا عليهم".

وافق آخر ضابط تحدث، غولوفين، على رأي مارلينسكي. فقد خدم غولوفين تحت إمرة مارلينسكي لعدة مواسم حتى الآن وتوصل إلى استنتاج مؤداه أنه سينجو بأفضل الوسائل إذا ظل ملتصقاً بقربه. كان غولوفين من أوكرانيا، ذكي لكنه صارم، وغير ميال إلى البطوليات غير الضرورية.

"إنهم خيالة مقاتلون في غاية الشراسة لكنهم لا يستطيعون أن يضاهوا مدافعنا".

سخر منه دافيدوف "أنت تعني أن الشراكسة ليست لديهم ما يضاهي مدافعنا حتى الآن! افترض أن الأتراك أو باحتمالية أكبر الإنجليز أرسلوا لهم بعض قطع المدفعية. ماذا يحصل وقتها؟"

تبادل غولوفين ومارلينسكي نظرة ملؤها المفاجأة. لقد كان دافيدوف أكثر من مجرد آلة. من الواضح أنه عمل على دراسة العوامل السياسية التي فقدوا رؤيتهم لها، بسبب طول تواجدهم في الميدان".

تطوع زاخارين الشاب بتقديم ما قيل له بأنه الجواب المقنع. "أليس هذا غير محتمل يا سيدي؟ بوجود أسطولنا يسيطر على الساحل؟"

فكر دافيدوف بأن خلخلة آراء هؤلاء الضباط ربما تكون أمراً يستحق الجهد. من يعلم، فإن ذلك ربما يرفع من حماستهم في حال شعروا بشيء من انعدام الأمان... أطلق ابتسامة رضى وتنازل. "ليت ذلك القول صحيح، بأن أسطولنا يسيطر على ساحل البحر. تلك يا أصدقائي. هي نقطة الضعف في حملتنا. لذلك فإن هدفنا الفوري هو دعم تحصيناتنا وبناء تحصينات جديدة على طول الشاطئ، لقطع المحليين عن أي مصدر للتموين من جهة البحر".

ظهر على وجه غولوفين تعبير ينم عن قليل من القرف. أما مارلينسكي، فقد كان كالعادة، غامضاً. كان النقيب زاخارين هو الوحيد الجاهز للمعمعة، ولكونه الأقل خبرة، فهو الأقل فائدة لدافيدوف. "وقتها فقط يصبح بإمكاننا أن نطبق خطة الجنرال باسكيفيتش في تطويع المناطق الجبلية واكتساحها". ترك دافيدوف هذا الانطباع يترسخ لدى الضباط.

دخل مساعده إلى الخيمة بانضباطية. كان يعرف كيف ينزلق بسرعة وإلى الجانب من خلال طيات الخيمة، شأنه في ذلك شأن جميع الضباط ذوي الخبرة الطويلة المتعمقة، وبهذه الطريقة يتجنب رصاصة القناص التي يمكن أن يصبح هدفاً لها إذا وقف مكشوفاً في المدخل حتى يؤدي تحيته.

"سيدي، إن الوحدات جاهزة للتحرك... وهم ينتظرون أوامرك، يا سيدي".

"أشكرك يا جريجوريفيتش. بعد لحظة. أية كتيبة التي ستترك خلفنا للغايات الدفاعية؟"

شعر زاخارين بالسرور لأنه سيكون مع الذاهبين، فقال بسرعة "الثالثة يا سيدي" وهو يرمق مارلينسكي بنظرة "مع أربع قطع مدفعية ملحقة بها".

قام مارلينسكي بصب جرعة أخرى من البراندي لنفسه. لم يكن الأمر يشكل فارقاً بالنسبة له – سواء ذهب أم بقي، حقيقة. ففي حالة التفاضل، فإن البقاء مفضل. إن أبون مكان مسالم وسيكون أكثر أمناً بعد ارتحال دافيدوف واستكمال بناء التحصينات...

"حسناً، ابعث بمراسل حربي إلى مقر قيادة الكوبان للتأكيد على احتلال – ما هو اسم هذه القرية؟" سأل دافيدوف.

كان مارلينسكي هو الوحيد الذي عرف "أنها أبون يا سيدي".

قال دايفيدوف بسرعة "نعم، أبون" وكأنما تعرض لفقدان ذاكرة لحظي. "أذكر وصول المستوطنين وتشكيلاتنا الدفاعية هنا".

"نعم يا سيدي"

تفحص دافيدوف الخارطة. أصبح مارلينسكي منشغل البال بالوسيلة التي سيتمكن بها من جعل القوزاق وعمال النوغاي يكملون حفر خندق بطول ثلاثمئة ياردة وعرض مئة ياردة، باتساع عشرة أقدام وبعدها إتمام بناء جدار دفاعي بارتفاع عشرة أقدام فوق ذلك كله، حتى يجلب لنفسه شعوراً غير منقوص بالأمان. بمجرد أن يتحرك القسم الرئيس من الجنود، سيصبح مكشوفاً إلى حد خطيرولن يكفي سياج الأغصان المجدولة من إيقاف خنزير بري، ناهيك عن إيقاف ثائر.

"أيها السادة، نحن لم نقرر بعد. هل نذهب عبر الطريق الآمن كما خططنا أصلاً؟ أم نجازف ونسلك الطريق المباشر نحو حصن نيقولاي عبر سفوح التلال؟"

لم يجبه أحد. فقد كان القرار منوطاً بالجنرال ولم يكن أحد من الضباط ينوي أن يتخذه نيابة عنه. فقد كانوا جميعاً، بطرائقهم المختلفة، أسرى للطبيعة الهرمية في التسلسل عند الجيش الروسي.

"حسناً، دعونا نجازف ونسلك الطريق القصيرة. أريد من الوحدات أن تتحرك بسرعة. يفترض فينا أن نصل إلى مدخل الممر قبيل هبوط الظلام".

كانت الفكرة الوحيدة في ذهن مارلينسكي هي كيف سيتمكن من تخليص جرعة أخرى من ذلك الكونياك الهينيسي الفاخر من مخزون الجنرال، قبل أن تنسف إلى ذرات مع أمتعته.

***

كبرت قافلة جون لونجوورث. تصاعدت آماله وتوقعاته مع كل يوم يمر بينما انضم المزيد من المتطوعين خلف مجموعته في كل يوم، متخذين طريقهم معه باتجاه أدهينكوم باهتمام هادئ مشوب بالكبرياء. كان جيورجيو أيضاً في مزاج مرح: فقد أعاد إليه تجمع الرجال هذا ذكريات الأيام المجيدة لحملته في الجزيرة وشعر بأن كل المؤشرات تبشر بالنصر. ظل يلوح بالعلم الشركسي الموحد بين الفينة والأخرى لتعزيز روح المناسبة. وظل يقف في ركابيه وينظر إلى الخلف: بإجراء عملية إحصاء للرؤوس المتجمعة خلفهم، أدرك أن لديهم أكثر من مئة رجل في الفرقة.

تسلقوا مرتفعاً صغيراً وباشروا عملية النزول النهائية إلى سهل خصيب، متجهين إلى أدهينكوم. توقف الشركسيان اللذان يقودان طابور الجنود للحظة: السيد بك وإسلام جري السائران إلى جانب لونجوورث. فقد كان أمامهما منظر رائع للسهل، المبقع بالحقول المزروعة إلى جانب حفنة من التجمعات السكانية التي تنفث الحياة في الهواء بخيوط الدخان الزرقاء الرفيعة المتصاعدة. بعدها انغلق المنظر عنهم حين بدأوا نزولهم إلى داخل الغابة الكثيفة التي تفصلهم عن السهل. بعد مسافة قصيرة داخل هذا الحرش توقف

الشركسيان مرة أخرى: لم يدرك لونجوورث لماذا، وأصابه الفصول عندما ترجل فرسان المقدمة وركعوا على ركبهم وهم يؤدون إشارات الاحترام.

نظر حواليه، واستنتج السبب في هذا التصرف، ففي هذا الدغل، الذي تحده الأرض المرتفعة والمظلل بأشجار الزان بكثافة، استطاع أن يميز نصباً حجرياً يعلوه الطحلب لأحد الأبطال القدامى.

مال إلى جيورجيو، الذي كان بحلول هذا الوقت قد عقد صداقات عديدة مع رفاقه في السفر بحيث استطاع أن يشرح الخلفية التاريخية.

"إنه ضريح مقاتل قديم من الشابسوغ. وهم يتلون صلاة على روحه..."

لاحظ لونجوورث وجود أكاليل الزهور الذابلة حد الجفاف ورموز الصلوات المربوطة إلى أغصان الأشجار: أصبح واضحاً لديه أن هذه البقعة تشكل موقعاً للعديد من الاحتفالات. ترجل مئة رجل وركعوا في صمت. تأثر لونجوورث كدأبه دوماً من قدرة هؤلاء المقاتلين الصلبين على استحضار الهدوء والسكينة الروحية، مهما كانت مدتها قصيرة، عندما تدعوهم المناسبة إلى ذلك.

عادوا إلى امتطاء خيولهم بحركة رجل واحد، وكانوا على وشك التحرك قدماً لولا أن ظهرت مجموعة أخرى من خيالة الشراكسة بشكل مفاجئ، منتظرة استقبالهم، على الممر المؤدي إلى أدهينكوم مباشرة.

وضع إسلام جري يداً محذرة فوق ذراع لونجوورث وقال له "منصور بك... زعيم كبير الشان وجيه مهم.."

كان لونجوورث سيدرك ذلك بكل الأحوال. فقد استوعبت عينه السريعة الملاحظة تأثيراً فورياً من العظمة والكبر صادرة عن الغريب.لم يكن منصور بك ضخم الجثة: فهو لم يظهر طويلاً في

السرج لكنه جلس منتصباً يحمل علائم سلطة لا يمكن تجاهلها أو التنكر لها. كان وجهه المتلفع بلحية رمادية مليئاً بالخطوط التي تشهد على ذكائه المعرفي الواسع، وكانت يده تلهو بأناقة بسوط الركوب والعنان. أجبر لونجوورث مرة أخرى على إعادة صياغة نصه الذهني، على إزالة كل تلك التعابير الرومانسية التي نبتت من تخيلاته مرة تلو الأخرى عندما كان يواجهه مقاتل أديغه من الصفوة. صعب الأمر عليه في هذه المرة بالذات، فقد لمح بشكل خاطف ساق منصور بك اليسرى، المشوهة، العرجاء والتي بدأت منذ وقت سابق تضمخ ضمادها من الموسلين ببقع الدم. بدلاً من أن تنقص من تأثير لباسه المتكامل، فقد رفعت من شأن مظهره، بحيث بدا وكأنه فارس أسطوري من فرسان الملك آرثر، الذي زاد من نبله اضطراره إلى حمل الصليب. ألقى منصور بك بنظرة إلى لونجوورث عبر المجموعة، وظهر تعبيره الجدي كأنه يقول "نحن هنا بسبب جهودك: فإلى أين ستمضي بنا، أيها الأجنبي؟"

قلما قابل لونجوورث رجلاً بمثل هذا الصمت البليغ. ترجل عن جواده، كما فعل الآخر، تقدم منصور بك خطوة بأقل قدر ملحوظ من الصعوبة: فقد اعتاد على التعامل مع إعاقته. قطع لونجوورث المسافة بينهما بسرعة وتعانق الغريبان.

كانت تلك لحظة مذهلة بالنسبة للشراكسة. فقد ران الصمت المطبق بينما عاد منصور بك إلى امتطاء جواده ووقف في وسطهم.

"أيها الأخوة، أنتم جميعاً على الرحب والسعة. لقد ابتدأ انعقاد "مجلسنا" صباح هذا اليوم وبإمكانكم الانضمام إليه على الفور".

تابعت القافلة تقدمها بين أشجار الزان، وخرجت بعد وقت قصير إلى السهل. انبسطت قرية أدهينكوم بشكل جذاب بين الأشجار وحافة النهر. مع دخول المقدمة إلى داخل جدرانها الخارجية تقدم شركسي آخر يسير مسرعاً على قدميه – على الأقل،

ظن لونجوورث أن الرجل من الأديغه، ولكنه أدرك بعد التمعن القريب، أن هذا الرجل أجنبي، ببشرة كالحة ولحية ناعمة.

ذهل لونجوورث لكنه أحس بالسعادة. "إذا لم أكن مخطئاً، فلا بد وأنك السيد بيل".

أطلق جيمس ضحكة تنم عن سروره. "إيه، أنا ذلك الشخص. وأنت منظر يبعث السرور في العين الرمداء..." وقف أمامه مباعداً بين ساقيه وقد استقرت يداه على حزام سيفه. لقد أحدثت سنة في القفقاس تحولاً في تكوين السيد بيل، التاجر المغامر. كان يشعر بسعادة ملك، وقد أضاف إلى وزنه أرطالاً عديدة من العضلات، وتوصل إلى استنتاج مؤداه أن تصرفاته الإنجليزية غير المتكلفة قد نالت الاستحسان لدى الشابسوغ، مما أورثه ثقة في النفس كان يفتقدها في الماضي.

لم يكن السيد بك وإسلام جري الشركسيان الوحيدان اللذان راقبا هذين الغريبين وهما يتحدثان بالكثير من الافتتان. سمع اللغة الإنجليزية، نبراتها الخارجة من الأنف، حروف العلة الواضحة والمخارج المختفية، كانت كلها غريبة وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسمعونها فيها بهذا الإلقاء الطبيعي المتتابع.

"يا للعجب، أنا لم أتكلم اللغة الإنجليزية منذ وقت طويل!" قال بيل "بأسلوب صريح. "تعال، لا بد وأنك قابلت الآخرين، منصور بك..".

تناول ذراع لونجوورث وكان سيقوده نحو جناحه فوراً لولا أن ناداه منصور بك من خلفه "أرجو أن لا تجعل المجلس ينتظرك مدة طويلة. اصطحب صديقك وانضموا إلينا بمجرد أن يستريح..."

أجاب لونجوورث مباشرة "حسناً، يا منصور بك، سوف نحضر سريعاً..." وقد صمم على أن يخلق انطباعاً حسناً، ويسترد الاعتبار الذي فقده من جراء كونه لم يتعود بعد على رحلات

الركوب الماراثونية، على الرغم من أن أطرافه كانت ترتعش بشكل ملحوظ.

استحق على ذلك لطمة تحبب قوية على كتفه من بيل. استأنفت القافلة تحركها، بينما انسحب بيل ولونجوورث لإجراء عملية تنظيف سريعة لملابسهم ولإجراء مشاورات مصحوبين بمساعديهم، جيورجيو اليوناني وشخص آخر من الشابسوغ هو صديق لجيمس يدعى تالوستان. كان تالوستان أطول قامة من جيورجيو بحوالي قدم على الأقل، لكنه كان يشعر بالود تجاه هذا الأجنبي ذو الهيئة الرثة لأنه يحمل راية الشعوب المتحدة. تناولها في هذه اللحظة من جيورجيو، وأشار إلى الكوخ الصغير المخصص لإقامته.

ثم قال له: "أنت لست إنجليز"

"كلا، يوناني".

"يوناني مثل بروميثيوس، المقيد بالسلاسل إلى جبالنا.." قال تالوستان، وشع بريق ودي من عينيه.

تأثر جيورجيو إلى درجة معقولة بهذه الإشارة واكتفى بنفض كتفيه كإشارة إلى احترامه لمعرفة تالوستان. انتظمت خطوات الاثنين خلف سيديهما، ينظر أحدهما إلى الآخر بدرجة من السرية ولكن رغم ذلك بأسلوب تنافسي. طرازين مختلفين، نفس الروح... كان من الأهمية بمكان بالنسبة لبيل ولانجوورث أن يقدما جبهة موحدة إلى الاجتماع وأن يوضحا موقفيهما بجلاء. بعد الانتعاش من دفقة ماء باردة أحضرها الخدم بأوامر من تالوستان وتبديل القميص الذي قدمه جيورجيو الدائم الحضور والانتباه، جلس جون لونجوورث قبالة جيمس بيل وانتظر لسماع آخر التطورات. أخرج بيل، ذو الوجه الطافح بالبشر والابتسام، الجالس براحة عاقداً ساقيه فوق الوسادة، زجاجة كونياك نفيسة.فوجئ لونجوورث بشدة بأسلوب مواطنه الراقي، سترة التشيركيسكا الجميلة المنمقة التي يرتديها، بلحيته المشذبة بعناية، وإتقانه للهجة الشابسوغ.

كان يعتمد على انطباعاته الأولية، وثبت أنها إيجابية.

قال بيل "رائع..." وهو يدير جرعة صغيرة حول لسانه ليستمتع بمذاقها: "يصلح لشرب الأنخاب، أهلاً وسهلاً بك أيها الصديق العزيز، أهلاً بك حقاً...." رفع يده عالياً وشرب الرجلان باستمتاع.

استمر تالوستان الشابسوغ في المراقبة، مأخوذاً بالطقوس الأوروبية: لم يكن أحد من الجبليين يتناول الكحول مطلقاً، ليس من باب الالتزام الديني كلياً، بقدر ما هو التزام بمثاليات "الخابزه" الأقدم التي تحتم ضبط النفس. كان منجذباً أكثر إلى تفحص جيورجيو، الذي أسبغ عليه زيه الجميل، سيفه التركي وسوالفه الجريئة لمحة من التعاطف: فمن الواضح هنا أنه أمام رجل مقاتل حقيقي...

استجاب لونجوورث بقوله "إنني سعيد بكوني هنا، فقد كانت هذه الرحلة مغامرة واحدة مستمرة وكنت قلقاً أن لا نصل إلى هنا في وقت انعقاد المؤتمر. فهناك الكثير مما يتوجب بحثه، يا بيل..." أومأ جيمس برأسه "لقد كدت أن لا تصل في الوقت المناسب. لقد كنت في غاية القلق، لأنني علمت بنزولك إلى الشاطئ قبل ثلاثة أسابيع. إن "المجلس" في حالة انعقاد حالياً – لكن الحرب قد ابتدأت بكل الاعتبارات العملية منذ وقت. ابتداءً بنزول القوات الروسية على شواطئ آدلر وتحركات قوات روسية كبيرة عبر الكوبان.

وافقه لونجوورث "لقد سمعنا الإشاعات أثناء قدومنا إلى هنا. في البداية، دعني أولاً أقدم لك الأخبار الطيبة – هنالك بريد يخصك ضمن أمتعتي. كذلك هنالك صناديق الرصاص وملح البارود التي شحنها شقيقك جورج للمتاجرة وهي مودعة بأمان على الشاطئ. على أية حال، يتوجب عليّ أيضاً أن أحذرك – فالأخبار السيئة هي أن صديقنا السيد "أو" قد تم استدعاؤه من استنبول من قبل وزارة الخارجية. ضمن ظروف تبعث على الريبة..."

أصيب بيل بصدمة من هذا الخبر، فقد فزع من فكرة أي إضعاف للدعم البريطاني لمغامرتهم...

"لقد نزل أحد الشراكسة إلى الشاطئ مؤخراً قادماً من استنبول وهو يقوم بنشر إشاعات شريرة مغرضة عن رحيل الشخص المذكور سابقاً. يحتمل أن يطرأ ذكر هذا الموضوع في الاجتماع" أضاف لونجوورث

"أفهم ما تقوله..." توقف بيل، محاولاً أن لا يفكر في العواقب الرهيبة لفقدانهم ثقة الأديغه.

"هل تعرف اسم هذا الشركسي؟"

كان لونجوورث لا يزال يجد صعوبة في حفظ هذه التسميات الأجنبية غيباً. عبس، وهو يعصر أفكاره، لكن جيورجيو أنقذه" إن اسمه هو نوغاي... إسماعيل، نعم، ذلك هو الاسم..."

كرر بيل الاسم إلى مساعده الشركسي تالوستان. ثم سأله "هل تعرفه؟"

أومأ تالوستان برأسه "نعم، أعرفه. فقد وصل نوغاي إسماعيل إلى هنا بالأمس فقط. أنه يحمل رسائل من استنبول وسوف يقوم بمخاطبة المجلس".

خيم الصمت على كلٍ من بيل ولونجوورث. لقد كانت الجاسوسية والجاسوسية المضادة، الاتهامات الزائفة والخداع هي المادة التي صنعت منها هذه المغامرة. لكنهما كانا يتمنيان أن لا تظهر هذه النكسة بهذه السرعة في وقت حساس كهذا. هز بيل رأسه "يجب علينا أن نتعامل مع هذا الأمر في الوقت الملائم... وهذا الموضوع المتعلق بالسيد "أو" ليس باعثاً على السرور الشديد هو الآخر. ولكن قل لي –أولاً- هل هناك أي أمل في وصول مساعدة مادية من حكومة صاحبة الجلالة؟"

عبس لونجوورث "أخشى أنه ليس هناك أي شيء ملموس. هناك الكثير من الكلام المتفائل من بونسونبي وحزب الأحرار. ربما تجيء في نهاية المطاف – ربما تؤثر عودة ديفيد إلى لندن في النقاش الدائر هناك لمصلحتنا. سوف يتحتم علينا أن ننتظر لنرى".

كل ما كان بوسع بيل أن يفعله هو أن يصب جرعة أخرى ويعبس. لأن كل هذه الدبلوماسية ذات الوجهين كانت تفقده صوابه. فقد أراد العمل: تحالف معين، إعلان بالدعم– وحرية مطلقة في إحضار البضائع إلى هؤلاء الناس. لأنهم يستحقون حياة أفضل...

"سوف نتحدث لاحقاً بالمزيد من التفصيل. دَعنا الآن نذهب لحضور "المجلس"."

نهض لونجوورث واقفاً "إنني سعيد لوجودي هنا يا بيل. إن مشاهدتك أمر يبعث السرور..."

تصافح الرجلان مرة أخرى. فقد أحدث البراندي قليلاً من التراخي في مشاعرهما. لقد راهن كلاهما بمستقبله الشخصي على نتيجة ناجحة لهذه الحرب، لكن كلاً منهما كان يشعر بقوة مشتركة تعمل. لقد كانا يتعاملان بشؤون الضمير، قضايا السياسة العالمية والتي كانت حتى الآن نظرية أكاديمية إلى حد ما. فهما هنا الآن، وحدهما في القفقاس يحاولان أن يحركا أمه بأكملها، وهما غير واثقين تماماً من نوايا حكومتهما. لقد تحولا في الأثناء إلى أكثر من متفرجين جانبيين غير معنيين، بل محترفين يخدمان غايات وأهدافاً منطقية.

عندما تبع لونجوورث بيل خارجاً من الخيمة، معجباً بالخفة في خطوته وباستقامة ظهره، أدرك أنه قد تقابل مع رجل إنجليزي آخر من نفس طينته، متمدن، مهذب، متميز – وللمرة الأولى، مخلص بالكامل لقضية خارجة عن المنافع الشخصية. لقد كانت تجربة مثيرة، ولم تكن لديه أية فكرة إلى أين ستنتهي بكل منهما.

***

ركب الجنرال دافيدوف على رأس الطابور خلال المنطقة الجبلية، مع الملازم غولوفين. بينما ركب النقيبان زاخارين وجريجوريفيتش قريبين خلفهما. كالعادة، كان هناك صف من الرماة راكباً إلى كل جانب من جانبي الطابور، مع أن عددهم كان أقل مما يرغب فيه دافيدوف. تركت كتيبة واحدة في الخلف تحت قيادة مارلينسكي، للمساعدة في حماية حصن أبون أثناء فترة البناء.

توقف دافيدوف عندما عاد كشاف أمامي راكباً ليبلغهم بنتائج استطلاعه.

"حسناً –هل هناك أية علائم على وجود الشراكسة هناك؟" سأله دافيدوف بعصبية. ما كان ليعترف بأنه يشعر بالعصبية، لكنه وجد أن أقل ما يمكن أن يقال في المنطقة المحيطة به، أنها متعبة. لقد استمر في الركوب منذ ما قبل الفجر وكانت الغابة تنطوي على صمت غريب. في كل مرة ينكسر فيها غصن صغير – كان يشعر بالشعر على رقبته يقف: في إحدى المرات أصاب أحد الرماة صقراً طائراً وأسقطه من السماء، مما أثار جنون دافيدوف. إذ لم يكن هناك داعٍ للإعلان عن وجودهم. أرسل وقتها أمراً إلى باقي الطابور في الخلف بأن يتقدموا في صمت مطبق. لم يعجب ذلك الأمر الرجال: لأن الصمت يجعل الرحلة أطول.

قال الجندي القوزاقي "لا يا سيدي، ولا واحد. إن الممر خال تماماً من هنا وحتى حصن نيقولاي".

لم يشعر دافيدوف بالاطمئنان. لأنه قلما تحركت القوات الروسية خارجة هذه المسافة بدون إظهار للمقاومة من قبل المحليين. أصبح ميالاً إلى الاعتقاد بأنهم امتنعوا عن مهاجمته لغاية ما.

"هل أنت متأكد أيها الرجل؟ ألم تغفل عنهم وهم مختبئون في جحر في مكان ما؟"

نظر إليه الكشاف غير مصدق "يا سيدي، ليس هناك غير الصخر الأصم على جانبي هذا الشق من هنا وحتى حصن نيقولاي. لا يوجد فيه موطئ حافر لماعز، ناهيك عن رجل وحصان..."

"أنت تعرف كما أعرف أنا بأن ذلك لا يشكل ضمانة..." واستمر دافيدوف في عبوسه.

استدار القوزاقي إلى الخلف بنفاذ صبر. فكل ما طال مكوثهم زادت كراهيته للموقف. لقد كانوا بحاجة إلى الخروج من الممر الضيق بأسرع ما يمكن: لم يكن الجبليون ميالين إلى القتال قبيل الضحى، الجماعة الوقحة: لكن الشمس كانت تعلو في تسلقها بينما كان دافيدوف يضيع الوقت في التفكير.

"لقد مررت بهذا المكان مرتين يا سيدي. ليس هناك أي شيء يا سيدي... لا شيء.."

لوح ببندقيته إلى باقي الضباط، حتى يجمعهم للمشاركة في عملية اتخاذ القرار.

نظر دافيدوف إلى زاخارين، المتشوق وكأنه جرو، غولوفين، الذي ما زال يبدو عليه الحرد بسبب انفصاله عن معلمه الخاص، وجريجوريفيتش، الذي ينفذ بالضبط ما يقال له.

"ماذا تعتقدون أيها السادة؟ لا يمكنهم أن يختفوا في الهواء. هذا هو قلب إقليم الشراكسة".

تحدث غولوفين أولاً "هذا ليس عادياً يا سيدي. إن هذا الأمر يحمل كل دلالات الكمين... إننا متجهون نحو منحنى ضيق لن يتمكن فيه أكثر من أربعة أشخاص من المرور راكبين إلى جانب بعضهم بعضاً.." استدار نحو الكشاف.

"اركب أمامنا مرة أخرى. استمر في الاستطلاع، وابق على مسافة فيرستات قليلة أمامنا. لا أريد أية مفاجآت وإلا سلخت لك جلدك!".

قام القوزاقي بعرض ساخر للاحترام لهذا الغرس الصغير القادم من خيالة الحرس الإمبراطوري. "نعم يا سيدي.." كرر ذلك القول، ثم عدل وضع طاقيته، وانطلق يعدو مبتعداً.

تحرك الطابور إلى الأمام، لم يكسر الصمت سوى طقطقات الدروع وهدير عجلات المدفعية الثقيلة التي تحتك بالصخور. رغم ذلك، فقد كان كل صوت يتردد صداه مثل دوي الرعد بين وجهي الصخر الأصم الأملس في المضيق. إنه مكان دائم الرطوبة: نمت نباتات العليق والأوركيد وازدهرت بكثافة على وجه الصخور، وصارت أنفاس الخيول تخرج في أعمدة بخارية أثناء تحريك رؤوسهم، مبدين انزعاجهم من الأرضية الصوانية القاسية على حوافرهم. بذل الرجال كل جهد ممكن لتجنب النظر إلى الأعلى، وكأنما النظرة إلى أية حافة أو انحناءة في الصخر ستكشف عن وجود زوج من العيون الخرزية، أو لمعة ماسورة بندقية... استغرق مرور المجموعة بكاملها من الممر الضيق أكثر من ساعة، خارجين إلى الهواء الجاف الدافئ وينفضون أنفسهم في إحساس بالفرج.

استرخى دافيدوف في سرجه على مرتفع معشب صغير، نزع قفازيه وبدأ يضرب بهما سحابة من البعوض الصغير كان قد أزعجها أثناء دورانها تحت ظل شجرة زان عملاقة. فتح مساعده جريجوريفيتش خرائط استطلاع الجيش التي أخرجها من كيس جلدي ورفعها له حتى يتفحصها.

تمتم دافيدوف وكأنما يكلم نفسه بينما هو يدرس تضاريس الأرض الواقعة أمامه.

"الأمر في غاية الغرابة حقاً. ماذا تفترضون أنهم يخططون؟ لقد كانت هذه أسهل حملة قدتها في كل حياتي..." لم يكن دافيدوف معتاداً على هذه التضاريس، لكنه جندي محترف بارع ولذلك أخبره حدسه وغريزته أنه لم يكن محظوظاً إلى تلك الدرجة حتى الآن...

كان زاخارين يشعر بمعنويات مرتفعة. إذ ظل الشاعر في داخله يعتقد بأن الركوب من خلال المضيق كان تجربة تشكل تحدياً للموت في ذاتها: الألوان الحيوية والأشكال الحسيّة للأزهار، الرفاهية المترفة للخضرة، تماشت كلها مع توقعاته لبلاد الكافكاز.

لأن كل ما قرأه قد وعده بتجربة من المبالغة، سواء كان ذلك في المناظر الطبيعية، أو في القتال، أو الرفقة والرومانسية. لقد كان مندمجاً في كل رغباته وأحاسيسه..

قال- باقتناع "لقد ذاقوا طعم نيران مدافعنا وقرروا أن يتجنبوا المواجهة المباشرة، هذا ما أعتقده".

لم يكشف سره الدفين في أنه عندما شاهد الدمار الذي تحدثه المدفعية في ميدان المعركة، قد تقيأ، وأن صور الأجساد المتناثرة قد عذبه بشدة حتى اضطر إلى تناول جرعة ليلية من مخدر اللاودانوم لعدة أسابيع.

مسح دافيدوف العرق عن رباط طاقيته المطرزة وأعادها إلى مقدمة رأسه ليحمي عينيه من الشمس، التي بدأت تضربهم بحرارتها. "أيها السادة، لا بد من وجود تفسير. لو أنهم أرادوا أن ينصبوا لنا كميناً، فأنهم قد خسروا تلك الفرصة التي كان يمكن لهم أن يحصلوا عليها لتوهم. في الخلف هناك..."

تطوع غولوفين لإبداء رأيه قائلاً "يا صاحب السعادة" جاهداً لأن يبدو مقنعاً" إذا استمر الوضع سليماً بهذا الشكل، وقتها يمكننا أن نستمر في مسيرنا نزولاً حتى الساحل إلى آدلر.... مع أقل وقت ممكن من التأخير في حصن نيقولاي... لمجرد إعادة التمون...".

شعر دافيدوف بالسرور عندما رأى غولوفين يستعيد القليل من المبادرة، بعد أن تم إبعاده عن تأثير مارلينسكي السلبي إلى حد الإيذاء. لقد كان يعرف عم غولوفين من زمن خدمته في بولندا ولم يكن يعجبه أن يرى هذا الشاب يتخلف عن السجل العسكري المتميز لعائلته.

قال، وهو يسمح لابتسامة نادرة أن تبارك اقتراح غولوفين "هذا هو تفكيري بالضبط، لنتحرك قدماً إذن. سوف نبلغ الحصن مع هبوط الليل." أعاد طي خارطته العسكرية وسلمها إلى جريجوريفتش. تحرك الطابور إلى الأمام وبدأت سرعته وثقته تتزايدان، فالآن أصبح بإمكان الرجال أن يركبوا في صفوف من أربعة خيالة داخل خطين من الرماة ويحاولوا التكهن في الأسباب التي جعلتهم محظوظين إلى هذه الدرجة.

***

الفصل السادس

خضعت قدرات جون لونجوورث على الوصف إلى امتحان عسير من رؤيته لتجمع العشائر الشركسية لأجل "المجلس". جلس تحت شجرة وارفة عريضة الظلال وبدأ يدون الملاحظات ويخربش رسوماً أولية سيئة لتساعده على التذكر تمهيداً لكتاباته المفصلة بعد عودته إلى الوطن.

عقد المجلس اجتماعه فوق مرج أخضر خارج قرية أدهينكوم، وهو سهل جميل منبسط يمتد حوالي نصف فيرست حتى يصل إلى حافة نهر الأدهينكوم. وهنا تعلقت حافة عميقة من الأشجار فوق تجمعات القصب، التي يصل ارتفاعها إلى مترين في بعض الأحيان، مشكلة بذلك ملاذاً للعديد من الطيور البرية وبنفس الشيوع والكثرة، مخبأ جيداً للعصابات المغيرة التي تقوم بشن غارات ربيعية وصيفية على الستانيتزات الواقعة إلى مسافة أبعد لجهة الشمال من النهر.

لكن المشهد الحالي كان عبارة عن روعة الفرسان المسالمين، فقد نصب المندوبون إلى الاجتماع معسكرهم فوق المرج كله، خيام مستديرة ذات مظلات مزودة بمسامير طويلة ترفرف عليها الرايات المثلثة المختلفة الألوان العائدة لمختلف القبائل. أضافت الوسائد والظّلات رقعاً من اللون الفاخر أمام هذه المساكن ذات الطابع العربي. كان بالإمكان مشاهدة خدم المندوبين وهم يتحركون بسرعة يحضرون الماء، يعتنون بالأسلحة والدروع، وينظفون الخيل. عند نهاية الحقل، انهمك وصفاء الزعماء وحراس الوجهاء في صراع ودي، بعضهم يتصارع، بعضهم يتسابق أو يؤدون كل أنواع ألعاب الفروسية بأساليب وعروض غاية في البساطة وانعدام التكلف. أقيم

مجال لرماية السهام بشكل مرتجل تحت ظلال بعض أشجار البلوط العملاقة: حيث أمضيت الساعات الطوال في مباريات تزداد حدتها التنافسية تباعاً بمرور الوقت. عند الطرف الآخر للحقل حيث الجناح المخصص للخدم كان يتم إعداد أفخاذ الخراف وأطباق المعجنات إضافة إلى الصلصات اللذيذة بعناية فائقة لإطعام المجموعة الكبيرة.

كانت جلسة الصباح على وشك البدء: سمع لونجوورث صوت بوق ينفخ فيه كإشارة لأولئك الذين لم يتخذوا أمكنتهم بعد حتى يحضروا فوراً. جمع أقلامه وأسرع إلى "قاعة المجلس" وهي عبارة عن دغل رائع وسط مجموعة أشجار عملاقة، وقد أخليت تماماً من الشجيرات. كانت "القامات" والسيوف الشركسية الهائلة معلقة ومعروضة من الأغصان المشرفة، كما وقفت جياد مسرجة بمعدات راقية وقد ربطت على مسافات منتظمة إلى الأشجار المحيطة. شعر لونجوورث بالانفراج عندما لاحظ أنه بينما جلس جميع الوجهاء الحاضرين على مجرد حصائر طيلة استمرار النقاشات، فقد تم توجيه دعوة ودية دافئة له لكي يقوم بتدوين سجله حول الحدث بينما هو يجلس على كرسي تخييم صغير بثلاثة أرجل، على الطراز الأوروبي.

كان حجم الحضور ضخماً إلى درجة أن بعض الرجال تسلقوا الأشجار حتى يروا ويسمعوا، بينما وقف آخرون خلف الدائرة الرئيسة على ظهور الجياد، مستندين إلى مقدمات السروج ومصغين بتركيز. بلغ عدد المشاركين الرئيسيين حوالي العشرين، يمثلون كل العشائر والمجتمعات الكبرى للقسم الغربي من بلاد الأديغه. مرر جيمس هويات أولئك الذين تعرف إليهم أو الذين استطاع أن يتوصل إلى أسمائهم من خلال الهمس الدائر بين الجموع، إلى لونجوورث. فقد جلس هنالك الحاج دانيل، المعروف لدى الجميع على أنه الرفيق القديم لكازبك العظيم إلى رحلة الحج، وهو من الشابسوغ، كريم بك

من الأبزاخ، السيد بك من البزادوغ. جلس قبالتهم منصور بك بين مستشاريه، وهو الذي افتتح المداولات لذلك النهار.

"ترحب بين ظهرانينا اليوم بسيدين من الإنجليز هما صديقان لداود بك وصديقان للشراكسة. لقد حضرا لإبلاغنا أخباراً عن خطط حكومتهم بشأن المساعدة الضرورية، على ما نأمل...."

استقرت عينا منصور بك الرماديتان بلمحة خاطفة على لونجوورث، لكنها كانت خارقة القوة إلى درجة أن الرجل الإنجليزي أحسَّ برعدة باردة تنزل عبر ظهره. "لن يكفينا مخزوننا من ملح البارود فترة طويلة في هذه الحرب الجديدة.. ليس لدينا أمل في أن يرسل لنا السلطان أي جنود للمساعدة، برغم الوعود الكثيرة التي أطلقها رسله. لذلك فإن آمالنا عالية، بسبب زيارة هذا الأخ الإنجليزي الجديد.."

استدار منصور بك باتجاه بيل في علامة احترام. "السيد بيل أفندي، رجاءً، هل يمكنك أن تطلب من صديقك أن يخاطبنا، لأننا جميعاً متشوقون لسماع ما لديه ليقوله....."

تحدث جيمس بأفضل ما يعرفه من اللغة الشركسية، ولكن وبسبب رهبة الإجراءات والمداولات، فقد تلعثم بعض الشيء. "نعم يا منصور بك. إذا يسرك كان، صديق يتكلم فقط إنجليزية... أنا وإسلام جري نترجم نعم؟"

ابتسم منصور بك بكياسة ونظر بيل إلى جون لونجوورث قبالته.

"لقد حان دورك. تكلم ببطء حتى يمكن لترجمتنا أن تجاريك.... وابق جالساً".

وجد جون لونجوورث نفسه يعرق بشدة. كانت مراقبة إسلام جري مهدئة لروعه. فقد كان الرجل يرتدي تشيركيسكا مذهلة مطرزة بخيوط الذهب، وهو يحول ثرثرته غير القابلة للفهم إلى

دفقة من اللغة الغنية بطريقتها الغريبة، الشركسية التي لا علاقة لها بلغته.

"أيها السادة، يا زعماء القبائل الشركسيَّة، يشرفني أن أكون معكم اليوم، وأن أحمل إليكم أنباءً سارة... صحيح أننا -صديقي السيد بيل وأنا لسنا موظفين رسميين لدى حكومتنا. لذلك لا يمكننا أن نتحدث إليكم إلا بصفتنا مواطنين عاديين...."

عند هذه النقطة حدَّق جون لونجوورث في عيني منصور بك بحدة، لأنه أراد أن يكون واثقاً جداً من أن هذا الرجل يفهم قوة التزامه الشخصي - وكذلك، درجة السرية التي تنطوي عليها عمليته.

"من خلال أعمال ديفيد أوركهارت، المعروف لديكم باسم داود بك، ومن خلال مشاركتنا، نحن نقوم بتحريك حكومتنا ببطء باتّجاه المشاركة المباشرة في هذا العمل".

لم يكن بإمكانه أن يوضح الأمر أكثر من ذلك. كان وجه منصور بك خالياً من التعابير. لكن الرجل العجوز أعاد ترتيب ملابسه على حصيرته ببطء مدروس واستمر يداعب مسبحته، وقد تدلى معصمه بارتخاء فوق ركبته... في هيئة استرخاء خادعة، وهي حتماً لم تخدع لونجوورث. كان قد لمح قدم منصور بك العرجاء بينما كان يعدل جلسته. كانت مسترخية على شكلها المكسور، وقد لفت بضمادات أكثر من الأمس. وقد شهدت قدرة هذا الرجل على إظهار هذا القدر من رباطة الجأش غير القابلة للاختراق أثناء احتماله للألم الدائم، على قوة شخصيته.

كان لونجوورث يقترب من الفقرة الحساسة من خطابه. "لقد سمعتم عن السفينة "فيكسين"- السفينة البريطانية التي وصلت إلى شواطئكم محملة بالأسلحة والإمدادات الحيوية بالنسبة إليكم، والتي كان السيد بيل هنا قد استأجرها. لقد سمعتم أنه تم أسرها في السنة الماضية من قبل الروس بينما كانت تحاول اختراق الحصار.....

استولى عليها الأسطول الروسي، الذي يدَّعي بالسيادة على المياه الإقليمية الشركسية. حسناً، هذه المسألة تحظى الآن باهتمام الحكومة البريطانية وهنالك كل الأسباب التي تدعو إلى الاعتقاد بأن هذه الحادثة ستؤدي إلى رفع الحصار البحري، وإلى الاعتراف باستقلال بلادكم من قبل الحكومة البريطانية".

صدرت عن الجمع همهمة عامة من الاقتناع بينما كانت كلمات لونجوورث تترجم. لكن رجلاً واحداً، من إقليم الشابسوغ، نهض على قدميه ليعبر عن رغبات الأغلبية. كان رجلاً نحيلاً، طويل القامة، جسمه مشدود العضلات وكأنه حبل رفيع مجدول. كان صوته عميقاً بشكل غير طبيعي بالنسبة إلى رجل بمثل هذه البنية النحيلة: وجهه طويل مثل لوحة قديمة لتمثال إغريقي. قدَّم نفسه بكبرياء على أنه شامز بك، وقال

"يتكلم هذا الأخ "الإنجليز" بطريقة لطيفة، ولكنها غامضة، إننا محاطون بأخطار محدقة،ومع ذلك فإن احتمال المساعدة هذا ما يزال غامضاً –غير واضح– وبعيد. يا منصور بك، أرجو أن تشجع ضيفنا على أن يتكلم بقدر أكبر من التحديد. إنه ليس بحاجة إلى استخدام معسول الكلام لينقل إلينا الأخبار، سواء كانت جيدة أم سيئة!"

أجبر منصور بك على دعم هذه الكلمات. تحدث موجهاً كلامه مباشرة إلى لونجوورث وبيل، وكان كلاهما يشعر بحبات العرق تنزلق من أعلى إلى أسفل ظهريهما، باعتبارهما ممثلين غير مرتاحين لبلد معروف في بعض الاعتبارات بخداعه بقدر ما هو معروف باستقامته.

"لقد تركزت آمالنا على انجلترا منذ زيارة داود بك، مواطنكم العظيم. لقد مرت ثلاث سنوات، ثلاث سنوات من الدمار وسفك الدماء، منذ أن اشتعلت هذه الآمال في قلوبنا..."

بدأت غمغمات أشد عدائية تتعالى من صدور المندوبين.

رفع منصور بك يده طالباً الصمت. "صحيح أن داود بك لم يقدم وعوداً محددة... لكنه جلب لنا المرح بتفاؤله ومنحنا آمالاً عظيمة. لقد شجعنا على مقاومة الغازي، وأخذ معه عند مغادرته وثيقة موقعة من قبل جميع زعمائنا، احتوت على معاناتنا وآمالنا المكتوبة فيها بصراحة، لإيصالها إلى ملك انجلترا، ليقدمها نيابة عنا عند أقدام عرشه...."

أشار الصمت العام إلى الموافقة الشاملة على هذا الإجراء. شعر لونجوورث بخجل غامر عظيم من استجابة حكومته التي تتسم بالجبن حتى هذا الوقت. ولكن، في نفس الوقت، فإن الشراكسة لم يكونوا يعرفون أي شيء عن التضارب بين اهتمامات الملك، ومصالح الحكومة....

"لقد تحملنا الصعاب وسوف نستمر في تحملها.... منتظرين المساعدة التي لا زلنا نأمل في استلامها".

لم يكن منصور بك بحاجة إلى اللغة الدبلوماسية المنمقة. بينما كانت كلماته تترجم، نظر بدوره في وجه لونجوورث محدقاً لفترة طويلة. فهذا موقف ينطوي على الذرائعية. هل سيقوم البريطانيون بردع النزعة التوسعية الروسية أم لا؟ في نهاية الأمر، فإن داود بك لم يكتف بنشر إعلان الاستقلال في "حقيبة الأوراق" التي أصدرها، بل نشر أيضاً خارطة تظهر القفقاس على أنها بلاد منفصلة. لكن تشكيل "اللجان الشركسية" في أسواق البلدات بانجلترا، المنشغلة في جمع التبرعات والأموال للأسلحة والكتب لإرسالها إلى هؤلاء الجبليين الرومانسيين الذين يعانون، ليس لها أية علاقة بالسياسات الحقيقية... فقد كان القفقاس شأناً جانبياً في مسرحية أكبر: المخططات الروسية المتعلقة بآسيا.

لم يكن منصور بك ينوي أن يطلق سراح لونجوورث بهذه السهولة.

"حدثنا إذن، بنفس روح الصدق. أعلن علينا ما يحتمل أن نتوقعه. عين لنا يوماً -مهما كان بعيداً- يمكننا فيه أن نتوقع الدعم. يوماً يحتمل أن نعثر فيه على السلام في نهاية المطاف نتمكن فيه من الاهتمام بقطعاننا، وتكون فيه بيوتنا آمنة من النيران وأطفالنا سالمين من المذابح".

أدار لونجوورث نظرة يائسة على الأشكال البشرية النبيلة الطويلة القامات للواقفين خلف الزعماء الرئيسين في هذا الاجتماع. لقد كانت وقفتهم تدل على أنهم رجال يؤدون الصلاة، وقد أمسكوا بأسواطهم متدلية بين أيديهم المطوية وقد انحنت رؤوسهم قليلاً في تركيز واجم. انطلق صوت منصور بك عالياً رناناً "بحق حب الله، لا تخدعنا. أعطنا الحقيقة المبسطة".

أحسّ جون لونجوورث بدافع مفاجئ يحثه على أن يمارس الصراحة إلى درجة القسوة ويشرح لمنصور بك أنه لا يحسن به أن يعتمد على إنجلترا – وأنه بحاجة إلى تطوير قواته إلى درجة أعلى من الكفاءة. لكنه بمجرد أن نهض ليتكلم، قاطعه جيمس بيل بإشارة تحذير، ونهض واقفاً بسرعة. كان صوته يرتعش قليلاً: لكن أحداً لم يستطع أن يخطئ في مدى صدق اعترافه:

"عندما خططت لهذه الرحلة إلى جبالكم بتشجيع من داود بك، كان ذلك بدافع من الفضول ولغايات الربح الشخصي... فأنا رجل أعمال يأمل في تأسيس سبل تجارية لبلادي!"

تكلم بسرعة، إلى درجة أن تالوستان اضطر إلى سحبه من "التشيركيسكا" ليحمله على التوقف، حتى يمكن للترجمة أن تتمشى معه. سحب بيل نفساً واستطرد بنبرة متوازنة.

"منذ أن وطئت قدماي شواطئ بلادكم الأجمل هذه، ومنذ أن اختبرت كرم وفادة شعبكم ولطفه.... منذ أن شهدت شجاعة شبابكم وبدأت أدرك مصابكم اليائس، كذلك توصلت إلى فهم قضيتكم

الأصلية ورغبتكم المخلصة في الحرية. وهي قضية عزيزة على قلوبنا نحن الإنجليز بنفس القدر".

لم يستطع لونجوورث أن يمنع نفسه من الإيماء برأسه بقوة. فقد كان قلبه يخفق بعنف، لتعاطفه مع إعلان بيل من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنهما كانا يخوضان بتعمق ولم تكن لديهما أية فكرة إلى أين سينتهي بهما كل هذا التنظير...

"لن أعطيكم آمالاً زائفة أو وعوداً بلا معنى. إنني آمل بإخلاص أن تكون استنتاجاتنا صحيحة – بأن تأخذ حكومتنا محنتكم على محمل الجد وترسل الأسلحة والمدافع التي تحتاجون إليها– وكذلك، تؤسس صلات دبلوماسية وتجارية مع بلاد الشراكسة الحرة المستقلة...."

انطلقت من الجمع هتاف مرح.

استطرد بيل، وقد بدأ وجهه يحمر حماساً "إنني أومن بهذه الآمال، وسوف أبقى معكم في الجبال حتى تصبح هذه الآمال حقائق. سوف أقاتل معكم في معارككم".

المزيد من الهتافات.

أضاف بيل وعده بحماس "أكثر من ذلك، سوف أقوم بتسليم كل البضاعة المؤلفة من الرصاص وملح البارود التي أحضرها زميلي معه للمتاجرة إليكم كهدية!"

بدأ منصور بك يشعر بالإجهاد، فقد مال لون وجهه إلى الرمادي من مجهود العمل والمرض. لاحظ لونجوورث أنه لم يشارك في حالة الفوران العاطفي العامة التي سببها خطاب بيل. ولا هو....

"نحن نشكرك أيها الأخ على هداياك. لكن ليس من عاداتنا أن نعرض حياة ضيوفنا للخطر في خوض المعارك نيابة عنا. في الحقيقة، فإننا ملزمون من حيث الواجب بالدفاع عن ضيوفنا. تلك

هي "الخابزه" عندنا. لقد تحاربنا مع المسكوفيين لمدة تقارب السنوات العشر ولسوف نحاربهم لعشر سنوات أخرى إذا صادقتنا انجلترا. لقد فقدنا العديد من أشجع مقاتلينا، ولكن كما ترى، لدينا المزيد للحلول محلهم."

شعر لونجوورث بتصاعد الهيجان حولــه بينما أخذ المقاتلون الأصغر سناً يضعون أيديهم على "القامات" أو يمسكون ببنادقهم: لقد كانوا عديمي الخوف، متشددين، وبعيدين عن الواقع إلى درجة انعدام الأمل.

استمر منصور بك في مطالبه التي لا تتوقف ولا تعرف المهادنة: "أسوأ ما في الأمر، هو أن بنادقنا ستصبح عديمة الفائدة بسبب عدم وجود ملح البارود... ومع ذلك فما دمنا نمتلك السيوف فإننا لن نستسلم "للجاور" أبداً.

لم يكن لدى لونجوورث ما يضيفه إلى انفجار صديقه العاطفي وجلس مستنداً وقد أصابه الخرس والتعب بينما انطلقت الهتافات العنيفة من حواليه. أدى انطلاق الطاقة هذا إلى فوضى عامة حيث تباحث الرجال في ما تم تبادلــه من أحاديث حتى الآن. كان باستطاعته لونجوورث أن يفهم من بعض النظرات العدائية التي كانت تلقى باتجاهه واتجاه بيل أن بعض المندوبين لم يكونوا مقتنعين تماماً بالتصريحات حتى هذه اللحظة: لأن الإشارات العريضة المبهمة لا تعني سياسة رسمية. وكذلك فإن صناديق الرصاص وملح البارود التي أحضرها لونجوورث معه ربما تكفي لأسبوع واحد من القتال.

قال بشيء من الجفاف لجيمس الذي كان جالساً متربعاً ويراقب نتائج كلمته بذهول "حسناً، أنت حتماً قد أضفت جواً من الحيوية إلى مجريات الاجتماع"..

جرى الإفصاح بشكل متكرر عن آراء متضاربة وبقوة. تشكلت مجموعات فرعية. وبدأ عقد الاجتماع ينفرط في فوضى من الانقسامات والخلافات.

استمر منصور بك في مداعبة مسبحته بلطف: فهم لونجوورث أنه يريد من الإنجليزيين أن يعتبرا نفسيهما قد حصلا على الأذن في الانسحاب. لم يستطع أن يفهم لماذا سمح منصور بك والوجهاء الآخرون لهذا الفوران أن يحدث في وسط اجتماع رسمي، لكن جيمس بيل بدا وكأنه يقبل الموقف على أنه طبيعي ونهض واقفاً وهو يتمطى ليفرد ظهره.

"هيا أيها الرجل. الأفضل أن نتركهم يتداولون أمرهم..." قال جيمس بمرح، وهو في غاية السعادة من أدائه. اصطحب لونجوورث خارجاً، بضربة تحبب على كتفه.

"إنني بحاجة إلى الحديث إليك... لنتمشى صعوداً نحو تلك التلة، هل أنت موافق يا لونجوورث؟ المشي يساعد على التفكير السليم..." انطلق بخطوة متبخترة بينما تمشى لونجوورث بحيوية إلى جانبه، والتزم الرجلان الصمت حتى بلغا قمة التلة، حيث ألقيا بنفسيهما على العشب تحت ظل شجرة بلوط عملاقة.

"لقد حاربت معهم يا بيل – فكيف وجدتهم؟ هل هم منظمون ولديهم رتب وضباط، كما يمكن للشخص أن يأمل؟" ما كان في الحقيقة يسأل عنه هو، هل لديهم أية فرصة في الفوز.... ضحك بيل بمرح. فقد أفرغت أحداث الصباح الكثير من التوتر في داخله "أنت تتحدث بالضبط عن الأشياء التي لا يمتلكها الشراكسة مطلقاً. ليس هنالك نظام أو وحدة قتالية على أرض المعركة. ليس لديهم أي حسّ بالطاعة حسب المفهوم الذي يمكننا أن نفكر من خلاله – "الانتظام–" "روح الوحدة العسكرية"، إلى آخره، يا جون. إنهم يكرهون أن يأمرهم أي قائد أو زعيم أو يشير عليهم بما يجب عمله أو كيف يعملونه. كنت في البداية أعتقد أن هذه نفسية ديمقراطية

حرة يجب الإعجاب بها كليا، لكنني الآن أعرف أفضل من ذي قبل...."

توقف عن الكلام، وهو يتفكر بسهوم في تجارب الأسابيع الماضية.

"ما الذي نفعله هنا يا بيل؟ إنني أشعر فجأة بالاضطراب...". أعترف لونجوورث.

أقعى بيل على حقويه بسهولة وصار يعبث بقلع الحشائش، ويلقي بكتل منها حواليه في حالة من انعدام الصبر لديه. بدا صغير السن جداً، شديد الاهتمام، وفجأة وبدون مقدمات، محبطاً.

"إنهم يحترقون بنيران منافساتهم وغيرتهم التافهة – وهو مظهر مذهل على الأخص في مواجهة المصيبة. سوف يتكلمون ويتخاصمون فيما بينهم لأيام –حتى أسابيع– بينما تستولي الجيوش الروسية على أراضيهم قطعة بعد قطعة. أنا آسف، أعرف أنني لست المتفائل المعهود ولكنك الشخص الأول الذي اضطررت إلى التعبير عن مشاعري بالإحباط له".

جلس هادئاً للحظة، يراقب "المجلس" على البعد. "انظر إلى ذلك" قال بيل بضحكة تشوبها المرارة.

تدحرج جون لونجوورث ثم استقر على أحد مرفقيه. ظهر "المجلس" من نقطة مراقبته مثل منظر في كتاب مغامرات للأطفال تماماً، طبعة مرسومة باليد تمثل حملة نبلاء من العصور الوسطى.

كانت الأشكال البشرية البعيدة تتحرك جيئة وذهاباً، تلتمع سيوفهم تحت أشعة الشمس، وتثير معاطفهم أمواجاً من الألوان عندما يلقي بها لابسوها إلى الخلف لإطلاق تصريح متعنت من نوع ما. كان مندوب غير معروف يخاطب الجمهور لكن الواضح أنه كان يعبر عن نفسه بأسلوب سيء، أو على الأقل، يستخدم حجة لا تلقى الكثير من الاستحسان. إذ بدأ الوجهاء ينهضون واحداً تلو

الآخر ويتركون الرجل يتحدث إلى الريح بينما أعادوا التجمع في مكان آخر واستمروا في المجادلة.

أعلن بيل مشدداً على كلامه "هذه أمة شجاعة، أنك لن تجد أمة أكثر شجاعة أو أناساً أكثر استقامة في أي مكان آخر. لكن لديهم هذا الموقف الرهيب تجاه أي شخص واعد منهم. فهم يبدأون بطرحه أرضاً من باب الغيرة التافهة".

أصاب لونجوورث الارتباك "ماذا عن كل أولئك الزعماء – منصور بك- كريم بك- وأولئك الآخرين الذين لم أعرفهم حتى الآن؟"

اضطجع بيل إلى الخلف وحدق في السماء "سيكون هؤلاء الرجال أمراء أو رؤساء وزارات في أية بلاد أخرى، يطالبون بالولاء والاحترام ويحصلون عليهما. ليس هنا. فإن لديهم لكل مؤآزر خمسة محبطين. إنهم بلا حول ولا طول... لا يستطيعون أن يتخذوا قرارات رئيسة". مدَّ بإبهامه بطريقة وقحة ليؤشر على المجلس: "إنهم مضطرون إلى الاجتماع على هذا الشكل في كل مرة يحتاجون فيها إلى تشكيل جيش، اتخاذ قرار سياسي مهم أو الاتصال مع القادة الآخرين. ليس الأمر محبطاً فقط، إنه هدام...."

لم يعجب لونجوورث بأي عنصر من هذا الموقف. لأن هذا الوضع لن يبدو مرغوباً بالنسبة لقراء صحيفة التايمز، وسوف يضعف آمالهم في اجتذاب الاعتراف الرسمي لهذا الصراع. "لم تكن لدي أدنى فكرة. فقد قال لي أوركهارت أن الأمر يمكن أن يكون محبطاً ولكنه قابل للسيطرة. ربما ذلك هو الدور الذي يتحتم علينا أن نلعبه... تعليمهم فوائد ومنافع الانضباط!".

ظهر التشكك على بيل "لدى بعض القبائل العديد من البولنديين الفارين من الخدمة العسكرية. رجال يكرهون الروس المحتلين بقدر كراهيتهم لهم... لكنهم مرعوبون. إنهم لا يستطيعون أن يعلّموا

الشراكسة المتطلبات الأساسية للحرب الحديثة. لقد قابلت العديد منهم. وأنا متأكد من أنهم لو منحوا أقل فرصة لهربوا من الجبال".

اعترض لونجوورث قائلاً "لقد حاربت العصابات القبلية البريطانيين بكفاءة عالية في الهند!"

"نعم، صحيح، لكن أولئك لا ينفرط عقدهم بعد كل معركة، أليس ذلك صحيحاً أيها الرجل العجوز؟ ثم إنهم عندما تدعوا الحاجة إليهم يضطرون إلى تنظيم "مجلس" مثل هذا لمعاودة الانطلاق! هذا ليس جيشاً منظماً!".

حاول بيل أن يتخذ موقفاً إيجابياً. "ليس الأمر مستحيلاً. ربما يجبرهم تطبيق مبادئ الحرب الحديثة –استخدام المدافع– على إخراج نوع معين من التسلسل القيادي، على توحيد جميع القبائل من أجل خلاص البلاد. في نهاية المطاف –الأمر يحدث في الداغستان مع شامل هذا. فلماذا لا يحدث هنا؟".

كان لونجوورث على وشك أن ينطلق في نقاش حول العوامل ذات العلاقة في شرق وغرب القفقاس عندما جاء تالوستان مسرعاً وبدأت يكلم بيل باللغة الشركسية بسرعة.

سأل لونجوورث "ما الذي يجري؟"

قال بيل "تعال معي لنرجع وسوف أخبرك على الطريق". وانطلق الرجلان مسرعين "يقوم نوغاي إسماعيل بتسميم عقول الزعماء ضدك وبكيل بعض الاتهامات الخطيرة لديفيد".

ثار جون "أوه، مثل ماذا؟"

"حسناً، الخلاصة هي أنه يقول إن أوركهارت قد تم استدعاؤه إلى انجلترا لأنه اكتشف أن لديه اتصالات سرية مع الروس. طبعاً ذلك يفترض أننا جواسيس "للجاور" بدورنا...."

"ولكنني كنت أظن...." شد لونجوورث كمّ تالوستان في حركة يائسة بينما هم يركضون عبر الحقل العشبي، وجرب لغته الشركسية "إسماعيل - لا يقرأ خطاب من السفير بك؟ خطاب استنبول؟" لم يتمكن، رغم استماتته في المحاولة، أن يفكر كيف يقول "مرجع" أو "كتاب تقديم" لكن لحسن الحظ استطاع تالوستان بذكائه أن يفهم قصده بسرعة.

"لديه الخطاب، لكنه لم يقرأه على الناس بعد. ستتم قراءة كتاب صفر بك علناً لاحقاً." كرر قوله حتى يتأكد من أن لونجوورث قد فهم.

توقف جيمس بيل، مبهور الأنفاس، وقد خطرت له فكرة مفيدة.

"تالوستان، اسبقنا وقل لمنصور بك أننا قادمون... سوف ندافع عن نفسينا في المجلس. اذهب وقل، بسرعة...."

استدار نحو جون "الأفضل أن نصل وقد أعلن قدومنا وقد علم منصور بك مضمون طلبنا".

تأوه لونجوورث مرة أخرى بصوت مرتفع وأمسك رأسه بكلتا يديه. "أنا لا أفهم شيئاً....."

قال بيل، باختصار وتركيز على الموضوع "اسمع، هذا الرجل يزرع بذور الارتياب عنا جميعاً. لقد تعرضت لمثل هذه المشاكل من قبل ولكن ليس أمام "مجلس" كبير مثل هذا أبداً -أنا لا أريد لعمل سنة كاملة، للثقة التي بنيتها هنا أن تتم إزالتها وهدمها في يوم واحد! هذا أمر في منتهى الخطورة..."

مسح العرق عن جبينه، وقد أحس بخطورة وضغط هذا الموقف الدقيق: فإن كل شيء يمكن أن ينهار بين يديه....

"إن استدعاء ديفيد إلى لندن نذير شؤم، يا لونجوورث. يحتمل أن يتم طرده من الخدمة في وزارة الخارجية.... مع أنني كنت

أعتقد على الدوام أن بونسوبني يدعمه بصلابة حول هذه المسألة الشركسية.." لم يتوفر لهما الكثير من الوقت. فقد كان "المجلس" ينتظرهما.

كان لونجوورث يفكر بسرعة، باحثاً عن مظهر إيجابي معين لهذه النكسة المحتملة "طبعاً صحيح أنهم لم يستطيعوا أن يسامحوه لأنه تصرف على سجيته وبدون استشارة أحد هنا – أعرف أن قضية سفينة "فيكسن" تسبب الكثير من الهيجان في البرلمان. يمكن خدمة قضيتنا على وجه أفضل إذا كان ديفيد يعمل متفرغاً مع اللجنة الشركسية الجديدة في القسطنطينية – يساعده فيها صفر بك بالطبع. ولكن –يجب أن لا ننسى، ربما يكون وجوده في لندن الآن مفيداً إذا أخذنا بالاعتبار المداولات الدائرة حول قضية آل "فيكسن"... ربما يتمكن من إثارة الرأي العام.."

"ممتاز.... هذه نقطة جديرة بأن تثار هنا في هذه الحالة...."

أسرع الرجلان متقدمين. مرة أخرى وضع بيل يده على ذراع لونجوورث "لقد قدمت بعض الوعود الرائعة هنا، يا لونجوورث. طبيعي أن أحداً لن يلزمك بتنفيذها... ولكن في الواقع، إلى متى تخطط للبقاء هنا؟ أحب أن أعرف، وهذا الأمر يخصني وحدي، كما تعرف...."

نظر لونجوورث إلى وجه بيل المحمَّر، وملامحه المتوهجة، إلى شعره البني المائل إلى الحمرة وقد تلبد ودفعه إلى الوراء في خصلة مبتلة بالعرق بعيداً عن وجهه الذي يشع بالطيبة.

ما دام بيل الشاب قد امتلك الشجاعة الكافية للصمود، من أجل ما هو أكثر من المال – كمسألة مبدأ– فقد شعر هو بالحرية لأن يعلن التزامه الشخصي هو الآخر.

"لقد كنت أعني ما أقولـــه. سوف أبقى هنا إلى أن يصبح بالإمكان أن نرى بعض النتائج الإيجابية. لقد أكد لي ديفيد أن باستطاعته أن يحقق دعماً لا يستهان به في مجلس الأمة. سيكون

لدينا الكثير لنعمله هنا، خاصة إذا أمسك بالمرستون بزمام المبادرة وأرضى تركيا حتى تذهب إلى الحرب... يمكن أن نجد نفسينا في الصف الأول لحملة متحالفة ضد روسيا": التمعت عيناه، وجاءت كلماته في اندفاعة واضحة مترابطة: لقد كان هذا هو حلمه. "ستكون خبرتنا واتصالاتنا ذات قيمة لا تقدر بثمن. من يدري، ربما أخرج من هذه الأزمة ببعض الامتيازات التجارية - مثلك!- إلى جانب أنها قصة رائعة يمكن روايتها....."

وافق بيل بحماس "يوجد الكثير هنا مما يمكنهم أن يصدروه - والعديد جداً من البضائع المصنوعة في بريطانيا ينبغي أن يتم استيرادها..."

في هذه اللحظة كان إسلام جري يعدو راكباً نحوهما بذلك المزيج من السرعة والتراخي الذي جعل جون لونجوورث يصرِّف أسنانه من الحسد لأنه ليس مثله تماماً.

قال، وهو يضع يداً قوية على كتف بيل "لا تقلقا أيها الأخوان، فقد كان نوغاي إسماعيل يردد إشاعات مبنية على إشاعات... ويضيف آراءه الخاصة السيئة. إن تقارير صفر بك تناقضه كلياً. إنه يوصي بكما خيراً للمجلس وقد أرسلني منصور بك لأطمئنكما إلى أن الأمور تسير بشكل طيب - وهو يقترح عليكما بوجوب الاستراحة في بيت الضيافة المخصص لكما...."

زفر بيل زفرة انفراج حارة. "حسناً. حسناً، يا إسلام جري - نحن نذهب إلى كوخ...."لوح إسلام جري لهما بوداع أنيق وانطلق مبتعداً عدواً بجواده وقد بدا منظره مثل مرافق ملكي في كل بوصة من كيانه - وهو ما كان عليه في شكل ما.

***

نام بيل ولونجوورث في تلك الليلة نوماً عميقاً. فقد شعرا بالراحة والانفراج لأنه تم قبولهما بشكل كامل، وتبعاً لذلك فقد شاركا في وليمة تلك الليلة بكل اقتناع ورضى.

خاض كل من لونجوورث وإسلام جري في محادثة متعثرة ولكنها جادة حول الأساليب القتالية المتعددة: فقد درس لونجوورث التاريخ في جامعة كامبردج وكان باستطاعته أن يسلي إسلام جري بالحديث عن معظم خطط معارك نابليون وهو يرسمها على رماد نار المعسكر.

بقي إسلام جري مسحوراً تلك الأمسية من مزيج من الإشارات، المحاكاة، الكلمات الشركسية وبضع كلمات تتارية قدمها له جيورجيو اليوناني. سرعان ما انتقلوا إلى المزايا الحركية لتأثير المدفع الذي يطلق الخردق الرش الذي أكد جيورجيو بأكثر من هزة الرأس أنه ملم به وبتأثيره. أضاف جيورجيو بعض النصائح المفيدة حول حروب الجبال وامتدت الأمسية حتى الساعات الأولى من الصباح...

استيقظ لونجوورث مبكراً، وقد أيقظه المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر....

شكل منظر المجلس لوحة ريفية رومانسية أخرى لا يمكن نسيانها. ارتفع ضباب خفيف فوق النهر: قادت النساء الماشية نزولاً إلى المرعى المحاذي للنهر بعد حلبها: بضعة أطفال يلهون قريباً من أقدام الخيل الشركسية المجمعة في حظائر مؤقتة، ويجري تنظيفها تحضيراً لمتطلبات أسيادها.

استحم لونجوورث وقضى ساعة ممتعة مسترخياً على فراش من الوسائد تحت أشعة شمس الصباح الباكر، وهو يرسم المنظر حولـــه بخطوط أولية. تمنى لو انه استطاع أن يحضر معه آلة تصوير لوحات لكنه تذكر أنها أداة غير عملية في مثل هذا الموقع.

انضم إليه بيل بعد تناول طعام الإفطار واتخذ الرجلان موقعهما في المجلس مبكرين: لأن مداولات هذا اليوم ستكون حيوية الأهمية بالنسبة لمستقبلهما.

بعد أن استقر الجميع في أماكنهم، فتح منصور بك حقيبة وثائق موجودة في حضنه. كانت الوثائق مكتوبة باللغة التركية، لكن هذا الدبلوماسي بمستوى عالمي، كما كان لونجوورث يحب أن يعتبره، قرأ المحتويات وقام بترجمتها فوراً إلى اللغة الشركسية. شعر لونجوورث بنبضه يتسارع بينما كان كل من بيل وجيورجيو يقومان بهمس الترجمة في أذنيه.

"يكتب صفر بك من القسطنطينية قائلاً بأنه تلقى اتصالاً من خلال السيد كير، القنصل البريطاني في أدريانوبل (ادرنه)، بالنيابة عن سفيره، الذي أصدر إليه —صفر بك- تعليمات ليكتب ما يلي...."

توقف المجلس برمته حتى عن مجرد التنفس.

"أولاً: يترتب عليكم أن ترسلوا رأيه هدنة إلى الجنرال الروسي مطالبين بتوقف فوري للأعمال العدائية ومقترحين شروط السلام للمستقبل.

ثانياً: يجب عليكم الامتناع عن كافة أعمال الاعتداء على الأراضي الروسية، وأن تحترموا الحدود الدولية لمنطقة الكوبان منذ الآن فصاعداً، بينما يترتب على الروس الانسحاب إلى ما وراء النهر وإخلاء الحصون التي أقاموها في بلاد الشراكسة.

ثالثاً: إن السفير البريطاني مخول بإعطاء ضمانة انجلترا في حال الالتزام بهذه الشروط.

غلفت المجريات همهمة خفيضة من الانفراج والاقتناع. رفع منصور بك يده بسرعة مطالباً بالصمت. فقد كان هناك المزيد مما يجب سماعه من صفر بك: "يجب تكرار هذه المقترحات ثلاث مرات. إذا رفضت للمرات الثلاثة من قبل الجنرال الروسي، يجب تمرير المعلومات بدون تأخير إلى السفير في القسطنطينية".

حدج منصور بك كلاً من بيل ولونجوورث بواحدة أخرى من تحديقاته الحجرية، ثم مسح بعينيه بقية مندوبيه بينما انفجر الحديث العنيف حوله مرة أخرى.

غمغم لونجوورث "إنني أعتقد أن هذا من صنع يدي بونسونبي... ألا تعتقد ذلك؟"

وقع بيل في حيرة كاملة بسبب الغموض الذي أحسه تجاه الموضوع برمته. فقد ذهب الخطاب إلى أبعد بكثير مما كان يتوقع - ومع ذلك، لم يصل إلى ما هو مطلوب....

"هو لا يستطيع أن يتصرف بمثل هذه المقترحات بدون معرفة لندن وموافقتها. إنني آمل في أن نشاهد النسخ الأصلية من هذه الرسائل..."

"هل تعتقد أنها مزيفة؟ أما زلت غير مقتنع؟ يمكن لهذا الأمر أن يشكل بداية للتبادل الدبلوماسي بين بلاد الشراكسة وانجلترا! يا إلهي الطيب - هل يعني هذا أن انجلترا قد أصبحت ملتزمة الآن، بموجب سياسة ملموسة ثابتة؟".

بدا الأمر وكأنه أفضل من أن يكون صحيحاً. جلس بيل ولونجوورث جنباً إلى جنب، وهما يتأملان في النتائج الهائلة التي يمكن أن تنجم عن قيام الشراكسة بالتصرف حسب هذه النصيحة الرسائلية....

ثارت ضجة هائلة من بين صفوف الجمهور فنهض بيل ولونجوورث بدون قصد على قدميهما إلى جانب الآخرين. انطلقت أنشودة من الجانب الخلفي للحشد الواقف في السهل خارج الدائرة، وأصبح بالإمكان مشاهدة جمهرة من خدم المعسكر والزوار وقد اصطفوا خلف رجل طويل القامة ذو لحية بيضاء راكباً على رأس ثلة صغيرة مؤلفة من رجل أوروبي أشقر الشعر وطفل صغير جداً بشعر فاتح. بدأت الأنشودة تتوضح، وعندما تعرف الحاج دانيل

على الاسم المغنى، خطا إلى الإمام عبر فسحة الدغل الصغير وأطلق ترحيبه المدوّي

"كازبك!"

احتضن الحاج دانيل صديقه القديم في عناق حار لثانية طويلة قبل أن يقوده عبر الجمهور نحو منصور بك. لم ينقص وقار كازبك بأية درجة من وجود الولد الصغير الذي كان يسير خلفه مرتدياً تشيركيسكا جديدة ويحاول أن يرفع قامته قدر استطاعته خلف الوجيه، أو بوجود الأوروبي (والذي تعرف جيمس بيل على كونه بولندياً من الوهلة الأولى) يسير خلفهما. في الواقع، فقد ظهر أن الثلاثي يمثل كل ما كان يدور البحث فيه في المجلس بصورة واحدة: حكمة الشيوخ، أمل الصغار، والحاجة إلى الثقة بالتحالف مع الأصدقاء في الغرب....

جرى تقديم كازبك بسرعة إلى رؤساء المجلس: وفي نهاية المطاف جيء به أمام جيمس بيل وجون لونجوورث.

"هذا هما الصديقان اللذان أرسلهما داود بك...."

جهز كل من لونجوورث وبيل نفسيهما لتلك النظرات المخترقة الحادة، التي ترى كل شيء: وبكل تأكيد فقد كانت نظرات كازبك متعبة ومحرجة بقدر نظرات منصور بك. بل وأسوأ منها، لأنه كان رجلاً عملاقاً مكتمل الباس، ومع ذلك يتحلى بهدوء أشاع فيهما قدراً من البرودة مردها الخوف الشديد لثانية أو ثانيتين. بعدها ليَّن كازبك موقفه: صافحهما، واستمر في تحركه. أخرج الإنجليزيان تنهيدة انفراج مسموعة. كشف تالوستان عن أسنانه في ابتسامة فخورة: "هذا الرجل هو كازبك من القباردي. هو زعيم عالي المقام، مقاتل شجاع. بالغ الاحترام من جميع الرجال".

سأل لونجوورث "قباردي؟"

كان جيمس بيل يمتلك طريقة لطيفة في تمرير المعلومات التي تعب في الحصول عليها بدون أن يتمنن.

"إنها قبيلة مختلفة من الشراكسة لديها اتفاقية سلام ضمنية مع روسيا، وهذا هو ما أقنعوني بتصديقه...".

"نعم! صحيح، لقد تذكرت! قباردا: لقد كتب عنهم فون كلابروث بالتفصيل... يفترض أنهم أكثر نضوجاً من الناحية السياسية، ولديهم نظام إقطاعي للحكم وهرمية متشددة في السلم الاجتماعي... طبعاً، لقد قابلت أحد القباردي في استنبول على ما أذكر الآن... لقد أثر فيَّ الرجل بعمق..."

"الواقع إنني لم أقابل الكثير منهم شخصياً لكنني سمعت الكثير جداً عن هذا الرجل" قال بيل "إنني لأعجب مما إذا كان حضوره يعني أنه يوجد تحالف جديد يحتمل أن يجري الإعداد له بين القبائل الغربية ووسط القفقاس..."

حدث هذا التبادل السريع بينما كان منصور بك يقوم بتقديم كازبك إلى التجمع، ويشرح باختصار الموقف الذي حدده خطاب صفر بك، ثم طلب سماع التعليقات من الحضور.

مرة أخرى غرق الاجتماع في الخلافات. قفز زعيم صغير السن من الأبزاخ واقفاً على قدميه وبدأ خطاباً عنيفاً مطولاً هاجم فيه هذا الكلام عن الدبلوماسية والبحث عن حلفاء خارجيين....

سأل لونجوورث "ما الذي يقولـــه؟" وتلقى مرة أخرى ترجمة سريعة. بدأ يدون الملاحظات: نهض وجهاء وزعماء قبائل آخرون واقفين في نفس الوقت: حاول بيل جاهداً أن يتابع النقاش: كرَّت الساعات طويلة، وحتى لونجوورث الجالس على كرسيه الصغير كان يتألم من إحساسه بالتخمة من الكلمات وشعوره بأنه مكث جبراً في مكان واحد لأطول مما يجب – وهو تشبيه صادق على عقم مجريات المناسبة.

في نهاية المطاف اتفق المجلس على الأمر الوحيد الذي توصلوا إليه بالإجماع: لقد حان وقت التوقف. فقد حل الظهر واشتدت الحرارة، ولكن كان النهار بالنسبة للإنجليزيين في بدايته، لأن كازبك حضر عبر الفتحة في الدغل وأفهمهم من خلال خادمه الشخصي إيجور أنه يرغب في جلسة خاصة معهما.

أعاد الرجال الثلاثة ومعاونيهم الاجتماع بدون أن يثيروا الكثير من الانتباه (لأن الإشاعات والإشاعات المضادة كانت تتطاير سريعة في هذا الجو المتوتر) بداخل كوخ ضيافة بيل. كان ناخو يجلس إلى جانب جده على وسادة حمراء. لم يكن قد تحرك أو لعب طيلة الصباح، رغم أنه قد ركب لأربع ساعات قبل الفجر حتى يتمكن من الوصول إلى المجلس في الوقت الملائم في يومه الأخير. أخذ يحدق في الرجلين ذوي الوجهين الأبيضين الجالسين قبالته. كان يعتقد أنهما غير عاديين، لكن الرجل الطويل القامة صاحب الشعر البني الذي يرتدي "التشيركيسكا" كان ذو وجه يحمل علائم الطيبة، لكن الرجل الثاني، صاحب البشرة الأكثر سمرة، والذي لم يتكلم اللغة الشركسية، كان يحمل نظرة شيطانية في عينيه... وقد استمر في الكتابة طيلة الوقت في دفتر ملاحظات صغير. بات ناخو مسحوراً.

سرد كازبك بعضاً من التاريخ القباردي –أخبرهما كيف عقد شعبه سلاماً مع الروس في أيام الجنرال ييرمولوف حتى لا يذبحوا: وكيف أنهم امتنعوا عن الإغارة على الممتلكات الروسية (على الأقل ليس بكثرة)، أو منحوا القوزاق أسباباً حتى يغيروا عليهم.

قال بيل "لكن من المؤكد أن الروس يحتلون أراضي "القبرتاي"، ويجب عليكم أن تقاتلوا حتى تحرروها...."

ابتسم كازبك على استعمال بيل الخاطئ لقواعد اللغة، لكنه أجاب بصدق، متحدثاً ببطء حتى يستجمع جيمس الثقة للتعبير عن

نفسه. "أنت مخطئ يا صديقي. المسكوبيون لا يحتلون أراضي القباردا. ليست لديهم أية رغبة في عمل ذلك –ولا سبب...."

قاطعه لونجوورث. "إسأله عن الحصون الروسية على طول نهر التيريك – تلك بالتأكيد أراضي قباردية!"

كرر بيل السؤال. ظهر الحزم على محيا كازبك "لقد بنى الروس الحصون على حدود بلادنا ولديهم حقوق العبور. لكن هذه الإجراءات اتخذت بموافقة أمرائنا، وهناك ذهب يدفع لأمرائنا مقابل هذه الحقوق. نحن لاندفع الجزية ذهباً كما تفعل بعض القبائل."

عند سماع هذا التفسير، أومأ لونجوورث برأسه إيماءة اقتناع وتشاور مع بيل "بدون صوت"

"يبدو لي أن "القبرتاي" قد تبنوا الدبلوماسية منذ مدة كأداة في العلاقات الخارجية. هذا اكتشاف مثير للاهتمام بالنسبة لي. إنني أحب أن أكتب مقالة عنهم، وربما أزور بلادهم.... سوف نرى...."

لمح لونجوورث عينا ناخو البراقتان وهما تحدقان فيه. كان الصبي يمتلك تلك نظرة الرجل المسن، مع أن شعره أشقر وعيناه فاتحتان مثل عيني أي صبي إنجليزي. لقد كان سبب التفكير في هذا الشبه هو تركيبة ملامحه وطريقة سلوكه وتصرفه.

"إسأل الحاج كازبك لماذا يصطحب هذا الصبي إلى هذا البعد عن بيته – أليس صغيراً جداً على مثل هذه المعاناة؟"

جاء جواب كازبك على شكل تفسير لواجبه، على اعتبار أنه أصبح "الأتالق" وتوضيح حقيقة أن ناخو هو حفيده من ابنه إمام، الذي اغتاله القوزاق....

راقب كازبك بينما كان يجري توصيل تفاصيل حياته المأساوية إلى الرجل الإنجليزي. شاهده يسأل في حيرة عما يعنيه تعبير "الأتالق"، فاستدار هو الآخر نحو إيجور وتكلم بهمس: "ذلك

امر أكثر تعقيد من أن يفهمه رجل إنجليزي. ربما سيتعلم في يوم من الأيام ما يكفي عن تقاليدنا ما يسمح له بأن يفهم...."

رشف كازبك، لونجوورث وبيل أكواب الشاي لبضع لحظات في صمت مؤدب. لقد فتح باب حوار ما: لم يظهر الوقت ملائماً لمتابعة البحث في قضايا ثقافية أوسع، مع أن كلاً من الإنجليزيين والقباردي شعروا بتحرك مشترك في الاهتمامات، انسجام بدا مشجعاً...

فوجئ كازبك عندما شده ناخو من كمّه وطلب منه الإذن ليعبر المسافة بينهما.

أوما كازبك برأسه موافقا، فمشى ناخو بكبرياء هائلة إلى جانب لونجوورث. انحنى فوق ذراع لونجوورث بينما كان وجهه يحمل تعبيراً عن الاستفسار وطلب الإذن، ونظر إلى دفتر ملاحظاته.

اهتبل لونجوورث الفرصة المتاحة لعقد صداقة ورسم للصبي صورة على دفتره. كانت صورة سفينة: لكن ناخو لم يكن قد شاهد واحدة قبلاً مطلقاً، وحمل قطعة الورق عالياً ليتفحصها بدون أن يظهر عليه الفهم.

قال بيل ضاحكاً "أنت أحمق يا جون. ارسم للصبي شيئاً يعرفه واكتب الإسم الإنجليزي له".

وهكذا انطلق جون لونجوورث، المراسل اللندني لصحيفة التايمز في رسم أبجدية شخصية لناخو مبتدئاً بالأسلوب الذي شرّفه الزمن بالتكريم مع أللأرنب وب للبطة وهكذا: تعامل ناخو مع المسألة بجدية تامة وصار يطوي كل طبق صغير إلى أربعة طيات ويدسه في جيوب سترته.

كان محتماً على مثل لحظة الاسترخاء هذه أن لا تدوم: فقد دخل تالوستان فجأة وأعلن:

"لقد عادوا – لقد عاد المندوبون واتخذوا أمكنتهم!"

نظر كازبك إلى الأعلى بسرعة "هل تعني أن المجلس قد قام بإرسال مضمون الشروط إلى الروس مباشرة؟"

"نعم- نعم" حثهم تالوستان على العودة إلى الاجتماع العام بأسرع ما يمكنهم، لأنه لم يكن يريد أن تفوته كلمة واحدة من المداولات. "لقد عادوا بجواب ويريد منصور بك من كل واحد أن يكون حاضراً عندما يقرأ الرد بصوت عالٍ".

رمق بيل صديقه لونجوورث بنظرة عالمة. "لا بد وأن يكون هذا الأمر مثيراً للاهتمام. لقد عاد المندوبون بأسرع مما هو متوقع..."

نفض لونجوورث كتفيه هو الآخر: فقد كان متأكداً إلى درجة معقولة أن الروس سيشعرون بالإهانة من أي تصريح يدل على النيات من قبل الجبليينِ – ولذلك فإن جذِب المصالح البريطانية إلى المسألة سوف يشعل نار غضبهم بما يشبه التأكيد.

ظهر على منصور بك الإعياء الشديد بينما كان المندوبون يعودون إلى التجمع. بات واضحاً أنه يعاني من آلام شديدة، وأنها تصبح أسوأ مع تعاظم التوتر أو الغضب. أمسك بقطعة ورق تحمل ختم وتوقيع جنرال روسي: دافيدوف، وعرضها على الجمع. كان يده ترتجف قليلاً، ولأنه لم يكن يرغب في أن يلاحظ الحضور فقدانه للسيطرة على نفسه، فقد هزَّ منصور بك الورقة كأنه يشعر بالاستياء، ثم أسقطها في حضنه بازدراء.

"أيها الأخوة، هذا هو جواب الروس. إنه مكتوب باللغة التركية وبعض تعابيره عدائية. لذلك سوف أقوم بتحوير المعنى، حتى لا أسيء إليكم...."

تفحص الورقة وقد ارتفع حاجباه إلى الأعلى، كأنما هو يحدق في حشرة مسحوقة في أسفل حذاء.

"إنها مؤرخة في التاسع والعشرين من شهر أيار عام 1837. يقول الجنرال.... "أنتم أيها الشراكسة ليس لديكم أي عاهل من بحر قزوين وحتى أنابا. لقد غزوتم ونهبتم المناطق الروسية... إذا كنتم راغبين في السلام، يجب عليكم أن تبدأوا بإعادة أملاكنا المنهوبة. أعيدوا إلينا السجناء والفارين من الخدمة. وفي الختام: اعترفوا بأمير ذي سلطة تعينه لكم روسيا."

امتلأ الحشد بطنين غاضب. عبس منصور بك: تحول لون وجهه إلى الرمادي الأغبر وبدأ يتعرق، ثم رفع يده طالباً الصمت. كانت هيبته ومعاناته الواضحة مؤثرين إلى درجة أن الرجال غرقوا في الصمت إطاعة له.

"هنالك المزيد.... الرجلان الإنجليزيان اللذان يزورانكم محتالان. تخلوا عن جميع المراسلات مع انجلترا والقوى الأوروبية الأخرى. تحولوا إلى رعايا مخلصين للقيصر. سوف تنعمون بالسلام بتلك الطريقة".

كان هذا غير مقبول على الإطلاق، بل محرماً. ارتفعت الغمغمات الغاضبة مجدداً.

"دعوني أكمل..." انخفض صوت منصور بك في هذه المرة حتى أصبح همساً أجش، مما أجبر الحشد على الانحناء إلى الأمام في صمت مطبق حتى يسمعوا كلماته الأخيرة.

"إذا كنتم ترغبون في السلام، يجب أن تقتنعوا بأنه ليس في الوجود سوى قوتان. الله في السماء، والقيصر على الأرض."

رفع منصور بك عينيه عن الصفحات. كانت نظرته جليدية، مجردة من الأحاسيس.

"ذلك هو الجواب. البقية مجرد تكرار ولغة عدائية".

ألقى بنظرة باتجاه جيمس بيل وجون لونجوورث. لاحظ بامتنان أن لونجوورث قد عمل تلخيصاً سريعاً للخطاب ودونه في

دفتر ملاحظاته الخاص. أومأ منصور بك برأسه بالموافقة. "والآن، بما أن لدينا هذين السيدين المهذبين معنا، فهما سيكونان شاهدين على أفعالنا".

مرّر كتاب الجنرال الروسي إلى بيل، حتى يمكنه قراءة النص الكامل بكل جلافته. نهض منصور بك واقفاً، وهو يتكئ بتثاقل على خادميه. "لقد طلبت منا الحكومة "الإنجليزية" من خلال صفر بك أن نرسل عروض السلام ثلاث مرات. لذلك سوف نرسل خطاباً آخر إلى هذا الجنرال غير المؤدب صاحب القلم الذي هو في مثل قذارة سيفه. ماذا تقولون أيها الأخوة؟"

فوجئ لونجوورث وبيل بقلة حجم الضجة التي تبعت السؤال. إذ بدا وكان كثافة قدرية قد نزلت على المندوبين. نهض الوجيه الذي كان قد تحدث بفصاحة عالية في اليوم السابق، شامز بك، مرة أخرى ليعبر عن رأي الأغلبية.

"يجب علينا أن نفعل ما تقولـــه يا منصور بك. نفعل ما يطلب منا. لكن أرجو أن لا نظهر الضعف لهذا الجنرال "الجاور". يجب أن نوطد العزم – نشرح أننا نقدم عروض السلام بطلب من حليفنا "الملك الإنجليزي" وليس من منطلق الخوف".

كان شاب أصغر سناً، وهو خبير محنك رغم سنيّه الثلاثين، يجلس قريباً من هذا المتحدث، نهض قافزاً على قدميه، وهو يشير بعنف بسوط ركوبه:

"نحن نضيع الوقت الثمين سدى!" صرخ بنبرات نشاز خشنة: بدا ذلك مستهجناً، لأن البزادوغ في العادة يتحدثون بعذوبة. "في هذه اللحظة بالذات يقوم الروس بمصادرة المزيد من الأراضي ويسكنون القوزاق "الجاور" في قرانا.... لقد تلقيت لتوي أخباراً مفادها أننا قد خسرنا قرية أبون –0 ويقوم الروس الغزاة بتسيير جنودهم في بلادنا الحبيبة بينما يتصرف جنرالهم كأنه سلطان، ولا يوجد أحد ليقف في طريقهم....".

كان هذا الزعيم الصغير السن، المدعو أصلان جري حسبما أفاد به تالوستان، أحد أشجع مقاتلي البزادوغ: فقد قام شخصياً بنصب كمين لمجموعة من القوزاق والقضاء عليهم بمساعدة رفيق واحد. كان خشناً: بدون عائلة: واحد من الرجال الذين أصبح القتال بالنسبة لهم السبب الوحيد للبقاء على قيد الحياة. لم يكن يعرف أنصاف الحلول ولا تقديم التنازلات، قائداً أكثر شراسة من أن يتبع ولكن على الرغم من ذلك فقد تقاطر العديد من البزادوغ الأصغر سناً نحو رايته، لأنه بدا وكأنه يمتلك أكثر من تسعة أرواح ومعدة من الحديد الصب لهضم إراقة الدماء. لقد كان الشراكسة بحاجة إلى مقاتلين مثل أصلان جري – لكن المأساة الآن هي أن أصلان جري بحاجة ماسة إلى الحرب.

استمر في الصخب والإتيان بحركات مسرحية: "إننا نضيع الوقت سدى أيها الأخوة، أن مقاتلينا الشباب متشوقون لخوض المعركة – فلنأذن لهم بالقتال!"

تعاظم الفوران. أصبح واضحاً أن المندوبين ينقسمون بين أولئك الميالين إلى المراحل الدبلوماسية التي اقترحها صفر بك، وهؤلاء المتشوقون حتى اليأس إلى النداء الفوري والكامل لحمل السلاح عبر أكبر عدد ممكن من القبائل التي يمكن دعوتها إلى القتال.

نهض رجل عجوز حكيم يلبس عمامة بيضاء ببطء ليتكلم، ووقف في منتهى الثبات حتى فرضت قوة حضوره المجردة الموت على الفوضى السارية. كان هذا هو الحاج علي، أحد ممثلي الأبزاخ. تكلم ببساطة، شارحاً بوضوح حتى يتمكن كل واحد من فهم كلماته. "يجب أن نتحلى بالحكمة.... فهذه أوقات صعبة. يجب أن نتصرف بحسن نية ونفعل ما قررنا القيام به أساساً. إذا كنا نريد المساعدة من "الملك الإنجليزي"، فإنه يتوجب علينا أن نستمر في العمل كما يقترح منصور بك".

نظر الرجل العجوز عبر الفسحة إلى كازبك "أتمنى لو يخبرنا صديقنا "القبرتاي" برأيه.... إنه ضيف رفيع المنزلة وعنده خبرة طويلة في مسائل الحرب- أو السلام..."

ما كان كازبك قد فكر في شيء آخر طيلة الرحلة من شواطئ التيريك. ما سيقوله "للمجلس". لقد صلى داعياً أن يحظى بالهداية الإلهية في اختيار كلماته. وسط هذا الهيجان، بدت له المحافظة على الهدوء والذرائعية سهلة بشكل مفاجئ.

"أشكرك يا "حجي علي". إنني هنا بصفة صديق لا غير.... لا يمكن أن أفترض إنني أعرف عن هذه المسائل أكثر من زعمائكم النبلاء. إنني موجود هنا لأنني أومن بقضيتكم وأتعاطف مع الصعوبات التي تعانونها. لا يجب على شركسي أن يختار الحرب طالما كان السلام ممكناً. ما يترتب عليكم أن تقرروه أيها الوجهاء هو هذا: ما هو الثمن الذي أنتم راغبون في دفعه مقابل مثل ذلك السلام؟"

توقف كازبك حتى استقر هذا السؤال البلاغي في النفوس. طأطأ الجميع رؤوسهم: لم يكن هناك رجل حاضر لا يعرف عن مأساة كازبك الشخصية والعدد الكبير من سنوات الحملات التي قادها في إقليم الشابسوغ. لم تكن أقواله كلمات ناعمة صادرة عن دبلوماسي قباردي متنعم بل هي آراء رجل له ماضي، ويمتلك العقل القادر على استشراف مستقبل مظلم من خلال كل هذه البلاغة الكلامية.

"إن أمتنا الشركسية كبيرة لكنها غير موحدة. سيدفع البعض منا الثمن بالدماء، وسيدفع البعض الآخر الثمن بالتواضع والطاعة وعلى الرغم من ذلك سيقف آخرون جانباً ملتزمين الحياد غير قادرين على اتخاذ قرار حتى تنفذ منهم الخيارات. وذلك، يا أصدقائي، لا يجلب سوى الكارثة".

نظر كازبك إلى منصور بك. كان يصغي مغمضاً عينيه، وقد توقفت اليدان الممسكتان بالمسبحة عن الحركة بشكل مفاجئ فوق ركبتيه. كان ساكناً إلى درجة بدا معها وكأنه قدٌّ من الصخر، تمثال منحوت إلى حد الكمال، فيما عدا الزاوية النشاز التي اتجهت إليها رجله المكسورة. خفض كازبك صوته احتراماً. "أنا لا أستطيع أن أقدم النصح لهذا المجلس المبجل حول سبيل العمل. يجب أن تتوصلوا إلى ذلك القرار بأنفسكم لأنه سيؤثر على عائلاتكم وأراضيكم... إذا كان قراركم هو الحرب فقد جئت لأقاتل إلى جانب مقاتليكم الشجعان، كما فعلت من قبل. وإذا كان القرار هو السلام: فسوف أكون قانعاً وأعود إلى بيتي وأسرتي."

بسط كازبك ذراعيه بكرم لمستمعيه "إنني معكم في أي قرار تتخذونه مهما يكون. ألهمكم الله سبحانه وتعالى الحكمة والرشاد".

كان شامز بك قد خاض العديد من الحملات مع كازبك. نهض واقفاً في هذه اللحظة وشكره على إفصاحه عن صداقته وإخلاصه. لكنه أضاف الاستفسار الذي لا محيص عنه:

"إذا كان قرارنا هو الحرب الشاملة، يا كازبك، فهل يحتمل أن نشاهد "القبرتاي" يتوحدون معنا لمقاتلة "الجاور"؟"

تباطأ كازبك في الإجابة، وهو يحاول أن ينتقي كلماته بعناية. فمن المستحيل عليه أن يتحدث نيابة عن شعبه. من الناحية الاستراتيجية، كانوا في موقف مستحيل: فهم مكشوفون، ومحايدون من الناحية النظرية. على أية حال، أنقذه منصور بك من الإحراج الذي يمكن أن يسببه جواب سلبي. قام في البداية بإطراء شامز بك: "ذلك اقتراح جدير بالاهتمام" قال منصور بك بأريحية واضحة "يجب علينا أن نفكر في جميع إخواننا الأديغه" في بلادنا العظيمة هذه. إذا لم نتمكن من التواجد لمحاربة "الجاور" في ساحتنا الخلفية، فكيف لنا أن نتوقع أن نقحم "القبرتاي" المسالمين – أن نضع سنواتهم الخمس عشرة السلمية في موضع المخاطرة، من أجل قضيتنا؟"

"إن الأبات الذين هم من صلبنا يعملون مع العدو في هذه اللحظة بالذات. لقد قيل لي أنهم طلبوا الحماية وأن يعملون ككشافة استطلاع للغزاة!".

غمغم الحشد في قرف من مثل ذلك التصرف المخل بالشرف.

قال منصور بك بابتسامة آسرة "يا شامز بك، يا صديقي، ما لم نتحد بين أنفسنا فلن تساعدنا حتى القوة الأجنبية. والآن، لنعد إلى غايتنا: إرسال الموفدين مرة أخرى بعروض السلام".

لم يستطرد شامز بك في الجدال. أصبح بإمكانه أن يحس بثقل مشاعر المندوبين وهو يتحول خلف منصور بك. لقد كانت المسألة على أية حال، مسألة انتظار الوقت لا أكثر ولا أقل. أدرك شامز بك، كما أدرك كل شخص آخر، إن "الجاور" سيرفضون كل الالتماسات المصوغة بكلمات ملائمة لإيقاف القتال. وأن خلاصة الموضوع هي هذه: سوف تبدأ الحرب لاحقاً، أكثر من احتمال بدايتها فوراً، وبعزم شديد.

أحسّ جون لونجوورث مرة أخرى بأكثر من دافع مفاجئ لأن يتكلم بصراحة ويشرح لمنصور بك أنه لا يجمل به الاعتماد على انجلترا – وأنه بحاجة إلى أن يوحّد كل قواته بشكل أكثر كفاءة. لكنه ما أن نهض ليتكلم، حتى قاطعه جيمس بيل بإشارة تحذير، ونهض مسرعاً. كان صوته يرتعش بعض الشيء:

"لقد حضرت هنا للمتاجرة. لقد خسرت ثروتي، وثروة أخي كذلك. وأنا الآن مصمم على القتال. إذا كان الروس يريدون قتالاً، فدعونا إذاً نخوضه وحدنا. سوف أعلّمكم كل ما أقدر عليه. إن الأمر في النهاية منوط بكل رجل وضميره الخاص".

لخصت كلماته المشاعر السائدة في ذلك اليوم. نهض العديد من الشراكسة من حلقة المجلس وركبوا خيلهم مغادرين، لكن الأغلبية نهضت على قدميها ورفعت صوتها مدوياً في هتاف هائل معلناً الموافقة على إعلان جيمس بيل بالمساندة.

شعر ناخو الصغير بمنتهى السعادة عن نفسه. فقد كان يركب في موقع مشرف، خلف جده كازبك مباشرة والحاج دانيل، وقد ركب نجل الحاج دانيل وإيجور إلى جانبيه. ركبت خلفه بقية القوة المهاجمة، والبالغ مجموعها حوالي ثلاثين فارساً. لقد سمع ناخو العديد من القصص الرائعة من جد أبيه أحمد عن الركوب نحو المعركة: وعليه بات صعباً عليه أن يصدق أنه هنا، يكاد يكون فتى بالغاً ويقوم بالأمر بنفسه. حدق في ظهر جده وقد علقت البندقية عبر كتفيه العريضين، وتدلى السيف الشركسي الهائل متمايلاً إلى جانبه مع حركة فرسه. هذا الرجل، الذي كان قد عاد إلى البيت غريباً عنه قبل مدة قصيرة ماضية، أصبح الآن مركز عالمه كله. سوف يتذكر هذا اليوم، هذا الشعور الذي يختلط فيه الكبرياء، الإثارة، الخوف، في كتلة واحدة، لبقية حياته كلها. أحسّ وكأن كازبك يقوده إلى المغامرة الأعظم التي يمكن لأي صبي أن يأمل في خوضها...

تدخل الحاج دانيل في أفكاره، إذ نادى قائلاً: "يا كازبك: يجب أن ننتظر هنا. هذه هي نقطة الالتقاء المتفق عليها مع الرجال "الإنجليز"."

نهض كازبك واقفاً في ركابيه واستدار ليتكلم "هل نحن بعيدون عن الشاطئ؟"

هز الحاج دانيل رأسه نفياً "مسافة ركوب ثلاث ساعات. لا أكثر من ذلك".

أعطى الحاج دانيل الأوامر للمقاتلين لكي يترجلوا. انزلق ناخو الصغير عن جواده مسرعاً، ولم يكن متعباً في أقل الحدود. جلس الحاج دانيل إلى جواره على العشب، وقد أفرد أثوابه الفخمة. قدم تابعه المرافق، صبي طلق المحيا جميل الهيئة في الثانية عشرة من عمره تبين فيما بعد أنه كان أيضاً نجله الأصغر، أصلان.

كان الحاج دانيل يكنُّ لحفيد كازبك هذا محبة وإعزازاً خاصين، من جهة بسبب محبته لجده، ومن جهة أخرى لأن أولاده قد كبروا. "تعال إلى هنا أيها المقاتل الصغير." أدرك ناخو أن من السهولة بمكان الثقة بهذا الرجل الضخم المبتسم الذي كان جده يحبه إلى درجة عالية. استطرد الحاج دانيل "عندما كان ابني هذا في مثل سنك، أعطيته "القاما" الأولى، ولكن أنت.... سوف أعطيك شيئاً أكثر قيمة من ذلك...."

بحث في داخل حقيبة سرجه التي كان قد طرحها على الأرض إلى جانبه، مبتسماً في وجه ناخو ورافعاً حاجبيه كأنما يقول له "هل حزرت؟ احزر؟"

لكن ناخو لم تكن لديه أية فكرة، وعندما اخرج الحاج دانيل حزاماً جلدياً جميلاً مطرزاً وجراباً يحتوي على مسدس صغير من نوع الطاحون، كادت عيناه تقفزان خارج جمجمته.كنتيجة لسمو خلقه وتأدبه الجم، لم يتناول الهدية بل حدق إلى الأعلى في رجاء لكازبك طالباً الإذن بقبول المنحة.

ابتسم كازبك وأوماً برأسه موافقاً، تناول ناخو الحزام، ومسَّد السلاح المتقن الصنع يدوياً بدرجة عالية من العناية كما قد يمسِّد عصفوراً أسيراً. ضحك الحاج دانيل، وقد امتلأ بالقناعة والرضى، وأمر ابنه أصلان أن يساعده في ربط الحزام حول خصر ناخو.

سأله أصلان "هل أنت ستقاتل معنا حقيقة؟ أنت صغير جداً على ذلك" أضاف بنبرة مرحة، وكأنما قلل منظر هذا الصبي الصغير من مخاوفه الشخصية. إذ لم يكن هو نفسه أكبر منه بكثير.

"نعم، صحيح،ولكنني مدرب تدريباً جيداً" قال ناخو ببساطة كبيرة.

كان كازبك يراقب ويستمع بمشاعر متخالطة. هو بالطبع فخور لكون ناخو صبي صغير على تلك الدرجة من الشجاعة، لكنه ذكره بابنه المفقود إمام إلى درجة سببت له الألم. قال بخشونة

للحاج دانيل "ما كان يجب أن تتعب نفسك. ولكنني أشكرك على أية حال".

كان الحاج دانيل في مزاج طيب "أعتقد أنه من اللائق أن يمتلك ناخو مسدسه الخاص به الآن، بما أنه سيتذوق طعم معركته الأولى عما قريب!"

أحسَّ كازبك بدفقة مفاجئة من الاشمئزاز من الفكرة. "لا أعرف شيئاً عن "الطعم"."

قال بقسوة. "سوف يراقب من مسافة آمنة تحت حماية إيجور. افترض أن ذلك سيكون كافياً لإعطائه فكرة جيدة".

سمع الحاج دانيل نبرة القلق في صوت كازبك ولم يقل المزيد. اكتفى بالتركيز على توضيح كيفية عمل المسدس لناخو – كيف يرفع نابض الأمان. ولكن لم تكن به حاجة إلى ذلك. فقد دار ناخو على عقبيه فجأة، صوب السلاح الصغير على شجرة قريبة ونسف غصناً صغيراً من جذعها. أطلق أصلان صرخة انتصار: ظهر السرور على محيا كازبك رغماً عنه، وكاد ناخو أن يطير فرحاً.

دخلت ثلة من الفرسان عدواً إلى الفسحة: تتألف من لونجوورث ، بيل، وتالوستان.

صاح بهم تالوستان في جزع "لقد سمعنا صوت طلقة"

ضحك الحاج دانيل "وكذلك سمعنا نحن، لقد كان مقاتلنا الصغير هذا يتمرن! هل شاهدتم أي شيء؟"

كان بيل بدوره في مزاج طيب وعليه فقد أطلق العنان للسانه باللغة الشركسية "نحن نرى العديد من الجنود، حصن مبني.... كثير سلاح.... وتحت هناك... شاطئ بحر". أشار بيديه ليقترح أن الروس يحرزون تقدماً كبيراً في بناء حصن آخر إضافي على شاطئ البحر الأسود حيث كانوا يستطلعون لتوهم.

طرح اقتراحه "تذهب؟ نعمل حرباً الآن".

ابتسم كازبك تقديراً لجهود بيل. لقد كان الشباب نفسهم في أية لغة.

"نعم يا "انجلترا"، نحن نذهب وننسف الروس كلياً إلى داخل البحر. ربما يجب أن تبقى في المؤخرة أنت وصديقك؟ سيكون ذلك أكثر أماناً لكما!"

ترجم بيل هذه العبارة إلى لونجوورث الذي ظهرت عليه الدهشة. "قل له أنني خضت قتالاً بقدر ما خاض هو - في الهند!" سحب سيفه وقام بحركة دائرية خلال الهواء حتى ينقل إليهم نواياه. فهم الجميع المغزى.

أصدر كازبك الأمر "دلنا على الطريق يا تالوستان، باعتبارك تعرف الممر الأفضل..."

تحركت القوة إلى الأمام.

حل الغسق مع اقتراب المجموعة المغيرة من التحصينات الروسية - نظر كازبك والآخرين من فوق صخرة شاهقة تحتهم على بقعة ريفية شاعرية، خليج رائع مفروش بالرمال الناعمة محاط بدائرة حماية من الصخور العالية خلفه. كان هنالك شق صخري واحد ضيق يسيل منه جدول نحو الخليج: وهذا هو الخط الوحيد المتاح للهجوم من المؤخرة.

همس الحاج دانيل "حسناً، يتوقع المرء منهم أن يعملوا ذلك...." مشيراً بسوطه إلى موقع مدفعية يضم أكبر وأثقل قطعة مدفعية شاهدها في حياته، موجهة نحو المضيق، جاهزة للإطلاق وصد أي هجوم من المؤخرة.

قال تالوستان "حسناً، لا بد من وجود طريق للنزول إلى الأسفل. دعونا نلقي نظرة...."

زحف خمسة أو ستة رجال إلى الأمام داخل الشجيرات التي تزنر جانب الصخرة، تاركين الجسم الرئيس من القوة في مكان أعلى من الممر الشاطئي، جاهزاً لتلقي التعليمات.

بعد وهلة توقف كازبك وقال: "يجب أن ننتظر هبوط الظلام، هذه المنطقة محصورة بشكل ضيق".

فهم بيل ولونجوورث الفكرة ووافقا. سحب لونجوورث منظاراً مقرباً جيداً حتى يتمكن قادة القوة المهاجمة من مسح المنظر ويضعوا مقاتليهم في أنسب الأمكنة.

قال لونجوورث لبيل بهدوء قبل أن يناول المنظار لكازبك "ذلك المدفع مركَّز على الممر الوحيد النازل إلى الخليج، هل من أفكار؟" ابتسم الإنجليزيان في وجه بعضهما بعضاً بسعادة. فهم كازبك ما كان يخططان له "هل يمكنك تشغيل ذلك الشيء؟" قال بوضوح للإنجليزيين.

"نعم يا صديق، نستطيع نفعل. نذهب فيما بعد... ظلام... نذهب ونطلقه..."

بعد بحث سريع، صدرت التعليمات للقوة المهاجمة بتعيين مواقعهم للهجوم وقيل لهم بالاستراحة حتى ما بعد الغروب بوقت طويل. صدرت التعليمات لهم أيضاً بتناول طعام بارد: لا نيران، وبأقل ضجة ممكنة.

حضر إيجور إلى كازبك، والتعاسة مرسومة على وجهه. "يا تحمادا. إنني أرغب في المشاركة لو سمحت. بإمكان ناخو الصغير أن يبقى في الجهة الخلفية على هذا المرتفع، أليس كذلك؟"

شعر كازبك بالأسف لأن يحرم إيجور من فرصة خوض معركة مرضية خاصة وهو عسكري محترف.... ولكن ناخو...!

قاطعه الحاج دانيل بقولــه بمنتهى اللطف "يجب أن ننتظر ونرى يا إيجور، في هذه اللحظة فإن وظيفتك هي المحافظة على سلامة "التحمادا" الصغير. هل تفهم؟"

لكن إيجور كان يشتعل حماساً وغضباً "لقد رفض ذلك الجنرال الروسكي عرض السلام ثلاث مرات.... ماذا يظن بنفسه؟ الليلة نعلّم الجنرال الروسكي درساً جيداً في الآداب الحسنة!" وهز قبضته متوعداً.

هدَّأ كازبك من فورانه بإشارة، وقال بهدوء "لنأمل ذلك يا إيجور. إن رجالنا بحاجة إلى نصر يأخذونه معهم عند عودتهم إلى بيوتهم. والآن، اذهب أنت الآخر واسترح – اصطحب ناخو نحو تلك الأشجار في الخلف وحاول أن تسترخي".

استلقى كازبك على الأرض وأغمض عينيه. كان يمتلك الحد الأعلى من قوة التحكم في النفس. ولكن في النهاية كان مجبراً على امتلاكها: فقد كانت مهمة كازبك كقائد أن يؤسس الثقة بالنفس ويحافظ على ثبات أعصاب الرجال.

راقب بيل ولونجوورث بينما كان كازبك يتمدد برشاقة على بقعة وحشية معجبين ببرود أعصابه.

"لا بد لي من القول أيها الصديق القديم" قال لونجوورث بهمسة خفيضة "هذا أمر مثير. إنه يذكرني فعلياً بفترة خدمتي القصيرة في منطقة البنجاب بحق وحقيق... هذا مما يجعل الدم يسري بعنف في العروق...."

كان بيل قد خاض القتال مع الشراكسة من قبل وكان يشعر بقدر أقل من التيه. انقلب على ظهره حتى يتمكن من إلقاء نظرة من فوق الصخرة على الحركة النشيطة الدائرة: مجندون روس يعملون على بناء سياج من الأوتاد الخشبية، آخرون يحفرون الخنادق، بينما كان يجري تنفيذ المهمات العادية للحصن: الخيل واقفة على معلف مؤقت، العديد من الطباخين منحنين فوق سلسلة من نيران المخيم، الخفراء واقفون في أمكنة حراستهم قرب ما لا بد وأنه مقر قيادة المعسكر. بدا المنظر كله أليفاً. مجموعة من الأصوات المختلطة، أغاني، صفير، كله حملته الأنسام المسائية

الهادئة. لم تكن لدى المفسدين المساكين أية فكرة عما كان على وشك أن يضربهم.

"لا أعرف ما هو شعورك لكنني شخصياً أشعر بالقلق. كيف سنتمكن من النزول إلى ذلك المدفع بدون أن يلاحظنا أحد؟"

ألقى إليه لونجوورث بغمزة ماكرة "لقد فكرت في الموضوع برمته أيها الرجل العجوز. فقط دعنا نقنع الزعيم القباردي بالموافقة على فكرتي... ساعدني في موضوع اللغة، ألا تفعل؟".

تحرك الإنجليزيان إلى حيث استلقى كازبك. سعل بيل بلطف، فتح كازبك عيناً واحدة، وبدأ لونجوورث يشرح تفاصيل خطته.

بعد ساعات عديدة، جلس كازبك وقوته ينتظرون الإشارة على بدء الهجوم في الظلام الدامس. فقد وعد الإنجليزيان بالتسلل نحو المدفع وحراسه "تحريره"، وإداراته إلى الخلف حتى يواجه وسط المعسكر. بمجرد أن يسمعوا الإشارة، يصبح بإمكان القوة الرئيسة أن تهجم نازلة على الحصن.

بدأ جواد الحاج دانيل يتحرك بعصبية بينما هو يحاول أن يكبحه بشد العنان. "كان يفترض فيهما أن يطلقا النار منذ وقت". قال بنفاذ صبر.

قال كازبك "ذلك -المدفع ثقيل، ويلزم تحريكه جهد رهيب. بالإضافة إلى ذلك، فلا أحد منا يمكنه أن يفعلها.... فأما أن يفعلها الرجلان "الإنجليز"، وإلا فلا شيء".

لم يكن لدى الحاج دانيل أي جواب على هذا. لذلك بات حتماً على بيل ولونجوورث أن يصلا إلى المدفع. ران صمت على القوة الشركسية، سميك إلى درجة يمكن معها تذوقه.

حدَّق كازبك في الظلمة واستطاع بصعوبة بالغة أن يلمح ناخو الصغير، جالساً قريباً خلف إيجور مع أصلان الصغير، يداعب مسدسه. في كل مرة يقلبه فيها في يده، كان مقبض المسدس يلتقط

شعاعاً من نور القمر. لمعة، لمعة، لمعة... إنه بارع في استعمال المسدسات.... صاح الحاج دانيل "الحمد لله والشكر!" عندما جعل انفجار يصم الآذان الصخرة نفسها التي يقفون ترتعد – لقد أطلق المدفع قذيفته، وأضيء المعسكر تحتهم فجأة بوميض من اللون البرتقالي.

تمزقت الخيام إلى أشلاء – وقذفت الأجسام إلى الأعلى في الهواء...

اخترقت الظلام صرخات تفوّر الدم. والتمعت السيوف، التهبت البنادق، برقت لجام الخيل بينما انطلقت الخيل في هجوم شامل. هجم رجال كازبك نزولاً من الشق الصخري إلى داخل المعسكر الروسي باندفاع شديد واختلط الحابل بالنابل.

امتلك لونجوورث وبيل الموقع المسيطر، أعادوا تلقيم المدفع بسرعة محمومة عندما سمعوا الموجة الهادرة من الفرسان تستجمع سرعتها من خلفهم.

صاح بيل "ضربة مباشرة! لنذيقهم طعم الجحيم!"

كان لونجوورث يتعرق مثل عامل على سفينة ويعيد ترتيب زاوية إطلاق المدفع ليتمكن من تسديد قذيفة إلى ما خمَّن أنه مستودع الذخيرة: خيمة صغيرة، بدأ عدد من الجنود يغادرونها مبتعدين بفعل غريزي. أطلق المدفع مرة أخرى، وملأ الجو انفجار رهيب برائحة ملح البارود، والدم والفوضى الشاملة.

تنفس بيل بفرح وصرخ "يا يسوع المسيح!" فقد كان الشراكسة يهجمون في موجات سوداء من على جانبيه، ويجري حصاد الروس ببساطة أمامه ليس بفعل الأسلحة النارية المتفوقة ولا حتى الأعداد الغامرة. لقد كان العامل المسيطر هو سرعة وشراسة الهجوم الذي عمل على تصفية قوة الحياة من أبدانهم.

فوق قمة الصخرة العالية، جلس ناخو الصغير يراقب. كان أصلان الصغير قد انطلق مبتعداً في الظلمة فور سماعهم صوت المدفع الكبير ينطلق بهديره. أصبح الآن لوحده مع إيجور. ظن لوهلة أنه سيتوقف عن التنفس، فقد كانت درجة الإثارة والرعب اللذين أحس بهما تفوق قدرته على التحكم. كان الضجيج الذي يرتفع إليه مختلفاً عن أي شيء سمعه من قبل: شاهد بين الدخان وألسنة اللهب أعمالاً من الوحشية ستظل محفورة في ذهنه إلى الأبد. فهنا تدحرج رأس مفصول، وجسمه ما يزال ينتفض، وهناك انشطرت بندقية رجل ما إلى قطعتين نظيفتين بضربة سيف هائلة، وهناك أيضاً رجل مشقوق البطن بفعل حربة، وقد التصق بشجرة فاتحاً ذراعيه وقدميه على اتساعهم.

وفي وسط هذه المعمعة كلها، خاض جده كازبك بثوبه الأبيض وقبعته الاستراخان، رافعاً ذراعه، والدم الأحمر يسيل حتى يبلغ كوعه.

أصيب ناخو بالشلل التام. هزّه إيجور قليلاً ثم حمله وجمعه على ركبتيه.

"قتال رائع، أليس كذلك، أيها الصغير؟ إن جدك هو أعظم مقاتل على الإطلاق. إنه أسطورة".

لو لم يكن ناخو قد أعجب بجده حد الإفراط قبل تلك الليلة، فقد كان سيتحول فوراً إلى عبادة الأبطال. ولكن في واقع الأمر، فقد حفر إخلاصه نفسه بدرجة أعمق في قلبه، بقوة تعادل تأثير حديد الوشم على اللحم العاري.

راقب المعركة حتى لم يعد يقوى على المراقبة ثم إنهار بفعل الإرهاق متكئاً على صدر إيجور الدافئ.

عندما استيقظ ناخو، كان جسمه متيبساً من البرد والندى، وعجب للحظة مما إذا كان ما شاهده سابقاً هو كابوس حيوي قبيح. لكنه شاهد وهو يفرك عينيه صفاً طويلاً من الأسرى الذين تقطر

منهم الدماء يتعثرون وهم يصعدون الممر المؤدي إلى ظهر الصخرة، إلى جانب صف من الجنود الشراكسة، وقد جاء خلفهم الحاج دانيل، وأصلان الذي يبدو عليه الوجوم، الرجلان الإنجليزيان، وكازبك.

"هيّا اركب يا إيجور. تعال إلى هنا يا ناخو" وانفتح وجه كازبك المسودّ عن ابتسامة، كشفت عن بياض أسنانه المذهل.

انحنى إلى الأسفل ولوح بناخو إلى مقدمة سرجه. "اركب معي قليلاً من الطريق يا ولدي."

قال بلطف "هل نحن ذاهبون إلى البيت يا جدي؟"

"نعم، نحن ذاهبون إلى البيت".

استلقى ناخو على صدر كازبك، وقد ارتعشت خياشيمه من الروائح الحادة النفاذة للعرق والدم والمعدن. بدا له هذا الرجل وكأن الحرب قد تجسمت في كيانه.

استدار كازبكَ نحو الحاج دانيل والإنجليزيين "يجب أن نسرع بالمغادرة من هنا. ربما يكون لدى الروس تعزيزات قريبة من هنا. الأفضل أن لا يباغتونا ونحن نستحم، أليس كذلك أيها الإنجليزي!" هتف بمرح بينما اقترب بيل ولونجوورث منه.

أضاف كازبك وهو يمد يده مصافحاً "نقول لكما وداعاً الآن يا "إنجليز"، سوف اصطحب حفيدي إلى البيت".

أومأ بيل برأسه "نعم يا "حجي"، سنكون جاهزين... اذهب"

لكزه لونجوورث "إسأله لماذا قاموا بتدمير ذلك المدفع الرائع؟ كان بإمكانهم أن يستخدموه فيما بعد. بإمكانهم أن يستفيدوا كثيراً من قوة نيران المدفعية..."

ابتسم بيل "بإمكاني شخصياً أن أجيبك على ذلك. كيف تعتقد أنهم سيتمكنون من رفعه فوق هذه الصخور؟ هيا بنا؟ لنتحرك".

قال بيل مودعاً كازبك "آسف حقاً على السماع بذهابك، إذا ترجع، نحن نقوم بمزيد من المعارك، مثل هذه؟ نعم؟" كان بيل يكافح بالشركسية.

وافقه كازبك "نعم يا "إنجليز" سنخوض المعارك مرة أخرى "إن شاء الله"!"

تحركت القوة قدماً. مدَّ ناخو الصغير يده عبر مقدمة سرجه إلى أصلان، الذي ظهرت عليه علائم إرهاق المعركة والكبت بقدر ما كان يحس هو نفسه.

"الوداع، يا ابن الحاج دانيل" قال له بأدب.

بذل أصلان جهداً كبيراً ليتكلم، والتمعت ابتسامة كبيرة على وجهه رغم السخام الذي كان يغطيه "الوداع، أيها الرامي الماهر!".

بعدها دفع ناخو بوجهه حول جانب كازبك وحدق في الغريبين المغادرين بقوة لمدى طويلة، رفع يده بحياء ولوح إلى الإنجليزي اللطيف.

أطلق لونجوورث تحية عسكرية قصيرة باتجاه الصبي. ما هي فرصة شاب صغير مثل هذا في أن يكبر ويستمتع بحياة رغيدة؟

لكزه بيل قائلاً "حسناً أيها الإنجليزي" وقد خفض صوته حتى أصبح زمجرة صادرة من الحلق مقلداً صوت كازبك "أنت تستمتع بالمعركة، أنا أستمتع بالمعركة... أكره الدماء!"

ابتسم لونجوورث للمداعبة. سيمضي وقت طويل قبل أن يلتقي بشخص يساويه. قال بدون تكلف "هيا بنا ننطلق، أظن أن بإمكاني أن أنام أسبوعاً بحاله".

***

الفصل السابع
القسطنطينية
1857

تنازعت ديفيد أوركهارت مشاعر متباينة عند عودته إلى القسطنطينية. ليس هناك ما يعادل العودة إلى موقع المغامرات الشبابية في تذكير رجل مسن بما فشل في عمله. لقد كان أمراً مليئاً بالمرارة، أن ينظر في صباح ضبابي بارد إلى الخارج نحو شارع مزدحم ويدرك كم كان تأثيره صغيراً على حياة الشعب التركي. كم كان يهدهد من الآمال... في السنوات العشرين التي غاب فيها عن الشرق، تغير من شاب مليء بالمثاليات إلى رجل في منتصف العمر، جدي، وحتى خائب الآمال. بسبب قدره الذي ساقه إلى الدبلوماسية العالية، أصبح رجلاً مريضاً منهمكاً في جولة مؤلمة حد التعذيب من المحاضرات في القاعات الشمالية ذات مجاري الهواء البارد، توزيع المناشير، وإنتاج المقالات المملة التي لا تنتهي ضد مخططات روسيا العدوانية.

لم يثنه أي شيء عن إيمانه المشوب بالشغف في قضية الشراكسة. ولم يثنه أي شيء عن الاعتقاد بأن اللورد بالمرستون، وزير الخارجية في وقت أزمة السفينة "فيكسن"، قد خانه - وتسبب في تحول اللورد بونسونيبي ضده أيضاً. لم يكن أوركهارت قد شاهد صديقه القديم منذ اليوم الذي غادر فيه جالاتا، قبل تلك السنوات الطويلة الماضية.

اتجه أوركهارت إلى مكتبه باكتئاب. لقد كان يأمل في أن تؤدي نتيجة حرب القرم إلى أن يأخذ البريطانيون زمام المبادرة أكثر من ذي قبل، ويرسلوا قوة استكشافية إلى القفقاس الغربي. لكنه أخطأ في حساباته حول مشاعر الشعب البريطاني. فقد اتجهت

الصحف البريطانية إلى الموقف الذي يقضي بأن الحرب قد تم كسبها بمجرد سقوط سيباستوبول. لقد كانت حرب القرم هي الأولى التي تتعرض لتمحيص الجماهير – عن طريق التقارير الصادرة عن ميادين المعارك وما إلى ذلك. اطلع الشعب على الحقيقة: إنها حملة أديرت بطريقة سيئة وإنها وحشية وبلا فائدة.

ولكن الشعب البريطاني تعرض للخداع بمساندته لإنهائها. لأنه بموجب معاهدة باريس فقد ظلت روسيا على نفس قوتها قبل الحرب تماماً – ولم تكن تدفع ثمن هزيمتها!

حسب اعتقاد أوركهارت، فقد كان ذلك مرده إلى أن محرر صحيفة التايمز كان يقبض الرشاوي من قيصر روسيا، مثله مثل اللورد بالمرستون.

لم يكن القيصر الجديد، ألكسندر الثاني، يرغب في حرب مطولة لأنه سوف يخسرها: وعليه فقد فاوض على السلام في الوقت الملائم لإيقاف الحلفاء الغربيين عن مساندة تركيا في هجومها على القفقاس.

سيتمكن بذلك من المضي في اكتساحه للجبال، ويفتح الطريق أمام مخططاته الكبرى المتعلقة بوسط آسيا. لقد كان الأمر جلياً.

تسعى السياسة إلى إنقاذ ماء الوجه، وليس إلى تحقيق العدالة.

بعد ثلاثين سنة من المقاومة الشرسة، ما زال الشراكسة في الغرب يقاتلون، وينظرون بلا أمل إلى انجلترا متوقعين الدعم والمساندة، وما زالوا بعيدين عن الحرية أو السلام.

لقد كان السبب في عودة ديفيد أوركهارت إلى القسطنطينية في هذا الوقت، بعد هذا الغياب الطويل، هو وجود خطة جديدة يائسة ابتكرها بعض المقاتلين الثوار البولنديين، تدعو إلى خلق قوة تحرير مؤلفة من مواطني العديد من الدول، للقتال ضد روسيا إلى جانب الشراكسة. وقد قامت "لجان الشؤون الخارجية" التابعة لأوركهارت

– وهي أندية مؤلفة من رجال عاملين مخصصة لتعلم الحقيقة حول سياسات إنجلترا الخارجية وجمع الأموال لدعم ومؤآزرة بعض القضايا – قد موّلت هذه الرحلة والكثير من الأشياء إلى جانبها... مثلاً، هذا المكتب: قاعدة القسطنطينية للجنة الشركسية. تتهد أوركهارت من مرأى حالة مكتبه، طاولة كبيرة لكنها زرية الهيئة، سطحها من الجلد المراكشي الآخذ في التقشير لقدمه وقد تكومت فوقه الرسائل غير المفتوحة كالعادة. جلس قبالته العقيد لابينسكي يدفئ يديه على نار صغيرة، وجلس إلى جانبه مساعده، وهو بولندي آخر اسمه كليمينت، ضابط مدفعية متحمس ومتشوق لتعليم الشراكسة على الاستخدام الأمثل للأسلحة النارية.

حدق ديفيد طويلاً وبحدة في الرجلين. لقد كانت لديه تحفظات عميقة حول هذه الخطة، والتي هي إلى حد بعيد من بنات أفكار شخص بولندي مهاجر إلى باريس، هو الأمير تشارتوريسكي.

لدى البولنديين تاريخ طويل في العصيان والثورة وفي التآمر. وعليه فقد ظل يعجب مما إذا كان إشراك الشراكسة سوف يحقق أية نتائج....

بدأ بقوله، بشيء من التردد، وهو يتناول رسالة من مكان ما على الكومة التي أمامه:

"أن أفضل وسيط لنا، هو الرجل صاحب أكبر نفوذ بين القبائل، وهو سيد مهذب عجوز يدعى خيري أوغلو شامز بك. هو قائد مهم من قبيلة الشابسوغ. إنه متمكن جداً من القراءة والاتصال باللغة التركية. لقد كتبت له ملاحظة أصف فيها الغاية من مهمتكم، وأطلب منه التعاون معكم لتنسيق عملياتكم العسكرية. ستجدون فيه نعم الحليف الصادق والداعم القوي. وأنا أشدد هنا أيها السادة، بأنكم يجب أن تتصرفوا فقط من خلال التفويض الكامل من الشراكسة. أنتم لا تستطيعون أن تكسبوا الحرب نيابة عنهم. سيكون ذلك بلا جدوى."

مسح لابينسكي بعينه رسالة التقديم التي دفع بها أوركهارت عبر الطاولة إليه ثم دفعها إلى داخل كيسه الجلدي حفاظاً عليها.

"يا سيد أوركهارت، إن السؤال الذي بقي بلا إجابة هو – هل سنتلقى التموين على أساس منتظم، وإذا كان الجواب إيجابياً، فكيف – وما هي درجة الانتظام؟"

عبس أوركهارت "أنا لست أفهم ما ترمي إليه تحديداً... هل أنت تتكلم عن أصدقائنا هناك في الكافكاز أم هنا في القسطنطينية؟ وما الذي تعنيه بالتموين؟ لقد كنت أعتقد أن قصدك هو عرض خدماتك على زعماء الشراكسة....."

انحنى النقيب كليمينت إلى الأمام بحماس. "ما يقصده العقيد لابينسكي بالضبط هو تموين حربي – ذخيرة، ملح بارود، بنادق – ربما مدافع ثقيلة فيما بعد."

دار أوركهارت من خلف مكتبه، حتى يتكلم بسرية أعمق. "لقد أدت الحرب على الأقل إلى كسر الحصار الروسي على البحر الأسود. لكن الأتراك يقومون بتفتيش السفن بحثاً عن تهريب الأسلحة بشكل منتظم. هنالك بعض قباطنة السفن الراغبين في حمل التموين والعبور به نحو الشراكسة، وأنا أعمل ما أستطيعه لجمع التمويل وتموين أصدقائي القدامى... لكنني لا أستطيع أن أعدكم إلى أية درجة ستكون هذه الإجراءات منتظمة".

ظهر على النقيب كليمينت قدر قليل من التفاؤل الإضافي عند سماع هذه الإجابة الحذرة.

"لقد سمعنا – طبيعي أنها مجرد إشاعات – لكننا سمعنا أن بعض الأعتدة البريطانية العائدة من ميادين القرم يمكن أن تجد طريقها إلى القفقاس؟"

بأن التكتم والحرص على وجه أوركهارت "لقد سمعت أفكار صديقنا العقيد لابينسكي الرغائبية. لدينا شخص يقوم بالتفاوض على

شروط شراء مثل هذه الأسلحة، لكن المفاوضات ما تزال في مراحلها الأولى".

تنهد العقيد لابينسكي. البريطانيون وعباراتهم المبهمة... لم يكن يستطيع أن يفهم لماذا هذا المدعو ديفيد أوركهارت قليل الحماس إلى هذه الدرجة.

قال بنبرة إيجابية "حسن، أعتقد أننا قد تحدثنا عن كل شيء. أنا أفترض أن المسائل المتعلقة بالإقامة والطعام اليومي سيتم تقديمها من قبل الجبليين".

حدجه أوركهارت بنظرة قاسية "إن كرم الضيافة هو جزء من معيار الشرف لدى الشراكسة. سيتم الاعتناء بكل من يساعدهم، أنا أؤكد ذلك". عض على شفته، وهو يعجب: هل يدرك هؤلاء الجنود الباحثون عن الثروة ما الذي يواجهونه؟

"أيها السادة – لقد أكدت للأمير تشارتوريسكي الموجود في باريس من خلال كتابي عن رغبتنا الوطيدة وأننا سوف نتعاون ونساعد بكل الإمكانيات المتوفرة بين أيدينا... إن طعامكم وإقامتكم أقل مشاكلنا إلحاحاً....."

تردد قليلاً، ثم قرر أن يتكلم بوضوح. إذا كان هذان الرجلان جاسوسين روسيين فما الذي لديه ليخسره وقتها؟ هو لن يتمكن من منعهما من ممارسة الأنشطة المعادية للسلطة الروسية بكل الأحوال:

"إن أهم جزء من مهمتك أيها العقيد هو العثور على البولنديين الهاربين من الخدمة في الجيش الروسي وإعادة تجميعهم تحت قيادة واحدة على شكل وحدة مقاتلة لمساعدة ودعم الجبليين. المساعدة والدعم.... سيتم الاهتمام بكل الأمور التعبوية الأخرى". ثم انحنى إلى الأمام ليشدد على هذه النقطة "أنا أؤكد لك ذلك".

شد النقيب كليمينت على يده مصافحاً "حسناً يا ديفيد. افترض أن كل شيء معد. إذا لم يكن أي شيء آخر، فنحن نستأذنك في الوداع".

حاول العقيد لابينسكي مرة أخرى "أمر واحد أخير يا سيد أوركهارت. آسف لأن أتصرف كجندي على الدوام، ولكن ماذا عن الاستخبارات؟ هل هناك أخبار ملموسة وصحيحة عن تحركات العدو وخططه؟ أمكنة تجميع القوات – مثل تلك الأمور؟"

شعر أوركهارت بقلبه يخفق بشدة. إذا كان هذان الرجلان جاسوسين روسيين، يحاولان أن يستنتجا درجة كفاءة الاستخبارات الشركسية – فسوف يتم خداعهما في وقت قريب جداً. بإمكانه أن يعتمد بشكل مطلق على شامز بك ليختبرهما في الميدان. يتوجب عليه أن يقول شيئاً ما – وما قاله كان معلومات عامة، ولا يخاطر بالكشف عن أي شيء.

نفض كتفيه "كل ما نعرفه هو أن الأمير بارياتينسكي منشغل كلياً بقوة شامل في الداغستان. لذلك فإن كل ما يمكننا أن نحدس به هو أنه لا يمكن توقع تحريك قوات كبيرة في القفقاس الغربي. لا بد أن يوفر ذلك لكما الوقت الكافي لتجميع الناس وتدريبهم. ربما حتى القيام ببعض الأعمال ضد بعض التحصينات والمستوطنات الروسية!"

بدا على البولنديين الميل نحو الترحيب بهذا الاقتراح. إطمأن أوركهارت قليلاً فيما يتعلق بدوافعهما الحقيقية. ثم سألهما:

"لقد تم تنظيم مسألة عبوركما لأواخر الأسبوع القادم. فهل ستكونان جاهزين؟"

ارتدى لابينسكي قفازيه. "نحن جاهزان الآن. إن رجالي كلهم من المهاجرين ذوي الخبرة. إنهم متشوقون دائماً لمقاتلة الروس".

فتح أوركهارت الباب لهما "ذلك كلام في منتهى التطمين" قال لهما بهدوء. "سوف أحيط مكتبكما هنا علماً بأية تطورات. سوف نلتقي مرة أخرى قبل مغادرتكما". ثم أضاف وكأنه قد تذكر فجأة "بالمناسبة، كم واحداً أصبح عددكم حتى الآن؟". تعلق السؤال في الهواء بدون إجابة لعدة لحظات. نظر البولنديان إلى بعضهما بعضاً لكن لابينسكي أجاب. "لدينا الآن سبعة من ذوي الخبرة النظامية. يمكننا بهؤلاء السبعة أن نجتذب العشرات. ربما المئات من الهاربين. تلك هي خطتنا".

بعد أن انصرف البولنديان، جلس أوركهارت وأدار كرسيه باتجاه الشباك مرة أخرى. و فكر بنفسه بصوت عالٍ. "سبعة جنود مرتزقة بولنديين لإنقاذ القفقاس...!". وهز رأسه. هل أصبح مقدراً للقفقاس أن يصبح مشتلاً لزرع الدسائس والجاسوسية المضادة؟ هل سينخرط الشراكسة في سياسات القوة من أحط الأنواع؟ لقد ظلت حربهم على الدوام قتالاً واضحاً شريفاً. لكن مع إطالة وقت الصراع، فإن القضايا تصبح أكثر اضطراباً وتعكيراً. ربما كان الأمر يتعلق فقط بعمره. ولكن ديفيد لم يعد يثق بأي أحد وبدا له أن قائمة الرجال الفاسدين المدفوع لهم من قبل الآخرين تصبح أطول وأطول مع كل يوم تبقى له.

وكان فوق ذلك يمتلك الدليل. فقد ظلت الأدلة تتدفق على مكاتب "الملف" طيلة الوقت: تقارير سرية، رسائل مسروقة، اعترافات صغار الضباط: البولنديين، الأتراك، الشراكسة، الفرنسيين، جمع كبير متنوع من الرجال المتلهفين على كشف الفضائح أو إسقاط رؤسائهم السابقين. في بعض الأحيان كان الدوار يملأ رأسه لشدة رغبته الملحة في أن يفهم عامة الشعب في إنجلترا كم هي قليلة نسبة الحقيقة التي يتم إخبارهم بها عن أي من القضايا على الإطلاق. ولكنه إذا تمكن من توجيه الاتهام إلى بالمرستون أمام البرلمان! وحق الله. سوف يرون وقتها!

جاءت نقرة على الباب بصفر بك، صديقه القديم، إلى المكتب، مصحوباً بمتطوع آخر مخلص لأعمال اللجنة الشركسية – وكيله المحلي في المهمة، بيتر مالكولم.

أعلن ديفيد "إن البعثة قائمة، أيها السادة،لقد كان لابينسكي هنا قبل مجيئكم بلحظات. مالكولم – هل هنالك أية أخبار من لندن؟"

هزّ مالكولم رأسه نفياً "ليس هناك أي اهتمام بما تفعله على الإطلاق. وإنني أعاني من بعض الصعوبات بشأن البضاعة القادمة من شبه جزيرة القرم. هناك رجل في وزارة الدفاع – شخص اسمه دالجيلش... إنه معادٍ كلياً. لا يريد أن يعرف على الإطلاق".

سمع صفر بك الاسم وتصرف برد فعل فوري "هل قلت دالجيلش؟ ولكننا نعرفه."

تبادل مع أوركهارت نظرة مشبعة بالمرارة، قال صفر بك بلطف "سوف يخبرك ديفيد"

"خلال الحرب، قام مراقبون من الحلفاء – ضباط إنجليز وفرنسيون– بزيارة الساحل القفقاسي استجابة لمقترحات فرنسية للقيام بعمليات مشتركة في القفقاس".

أضاف صفر بك قوله "وقد ضمت المجموعة البريطانية السيد دالجيلش الذي تحدثت عنه...."

أكمل ديفيد "لم يتأثر هؤلاء الضباط من أية إمكانيات للتعاون مع الشراكسة أو بحالة القوات التركية في أرمينيا. ولم يوصوا أو ينصحوا بأي عمل. إن دالجيلش هذا ليس صديقاً لبلاد الشراكسة".

هز مالكولم رأسه ندماً. "أتمنى لو أنني كنت أعرف هذه المعلومة الاستخبارية قبل أن نتوجه بطلبنا إلى وزارة الدفاع".

"ما كنا لنعرف أن دالجيلش سيظهر في الوزارة" قال ديفيد داعماً.

استذكر صفر بك "لقد عملنا له كل ما هو ممكن. لقد جاءني إلى هنا حاملاً رسائل من سفيركم ورتبنا أمر استقباله على الشاطئ..... لا أعرف ما الذي حدث حتى ينمي لديه مثل هذا الرأي السلبي".

امتنع أوركهارت عن الضحك. تذكر رحلات بيل ولونجوورث ودرجة يأسهم من غرس أي نوع من حركات المقاومة المشتركة في قلوب ذلك العدد الكبير من الزعماء القبليين. كان بإمكانه أن يتخيل ما سيتمكن ضابط من الحرس الأسكتلندي من تكوينه من آراء حول "مجلس" شركسي.

"لا جدوى من التباكي على الحليب المنسكب! هيا بنا إلى عملنا....."

بسط مجموعة من الأوراق على الطاولة، واقترب كل من مالكولم وصفر بك.

"لقد اتفقنا على تسليم جميع المعدات التي يمكننا الحصول عليها إلى البولنديين عندما يبحروا. يا صفر بك - أنا أحتاج إليك لتتصل بزعماء قبيلة "الوبيخ".

استمر أوركهارت في إعطاء التعليمات. كان قلبه حزيناً، لكنه كان مصمماً على الاستمرار في حملته التي لا تعرف المهادنة أو التوقف، رغم أن الأمل بات يتناقض. كل ما تبقى له هو نواياه: لم تكن النتائج واضحة، لكنه تصالب وتحامل على نفسه حتى لا يفكر بتلك الاحتمالات، أبداً. فذلك لم يكن ملائماً لصحته.

كان سبيل العمل الوحيد المتاح له هو العودة إلى إنجلترا والاستمرار في النضال حتى يتسنى للحقيقة أن تسمع هناك.

***

إتكأ الحاج دانيل بتثاقل على عكازه، وحرك الكيس الذي يحمله فوق كتفه إلى الأعلى قليلاً. كل نسيج في جسمه يؤلمه من جراء

الجهد الذي يبذله في محاولة الاستمرار في السير مع الطابور. كانت زوجته وابنه أصلان يتحركان إلى جانبه بصمت: إن مارينا العجوز قوية البنية وصغيرة الحجم: وكان أصلان يضطر إلى حملها في بعض الأحيان، عندما تشعر أنها قريبة من الإغماء.

لقد وصل مصير شعب الشابسوغ إلى هذه النتيجة: قام القوزاق، من رجال لواء أوروب، بتجميع سكان قرى بأكملها، يحرقون بيوتهم، ويجبرونهم على مغادرة أراضي أجدادهم.

فرض المسير القسري عبر السهول الغربية باتجاه ساحل البحر الأسود على العديد من القبائل، الأبزاخ، الناتخواي، البزادوغ، إلى جانب الشابسوغ.

كان الرجل المسؤول عن هذه العملية هو الجنرال الكونت يفدوكيموف - وهو نفس الرجل الذي أنقذ حياة كلوج فون كلو جيناو عندما هاجم شامل في اللقاء المصيري، عام 1839. وقد تم ترفيعه الآن إلى منزلة النبلاء بعد حملة منتصرة ضد إمام الداغستان. وقد تسلم يفدوكيموف المسؤولية عن القفقاس الغربي. وكان قرار البدء في عملية تفريغ البلاد من السكان من أفكاره، بحيث يرسل العائلات القوزاقية خلف الشراكسة المرحلين. لقد كان مجموع سكان القوزاق على البحر الأسود يزداد إلى أكثر من 150000 شخص.

كذلك كان يوجد "اينوجورودني" على أهبة الاستعداد للإستيلاء على الأراضي المهجورة.

"غرباء" سعداء بأن يكونوا موالين ومخلصين للقيصر الروسي: يهود، أرمن، تجار روس، جنود روس مسرَّحون من حرب القرم، فلا حون أوكرانيون. لقد كان القفقاس يتعرض للاحتلال.

فقد تم إلقاء القبض على شامل وأسره. تمكن أربعون ألف جندي روسي تحت قيادة الكونت بارياتينسكي في النهاية من

محاصرته في ملجأه، غونيب، حيث تناقصت قوة شامل إلى مالا يزيد عن أربعمئة من المريدين المخلصين، مع زوجاته وأطفاله. لقد تناقص عدد مناصريه، ببطء، وبشكل تدريجي، بعد ثلاثين سنة من مقاومة "الجاور". لكن إجباره على الاستسلام تطلب وجود أربعين ألف جندي روسي. وهكذا، سلّم شامل نفسه إلى الكونت باريا تينسكي شخصياً، في يوم عيد ميلاد القيصر، الموافق للخامس والعشرين من شهر آب عام 1859، حيث اقتيد نحو الأسر. انتشرت أخبار هذا الحدث الجلل مثل انتشار النار في الهشيم عبر كل القفقاس. عرف الشراكسة فوراً ما كان ذلك يعنيه. فالروس سوف يركزون جميع قواتهم الآن في أقاليمهم، ويستمروا في عملية السيطرة على كامل تراب القفقاس حتى النهاية المريرة.

مع كل خطوة يخطوها ،كان الحاج دانيل يتمتم بكلمات أنشودة شامل، التي ألفها بنفسه لتحل محل جميع الأغاني المبتذلة.....

يا خدام الله، يا شعب الله!
ساعدونا، باسم الله
امنحونا عونكم
ربما سننجح برحمة من الله
لأجل حب الله، يا خدام الله
ساعدونا حباً بالله......"

"حرّك رجليك بسرعة أكبر، أيها العجوز، وإلا جاءك "ذو العيون الثلاثة" صاح جندي قوزاقي بمرح في الحاج دانيل.

"ذو العيون الثلاثة" اسم وحشي "لجاور" وحشي.... حصل عليه يفدوكيموف عندما أطلقت النار عليه في معركة ضد المريدين، فقد اخترقت إحدى الرصاصات وجهه ومنحته الاسم المستعار الذي لم يضف إلى الجبليين شيئاً سوى الشعور بالمزيد من الرعب.

تحرك الشابسوغ ببطء في مسيرهم، مارين بقرى أحرقت حتى الأرض، عبر الحقول التي ديست محاصيلها بحوافر خيول

القوزاق، عبر الجداول التي ظهرت فيها جثث الماشية المقتولة وقد تنفخت في المواقع الضحلة.

بدأ الـ "الأينوجورودني" منذ ذلك الحين في بناء أكواخ مؤقتة فوق المروج المفرغة القريبة من الجداول. وقف أطفالهم يراقبون الشابسوغ وهم يجرون أنفسهم في مرورهم الحزين، يحملون البقايا المثيرة للشفقة من ممتلكاتهم على ظهورهم، أو في عربات صغيرة، رقد عليها المرضى أو المسنون غير القادرين على المسير في بؤس وشقاء. لقد كان الفارق بين الداغستان وهذه السهول الغربية واضحاً لكل من يشاهده. فهذه أرض خصبة، ثمينة. ولهذا السبب رغب فيها الروس واستعدوا لعمل كل ما هو ممكن لطرد الثوار منها. لم يكن هناك مانع من بقاء المريدين محصورين في "الأولات" الجبلية - طالما ظلوا هادئين، لم يكن أحد ليهتم بهم. لكن سهول الشابسوغ يمكن أن تكون مربحة، إذا وقعت في أيدي موالية. مثل الـ "أينوجورودني" والمضيفين القوزاق. نادى النقيب قائد القوزاق بأمر التوقف. ارتمى الحاج دانيل على الأرض وهو يئن، وانهارت مارينا إلى جانبه.

قال الحاج دانيل بصعوبة بالغة حد الاختناق لابنه أصلان "أعط لأمك قليلاً من الماء". رفعت مارينا رأسها لهنيهة، ووضع أصلان ذراعه القوية حول كتفيها قائلاً "على مهلك يا أمي، وإلا سوف تمرضين...."

تفحص الرجلان الصف الطويل من العائلات. كان الناس مقلين في الحديث. بسبب الإرهاق القريب من حد التحمل. هبط على القافلة الطويلة البطيئة هدوء غريب. حتى الأطفال قلَّ بكاؤهم، لشدة التعب، واكتفوا بإمساك أيدي بعضهم بعضاً، أو الجلوس قريباً من والديهم، والاستراحة. رقد الحاج دانيل إلى جانب ابنه وهمس في إذنه "الليلة يا أصلان. يجب أن تحاول مرة أخرى هذه الليلة. لا يفترض أن تكون سرقة أحد جياد القوزاق أمراً صعباً. اركب كل المسافة باتجاه الغرب.

وأسأل الناس عن اتجاه قرية الحابساي. كل ما أستطيع أن أتذكره هو أنها على ضفاف نهر التيريك. لكن كل واحد قد سمع بكازبك وبمجرد أن-".

هز أصلان رأسه. "لا تزعج نفسك يا أبي. سنكون على خير ما يرام. يجب أن نبقى مع بعضنا. أنتما بحاجة إلي. قولي له يا أمي- ما هي الفائدة من التفكير في الخطط؟"

كانت مارينا قد سمعت مثل هذه المجادلات مئة مرة. غطت وجهها بأن لفته بشالها وأغمضت عينيها. أطبق الحاج دانيل بقوة على ذراع أصلان، والتمعت عيناه ببريق الغضب "أنت لا تفهم أيها الصبي! إن كازبك هو أملنا الوحيد. وإلا فنحن سوف نضيع. إنهم يقومون بنفينا إلى تركيا. ليست لدينا أية فرصة ما لم تنفذ ما أقوله. هذه الليلة!"

حملتهم طرقعة الكرباج القوزاقي "تانمايكا" واقفين على أقدامهم في لحظة. "قيام، قيام، تحركوا.... هيا! على أقدامكم!".

طرقعت الكرابيج بصوت عالٍ فوق رؤوسهم بينما كان القوزاق يعدون بجيادهم مسرعين من أول الطابور إلى آخره. لو سقط أي منهم، لم يكن يسمح لأحد أن يخرج عن الصف يعتني به. احتضن أصلان أمه بقوة بين ذراعيه. بحلول الليل، يحتمل أن يكون الرجل العجوز في العربة قد مات، وسوف تأخذ أمه مكانه بدلاً من المشي. صلى طالباً الغفران، على تفكيره بمثل هذا الشيء.... ولكن، كيف يمكنه أن يطيع أمر أبيه بدون أن يكون هناك من يعتني بأمه؟

ألقى الحاج دانيل بنظرة إلى الوراء. كانت هناك عشرين جثة مستلقية على العشب حيث توقفوا للاستراحة. على الأقل هم ماتوا على تراب وطنهم. ربما كان ذلك هو الأفضل.

***

تعامل ناخو مع الجواد المستجد بمهارة عالية: مرت بخيال كازبك إحدى تلك اللحظات التي يشعر فيها بأنه شاهد المنظر مرة أخرى عندما تذكّر، وهو يستند إلى سياج الحظيرة، كيف كان ابنه إمام يجاهد للوصل بطرقيته حد الكمال مع الفحل الصقلاوي الرائع الذي كان كازبك قد أحضره معه لدى عودته من البلاد العربية. كان ذلك قبل ثلاثين عاماً: وإمام وقتها شاب صغير السن، ممتلئ بالآمال والتوقعات. شاب واعد. لقد توفي، وهذا هو ابنه، حتى أكثر وسامة منه، شاب قباردي نحيل البنية، جدّي التفكير، ويحمل الملامح الرقيقة لأمه ستناي.

لقد مات العديد من أفراد العائلة: ولم يبق على قيد الحياة غيرهما. كازبك، الجد، وناخو، الحفيد غير المتزوج.

نادى عليه "يا ناخو، لقد نسيت موضوع الجياد العشرة التي بعناها إلى الميسوستي. يجب تسليمها قريباً".

استدار ناخو على عقبيه. لقد كان جده يضعف بشكل واضح. فهو يسير الآن بمساعدة عصا، ولكنه بالنسبة لناخو، سيبقى دائماً القائد –المقاتل العظيم. لا يهم أنه ذكره بموضوع الجياد للميسوستي مرتين قبل هذه خلال هذا الأسبوع. إن لكازبك ملء الحق في فقدان الذاكرة الطارئ.

"لا يا جدي، أنا ما نسيت" قالها بطريقة مبسطة "لقد صممت على الذهاب في الغد. لا تقلق – كل شيء على ما يرام، أؤكد لك....."

"ماذا؟ ماذا؟" قال كازبك، وهو يلوي رأسه ويضع يده على أذنه. بدا عليه وكأنه يسمع هدير حوافر الخيل: فقد كانت ذكرياته عن موت إمام في غارة القوزاق تضغط على أفكاره وتسبب له الاضطراب.

"ماذا، ماذا؟" قال بشيء من الغضب، وهو يحاول أن يصفي عين عقله. "كيف يمكن للأمور أن تكون بخير إذا كنت تنسى أن

تفي بالتزاماتك - يجب أن ترتب الوضع فوراً!"

ابتسم ناخو مرة أخرى، وكان كازبك سيشيط غضباً من عدم الاكتراث الواضح هذا، لولا قدوم خيال - شاب غريب.

"سوف اهتم بالأمر يا جدي، فوراً! انظر، لدينا زائر". وقف إلى جانب كازبك، واضعاً يداً قوية بنية اللون فوق قبضة جده المتوترة. استرخى كازبك فجاة. وأصبح كل شيء على ما يرام. لأن ناخو لم يعد طفلاً: وهو جدير الثقة.

قاد الفارس الوحيد جواده المتعب إلى داخل الساحة. تناول أحد الخدم العنان منه وأشار إلى ناخو وكازبك. إمتلأ وجه الغريب بالارتياح: درجت دمعة عصفت بها الريح فوق خده المتسخ بالعرق والغبار بينما هو يترجل عن جواده ويسرع إلى الأمام لتقديم احتراماته.

كم مرة إثر مرة، وصل الأغراب إلى ساحة كازبك على ضفة التيريك، في هذه الحالة من الشقاء والمعاناة. بدأ قلب الرجل العجوز يخفق بعنف بينما هو يتوقع حكاية أخرى من حكايات الرعب. لأنه ليس هنالك من شك في أن الشاب قد ركب لعدة أيام، ونام بخشونة في ثيابه نفسها. وهو يكاد يموت جوعاً. إنه هارب.

"أنا أصلان، ابن الحاج دانيل. إذا كنت أنت حقاً كازبك فأنا....."

لم يكمل جملته. فقد رمى كازبك عصاه جانباً ورفع الشاب عن الأرض بذراعين معروقتين في عناق قوي.

"طبعاً هو أنت من تقول! لقد ظننت بأنني تعرفت عليك! لقد رأيتك مرة واحدة فقط وأنت ما زلت صبياً، لكنك ما تغيرت.... إنني أرى أباك فيك! هذا هو حفيدي، ناخو، لا بد وأنك تتذكره".

تصافح أصلان وناخو بالأيدي. ما كان للتنافر أن يكون أكثر حدية. فقد كان أصلان يحمل بنية أبيه دانيل الثقيلة ووجهه

العريض: لقد ظهر عليه سوء التغذية في هذه الآونة لكن جسمه ما زال ينطق بشجاعته البدنية وقدراته الرياضية. إن جسمه مبني للقتال، مثل أبيه. أما ناخو فقد كان النقيض: نحيل، قوي، ذكي، شجرة حور بالمقارنة مع شتلة من البلوط. يمتلك نزاهة كازبك وإمكانياته القيادية.

غطى كازبك يدي الشابين بكلتا يديه "أهلاً وسهلاً، مرحبا بك!" قالها بدفء "لقد ارتحلت مسافة طويلة - كيف حال أبيك! كيف هي عائلتك؟ هل هي معك؟ مسحت عيناه الممر المحاذي لأشجار الصفصاف، ولكن بغير مزيد من الأمل.

بدا على أصلان أنه قريب من الانهيار. امتلأت عيناه المحمرتان بالدموع مرة أخرى واتكأ بتثاقل على ذراع ناخو القوية.

"أنا -نحن- يا "حجي" كازبك - لقد كان الأمر رهيباً!"

انحنى كازبك ليلتقط عصاه. "أحضره إلى الداخل يا ناخو. إن الشيخوخة تجعلني أنسى أخلاقي. دعنا نوفر لك أسباب الراحة أولاً أيها الشاب، وبعدها نستطيع أن نتحدث......"

بعد ساعة من الزمن، التقى كازبك والشابين لتناول وجبة طعام في الصالة، تحول أصلان إلى شخص آخر كلياً: فقد استحم وحلق ذقنه، وبدل ثيابه فبدا أكثر شبهاً بأبيه مما كان عليه من قبل. تناول طعامه بذهن شارد وهو ينتقي لقيمات قليلة من الأطباق الشهية اللذيذة الكثيرة الموضوعة أمامه، ثم اعتذر قائلاً "ليست بي شهية كبيرة" عندما عرض عليه خادم كازبك الشخصي قطعة أخرى من الأطايب.

"لا بأس عليك من ذلك، فليس من الحكمة أن تولم لنفسك حتى الامتلاء بعد فترة طويلة من الصوم". خلق صوت الخادم الشخصي، المثقل باللكنة، انطباعاً عميقاً لدى أصلان فرفع رأسه "عجباً، إنه إيجور!" صرخ مندهشا. "لقد كنت تأخذني لصيد السمك عندما كنت صبياً صغيراً - هل تذكر؟". تذكر إيجور، الذي كان وقتها شاباً

بولندياً هارباً من الخدمة العسكرية وعبداً محرراً، وقد ارتبط بإرادته بكازبك خلال سنوات القتال الطويلة الماضية في الجبال.

فقال إيجور، وقد سره أن يتم يتعرف عليه "اذكر فعلاً، وأنت قطعة صغيرة من تلك الصخرة الكبيرة في أقرب شبه رأيته على الإطلاق! والآن سأترككم أيها السادة.... وسوف أتحدث إليك لاحقاً، أيها الشابسوغ الصغير السن. يا لها من مناسبة سعيدة...." وعاد إيجور إلى واجباته. راقبه كازبك وهو يخلي الغرفة من الأطباق وهز رأسه في امتنان .كان الناس يتخيلون أن إيجور هو الموالي والمعتمد على كازبك، ولكن عبر السنوات، أصبح حضور إيجور عنصراً أساسياً لحياته ،وبقي احترام أحدهما للآخر مسألة تبادلية تامة.

ران على المجموعة صمت لوهلة قصيرة. فقد تم عمل كل شيء لراحة أصلان، وقد أزفت اللحظة التي يتعين فيها على أصلان أن يقول الحقيقة.

قال كازبك "عندما تكون جاهزاً، يا أصلان، أخبرنا"

"لقد استولى الفلاحون الروس على قريتنا والأراضي المحيطة بنا في الزبيع المنصرم" أجابه أصلان بصوت خفيض. "جاء الجيش الروسي والقوزاق قبل ثلاثة أسابيع، وأخبرونا أنه يجب أخلاؤنا إلى خارج المنطقة. في البداية فكرنا، إنه ربما سيتم إرسالنا إلى موقع آخر في القفقاس، ربما يكون في مستنقعات الكوبان - فقد تم ذلك مع قبائل أخرى....."

توقف عن الكلام، في محاولة لأعادة ترتيب أفكاره وإبقاء السرد بسيطاً. "قيل لنا أن نستعد لمسيرة طويلة. بعد ذلك قال لنا الجنرال ،هذا المدعو يفدوكيموف أننا سنؤخذ إلى أنابا، ومن هناك إلى تركيا...."

شعر كازبك بقلبه يتهاوى. وداخله الشك فوراً في وجود خيانة وخديعة. فقد تركت تجارب حياته الكاملة لديه شكوكاً عميقة في

نوايا الأتراك. لم يؤمن والده أحمد، مطلقاً في إخراج الناس من أراضي أجدادهم التاريخية: وقد هاجرت زوجة ابنه، ستناي إلى القسطنطينية وفقدوا كل اتصال بها بشكل كامل. أقرب صديق له، أصلان جيراي، الأمير القرمي، خانه الأتراك وانتهى به الأمر إلى فقدان حياته وهو يقاتل مع مريدي شامل.

بدا لكازبك أنه ليس "الجاور" وحدهم القادرين على عمل الشر. فالإقليم كله محاصر بالمؤامرات والمؤامرات المضادة. فلماذا يقوم الروس بسوق الجبليين كالماشية في اتجاه أعدائهم منذ أعوام طويلة؟

ليس لأية غاية نبيلة . ليس بسبب "الدين". فالأمر ليس منطقياً. استطرد أصلان بحزن: "حاول بعضنا أن يقاوموا. أخذوا أسرى وأعدموا رمياً بالرصاص. وأجبرت البقية من شعبنا ومعظمهم من الأطفال، ومن نسائنا، والطاعنين في السن، على المسير....."

أغمض كازبك عينيه. فإن بإمكانه أن يتخيل كيف قام القوزاق بإجبار قبيلة كاملة على الاصطفاف والتحرك خروجاً بمنتهى السهولة.

اختتم أصلان حديثه "خلال المسيرة، أصر والدي على أن أهرب وآتي إليك وأجدك".

سأله كازبك بسرعة "منذ كم من الوقت كان ذلك؟"

حاول أصلان أن يستذكر من خلال الأيام الماضية المضطربة التي تداخل فيها الخوف مع الجوع والهروب "ربما أسبوعان. حتماً أكثر من عشرة أيام".

"ذلك أمر سيء. ربما نكون متأخرين أكثر مما يفيد. ولكن يجب علينا أن نحاول. لا تقلق يا أصلان. سوف نركب في وقت مبكر من صباح الغد – ربما نتمكن من اللحاق بهم. إن المسير مع هذا العدد من الناس قمين بأن يكون بطيئاً...."

جلس ناخو في منتهى السكون، وهو يفكر بعمق. ثم قال لكازبك بكبرياء عميق وأدب جم: "ولكن يا جدي. ماذا سنفعل بعد أن نلحق بهم وندركهم؟ نحن لا نستطيع أن نقاتل الجيش الروسي برمته."

انطبقت يد كازبك لتشكل قبضة. لقد اضطر طيلة حياته للاستماع إلى مثل هذه الأصوات المتعقلة. لقد حارب هو والحاج دانيل مثل المجانين قبل ثلاثين عاماً من أجل تحرير شعب الشابسوغ. فهل وصل الأمر إلى هذه النتيجة حقاً؟

قال ببرودة قاسية "اترك هذا الموضوع عليّ. سوف نحمل معنا الذهب. إذا لم نتمكن من مساعدتهم على الهروب فسوف نشتري حريتهم. ليس هناك العديد من "الجاور" ممن يقاومون الرشوة. إن الثراء يعني كل شيء بالنسبة إليهم......"

انحنى ناخو إلى الأمام "تلك خطة جيدة يا جدي. ولكن بكل احترام ، أنت لم تعد في حالة تؤهلك للركوب إلى ذلك البعد. أنت تعرف الجبال.... وأنت تعرف أنني وأصلان يمكننا أن نسافر أسرع لوحدنا".

شعر كازبك بالغضب يتصاعد داخل صدره. ضرب بقبضته على ركبته، في إشارة صغيرة مفاجئة على الغضب، فوجئ ناخو بهذا العمل ونظر إلى الأرض بسرعة، وهو يتوقع تقريعاً شديداً. لكن كازبك لم يقل شيئاً واكتفى بالضرب بقبضته مرة أخرى.

وحد إيجور، الذي كان ينتظر سراً إلى جانب الباب، علم أن القبضة تعني أشياء كثيرة: الغضب من جسمه، على كونه كبر وعجز وخذله: الغضب على عودة الشعور بالألم، على فقدان هذا العدد من الأصدقاء المقربين: الغضب على الروس، لأنهم ابتلوا حياته بالعذاب.

تجرأ أصلان، وهو الأشد يأسا، على التكلم مرة أخرى "يا "تحمادا"، إن ناخو على حق. فهو وأنا يمكننا أن نسافر بسرعة أكبر

بكثير وربما نصل إلى عائلتي قبل أن تصل إلى أنابا. أدعو الله أن يهبك الصحة والسنين العديدة القادمة...."

لم يقل كازبك شيئاً واكفهر وجهه حتى امتلأ بنذير الرعد.

طرح ناخو، وقد طرأت له فكرة، اقتراحاً "يمكننا أيضاً أن نتوقف ونصطحب عمي عظمات معنا. إن قريته واقعة على طريقنا بمحاذاة نهر الكوبان"

اصطرعت الأفكار المتناقضة داخل رأس كازبك "اتركاني، أعطياني فرصة للتفكير".

انحنى الشابان احتراماً وغادرا الصالة.

تقدم إيجور خطوة أو اثنتين. بما يكفي فقط لأن يدرك كازبك أنه بالانتظار.

زمجر كازبك باتجاهه "اسمح لك بالتكلم".

"يا سيدي، يا صديقي القديم، إن ناخو الشاب على حق. لقد حان الوقت لأن تترك الشباب يخوضوا القتال".

"أعرف ذلك يا إيجور. ليست هي الحقيقة التي تسبب لي الغضب".

"ما هو السبب إذن يا سيدي؟".

"أولاً، أنا أديغه لأن شعبي ظل هكذا لآلاف السنين. ثانياً أنا قباردي لأن أبي أسس سلالتي هنا، ثلاثة أجيال منا. ثالثاً أنا مسلم، لأنني اخترت ذلك لنفسي قبل عشرين عاماً. لكن ذلك لا يعطي الروس الحق في إجباري أو أي من إخوتي على الخروج إلى أراضي الأتراك العثمانيين. يقول القرآن: إن المشرق والمغرب لله: فأنى اتجهت، فثمة وجه الله.

"لا أفهم ما تقصده، يا سيدي"

"هل تعرف لماذا أشم رائحة الخيانة؟"

انتظر إيجور، لأن كازبك كان غاضباً محنقاً ويريد أن يتصارع مع هذا الغضب حتى يستعيد السيطرة على نفسه. فقد رأى إيجور هذا الموقف، مرات عديدة.

"لقد كان الرسول الكريم نفسه، صلوات الله عليه، الذي قال "لا رهبنة في الإسلام". إنني أخاف من الرهبان! لقد كان أبي يخشاهم ،وكذلك أنا".

هز إيجور، الذي تربى على المذهب الكاثوليكي في بولندا، هزَّ رأسه متعاطفاً "إنني أعرف الكثير عن الرهبان والقساوسة. ولم أكن أعيرهم كثيراً من الوقت والاهتمام".

كان هذا رأياً من القوة والصراحة بحيث أجبر كازبك على الابتسام

"أنت رجل فاضل، يا إيجور. هناك الطيب والخبيث في كل الأديان، بدون شك".

وافقه إيجور، وقد سره أن غضب كازبك قد تراجع "نعم أيها السيد".

"والآن، اتركني لأودي صلواتي، وأرسل لي ناخو فيما بعد، هلا فعلت؟".

عاد إيجور لممارسة واجباته. في وقت لاحق، وبينما كان القرويون يتجمعون لأداء صلاة المغرب، ذهب في نزهة قصيرة نازلاً نحو ضفاف التيريك. كان مغرماً بهذا الوقت من المساء، يصغي إلى تمتمات الرجال الراكعين السجود، إلى الثرثرة التي لا تتوقف للنهر، وإلى النداءات المألوفة لساحة المزرعة أثناء إيواء الحيوانات. جلس تحت أشجار الصفصاف، وقد اغتم بعمق مما سمعه في وقت سابق. لقد كان يهتم لأمر سيده بشغف ويرغب في أمر واحد وهو أن تكون سنواته الأخيرة متناغمة، يعمها السلام. ما

ضايقه وازعجه أكثر من أي شيء آخر هو الخوف من أن يكرر التاريخ نفسه. فقد وصل إلى قرية الحابسا بصحبة كازبك قبل أكثر من عقدين من الزمن، ليكتشف أن رحلتهم للعودة إلى الوطن من الشابسوغ كانت عبثاً بغير طائل. فقد تأخروا كثيراً. توفي والد كازبك قبل أن يصلوا، ولم يتصالح كازبك مع أبيه أو يخاطبه بكلمات التوديع. أخذ إيجور نفسه يصلي في هذه اللحظة، على أمل محموم بأن لا يكون هذا هو مصير ناخو، إذا ارتحل غرباً ووجد نفسه مجبراً على التأخر، وهو بغير أب، بغير أم، وغير متزوج. لقد فقد ناخو الكثير جداً. وأصبح كازبك وحده كل من بقي له. من المؤسف أن الشاب لم يكن بإمكانه البقاء والاهتمام بالرجل الأكبر سناً والأكثر شهرة في كل سلالة عائلته.

انتظر كازبك عودة ناخو إليه بصبر وأناة. كان يحس بالتعب: فقد أثرت فيه الأخبار المحزنة لذلك اليوم بحيث أرهقته. ظل يكرر لنفسه: أن ينتهي الأمر إلى هذه النتيجة. "إن ينتهي الأمر إلى هذه النتيجة...."

دخل ناخو إلى الصالة "هل رغبت في التحدث إليّ، يا جدي؟"

"نعم يا ناخو، اجلس"

"ماذا قررت، يا "تحمادا"؟".

اختار كازبك كلماته بحرص. "إن "الحجي" دانيل هو أخلص أصدقائي. لقد سافرنا إلى مكة المكرمة سوية: وقاتلنا في الشابسوغ جنباً إلى جنب، هناك العديد من المناسبات التي أنقذت فيها حياته، ومناسبات أكثر بكثير أنقذ فيها حياتي. والآن هو يقوم بهذا النداء طالباً مساعدتي، وأقسم بشرفي، إنه يتوجب علي الذهابي إليه."

هز ناخو رأسه بجدية. معترفاً بالحقيقة الكامنة وراء هذه العبارة.

قال كازبك بتنهيدة ثقيلة "على أية حال، فإن عامل الوقت

ينطوي على الأهمية الكبرى، وأنت على حق. فأنتما سوف تسافران بسرعة أكبر بكثير بدوني".

فاض الانفراج في تعابير وجه ناخو. "لقد حملنا جوادين باللوازم. بإمكاننا أن نغادر فوراً تقريباً." قال بحماس.

"انتظر يا ناخو. أنت لا تعرف ما أنت ذاهب إليه. لقد أبقيناك في أمان هنا طيلة هذه السنوات منذ كنت صبياً صغيراً. طبيعي أنك مدرب بشكل جيد على فنون الحرب - ولكن - ولكن -".

"اعرف ما تحاول أن تقوله لي يا "تحمادا". أنا لن اسبب لك العار. سوف أتصرف وأخلص نفسي بشجاعة".

مال صوت كازبك إلى الخشونة وهو يقول "كلا! ليس ذلك كل شيء! يجب أن تقسم لي الآن بأنك لن تغادر جانب أصلان حتى تكون قد أنقذت عائلته - حتى تكون قد وفيت بمقتضيات التزامي بالشرف تجاه والده. الأمر هو هكذا، عندما ينادي الحاج دانيل طالباً مساعدتي، فإنني مستعد لأن أقدم حياتي افتداءً له. إنني مستعد للذهاب إلى أقاصي الأرض حتى ألبي طلباته. وسيقوم هو بنفس الشيء تجاهي".

حدق كل من ناخو وكازبك بعمق في عيني بعضهما بعضاً. حاول كازبك أن ينقل غضبه ، شجاعته، وإخلاصه للقضية. وكل ما أراده ناخو هو أن يظهر رغبته في أن يكون كفؤاً بالوصية التي ألقى بها على عاتقه.

لم ينس مطلقاً مناظر المعارك البعيدة منذ طفولته. لقد تركت كوابيس الغارات في بلاد الشراكسة انطباعات عميقة في ذهنه إلى درجة أنه ظل يحلم بجده على أنه البلاء الذي حل "بالجاور"، ممتطياً حصاناً أبيض في ثياب "الحجي"، وقد رفع ذراعه المضمخة بالدماء عالياً ويكيل بها ضربات الموت بكفاءة لا تعرف الكلل. لم يشاهد ناخو الحقيقة وهو يحدق في وجه كازبك المجعد ذي السوالف البيضاء: كل ما رآه هو مقاتل لا يعرف الصفح إلى قلبه

طريقاً، جعله يقسم على أن لا يعود إلاّ بعد أن يسدد دينه للقضية وراء كل التوقعات.

فهعل سيدرك متى يجب الكف والتوقف عن الكفاح؟

"الوداع، يا "تحمادا". لم يجرؤ ناخو على التلفظ بكلمة "جدي" خوفاً من أن تخونه عواطفه. كان يعرف تمام المعرفة أنه قد لا يرى كازبك مرة أخرى في هذه الحياة.

"الوداع" قبض كازبك على ذراعيه بقوة خارقة للمنطق والطبيعة، فشعر ناخو فجاة وكأنه يرتفع، تماماً كما حدث أثناء طفولته عندما رفعه كازبك وطوح به خلفه في السرج. امتلأ صدر كازبك كبرياء وسعادة به، وأحسَّ أنه أكثر من رجل كفؤ للمهمة. أحسّ بشعور شبيه بمن يصعد إلى قمة الجبل، ويسحب نفساً عميقاً مسحوراً بالروعة الممتدة تحته. "ليس هناك وقت ولا حاجة لأن تقحم عمك عظمات في قضيتنا. رافقك الله يا ولدي". طأطأ ناخو مشيراً إلى فهمه وأدار وجهه بسرعة حتى يخفي الدموع التي درجت على خديه.

***

ي ...

يرة وعروض
ميزة

تعددة منها الدفع
الإستلام

ني خلال **14**
وم

أصلية **100**







**مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمـ
واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالـ
بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي
تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العا
المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء
المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج
.خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما**

الفصل الثامن

تمكن ناخود وأصلان من القيام برحلة سريعة خلال الجبال، كان ناخو قد سلم العديد من طلبيات قطعان الخيل إلى عشائر على مسافات تصل إلى نهر اللابا، وكان يعرف أقصر الطرق خلال ممرات يقل السفر عليها. بمجرد أن أصبحا خلف نهر اللابا، جاء دور أصلان في انتقاء علامات الطريق، وقادهما قدماً بسرعة جيدة – خمسين ميلاً في اليوم أو أكثر، خاصة وأن حمولة جياد الحمل أصبحت أخف.

ما أزعجهما هو غرابة أجواء الأودية. فحيثما تحركا، كان بإمكانهما مشاهدة علائم على الإهمال: حقول متروكة بدون عناية، قرى مهجورة، حيوانات أليفة شاردة بعد أن تحررت من مرابطها. بدأت أودية البزادوغ والشابسوغ تفرغ من ساكنيها بشكل متزايد. وصارت ملاحظة العكس تماماً على ضفاف اللابا حيث أقام القوزاق خطاً من "الستانيتزات"، فقد انتشرت حول الحصون الصغيرة، عائلات الـ "اينوجورودني" الذين شرعوا في توسيع مزارعهم، يحرثون الحقول وينصبون الأسيجة. اضطر ناخو وأصلان إلى الابتعاد عن المسالك الرئيسة للعربات حتى يتجنبا انكشاف وجودهما: فإن المحليين المتجولين كانوا يعتبرون ثواراً من قبل مواقع الاستطلاع، وقد أطلق عليهم بعض الحراس المتحمسين النار أكثر من مرة بينما هما يركبان مسرعين من ستار إلى الآخر.

في نهاية المطاف، أدرك أصلان وهو يركب متقدماً صاعداً ممراً جبلياً رملياً ضيقاً، أنهما يكادا يصلان إلى وجهتهما. فقد أصبحت غابات أشجار البندق والتربة الحمراء الغنية دليلاً على أنهما يقتربان من الشاطئ، فقال "أعتقد أننا نقترب من أنابا، فقد

جئت إلى هنا مرة عندما كنت أصغر سناً، بصحبة والدي. عندما كانت أنابا ميناءً تركياً...."

قال ناخو "لقد سافرنا بوقت طيب".

"الفضل في ذلك لك أنت. ما كان "الحجي" ليصمد كل هذا الوقت في السرج. إنني شبه منهك شخصياً".

رفع ناخو ظهره: فقد كان بدوره يشعر بآلام الجلوس في السرج طويلاً ومتعباً جداً.

"آه، ربما كان جدي سيتمكن من القدوم راكباً في هذه الرحلة. فهو قوي جداً – لكن كان سيتوجب علينا فعل كل شيء حسب طريقته. إنه أشبه بدب عجوز عنيد".

ابتسم أصلان "وكأنك تتكلم عن أبي. إنهم متشابهون كلهم، هؤلاء الرجال المسنون....."

تبادل الفارسان ابتسامات ودية. لم تكن هناك أية كمية من الثرثرة غير المتكلفة تقدر على أخفاء حقيقة أنهما مرتبطين بكبارهما بشدة: فقد نشأ كلاهما في كنف رجلين عظيمين قاتلا واكتسبا سمعة هائلة، واستحقا احترامهما. ربما كان ذلك هو السبب في أنهما أصبحا رفيقي سفر على تلك الدرجة من السهولة، وصديقين حميمين، في فسحة قصيرة من الوقت.

قدم على الدرب أحد سكان الغابات حاملاً بإحدى يديه عصا طويلة، وهو يقود حماراً يحمل سلالاً ضخمة. يبدو أنه كان يجمع البندق وواضح أنه عائد إلى كوخه في مكان ما عميق داخل الأحراش خلفهما.

"تحياتنا أيها الصديق. هل يمكنك أن تخبرنا إذا ما كنا نسير على الاتجاه الصحيح نحو أنابا؟" سأله أصلان بلغته الأصلية.

أجابه الشركسي باختصار "ستصل إلى مفترق طرق في الممر. إلى اليسار عند الصخر المنفلق. ولكن لماذا أنتما الشابان ذاهبان إلى هناك؟ إنَّ الوضع خطير على....."

"لا تقلق علينا، أيها الرجل العجوز، شكراً على لطفك"

فجأة، لم يعد أصلان يعبأ بالخطر، خاصة وأنه بدأ يقترب من عائلته. "هيا بنا يا ناخو لم تبق مسافة طويلة بعد....."

ركب أصلان وناخو مسرعين نزولاً في الممر باتجاه الميناء. أزيلت الأحراش كلياً في ما يقارب الميل الأخير لمنع الثوار الجبليين من شن أية هجمات على أنابا من الجروف الصخرية العمودية الواقعة خلف أنابا إلى جهتي الشرق والجنوب. اضطر الجنود إلى الركوب خارجين في هذا الاتجاه لجلب الماء الصالح للشرب للحاميات من الينابيع الجبلية: لأن أنابا، وهي ميناء بائس ليس فيه سوى مرفأ ضحل، لم يكن فيها أية مياه حلوة. تقع الأراضي المنخفضة ذات المستنقعات التابعة لدلتا نهر الكوبان على الساحل إلى جهة الشمال، وقد كان القوزاق يسيِّرون الدوريات عليها في الفصل الجاف، عندما تكون قابلة للعبور. تبع الفارسان مجرى نبع صغير نزولاً نحو طرف خط الأشجار. جذب ناخو عنان فرسه فجأة "انتظر يا أصلان. يجب أن نحسن من هيئتنا كإجراء احترازي. تذكر، ليست لدى الروس أية خصومة مع القبارديين. دعنا نبدل ملابسنا هنا وبعد ذلك سنكون قادرين على التحرك بحرية إلى داخل أنابا... ليس هناك قانون ضد التجارة، على حسب علمي، بكل الأحوال".

"حسناً، قم أنت بالكلام إذن. لأنني يحتمل أن أفقد أعصابي".

قضمت جياد التحميل آخر أوراق الأعشاب اليانعة بينما انهمك المسافران في تبديل ملابسهما بسترات نظيفة – فظهرا لكل من يرغب في السؤال، كتاجرين قبارديين شابين يسعيان في ممارسة

عملهما. ما عدا أن أصلان احتفظ بلحيته كحقيقة تنم عن عادات شعبه، بينما كان ناخو حليقاً.

لقد كانت أنابا حفرة تعيسة. لأن سنوات الحرب والشد والجذب بين الأتراك والروس لامتلاك هذا الميناء لم تفعل الكثير لتحسين إمكانياتها. لقد كان موقعها مهماً من الناحية الاستراتيجية، رغم أنها كميناء لم تكن بجودة سوخوم كاله، على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب. ولكن حسب مقتضيات قانون سياسات البحر الأسود، فقد كان يتوجب السيطرة عليها من قبل أية قوة مهيمنة، لأنها ستوفر موطئ قدم إلى القفقاس. لأن الساحل هنا كان مكشوفاً بشكل واضح لإنزالات الجنود من جهة البحر وقادر على إعطاء الغزاة ممراً إلى إقليم الكوبان.

كانت سرايا الجنود الروس ذوي الهيئات الرثة الذين يبدون وكأنهم مصابون بمرض الاسقربوط تعمل بجد على صيانة الحاجز والنقاط المحصنة التي تخلق بعض الشبه من المواقع الدفاعية ضد أي هجوم بحري.

رفع واحداً أو اثنين منهما رأسه أثناء مرور الفارسين ذوي العينين القاسيتين بهم. لكن لم يكن استيقافهما من ضمن واجباتهم.

كان في المرفأ مجرد سفينتين شراعيتين راسيتين. فقد جاءت أساطيل سفن الصيد وغادرت: كان بضعة من البحارة يرتقون الشباك على أحد الأرصفة. شعر ناخو بالقلق. فقد ساد جو عام من الفتور والتفسخ في أنابا جعله يشعر بالنفور – لم يكن هناك أي من مظاهر الحركة التي يمكن أن يتوقعها من ميناء للركوب لعدة مئات من السكان المحليين.

قال ناخو بهدوء "انتظر هنا، يا أصلان". وهو يترجل غير بعيد عن أعمال الميناء. أمسك أصلان بعناني فرسيهما تحت ظل غرفة صانع شموع للسفن بينما تحرك ناخو خلال حشد من العمال

البحريين، العبيد، الجنود خارج أوقات دوامهم والتجار، بقدر ما يمكنه من عدم لفت الأنظار إليه.

أقعى إلى جانب اثنين من العمال، عاريين حتى الخصر ويقومان بكسر الحجارة بالمطارق. تولَّد لديه حاسة سادسة بأنهما من الأبات – وهي قبيلة صغيرة من الشراكسة الذين قدموا خدماتهم إلى الروس كعمال مقابل أجور. همس لهما "هل أنتما من الشراكسة؟ هل يمكنكما أن تفهماني؟"

رفع أحدهما بصره إليه بقلق "نعم أيها الغريب. نحن من الأبات. ماذا يمكننا أن نفعل لأجلك؟"

"إنني قباردي. أنا أبحث عن صديق لي – شابسوغ- كان يفترض فيه أن يسافر إلى القسطنطينية من هنا. هل هناك أية أخبار عن مجموعة كبيرة من هؤلاء الناس؟"

بدأ الأباتي الآخر يكسر الحجارة باستعجال. نظر إلى الرصيف باتجاه مجموعة من الجنود الروس، كانوا يقومون نظرياً بوظيفة حراسة لكنهم كانوا يتشاركون في تدخين السجائر ولم يلاحظوا هذه المحادثة الصغيرة حتى اللحظة.

"هل تعني بسؤالك الناس الذين أرسلهم "ذو العيون الثلاثة" إلى هنا لتهجيرهم؟" سأل بخشونة.

"نعم" قال ناخو.

حدجه الأباتيان بنظرة قاسية "أنت تقول أنك قباردي ولكنك إذا كنت تسأل، لا بد وأنك واحد منهم. إن وجودك هنا يشكل خطراً عليك. لقد تم تسفير تلك المجموعة في الأسبوع الماضي على متن ثلاث سفن تركية. لقد حاول بعضهم الهروب فأطلقت النار عليهم وقتلوا".

ألقى بنظرة من فوق كتفه. كان الضابط المسؤول عن دورية الميناء قد سحق عقب سيجارته بكعب حذائهِ العسكري وبدا كأنه يستعد للقيام بجولة أخرى حول المراسي.

"انصرف من هنا قبل أن نقع جميعنا في المتاعب" فح فيه مكسِّر الحجارة، ولم يبق لدى ناخو أي بديل للابتعاد.

أطبق أصلان على ذراعه عند اقترابه. "إلى أين ذهبوا؟"

امتطى ناخو جواده "لقد أبحروا إلى تركيا. هيا بنا، لنخرج من هنا قبل أن نجذب الانتباه".

ركبا مسرعين خلف جدران حصن أنابا ولم يتوقفا قبل أن يصلا إلى منطقة آمنة في المرتفعات الشرقية. وقتها فقط أدرك كل من أصلان وناخو أنهما فشلا في شراء الطعام من أنابا، وأنهما يتضوران جوعاً. لا، لم تكن تلك هي الحقيقة: لقد كانا يشعران بالمرض من وطأة الإحساس بخيبة الأمل. فقد حضرا متأخرين جداً.

ألقى أصلان بنفسه إلى الأرض وضرب بسوط ركوبه على صخرة أمامه. "لقد فشلت! ما كان ينبغي علي أن أتركهما!"

أمسك ناخو بذراع أصلان بقوة "لقد أطعت رغبات أبيك. أي ابن كان سيفعل نفس الشيء. لم ينته الأمر بعد، يا أصلان. سوف نعثر عليهما مرة أخرى".

"كيف؟" على الرغم من كل قوته الجسدية، لم يكن أصلان قوياً في مزاجه وحساسيته بقدر قوة صديقه القباردي. ولكن، لقد ظل شعب الشابسوغ خاضعاً للمضايقات والعقوبات من قبل يفدوكيموف لعدة أشهر. وقد مشى أصلان لأيام عديدة بدون راحة قبل أن ينجح في الهروب، وقد ركب باتجاه الشرق وبعدها إلى الغرب عبر القفقاس في محاولة عبثية لجلب المساعدة.

لقد وقع واجب التفكير على ناخو. جلس هادئاً للحظة، وهو يتشارك مع أصلان فيما تبقى من ماء بقربته.

"يجب أن نعثر على مكان نلتجئ إليه أولاً. بعد ذلك أعتقد أننا يجب أن نعثر على طريقة نصل بها إلى القسطنطينية مع مجموعة أخرى من الشراكسة. ربما تكون هناك طريقة لإعادة عائلتك...."

"رغم كون البحار محاصرة على الدوام من قبل الروس والأتراك؟ قل شيئاً منطقياً!"

نظر ناخو إلى أصلان نظرة ثابتة. "حسناً، على أقل القليل، ربما نتمكن من التخفيف من منفاهما. إذا كان ذلك ما تود عمله، يا أصلان – اتبعهما إلى تركيا. ولكن يمكنك دائماً أن ترجع معي إلى الحابساي".

نظر أصلان حوله إلى الأحراش النضرة من أشجار البلوط والزان، وإلى التماع الزرقة الداكنة خلفهما عند خط الأفق.

قال أخيراً "لا أدري، ما عدت أعرف شيئاً. يبدو وكأنه ليس لدي أي خيار".

"دعنا نتوقف عن الكلام. مهما فعلت، سوف أبقى معك. أقسم لك: إن مستقبلك هو مستقبلي الآن، يا أصلان".

ساعد أصلان في النهوض على قدميه وانطلقا سيراً على الأقدام داخل الغابة، آملين أن يعثرا على كوخ أو كابينة ما حيث يمكن أن يقدم لهما طعام ومأوى.

حتى في أيام الحرمان هذه، بقيت روح التعاون قائمة وموجودة في الجبال. بعد بضع ساعات وصل الشابان إلى جمع صغير من الأكواخ في فسحة وسط الغابة. فقد سهى القوزاق عن حارقي الفحم النباتي وعائلاتهم في حملة التهجير العامة. هنا أعطي أصلان وناخو قصعات من العصيدة الساخنة وكوخاً ليناما فيه.

كانت المحادثة متقطعة وقليلة. جلسا مع رجل عجوز إلى جانب جمرات نار هادئة قبيل الانصراف إلى النوم. يحتمل أن الرجل في سن التسعين أو المائة سنة: وصل إلى مرحلة لم يعد فيها تعداد العمر مهماً وتعدى القدرة على الحزن، بالحكم على تصرفاته. كانت ثيابه ولحيته مغطاة بطبقة من القدم: دخانية لامعة جعلته يبدو غير قابل للتأثر تماماً كالأشجار الباسقة القديمة التي تحيط بمعقله.

سأله ناخو "يا تحمادا، هل سمعت أي شيء عن جماعة الشابسوغ الذين جاءوا إلى أنابا قبل فترة وجيزة؟"

"آه، نعم. لقد ذهبوا. الآلاف منهم. لقد أبحروا في ثلاث سفن، ساقوهم إليها مثل الماشية. لقد توفي عدد لا بأس به منهم قبل أن يصعدوا إلى ظهر السفن. هذا الشيطان يفدوكيموف.... لقد اقترف عملاً رهيباً. رهيباً!"

طفق أصلان يبحث داخل رأسه يائساً عن خطة ما.

"أين هم قادتكم؟ لا بد من وجود شخص ما يقاوم هذا! ربما يتحتم علينا أن نعثر عليهم – شامز بك على سبيل المثال...."

بصق الرجل في احتقار "آخ، القادة! كل ما يفعلونه هو الكلام، الكلام، الكلام! نعم – شامز بك، الشابسوغ، إنه هناك. محمد إندار زعيم آخر.... لقد سمعت أنهم ذهبوا جميعاً إلى سوتشي لعقد "مجلس".... لكن ذلك لا يغير شيئاً. فالأمر لا يزال قائماً..."

حثه أصلان على الكلام، وقد امتلأ قلبه بالخوف "ما هو الذي ما زال قائماً"

لمعت عينا الرجل العجوز بالنقمة "لقد جمع "الشيطان" قبيلة كاملة من الوبيخ الآن، جاهزة للشحن..!.... الكلام بدلاً من مقاتلة "الشيطان" الموسكوفي!

رفع الشركسي العجوز قبضته المعروقة. سيندفع آخر نفس من جسمه في لعنة على "الجاور".

امتلأ أصلان وناخو بالقوة بطريقة غامضة من المثال الذي طرحه ساكن الغابة الذي لا يمكن قهره هذا.

قال لهما "أتمنى لكما ليلة سعيدة" بدون أن يراعى وجوب الوقوف احتراماً، أو ينتظر ليتلقى الشكر، بل جرجر نفسه مبتعداً إلى كوخه.

قال أصلان وهو يدحرج نفسه داخل البوركا: "سأذهب إلى سوتشي. أستطيع بالنقود التي أعطانيها جدك أن أشتري كلفة سفري إلى تركيا".

تثاءب ناخو قائلاً: "دعنا نتكلم عن ذلك في الصباح..." واستسلم الشابان للنوم خلال ثوان بدون أن يثنيهما نعيق البوم الحزين، ولا الرفرفة العصبية لأجنحة الوطاويط التي كانت تنقض إلى داخل ملجأهما، متوقعين أن يجدوه فارغاً.

استيقظ ناخو في صباح اليوم التالي ليجد أن أصلان قد وضب لوازمه وارتحل. لقد ترك خيول الحمل خلفه وتوجه مبتعداً لوحده. لم يستغرق تحميل حقائب السرج وتوديع الرجل العجوز سوى بضع لحظات.

على أية حال، كان الأثر الذي خلفه أصلان، سهلاً على اللحاق: فقد أظهر الندى الكثيف آثار أقدامه بوضوح وكأنها طبعت في الرمل. بعد مرور ساعتين، لمح ناخو صديقه أمامه على الطريق الضيق، متجهاً نحو الشاطئ،ولكن باتجاه الجنوب هذه المرة، مبتعداً عن أنابا باتجاه سوتشي. كان هذا هو الميناء الرئيس لإقليم القفقاس الغربي كله – أما الجزء الواقع خلفه فهو موطن قبيلتي الأبزاخ والوبيخ.

على الرغم من حدة الجدية في الوضع، إلا أن ناخو استجاب إلى بهاء شمس الصباح والجمال غير العادي للمناظر الطبيعية التي يركب خلالها. قرر أن يخلق انحرافاً صغيراً، فبعد أن ألقى نظرة عين خبيرة على التلال الحرجية والأودية الملأى بالزهور الماثلة

أمامه، عدا ه بخطوة سريعة وتجاوز أصلان تدريجياً، بحيث ركب أعلى منه، إلى جانبه أولاً، وسبقه تدريجياً.

عندما أدخل أصلان جواده في جدول ماء ضحل بعد حوالي ساعتين، وجد ناخو جالساً فوق صخرة محتضناً بندقيته مباشرة عبر الماء في مواجهته.

قال بنبرة مرحة "لقد أخبرتك إنني سأذهب معك"

ركع أصلان وغسل وجهه في الماء. وتمتم "لا داعي لذلك، أنت لديك جد ينبغي عليك الاعتناء به. هذه ليست معركتك. عد إلى موطنك يا ناخو".

قفز ناخو بحركة بهلوانية رشيقة واحدة من الصخر إلى ظهر جواده وخاض في الجدول حتى وقف فوق أصلان مباشرة.

نظر الشابسوغ إلى أعلى: كان ناخو مؤطراً بأشعة الشمس فوضع يده أمام رأسه. بدا له الفارس للحظة مثل شخص آخر: حلم، صورة من أحلامه. كان ذلك بالطبع كازبك، كما ظهر لأصلان الصبي في غابات بلاد الشابسوغ، قبل سنوات عديدة.

"إنها معركتي! كل أديغي مشترك في هذه المعركة! وإلا فسوف نفقد كل شيء. يا أصلان! اعرف الآن لماذا تركنا جدي لكل تلك السنوات الطوال، وحارب إلى جانب أبيك. يجب أن نكون إخوة..." قفز متحولاً عن سرجه وأمسك بأصلان في عناق حار. لم يتكلم أي منهما للحظة طويلة.

"والآن، إلى سوتشي. أريد أن أفترض أن الرجل العجوز قد أعطاك الإرشادات..."

وصلا إلى التلال المشرفة على مرفأ سوتشي بينما كانت الشمس تهم بالمغيب. كانت مكاناً متميزاً: ملتفة بغمامة من الحرارة، تحدها أدغال يانعة من أشجار الزان والبلوط، التي كانت النباتات الزاحفة ذات الأزهار الضخمة تغطيها وتشع بكل ألوان

قوس القزح. تعلق في الجو صمت محبب كأنه الفردوس الحقيقي، ذهبياً، براقاً، باعثاً على الراحة.

وضع أصلان يده أمام جبينه ليقي عينيه من وهج الشمس وينظر من مكانه العالي فوق الجرف الصخري المشرف على الشاطئ الأبيض الطويل، وشاهد المئات والمئات من عائلات الشراكسة مخيمة على الرمال بسلام. كان هذا شاطئاً مطوقاً مثل كثير من المواقع الأخرى التي تملأ خط الساحل طيلة المسافة إلى سوتشي. رغم ذلك، لم تكن توجد أية قوارب: كان الشاطئ مهجوراً كلياً. لا قوارب تجديف، لا سفن راسية في المياه العميقة. كان هذا شاطئاً معزولاً، لم يكن المنظر منطقياً.

أمكن تمييز حفنة من الجنود الروس من ستراتهم الحمراء والخضراء، ولمعان البنادق المربوطة إلى ظهورهم. بعضهم كان يتمشى بين المجموعات المقرفصة من السكان المحليين، مكتفين بالنظر. بلا إكراه، ولا عنف.

قال أصلان "يبدو لي أن "المجلس" لم يقرر خوض الحرب "لكن صوته ارتجف، ونظر إلى ناخو كأنما يطلب منه التأكيد على أن ما هو واقع أمامهما يحدث حقيقة.

هل اختار عدة مئات من شعب الوبيخ أن يغادروا أوطانهم بهذا الأسلوب الهادئ؟

اختار أصلان وناخو طريقهما ببراعة في النزول عن المنحدر الحاد للصخور. وصلا إلى حارس وحيد قريباً من الشاطئ إلى درجة أنه كان بوسعهما سماع صوت الأمواج التي تضرب الشاطئ. كان الرجل متكئاً إلى شجرة ويحدق بعيداً في البحر كأنه مخدر.

لم يبذل أية حركة ليشهر سلاحه في وجهيهما.

تحدث إليه أصلان بلغة روسية سلسة. "من هم هؤلاء الناس على الشاطئ، أيها الجندي؟"

نظر إليه الجندي مغشياً عليه. لم يبد له الأمر مستهجناً أن لا يظهر على غريب كلي على ظهر جواد يرتدي الزي الشركسي أي من مظاهر الخوف ويطرح عليه سؤالاً بلغة روسية خالية من الأخطاء. فقد وصل إلى حالة تعدت أي حكم عقلاني من أي نوع، ولا عجب.

كرر ناخو سؤاله. بدا على الجندي أنه لا يسمع. أطلق أصلان فجأة صرخة مخنوقة وكان سيندفع إلى الأمام لولا أن منعه ناخو بالسيطرة عليه. ساعدت حركته المفاجئة على إخراج الجندي من سهومه فبذل جهداً ضعيفاً للوقوف منتصب القامة ورفع بندقيته.

"أنت لا يمكنك أن تكون هنا،أنت. لا يمكنك أن تنزل إلى هناك...."

صرخ فيه أصلان "يجب أن أنزل!" ومرة أخرى أمسكه ناخو بقوة.

انهار الجندي عند قدميهما "لا تستطيع أن تنقذهم. لا أحد يمكنه إنقاذهم". بكى الرجل، وهو يدفن رأسه في ذراعه، بينما يتشنج جسمه من قوة الصدمة.

مشى ناخو إلى الأمام ببطء وهو يكتم أنفاسه عن حقيقة لا يمكن الإفصاح عنها. أفلت أصلان من قبضته وركض إلى الأمام لمسافة قصيرة، ثم سقط على ركبتيه. جاء ناخو إلى جانبه ببطء، ثم شاهد ما شاهده.

لو كان كل رجل منهما لوحده، لما تمكن من تصديق الدليل الماثل أمام عينيه. كان أصاب نفسه بالعمى حتى يستطيع أن يستوعب المشهد. لكن ناخو وأصلان كان لديهما بعضهما البعض، وأدركا أنهما حيين لشدة ما حفرت أظافر أحدهما في لحم الآخر، يشاهدان الحقيقة ولا يحلمان بها.

كان الشاطئ كله مغطى بالجثث. لقد فاضت أرواح الناس حيث جلسوا، حيث استلقوا، من الحرارة، من التعرض للشمس، من الإجهاد، المرض، ومن القلوب المحطمة.

بعضهم كان يجلس منتصبا، وقد تصلبوا بالموت في اهتماماتهم الأخيرة: أم ترضع طفلها: رجل مسن يحتضن صبياً صغير السن. عجوز يرفع يده باتجاه السماء. هبت الرمال ببطء على الجثث حتى بدت مثل النصب التذكارية، غير قابلة للحركة ولا التعفن. لكن النتانة تصاعدت تدريجياً من خلال النسائم الناعمة الخائنة، ووصلت إلى الأحياء. أراد ناخو و أصلان أن يتقيآ من شدة الروائح المتعفنة.

انطلقت يد وقبضت على قدم ناخو بقوة "لماذا لا تقدرون على الانتظار. اتركونا نموت في سلام. انتظروا".

كانت صبية صغيرة السن في ثوب شركسي، وقد تمزقت تنورتها، وتحول غطاء رأسها إلى شرائط. لقد كانت جميلة ومزدهرة بكامل بهائها قبل أسبوعين. والآن هي راقدة نصف مدفونة في الرمال، وقد تحولت إلى جثة، ما عدا ندائها الأخير.

انحنى ناخو ورفع رأسها إلى الأعلى "يا أختاه، إنني شركسي. بحق الله. أخبريني ما الذي حدث هنا؟ من أنتم أيها الناس؟"

لم يسمع أي جواب. ألقى أصلان بنفسه إلى الأرض بقربه وأخفى رأسه بينما أزَّت طلقات البنادق مارة بهما. عندما استرق ناخو نظرة من خلال كمه، رأى ناخو جنديين روسيين يعيدان تذخير بندقيتهما بإعياء، ويتقدمان من بعض البعد في حالة ذهول بين الجثث.

"لصوص! اخرجوا من هناك!" صاح بهما جندي بصوت مجروح. زحف ناخو إلى الخلف على الرمل. ولكنه لم يلمح أصلان يرفع يده عن فم الفتاة الصغيرة. لقد صعدت روحها: إما أن

صديقه خنقها أو أسكتها الحق سبحانه وتعالى في الوقت المناسب، ماذا يهم؟ لقد أحسنت صنعاً بخروجها وخلاصها.

أزّت رصاصة أخرى وماتت في الرمل أقرب إليهما بكثير مما هو آمن أو مريح. عندما نظر ناخو باتجاه أصلان ليتأكد من عدم إصابته، فوجئ به يرفع ذراعه في حركة استسلام، وينهض ببطء ليقف على قدميه.

تمتم قائلاً "يجب أن أعرف... ابق حيث أنت إذا أحببت".

لكن ناخو نهض واقفاً هو الآخر، وقال بسرعة "دعني أتولى الكلام".

تحرك الجنديان مقتربين، مشيرين بتعب شديد ببندقيتهما إلى أنه يتوجب على ناخو وأصلان أن يستديرا ويستمرا في المشي. أطاع الشركسيان وهما يتوقعان أن تطلق النار على ظهريهما. لكن هذين الجنديين وقد شهدا ما يكفي من الموت، لم يتخذا المزيد من المبادرات. من خلال امتداد قصير ومرعب من الشاطئ، الممتلئ بالمزيد من الجثث، سرعان ما شاهد الأسيران مخيماً صغيراً محشوراً بين صف من الكثبان الرملية وبعض أشجار الأرز.

لقد كان الجو الطبيعي السائد ضمن المعطيات معيباً قذراً. فقد جلس الرقيب المناوب خلف طاولة مفردة رخيصة داخل كوخ خشبي أقيم على عجل. وقف إلى جانبه سماور فوق مقعد خشبي طويل، يقرقر ويفور بهدوء. كان الرجل يشرب: أشعر منظره الشركسيين بالغثيان.

قال الرقيب بلهجة روسية بذيئة "تقولان أنكما قبارديان. أثبتا ذلك، لم أنتما موجودان هنا؟"

أجابه ناخو بوضوح "قريبي وأنا مسافرين إلى تركيا" فهو بهذه الطريقة سيتمكن من منع الجندي من استجواب أصلان واكتشاف هويته كشابسوغ. فعلى الرغم من أنهما يرتديان ملابس على

الأسلوب القباردي النموذجي. إلا أن ملامحهما كانت شديدة التباين. "لقد أضعنا طريقنا – نحن لا نعرف هذه الأنحاء- إننا نبحث عن ميناء لركوب سفينة متجهة إلى القسطنطينية، يا سيدي".

"ها! أنتما بعيدان أميالاً عديدة! يجب أن تتوجها إلى الشمال باتجاه أنابا. ولكن على أي أساس وصلتما إلى هذا البعد بدون أية وثائق، ها؟ هل تتوقعان أن أصدق هذه القصة؟"

"إنها الحقيقة......"

تناول الرقيب جرعة من الشاي واستمتع بمذاقها. خطرت له فكرة ذكية. "الذهب. لا بد وأن لديكما مال من أجل ركوب السفينة. لقد سمعت أن أحوالكم حسنة أنتم القبارديون...."

كان أصلان على وشك أن يصرخ ويكشف هويتهما. إلا أن ناخو منعه من ذلك. "مجرد ما يكفي لأجرة السفر. بضعة روبلات، هذا كل هنالك – انظر..."

بدأ يعبث بجيوبه، لكن الرقيب بدأ يحس بالطمع

"ماذا؟ لا ذهب؟ هل تتوقع مني أن أصدق مثل هذا الهراء؟"

بدأ أصلان يشتم بلغته ويمد يده نحو القاما: كانت لحظة بشعة. انفتح الباب ودخل ضابط. قفز الرقيب واقفاً على قدميه. انسكب الشاي على طاولته وصار ينقط على ألواح الأرضية الخشبية. مشى العقيد، وهو رجل متعب، نحيل الجسم في أوائل خمسينات عمره، حول الرجلين.

قال بحزم "ماذا لدينا هنا؟ من هو هذا الرجل؟"

حدق بناخو.

"إنه يدعي أنه من القباردا يا سيدي. وقد ضل طريقه يا سيدي. يريد أن يسافر إلى تركيا عن طريق أنابا يا سيدي. ذلك هو ما

يقوله عن وجوده هنا – سيدي". انشرح وجه الرقيب عن ابتسامة على أفضل ما استطاع أن يقوله من صيغ الاحترام غير الكافية.

تجاهل العقيد النبرة وتعامل مع المحتوى. "ذلك كلام منطقي جيد". قال باقتضاب "مسافر إلى تركيا – وما الذي يعيقه؟ لماذا أنت تؤخر هذا "الشركسي" العاقل؟"

تحمد وجه الرقيب في بلاهة. "آه، نعم، سيدي، لقد قصدت أن أساعده فقط يا سيدي.... إنه بحاجة إلى إرشادات عن الطريق، أترى ذلك، يا سيدي...."

مشى العقيد حول الأسيرين متجاهلاً محاولات التملص هذه. فقد كان واثقاً من أن الرقيب كان يحاول أن يسلب أية نقود يحتمل أنهما كانا يحملانها من هذين الرجلين. لم تكن لديه الطاقة الكافية لعمل قضية من هذه الحادثة. ليس بوجود عملية إبادة للمواطنين خلفه.

"أرشدهما إلى خارج هذا المكان وارجع على الفور. سيصل العقيد كالينين عما قريب وأنا بحاجة إليك هنا. وتصرف بسرعة"

اقتيد ناخو وأصلان إلى خارج الكوخ وأجبرا على السير قفزاً إلى خارج محيط الشاطئ. كان الليل قد هبط بسرعة: وهكذا أعفيا من مشهد الأموات والذين يعانون سكرات الموت. ولكن حتى برغم كثافة الظلام، فإن حضور هذا العدد الكبير من الأرواح المغادرة بقي معلقاً في الهواء، مشخصاً للموت، مريعاً، شريراً.

قال ناخو "هيا بنا نمضي، يا أصلان"

"كلا، الآن أخبرك بالحقيقة! عد إلى بيتك، يا ناخو! إنني أعفيك من التزامك. أنت تعرف، كما أعرف أنا، إن أبي وأمي قد ماتا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أو أنهما آيلين إلى الموت في مكان ما – وفي هذه الحالة أتضرع إلى الله العلي القدير أن يأتي ذلك سريعاً وليس متأخراً".

"ما الذي تقوله؟....."

"أقول أنه يجب عليك أن تعود أدراجك. ارجع إلى بلاد القباردي وأخبر شعبك أن لا يصدقوا أياً من الأكاذيب التي يقصها علينا الروس. يجب علينا أن لا نتخلى أبداً، أبداً عن أراضينا. ليس لدينا خيار آخر غير الصمود والقتال. أنقذ شعبك يا ناخو – أما فيما يتعلق بي، فسوف أذهب لأعثر على شامز بك وآخر الثوار في سوتشي، وسوف أقاتل حتى أموت أنا شخصياً!"

قذف بنفسه على ظهر جواده، أطلق عنان جواد الحمولة واختفى في الظلام الدامس، سقط ناخو على ركبتيه من شدة الإجهاد. لقد فشل في تلبية رغبات كازبك. لم يعد يأمل إلا في أن يسامحه جده حين يصل إلى بيته ويخبر بما قد شاهده، ويصدق أنه كان محقاً في التخلي عن قَسَمِه الجدي.

***

استغل العقيد الغياب القصير الأمد للرقيب عن الكوخ ليرفع زجاجة فودكا من تحت المقعد الطويل. إذا حالفه الحظ سيتمكن من ابتلاع جرعتين أو ثلاثاً قبل عودة الرقيب ووصول الضابط الأعلى منه رتبة، العقيد كالينين.

جلس مفتوح الساقين في كرسي الرقيب، إحدى رجليه تستريح في الشاي المنسكب، والأخرى فوق الطاولة. هل هذا هو ما وصل إليه مصيره؟ بحق الله؟

لقد كان هذا زاخارين، الذي كان فيما مضى شاباً مشتعلاً بجذوة الحماس، منقول من فرسان الحرس الإمبراطوري... يقوم بجولته الميدانية الثالثة عشرة في الخدمة، وقد أصيب بالقرف من عمله في القفقاس. لم تعد توجد أية رومانسية في الجبال بعد اليوم، لا أمجاد، سواء كانت عسكرية أم فروسية له بعد اليوم. لقد استحالت عيناه الزرقاوان اللتان كانتا تلتمعان ببريق المغامرة إلى الحمرة التي وصلت إلى أجفانه. العنصر الوحيد الباقي ليذكره في

آماله العالية السابقة هو نظافة وترتيب ملابسه: نفس القفازات البيضاء والزي العسكري المكوي حد الكمال. لكن يديه كانتا ترتعشان لكثرة ما تناول من مخدر اللاودانوم الأفيوني، وتخرج أنفاسه عفنة لكثرة ما شرب من جرعات الفودكا.

أدخل كالينين، الذي يكبره بعشر سنوات. انحنى زاخارين بصعوبة إلى الأمام عبر الطاولة وصافح يده. أشار إلى زميله بالجلوس على كرسي "لقد حضرت بسرعة جيدة. أعتقد أن كلينا بحاجة إلى كأس فودكا قبل أن نباشر بهذا العمل البائس..."

حاول أن يتظاهر بأنه يفتح الزجاجة للمرة الأولى، لكن كالينين كان يعرفه جيداً وقد رأى أن كأسه كان مبتلاً سلفاً.

"يا عزيزي المسكين زاخارين. إنني لا أحسدك على هذه المهمة بالذات. بإمكان المرء أن يشتم الرائحة من خارج السياج المحيط. كيف يمكنك أن تتحملها؟"

"لا بد وأنها الريح التي تهب من داخل البحر" أجاب زاخارين بشرود ذهن "لا، ليس هذا واجباً يبعث على السرور". ونظر إلى داخل كأسه بصيغة اتهام، كأنما هو يعجب ممن قد أفرغها نيابة عنه. "ومع ذلك، فالأوامر هي الأوامر، أليست كذلك – أيها الرجل العجوز؟" تجرع كالينين كأس الفودكا الذي يحمله،ولم يحر جواباً.

قال زاخارين بلهجة تفاخر هازئة "إن مفرزة الدفن العائدة لمجموعتنا تعمل على مدار الساعة" ملوحاً بكأسه فوق رأسه "ليس هذا عملاً يليق بالجنود، لكننا نقوم به". قام كالينين بإشارة تدل على الاستياء "إلا يمكنكم استخدام عمال مدنيين؟"

حدجه زاخارين بنظرة "هل هذا شأن من النوع الذي نرغب في الإعلان عنه، يا كالينين؟ لا أعتقد ذلك. أعتقد أننا ملزمون به. على الأقل حتى يموت جميع هؤلاء المساكين. والآن". في محاولة مصطنعة أخرى لإبداء قدر من الكفاءة: "كيف هي الأحوال في القيادة العامة؟"

تنهد كالينين "إنهم يريدون تقريراً مفصلاً في هذه المرة. الأمر يأتي من فوق، من القمة، يريدون أن يعرفوا كيف تحدث هذه المأساة. وما إذا كان الجيش مسؤولاً عنها....".

سمح زاخارين لنفسه بشخرة مسرحية من الاستهزاء "يا إلهي الطيب، هل الجيش مسؤول!" فتح يديه في دهشة واستغراب، ثم بدأ يحصي الحقائق على أصابعه المقفزة المرتعشة. "من غير الجيش؟ نجبرهم أولاً على المسير لمدة ثمانية أيام بلياليها إلى مستنقعات الكوبان بدون أية مؤن تذكر. يلقي المساكين التعساء نظرة واحدة على المكان، ثم يقررون أنهم غيروا رأيهم، وأنهم سيذهبون إلى تركيا في نهاية المطاف. إعادة توطين: تقول القيادة العامة ممتاز. هذا أفضل بكثير. ثانياً: أتلقى أوامر بتسييرهم مرة أخرى إلى أنابا. أربعة أيام أخرى. حتى رجالي يصابون بقروح من كثرة الجلوس في السرج! لكن الشراكسة التعساء، يسقطون مثل الذباب. طبعاً، ولماذا لا يسقطون، بدون طعام وبالمسير القسري؟ ثالثاً: نصل إلى أنابا، وماذا نجد هناك؟ لا سفن! ليست هناك قوارب لعينة! رابعاً: يقال لنا أن نتجه إلى سوتشي. لكن الشراكسة الآن يسيرون حتى هذه النقطة باتجاه سوتشي ويتوقفون. وها نحن هنا. خامساً: يرفض الشراكسة الآن أن يتحركوا. يرفضون التحرك بشكل قاطع. وعلى أية حال فإن معظمهم مصابون بالذهول والهذيان."

سحب زاخاريان نفساً عميقاً، وضع الزجاجة على شفتيه بدون تردد وشرب منها بعمق. لقد وصلت كمية الكحول في جسمه إلى مستوى بات معه بحاجة إلى جرعة واحدة لتوصله إلى النقطة التي يريد: الخدر. "قل لي أنت يا كالينين. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أطلق النار عليهم لعدم إطاعة الأوامر؟ إنهم يفضلون الانطواء على أنفسهم والموت في هذا المكان بالذات على الشاطئ."

دحرج الزجاجة عبر الطاولة. تلقفها كالينين ببراعة.

"على من ستضع اللوم، إيه؟" حدق فيه زاخارين بسكر بينٌ عبر الطاولة، رأى كالينين رجلاً يقترب من نهاية إحساسه بالمنطق، في موقف شوَّه أية رغبة لديه في الإطاعة والخدمة بالكبت الملتوي المليء بالكراهية.

قال بجدية: "لم تكن لدي أية فكرة. ألم تستطع أن تجبرهم على التحرك؟ أن تهددهم؟"

ألقى زاخارين بنفسه إلى الوراء في كرسيه وهو يطلق ضحكة خالية من المرح "كان بإمكاننا إطلاق النار عليهم، لكن ذلك كان يعني تبذير ذخيرتنا هباء. ألا ترى ما الذي يحدث هنا يا كالينين؟ إنهم يقومون بعمل لا يمكن تصديقه – لا يمكن حتى التحدث عنه. إنهم ينتحرون بشكل جماعي مباشرة أمام أعيننا، وليس هناك ما يمكننا أن نفعله في هذا الشأن!"

لاحظ كالينين أن صديقه وصل إلى حالة الهستيريا ومد يداً نحوه لإسكاته. لكن زاخارين كان قد فقد كل اهتمامه وضرب الهواء بيده، وقد تملكه القرف من نفسه، من صديقه، من الجيش ومن الحياة بكل شرورها. "والآن، انقلع من أمامي وقل ذلك لجنرالاتك" صرخ به "ولنرى إن كان لديهم (حل عسكري) لهذه المصيبة!"

سقط رأس زاخارين إلى الأمام فوق الطاولة، نحو حالة غياب ونسيان كلي مرحب بها.

***

حطَّ تقرير كالينين على طاولة رؤسائه في موسكو فيما يقارب السرعة المحترمة. أحيط القيصر نفسه، الكسندر الثاني، علماً بالمأساة، وجاء رد فعله مشوباً بالفزع. إذا انتشر الخبر عن هذا إلى الخارج.... لم يكن ألكسندر طاغية عسكرياً: كان يجب أن يفكر بنفسه على أنه أوروبي، متمدن ذو نزعة إنسانية، مع أنه طبعاً، لم

يذهب إلى البعد الذي يتخيل فيه أن روسيا تحتاج إلى أي شيء يقل عن الحكم المباشر من قبل الملك.

لقد كان يشعر بالرعب من الحرب، وقد تكثف هذا الشعور من مشاهد المذابح التي شهدها في شبه جزيرة القرم. بالإضافة إلى ذلك، فقد تعرف على شامل في الأسر عندما كان مجرد أمير صغير وظل يحمل نوعاً من التعاطف الرومانسي نحو أسد القفقاس... وقد ترك استحواذ أبيه على اكتساح الإقليم إلى نائب الملك الحالي، الأمير بارياتينسكي، وهو رجل ذو قدرات أسطورية ملحمية – في العسكرية، الشؤون السياسية، الثقافية، والجنسية.

كتب إليه في تيفليس، في هذا الوقت ليخبره "إنني أفكر في القيام بجولة في الجنوب، لكي أشاهدك وأنت تمارس عملك، أعتقد أن قيامي بالزيارة سيكون مفيداً للروح المعنوية. إن التضحيات الهائلة المرتبطة بخطة طرد الشراكسة وقسوة هذا الإجراء تسبب الإحراج للجنود الروس".

كانت خطة محكمة. فالجنرال بارياتينسكي كان يحمل نفس عقلية بوتيمكين ويرمولوف: شجاع وعنيف. وكان يشاركهم ذوقهم في حب الفخامة والفصاحة ويفهم أن هذه هي الصفات الحيوية التي تكسبه الاحترام والخوف من قبل شعوب الجبال. لذلك تلقى هذه المراسلة من موسكو بطاعة يشوبها الاحترام، ودرجة قليلة من الاستهزاء. فقد كان مقتنعاً. وكان ملائماً له كلياً أن يقوم هذا القيصر الحريص على الشكليات صاحب العينين الزرقاوين الناعمتين اللتين ترمشان دوماً، بممارسة عملية النقاش والمحاورة معه. كان هذا النوع من الواجبات محبباً له، ولائقاً بملك عصري. لكنه هو، بارياتينسكي، مقدر له أن يكون أداة النصر النهائي في الجبال. بينما سيكون ألكسندر مجرد صوت الضمير، ونوعاً من الإلهاء، ليخفف من مخاوف الجنود.

ربما يكون أمراً ذا دلالة عظيمة في عيون الدنيا أن يقوم ألكسندر بوضع دستور للبلاد، وأنه قام في هذه السنة بالذات بإلغاء العبودية في عموم روسيا. ربما يريد أن يحكم بلاداً متمدنة. بأساليب متمدنة، لكنه لم ينس كلمات أبيه على فراش الموت: "أمسك بكل شيء. أمسك بكل شيء." وكما يشاء الحظ، فسوف يترك تلك المهمة لبارياتينسكي. كل ما كان يتوجب على ألكسندر أن يفعله حتى يجعل الأمر لائقاً، هو أن يعرض على الجبليين فرصة واحدة أخيرة معلنة للوصول إلى تسوية.

وهكذا، سافر قيصر آخر في خريف عام 1861 إلى الجنوب للتعامل مع السكان المثيرين للقلاقل في القفقاس، كما فعل أسلافه كاثرين، ألكسندر ونيكولاس من قبل. اختار أن يتحادث مع الشراكسة في ذلك المعقل القوزاقي القديم الحصين، الذي بناه بوتمكين بفخامة، وسماه تيمناً بعشيقته، القيصرة العجوز. إيكاتيرينودار- "هدية كاترين"، على ضفاف نهر الكوبان.

***

الفصل التاسع

عاد ديفيد أوركهارت يتنفس بسهولة بعض الشيء بينما هو مستلق في البخار الحار. فهو لم يكن قد تخيل أبداً أنه سيفقد حماسه لحياته العامة، لكن انحراف الصحة أجبره، بما لا يمكن تجنبه، أن يخفض من طاقته، وأثر ذلك على منطلقه العقلي.

يمكنه، كرجل عقلاني، أن يتفحص هذه العملية بهدوء وموضوعية، متخذاً كافة الاحتياطات لتقليل التأثير على عمله. أصبح الآن حيوياً بالنسبة له أن يأخذ فترات قصيرة من الاستراحة في بيته. من أجل هذه الغاية، قام ببناء نموذج كامل لحمام تركي داخل منزله في لندن، وهو مكان إقامة متواضع في ريكزمانوورث. أصبح يقضي قدراً متزايداً من وقته في البخار الساخن هذه الأيام، من ناحية لتخفيف الآلام التي تشبه الطعنات والتي تسببها نوبات السعال ومن ناحية أخرى لأنه الزاوية الوحيدة في هذا العالم التي تجلب إليه ذكريات دفء ومسرات الشرق، التي كان يشتاق إليها بألم. كانت زوجته تتفاوض بنبراتها الهادئة المعتادة مع حمولة عربة أخرى من الزوار غير المتوقعين. تناهى إليه صوتها اللطيف والحازم في نفس الوقت على شكل تمتمة خفيضة.

نقّل جسمه وهو يتنهد فوق سريره الخشبي وصمم أن يتجنب الحركة لعشر دقائق قادمة على الأقل.

لولا وجود زوجته، كان سيعاني معاناة رهيبة. لديه دخل خاص يعتاش منه بالكاد يكفيه – وهكذا ظل على الدوام – لكن هارييت فورتيسكو هي التي جعلت هذه السنوات الأخيرة من حياته محمولة بمزاوجة مواردهما وتوفير قدر من الراحة المعيشية له.

وجبات طعام منتظمة، بيت مدار بطريقة كفوءة، الدعم المعنوي. لقد كافح لوحده سنوات طويلة. رغم كونه معرضاً للكآبة، وإلى نوبات لا تحتمل من الغثيان والضعف، فوجئ أوركهارت بأن يكتشف إمكانية تعايش عازب متأصل مع الزواج بهذا القدر من السهولة. كان يقدر هدوءها وحضورها غير المتطلب المتواضع تقديراً عالياً. لم يكن يمنح الكثير من وقته للتفكير بمثل هذه القضايا الشخصية – لكن زواجه في هذه المرحلة المتأخرة من حياته من امرأة كانت قد تخلت عن أية احتمالات للزواج منذ زمن طويل، نجح بدرجات غير معقولة، وعليه فقد سمح لنفسه بلحظات قليلة من التفكير الامتناني حول النظرية. كانا رفيقان في السلاح: يواجهان العالم سوية. وكان مخلصاً لها.

تذكر لقاءه الأول بهارييت. كانت تعمل كسكرتيرة متطوعة لواحدة من لجان الشؤون الخارجية التابعة له. هي ذكية أكثر من كونه جذابة، ومن عائلة محترمة من الطبقة الوسطى،وقد لاحظ أنها تتجاوب بدفء عندما يعلق على إجادتها لعملها. تذكر أنها قالت في أوائل أحاديثهما أنها تتشرف بكونها قادرة على مساعدته. أعجب بنبرتها الأخلاقية العالية: وكان الإعجاب المتبادل هو أساس علاقتهما.

قامت في البداية بترتيب أوراقه: نظمت له مكتبه. ثم تولت تدريجياً تنظيم برنامج عمله وإدارته، وصارت ترسل له ملاحظات صغيرة تخبره فيها عن اجتماعات الشهر المقبل وما إلى ذلك.

هي ذات ملامح جادة، حتى لا يقال عادية، لكنها قارئة مجتهدة وعميقة التقوى، وعليه فقد وجد نفسه يحدثها بأسراره، وبدأت ملامحها غير المتميزة تظهر تدريجياً لعينيه حساسة ومحببة: فقد كان الجمال يكمن في داخلها.

لم يكد ينقضي على تعارفهما ستة أسابيع حين طلبها للزواج بعد أحد اجتماعات لجنة الشؤون الخارجية، وتم زواجهما بحضور شاهدين فقط، في كنيسة أبرشية ريكزمانوورث.

جاءت هارييت إلى الباب وقاطعت سهومه المحبب.

"هذان هما السيد رولاند والسيد بيلز، يا عزيزي. لقد أدخلتهما إلى مكتبك ولكنني أخبرتهما بأن عليهما الانتظار حتى الساعة الثانية".

"أشكرك يا هارييت".

"سوف أناديك قبل ذلك بوقت كافٍ. استرح الآن، هلا فعلت؟"

"أشكرك". لم تكن به رغبة أو قوة لمقاومتها، جرفه النعاس وأغفى.

بدا له وكأنه لم تنقض سوى ثوانٍ عندما استؤنف النقر على الباب، أنهض أوركهارت نفسه وقام بالقفز بدون أي مجهود في ماء بارد حد الانجماد في حوض استحمام صغير موضوع خارج الغرفة الصغيرة المبلطة التي كان يشغلها بامتنان كبير. إذا حالفه الحظ، فسوف ينعم ببضع ساعات بدون الاحتقان أو الألم.

على الرغم من ذلك، عندما وقف أمام السيدين رولاند وبيلز بعد أن ارتدى ملابسه، شعر الرجلان بالصدمة من مرأى التراجع المستمر في صحة الرجل الذي رأوا فيه نورهم الهادي. فقد كان ديفيد أوركهارت ناحلاً إلى درجة مؤلمة: عيناه الزرقاوان تشعان ببريق أكثر من أي وقت مضى، لكن خديه انخسفا، وحال لون بشرته إلى بياض الورق، وتراجع شعره الأحمر الناعم الذي لم يكن غزيراً قط، إلى كومة بيضاء خامدة خلف رقبته. جعل التعرق الخفيف جلده يلتمع بضوء غير طبيعي.

"أرى أن هارييت قد قدمت لكما القهوة، حسناً". قال ذلك بصوت ما زال يحتفظ برنين وجاذبية مدهشين. "والآن، يا أدموند،

فيما يتعلق بموضوع هذه الرسائل الأخيرة للعدد الأخير من صحيفة "الملف" – أفترض أن هذا هو سبب سفرك إلى هنا؟ لقد كنت أنوي أن أحضرها إليك يوم الخميس، أيها الصديق القديم، لم يكن هناك داع حقيقة......"

"ليست هناك أية مشكلة يا ديفيد مطلقاً" فرك أدموند بيلز، رئيس مجلس إدارة اللجنة الشركسية في لندن، والناشر – المشارك مع أوركهارت في العديد من المنشورات السياسية أو سيول الانتقادات، فرك يديه وأراح نفسه إلى جانب النار. على أية حال كان يشعر بقدر من المرح أكثر مما يمكنه من أن يخدع أي إنسان. هؤلاء الرجال أصدقاء قدامى، قادة حملات قدامى. "لقد أردت أن أحظى بفرصة أستطيع بها أن أكلمك على انفراد. القضية هي...."

أدفأ بيلز يديه على النار ونظر بسرعة باتجاه ستيوارت رولاند، الذي كان طويلاً بقدر ما هو سمين: ذو ملامح راقية حيث هو منتفخ الأوداج، حليق الذقن. بينما هو طويل السالفين: وكأنما يتشاوران حول من منهما الرجل الأفضل لإبلاغ بعض الأنباء غير السارة.

"حسناً، ما الأمر أيها الرجل؟ لا حاجة بك لأن تراوغ...."

قال رولاند بنبرات خشنة، غير متناغمة "لقد ذهب لابينسكي خلافاً لنصيحتنا، إنه على وشك الوصول إلى لندن مع جماعة من المندوبين الشراكسة قادمين من القسطنطينية. لقد تلقينا برقية في المكتب صباح هذا اليوم الباكر".

جلس ديفيد بتثاقل إلى جانب بيلز. "لقد كنت أعرف. ولكن هذا لن يفيد على الإطلاق".

أضاف بيلز "لقد تلقينا جواباً على العريضة التي أرسلوها إلى الملكة نفسها في آب المنصرم. لا بد لي من القول أن المرء لا بد وأن يعجب بكرامة هؤلاء الناس، سأقرأها، هل تسمح لي؟"

نهض أوركهارت مرة أخرى، فهو لم يكن الرجل الذي يمكنه أن يستريح في مكان واحد لفترة طويلة مطلقاً، وبدأ يتمشى في إرجاء الغرفة، فهم بيلز ذلك على أنه تصريح له بقراءة محتوى نص إجابة وزارة الخارجية.

"..... بتوجيهات من الإيرل راسل كذا، كذا، كذا،.... بأن سلوك روسيا فيما يتعلق بالمسألة الشركسية كذا كذا كذا، ويتوجب علي أن أحيطكم علماً بأن حكومة صاحبة الجلالة لا يمكنها أن تتدخل في المسألة المشار إليها في ذلك السياق".

رفع أوركهارت يديه فوق رأسه في حركة مبالغة غير نموذجية من قبله. "لقد وقعوا في حبائل وزراة الخارجية! لقد قلت لكم بالضبط ما ستؤول إليه العواقب. يؤلمني أن هؤلاء الناس سوف يضطرون إلى معرفة الحقيقة بهذه البساطة وهذه القسوة... إن العريضة المباشرة المرسلة إلى الملكة تمنح العذر للبرلمان ليقول "إن الحكومة لا يمكنها أن تتدخل...." ولأن كتابة الملكة فكتوريا رسالة غرام إلى ابن عمها البعيد القيصر تشكل قناة دبلوماسية بديلة، وتعفيهم من المسألة..."

"رائع جداً" قال رولاند، مع أنه بدا فزعاً "ماذا نستطيع أن نفعل، يا ديفيد؟"

"من هم المندوبون الذين تم إرسالهم؟"

وضع رولاند نظارته الأحادية العدسة، ونظر مستفسراً إلى دفتر ملاحظاته

"الحاج حيدر حسن وكستار أوغلو إسماعيل، من القسطنطينية".

"الحاج حيدر! لقد قابلته في إقليم الشابسوغ. إنه رجل فاضل بكل معاني الكلمة، وأنا آسف لكونه سيضطر إلى مواجهة هذه المحنة".

"ألا تعتقد أن زيارته سيكون لها أية فائدة، يا أوركهارت؟ لطالما كنت مؤمناً بالرأي العام..."

هز أوركهارت رأسه بأسى "إن إيماني يقل مع مرور الزمن، يا إدموند. لهذا السبب حاولت أن أجبر البرلمان على أن ينظر في خيانات بالمرستون...."

تبادل بيلز ورولاند النظرات الخاطفة مرة أخرى. فقد كانت هناك نواحي معينة من طريقة أوركهارت في قيادة الحملات تسبب لهم الضيق على الدوام. لن يؤدي هذا الكره الذي لا يتوقف ولا يهادن لبالمرستون إلى أية نتيجة ولن يصل إلى نهايته إلا عندما يضع واحد أو الآخر منهما رجلاً في القبر. ذلك أمر مؤكد.

استمر أوركهارت في التجول في مكتبه، ويداه مدفوعتان بعمق في جيوبه.

"يجب أن نعمل أفضل ما بوسعنا لأجل الشراكسة، أيها السادة. دعونا نكتب إلى اللجان في الشمال وننظم جولة خطابية. على الأقل سيتمكن الحاج حيدر ورفيقه من مشاهدة شيء من الأوضاع في إنجلترا ويأخذان فكرة عن دعم الجمهور لقضيتهم. أستطيع أن أعدك –سيكون كل مسؤول في لندن إلى جانبهم. سوف ترى...."

توقف قرب الشباك، وأخذ يتأمل الطرقات الخريفية الموحلة وأغصان الغار التي تتقط منها قطرات المطر وهو في حالة تجهم. "اطلب منهم الحضور إلى هنا لبضعة أيام بعد وصولهم. سيكون الحديث عن الأيام السالفة ممتعاً. لكنني لا أريد العقيد لابينسكي في البيت. لن يبدو الأمر مناسباً – هل تفهم؟"

وافق رولاند. في بعض الأحيان لم يكن متأكداً من أن قيود أوركهارت كانت نتيجة شعوره الابتدائي بجنون الاضطهاد، أو أنها بقايا إحساس دبلوماسي. كلما فكر في الاحتمال الأول، ثبت في النهاية أنه التالي – مثل مسألة خطاب المندوبين هذه. "حسناً، يا ديفيد. سوف يستمتعون بحمام البخار الذي عندك! لقد فكرت في

استضافتهما في النادي الذي أنتمي إليه لمدة ليلة أو ليلتين في البداية، إذا وافقت."

"الجيش والبحرية، لعبة البلمل؟ (دفع كرة خشبية بمضرب من خلال حلقة حديدية) سيعجبهم ذلك"

استدار أوركهارت إلى الشباك مرة أخرى، وسمح لنفسه لمرة واحدة، أن يجد الأمر مسلياً.

دخلت هارييت بعد انصراف الزائرين. تناول ديفيد يدها للحظة. "هل يمكنك أن تساعديني في هذا الأمر يا عزيزتي؟ سوف نكون بحاجة إلى التحدث إلى أكبر عدد ممكن من رؤساء مجالس إدارات لجان الشؤون الخارجية. لإقامة استعراض جيد. لدي شعور من الحزن الشديد بأن هذين المبعوثين سيعودان إلى بلدهما خاليي الوفاض. سيكون أمراً طيباً أن نؤكد لهم بأن البعض المواطنين الواسعي الاطلاع يقفون إلى جانبهم...."

"إنهم واسعو الاطلاع بفضلك، يا ديفيد" قالت هارييت بإخلاص وصدق صادرين عن القلب. لقد كان شغف أوركهارت في الحياة هو الدفاع عن القضايا العادلة: وكان حب هارييت مركباً من الفرد والقضايا. "هلا استرحت قليلاً الآن؟ أنك تبدو متعباً".

لم تكن تحب أن تفكر فيما يمكن أن يحدث لزوجها إذا فقد الأمل في يوم ما. لم تكن تعتقد أن وجودها سيكون كافياً لأن يحفزه على المضي قدماً، لكنها لم تسمح لهذه المعرفة بأن تقلل من حماسها – أو حماسه.

***

تأثر ديفيد بعمق من رؤيته للمندوبين عندما تم إيصالهم إليه من قبل ستيوارت رولاند. كان الحاج حيدر هو الأكبر سناً منهما، وقد بلغ الستين، ولكن بدون أي أثر للشعر الأشيب.

وكان كستار أوغلو إسماعيل في خمسينات عمره وذا بنية قوية. كان كلاهما ملتحياً بكثافة، ومصرين على ارتداء ملابسهما التقليدية طيلة الوقت: تشيركيسكا، باباخ من جلد الحمل، أحذية من الجلد الناعم، وأجمل الأحزمة المشغولة بفنية رائعة مع "القاما". كان الحاج حيدر يمثل شعب الشابسوغ، بينما كستار أوغلو يمثل الأبزاخ.

قال ديفيد أوركهارت "أنتما على أفضل الرحب والسعة" وقد تأثر بحدة بمنظر هذين الشخصين اللذين يمثلان ذكريات ملموسة لحياته القديمة. "هل تسمحان لي بتقديم السيدة أوركهارت؟"

كانت هارييت تمثل الجاذبية السحرية كاملة. ربما كان هذان الأجنبيان بلحاهم المخيفة ومنظرهم الميال إلى العسكرية سيرهب امرأة أقل شأناً منها، لكنها كانت مسحورة، وتجاوبت مع كرامتهما الطبيعية، وتحفظهم الهائل بأخلاقها وتصرفاتها البسيطة الطيبة.

أرشد الضيفان إلى داخل البيت المتواضع. وسرعان ما تم التعامل مع تعقيدات طاولة الطعام. لم يكن أي من الرجلين قد جلس قبلاً إلى وجبة طعام بصحبة امرأة في حياته، لكنهما تصرفا بكل اللباقة الممكنة. فقد تمكنا، بفضل الملاحظة الحريصة لحركات هارييت، والتي قامت بها بكل البطء والتعمد الممكنين من تخليص نفسيهما بدون أية حادثة.

كانت بالطبع قد استشارت زوجها وجهزت تشكيلة مناسبة من الأطباق: الحساء، لحم البقر المحمر، حلوى البودنغ بالفرن، والكسترد.

همست عبر الطاولة "أنهما ساحران يا ديفيد! إن عدم تنظيم وزارة الخارجية لمقابلة رسمية واحدة معهما أمر شنيع!"

نقل ديفيد هذا الأسف إلى الحاج حيدر باللغة التركية، والذي أجاب مباشرة. "لست متفاجئاً. نحن نعرف، بعد مقابلتنا للقيصر، أن أصدقاءنا قلة قليلة".

أجابه ديفيد بجدية "لم تكونوا تطالبون بالقمر. الحرية في أن تعيشوا في بلادكم بسلام، مقابل اعترافكم بسلطانه؟"

"نعم، ولكننا طالبنا بإخراج جميع القوزاق من أراضينا. لقد تأخر الوقت على هذا الكلام".

قوبلت هذه الملاحظة بصمت قصير. "وعليه، يا داود بك، لدينا الآن مجلس وطني لبلاد الشراكسة. لقد انتخبنا مجلس حرب، أصدرنا أمراً بالتعبئة العامة، وأعلناها حرباً مقدسة. ليس لدينا أي خيار. فإما ذلك أو التهجير القسري. لذلك نأمل أن يمدنا الشعب البريطاني الطيب بالأموال – وأن يحث الحكومة على إرسال العون لنا...".

قال ديفيد، ليس للمرة الأولى ولا للمرة الأخيرة "اسمع، يجب أن لا تبني كثيراً من الأمل على أية نتائج من هذه الرحلة. وأرى لزاماً علي أن أعتذر عن عدم ذهابي معكم. إن صحتي... لا أقدر على السفر إلى الشمال في هذا الوقت من السنة..."

وضع الحاج حيدر يده على ذراع ديفيد، مانعاً إياه من الاستمرار في الكلام. "طبعاً! نحن نفهم ذلك، يا داود بك. ولكن يتوجب علينا أن نعمل ما نعتقده حقاً. لقد كنت حليفاً مخلصاً على الدوام. نحن فقط نأمل في أن لا يترك شعب انجلترا الإمبراطورية الروسية تستولي علينا. أنت تعرف أن ذلك خطأ: ونحن كذلك: سوف يصغي الشعب الإنجليزي الطيب. والآن، إذا كان الأمر ملائماً، فإننا نود أن نأوي إلى الفراش. لقد كان هذا يوماً متعباً".

"سوف تدلكم هاربيت". شرح ديفيد لزوجته، والتي قادت المندوبين إلى غرفهما.

جلس ديفيد لوحده إلى طاولته المتواضعة، يفكر بكل خططه العظيمة لمهنة حياته، ولكل الأمجاد التي تصورها بالنسبة لتركيا وبلاد الشراكسة. أدرك أنه يمتلك قدرات "رسولية" – كما كان الآخرون يسمونها. أما بالنسبة إليه، فقد كان الموضوع ببساطة أنه

كان دوماً على حق. وذلك بالضبط هو ما جعل الحاج حيدر يتكلم كما فعل.

لكن ديفيد أوركهارت عرف أن مواطني بلاده قد تعبوا من الحروب، وأن القفقاس بعيدة جداً عن انجلترا.

ولكنه بكل الأحوال، أساء تقدير التأثير الفعلي لوجود المندوبين الشركسيين. فقد سافرا بالقطار إلى اسكتلندا، واستهلا جولتهما في مدينة داندي، ثم أدنبره واستمرا بالتوجه جنوباً عن طريق شيفيلد، نيوكاسل، برليستون، مانشستر، ماكلزفيلد، وليدز. بمجرد أن بدأن الجولة، فتحت الصحافة الإقليمية قلوبها للسيدين المثيرين، ومن المؤكد أن أوركهارت، رولاند، بيلز، وأعضاء آخرون تابعين للجنة الشؤون الخارجية في طول انجلترا وعرضها قد قاموا بمجهود طيب.

تابع ديفيد رحلتهما باهتمام بالغ، وهو يقرأ بصوت عالٍ التقييم الذي كتبته صحيفة "معلن داندي" عن صديقيه القديمين:

قال "هلا أصغيت إلى هذا يا هارييت؟ إن الزعيمين رجلان ذوا مظهر ملفت للانتباه"، ردد ديفيد "طريقتهما المؤثرة في الوقوف والمشي، لباسهما الرومانسي، عيناهما الداكنتان الجديتان، ومع ذلك حادتان مثل عيون الصقور، تعبير وجهيهما الشبيه بالنسور، وسيماء الكرامة الطبيعية التي يحملانها، تدمغهما بصفة الرجال المتفوقين بامتياز، وتساعدنا على فهم السبب الذي من أجله جرى دفع الحشود الروسية مثل الأمواج، في تتابع لا ينتهي، إلى سفوح الجبال القفقاسية... يتمتعان بشعر أسود مثل جناح الغراب، لحيتان سوداوان، جبين عريض، مع حاجبين نافرين واسعين أسودين كالسخام – "... آه يا ربي، المزيد من نفس هذا...." تنهد ديفيد "إن الصحافة تعاملهما كأنهما معروضان رومانسيان!"

داعبته هارييت مؤنبة "أنت تتناول الأمر بشكل حرفي أكثر مما يجب". فتحت خطاباً آخر من بريد الصباح.

"انظر، كم هو جميل. لدي ملاحظة من مترجم الحاج حيدر – مايكل الشاب. يقول أنهما أحبا الريف في منطقة يوركشاير، وتوقفا لفترة قصيرة ليراقبا عملية حراثة قائمة".

رفع أوركهارت رأسه "لا بد وأنهما أعجبا بالمناطق الريفية".

"نعم، يقول مايكل إنهما طلبا الإذن من المزارعين في تجربة المحراث وأنهما قد تناوبا وأتما حراثة ثلم كامل –يقول هنا– انظر".

قرأ ديفيد الملاحظة الآتية من تلميذه. "إنهما مزارعين جيدين. إنني لأعجب من رأيهما وتقييمهما لانجلترا" قال بدون حماس." هناك في الوطن، إنهم القوزاق الذين يقومون بحصاد الذرة التي زرعها الشابسوغ. مفاجأة لطيفة، أليس كذلك؟ أنت تدخل قرية مهجورة، وبعد بضعة أسابيع، تقوم الحقول بإطعامك بنفسها بدون جهد منك...."

"إن الدعاية تجعل الناس يحضرون إلى الاجتماعات، يا عزيزي." أضافت بلطف. "لقد كان تصرف الحشد في أدنبره مرضياً إلى أبعد الحدود في استجابته، واستطعنا أن نجمع أكثر من خمسين جنيهاً في النهاية – لقد أرسل لي السيد بيلز الأرقام في بريد هذا الصباح".

قال ديفيد بمرارة "خمسون جنيهاً، لا شيء! لا شيء على الإطلاق. لقد كان لابينسكي مخطئاً في تعريضهم لهذا الموقف. ليس هناك من شيء يتم إظهاره سوى العاطفة. العاطفة والهواء الساخن.

* * *

كانت وجهة التوقف التالية للمندوبين في مدينة بريستون. يفترض في الاجتماع أن يعقد في غرفة الاجتماعات في بورصة الذرة، وهي بناية قديمة قيِّمة لم يقصد بها أبداً أن تكون موئلاً لمداولات سياسية متطرفة بل لمالكي الأراضي الأثرياء حتى يتفقوا على سعر الذرة التي ينتجونها. لقد قامت لجنة بريستون للشؤون

الخارجية بمجهود طيب، بحيث امتلأت القاعة حتى جدرانها، كما توقعت هارييت. تجاوبت أصداء الأحاديث المكثفة حول السقف المقبب: الجدران البيضاء ذات الأعمدة، المقاعد المصنوعة من خشب الموجينو والشبابيك ذات الزجاج الرصاصي، كل ذلك لم يؤثر في المندوبين الشركسيين. فقد بدأت كل الهندسة المعمارية البلدية تبهت أمام عينيهما في هذه الجولة المضنية. وحدهم الناس كانوا يسحرونهما.

يعتبر هذا الإنجاز مؤثراً، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن لجنة أوركهارت الأولى قد أسست عام 1854 في مدينة نيوكاسل بعضوية حداد، ونجار وشحاذ أعمى في أمسية حالكة الظلام فوق مشرب، ولم يكن أحد منهم قد قرأ وثيقة سياسية في حياته قبل ذلك التاريخ. يوجد لدى أوركهارت الآن أكثر من ثلاثة آلاف عضو منتظم في المقاطعات الشمالية، يقرأون منشوراته، ويجري تعليمهم، على الطريقة السقراطية من خلال متطوعيه المدربين، كيف يناقشون وكيف يسألون. مئة وخمسة وأربعون نادياً في المجموع. ولكنه بالطبع، لم يكن قانعاً.

دعا أحد أعضاء المجلس البلدي لبريستون، الاجتماع إلى الانعقاد بينما بدأ الشركسيين، إدموند بيلز وستيوارت رولاند يدخلون صفاً واحداً. كان أوركهارت قد أرسل عالماً شاباً من معارفه حتى يتولى دور المترجم: كانت لغته التركية سلسة طليقة. كالعادة، تسبب ظهور الشركسيان بلباسهما الشركسي الكامل بموجات من الحديث عبر الغرفة: بإجراء إحصاء سريع للموجودين، قدّر ادموند بيلز، الذي كان يدون الملاحظات لفائدة أوركهارت، إن هناك أكثر من ألف شخص في الغرفة، رجال عاملون ونساء أيضاً. ربما أكثر من ألف.

عضو المجلس البلدي مايرز رجل شمالي ذو وجه صادق وصوت رنان. قال: "لقد طلب مني أن أتولى الرئاسة لهذه الأمسية وأنا أقوم بذلك بسرور." جاء صوته مدوياً لدرجة أن الجميع توقفوا

عن الكلام وانتبهوا إليه. انتظر حتى ساد الهدوء الغرفة. "آمل أن أكون حاضراً في كل الأوقات لمد يد الصداقة الصادقة المحقة إلى جميع المضطهدين."

قوبلت هذه الملاحظة الشجاعة بتصفيق حاد. رفع مايرز يده مرة أخرى.

"أرجو التزام الهدوء. سوف أدعو السيد رولاند حتى يقدم لكم الموضوع الذي اجتمعنا كلنا سوية من أجله".

كان ستيوارت رولاند خطيباً مفضلاً في اجتماعات لجنة الشؤون الخارجية. نظر حواليه في الغرفة، وتمكن من تمييز عدة مجموعات من الرجال العاملين، سافر الكثير منهم قادماً من بلدات أخرى أصغر حجماً لمشاهدة الشركسيين بأنفسهم. انفجرت موجة من التصفيق الحماسي فوقه عندما ابتسم مرحباً بالجمع المحتشد.

"سيدي الرئيس، السادة والسيدات رجال ونساء بريستون، ليس كلامي هراءً بلاغياً عندما أقول إنني لم أشعر بمثل هذا التأثر العميق، في سياق حياتي كلها كما أشعر في هذه اللحظة. سوف يترتب علي حالياً شرح السبب الذي من أجله يجب علي وعلى كل رجل وامرأة حاضرين هنا أن يشعروا بمثل التأثر العميق الذي أحسّه بنفسي".

نادى صوت من الجزء الخلفي للغرفة "مرحى! مرحى!"

بدأ رولاند يعدد الأسباب التي دعت إلى الاجتماع، بصوته ذي النبرات المتوازنة المدربة على خِلفية المدارس الأهلية. وهو يزداد حماساً وقوة مع استمراره في الكلام. قدم تعريفاً بالشراكسة، ووصف تاريخهم، ونقل مأساتهم إلى بلده بذاته: "هؤلاء الرجال، الذين لا يصل تعدادهم إلى ربع سكان اسكتلنده، وقفوا وحدهم، بدون مساعدة بقية العالم، غير مدحورين وغير مستسلمين لمدة خمسين عاماً. دعوني إذن، قبل أن أدخل في تاريخ هذا الصراع، اطلب من

المترجم أن يأخذ مكانه إلى جانب هذين الزعيمين ويسألهما عن سبب وجودهما هنا، وما الذي يعانيان منه".

ران الصمت على الجمع عندما انحنى عالم اللغة التركية الشاب إلى الأمام ليطلب تصريحا من الحاج حيدر. ملأت أقل همسة باللغة الشركسية الغرفة بينما أخذ الحاج حيدر يتشاور مع أخيه الأديغه عن الكلمات الملائمة التي يتوجب عليه قولها. بعدها جاء الحديث إلى العالم/التلميذ باللغة التركية، ثم الإنجليزية إلى رولاند من قبل الدارس، وفي النهاية رفع رولاند قامته وخاطب الاجتماع.

جاء صوته قوياً وواضحا أثناء حديثه. لم ينبس أحد ببنت شفة أو يحدث أي صوت، وعليه فلم يضطر إلى الصياح.

"إن ما يُرغب مني أن أنقله إليكم هو هذا: إنهما يشعران بقربهما من اليأس كأكثر ما يحس الرجال الشجعان، أو حتى استعمل الكلمات التي استعملاها إطلاقاً، إنهما موجودان وسط النار في الليل والنهار: ذلك الإحساس بأن النار تحيط بهما أكثر فأكثر في كل ليلة وكل يوم، دفعهما إلى البحث عن مهرب: وإنهما أحصيا على يديهما الأمم الموجودة في الدنيا، وإنهما سمعا بالأمة الإنجليزية، وأنه قيل لهما أن الإنجليز أمة عظيمة، أمة تحمي المحزونين: لذلك قالت لهما زوجتاهما، وأطفالهما، صغارهما والرجال المسنون، قال لهما الجميع بلسان واحد، بين الآهات والدموع "يجب عليكما أن تذهبا إلى تلك الأمة وتحصلا لنا على العون..."

اندفع المزيد من مثل هذه الكلمة من رولاند. في المحصلة، جاء خطابه في ستة آلاف كلمة: خمس عشرة صفحة من الوقائع المكتوبة بكثافة – نسخت كلها بإخلاص للواجب وأرسلت إلى قائدهم الذي يشتاقون إلى وجوده بينهم كثيراً.

مرة أخرى، تمت رواية التاريخ الكامل للصراع الشركسي، من خداع وخيانة الأتراك، إلى قضية السفينة "فيكسن"، وأفعال بالمرستون، حليف روسيا الظالمة الشريرة.

بعد مرور عدة ساعات، صوَّت كل من في الغرفة على ما أملوا أنه إجراء تاريخي. وهو أن يقوموا بصياغة خطاب إلى الملكة، داعين إلى تنفيذ الاشتراطات التي اتفق عليها في باريس عند نهاية حرب القرم. أقنع الموجودون في الغرفة أنفسهم بطريقة ما بأن معاهدة باريس ضمنت للشراكسة سيادتهم. أجري تعداد شامل للموجودين، فتقرر عدد الحضور عند الرقم 1428.

* * *

ما هي القوة التي يمتلكها أقل من ألفي شخص ضد المد العام للتيار السياسي؟ في لندن، قرأ ديفيد أوركهارت وقائع هذا الاجتماع واستشاط غضباً. لاحظ أن العقيد لابينسكي دخل إلى غرفة الاجتماع بعد أن وصلت المداولات إلى منتصفها لكنه امتنع بحكمة عن التحدث. كان ذلك من حسن الطالع: لأنه لن يفيد الشراكسة مطلقاً أن ترتبط قضيتهم بشكل وثيق مع مكائد الجنود المرتزقة البولنديين في التغطيات الصحفية. فإن ذلك يوفر الأسباب لبالمرستون حتى ينأى بنفسه عنها.

أما بالنسبة لإعلان باريس: فهو لم يفعل شيئاً لصالح الشراكسة. لأن بالمرستون دأب منذ عام 1856 على شن حملة سياسية حتى يجعله لاغياً وغير ذي موضوع.

تصفح أوركهارت التقرير مرة أخرى، ولاحظ أن الخطاب الذي أرسله لبريستون، معتذراً عن غيابه لم يقرأ على الحضور. لا عجب. فهو لا يتفق مع المزاج العام الذي يمكن فهمه من الغضب الشديد والتعاطف الرومانسي الذي يخلقه تجوال المندوبين حول انجلترا. لقد كانت هارييت محقة: من أجل خاطر الحاج حيدر، فهو يفترض فيه أن يكون مسروراً لذلك على الأقل.

تناول نسخة من خطابه الموجه إلى بريستون عن طاولته، وتصفح المقاطع الأولى التي تصف تجاهلاً سياسياً آخر نفذه عدوه اللدود: لقد أصبح الأمر كله يتلخص في رغبة بالمرستون بالحفاظ على رضى نيكولاس الثاني، وعدم رغبته في أرجحة القارب.

أصبح على قناعة من أن استنتاجه رائع إلى حد بعيد.

"سوف تصل إلى استنتاجك الخاص من خلال هذه التصريحات، ولا يمكن لنتيجة مثل هذه التحقيقات أمام رجال عقلانيين أن تختلف عن هذه النتيجة: وهي أن قوة انجلترا، الناتجة عن مساهمة شعبها بالضرائب التي هي نتاج عرق شعبها، يجب أن تصبح وسيلة لتدمير استقلال كل أمة، وفي النهاية أمته نفسها، إذا كان ذلك الشعب لا يقوم في الوقت المناسب بأخذ المبادرة للسيطرة على تصرفات مسؤوليها التنفيذيين."

بكلمات أخرى، إذا لم يقم الشعب الإنجليزي بالتيقظ، فإن بالمرستون وأشباهه سوف يستخدمون أموال دافعي الضرائب لتمويل كل أنواع الحروب غير المشروعة. ادعموا روسيا في دحر الشراكسة: تسببوا في سقوط تركيا. اسمحوا لروسيا بأن تدخل إلى المناطق الفارسية.

سوف يتغير ميزان القوى في الشرق إلى الأبد إذا سقطت بلاد الشراكسة بيد الروس. ولذلك السبب كان حتى الكسندر الثاني، ذو الميول الإنسانية مستعداً للإلقاء بالمزيد من الرجال في المعمعة.

غطت يدا هارييت الباردتين عينيه. "يكفي ذلك القدر لهذا اليوم. سيعود المندوبان إلى هذه المدينة في الأسبوع القادم، ويجب أن تكون قوياً بما يكفي للسفر إلى المدينة".

غطى ديفيد يديها بيديه. "لا أدري إلى أي مدى أستطيع الاستمرار أكثر من هذا"

"أعرف، يجب أن نبتعد. يجدر بنا أن نعود إلى ميليز – ألم تكن سعيداً هناك في الصيف الماضي؟"

ألقت عين داخل ذهن ديفيد بنظرة خاطفة نحو شاليه هادئ في سويسرا. هي حقيقة مضحكة: إنها جنة في جبال الألب، وهي مثل القفقاس، محشورة بين دول قوية. ومع ذلك فهي آمنة – لماذا لا–

"صه! يا ديفيد! عندما تفكر على هذا القدر من الوضوح فإنني أكاد أسمعك!"

قالت هارييت، وهي تلاطفه لتحسن مزاجه، وتنتزع الخطاب القادم من بريستون من بين يديه المرتعشتين.

* * *

تقابل ستيوارت رولاند، أدمون بيلز والمندوبين في مقر اللجنة الشركسية، في مبنى ايست تيمبل، حي وايت فرايرز، بمدينة لندن. كان هذا المقر هو مكتب الناشر للصحافة الحرة: حيث كان أوركهارت يجهز إعداد صحيفته "الملف"، والتي ما زالت مزدهرة رغم انقضاء كل هذه السنين. لقد أمضى حياته متنقلاً من مكتب مليء بالغبار إلى آخر مثله – والفارق الوحيد هو أن هذا المكتب كان بارداً.

كان الاجتماع مكبوتاً، وذلك بألطف التعابير. ولم يساعد الجو السائد حضور العقيد لابينسكي ومهاجر آخر، هو مازورسكي: وهما بولنديان من النوع الذي يقضي حياته على الطريق ما بين لندن وباريس، مقر قيادة حركة المقاومة ضد الاحتلال الروسي لبلادهما.

كان أوركهارت كالعادة، يمتلك القدرة على التغلب على مشاعره الشخصية ليكون منتجاً ومفيداً أمام الجموع. وحدها هارييت استطاعت أن تحصل على لمحة من ضعفه، وحتى ذلك لم يحدث كثيراً.

تحدث ببرود قائلا: "أفترض أنه كان من قبيل المبالغة أن نتأمل بورود أي رد فعل رسمي إيجابي. أنا على الأقل أشعر بالامتنان من حصولنا على مساهمات مالية مثيرة للانتباه من مصادر متعددة بهذا القدر. يجب أن نقرر الطريقة الفضلى لاستخدام هذه الأموال لخدمة بلاد الشراكسة. هل من أفكار، أيها السادة؟"

كان مستعداً لأن يراهن على أن البولنديين سيفضلان تحميل سفينة أخرى بالأسلحة وقوة من المتطوعين. اقترح العقيد لابينسكي هذا الخيار بالضبط على الفور.

بدأ لابينسكي بقوله "قوة استكشافية بولندية أخرى؟" كان لابينسكي نفسه يتكلم قليلاً من اللغة التركية واستدار ليشرح للمندوبين ما سيجري البحث فيه.

اتخذ أدموند بيلز، وهو المحامي على الدوام، رأياً فيه قدر أكبر من السياسة. "ديفيد – ما رأيك بسفينة "فيكسن" أخرى؟ يمكننا أن نجهز سفينة أخرى لتحمل ضيفينا في رحلة العودة وتحملها بمواد حربية! نحاول اختراق الحصار مرة أخرى".

رفض ديفيد ذلك الاقتراح بسرعة "لا أعتقد أن لدينا مثل هذا القدر من الأموال....".

لكن مازورسكي كان يؤيد العمل القتالي كلياً "لم لا نقوم بالعملين معاً، أيها السادة؟ نجهز سفينة وأيضاً نحمل المزيد من المتطوعين؟ يا سيد أوركهارت، إذا استطعت أن تقدم السفينة، فنحن سنقوم بتقديم المتطوعين والحمولة".

بدا على رولاند الحماس "يبدو الأمر طيباً لي. ما هو رأي المندوبين يا لابينسكي؟"

"إنهما يشعران بخيبة أمل من الموقف الرسمي للحكومة ولكنهما ممتنان لأية مساعدة يمكن تنظيمها".

لم يكن ديفيد سعيداً بحقيقة أن تتلاعب الرغبات البولندية بالمندوبين. ذهب إلى حيث جلس الشركسيان، وجلس إلى جانبهما، تكلم بسرعة وبصوت خفيض، بلغة تركية ممتازة أكثر طلاقة من أن يفهمها لابينسكي، الذي كان جالساً على الجانب الآخر من الحاج حيدر، فلم يفهم سوى نصف الكلام.

"استمع إلي يا "حجي". إذا حصلت على أية مساعدة، فأنها ستمكنك فقط من تزويدك بالرسائل التي تخولك بأن توصلك بأشخاص ليس لديهم غاية سوى خدمة مصالحهم الشخصية، ولذلك فلا بد من وقوعهم في يد روسيا. إذا كان للمساعدة أن تصلك، فلا يمكن أن تجيء إلا من تركيا. ولكن في تلك الحالة، سيتوجب عليك أن تجعل تركيا تدرك واجباتها. هذا ما يجب أن ينطوي عليه عملك."

انحنى أكثر، وأضاء وجهه تعبير دافئ متعاطف "يا حجي حيدر، فكر في الموضوع بهذه الطريقة. إن تركيا أشبه شيء برجل عجوز متكئ على عصا تقوم الجرذان بقرضها. إن بلاد الشراكسة هي تلك العصا، والروس هم الجرذان، ومعهم تقف كل أوروبا".

تشاور الحاج حيدر مع رفيقه كوستار أوغلو إسماعيل باللغة الشركسية، ولكن بينما كان ديفيد يصغي إلى نقاشهما الحاد. بدا يقبل فكرة استحالة حرمانهما من هذا الأمل الصغير. إن هجوماً موحداً على روسيا سيكون تحويلاً مهماً لصالح بولندا – ولذلك كان المنفيان البولنديان متحمسين للتصرف. لكن الشراكسة كانوا يريدون أن يفعلوا شيئاً ما – أي شيء. إن الفشل في مساعدتهما في أي نوع من العمل سيعيدهما إلى وطنهما في حالة يأس.

نظر عبر الغرفة إلى بيلز. "ما هو رأيك أنت؟"

هز بيلز رأسه بقوة موافقاً. "إنني أؤيد بشكل مطلق".

كان ستيوارت ينظر إليه بحدة، وانتحى الرجال الإنجليز الثلاثة ركناً ليتبادلوا رأياً في السر. "إنني أتفهم تحفظاتك يا ديفيد. أنت

تريد من الشراكسة أن يتجنبوا عثرتين رئيستين سقطت عليهما بولندا – الفرقة بين صفوفهم والثقة في حكومات أوروبا. ألا يختلف الوضع بشكل مؤكد الآن؟"

"مختلف، لأن القبائل قد شكلت مجلس حرب؟ أخشى أن يكون الوقت قد تأخر على إقناع القوى الغربية بإن الشراكسة قادرون على القيام بجهد منظم موحد. هل تذكر تقرير دالجليش إلى وزارة الخارجية بعد حرب القرم – وحتى صديقي القديم صفر بك قوبل برفض وقلة أدب وإهانة عندما تنقل بين الشابسوغ والبزادوغ. إنني أشك بقوة في أن يكون قد تم نسيان تقريره السلبي إلى سفيرنا".

طاطأ بيلز برأسه. "لقد سمعت تعليقات بهذا المعنى في أروقة البرلمان أيضاً. هذه هي الطريقة التي يقنع فيها أعضاء البرلمان أنفسهم بأن المسألة الشركسية هي شأن داخلي محض للإمبراطورية الروسية...."

أطرق أوركهارت مفكراً لوهلة. كان الحاج حيدر وكوستار أوغلو إسماعيل منهمكين بعمق في الحديث سوية. وكان العقيد لابينسكي وصديقه البولندي ينضمان إليهما بوعود وكلمات تشجيع حول نوع وعدد القوات التي يمكنها أن يحشداها من باريس وحتى القسطنطينية. فمن هو، رجل حر في بلاد حرة، حتى يحرم الشراكسة هذا الجهد المنسق الوحيد الأخير.

أدرك تماماً السبب الذي يمنعه من تأييد هذه الخطة من كل قلبه. وهو أن كل ذرة من ذكائه، حدسه، استشرافه، تخبره بأن الشراكسة على بعد سنوات من الخضوع الشامل. أدرك هذا في أعماق قلبه، وكان هذا الإدراك يسحب قوة الحياة نفسها من جسمه.

قال "حسناً، أيها السادة" بدون أن يكشف عن أي ملمح من أفكاره الداخلية الحميمة في خطابه "لنأمل أن الموقف قد تغير كثيراً الآن. إن القبائل متحدة وأن وجودها كله على المحك. لهذا السبب يجب أن نقوم بكل شيء يمكننا القيام به للمساعدة".

نادى الحاج حيدر عبر الغرفة على ديفيد باللغة التركية. "أنت توافق، أليس كذلك يا داود بك؟" كان تعبيره جدياً. ربما كان هذا الرجل المسن الحكيم يعرف تحديداً ما يفكر فيه داود بك.

لكنهما كانا شخصين مختلفين جداً. لقد كان هناك شيء قاحل فيما يتعلق بديفيد أوركهارت، على الرغم من كل حبه المشوب بالشغف لتركيا، والإسلام، وقضية بلاد الشراكسة.

نظر الحاج حيدر عبر الغرفة ورأى رجلاً يموت وهو واقف على قدميه. لقد كان هو نفسه أكبر سناً، لكنه قوي البنية، نشيط، مكتمل الصحة، وملتزماً. صار يعجب مما إذا كانت مشكلة داود بك وجود كمية من الهواء أكثر مما ينبغي داخل رأسه وما لا يكفي من الأرض تحت قدميه. لم يكن لديه حب المواطن لبلده، كما كان الوضع لديه ولدى وكوستار أوغلو إسماعيل. لم تمسك يده أبداً بمحراث وترسم ثلماً مستقيماً استقامة السهم المنطلق.

"إننا نشكرك يا داود بك. سوف نعود إلى بلادنا الآن، ومعنا العديد من الذكريات السعيدة".

تبادل الحاج حيدر وداود بك إشارة توديع واحترام. وبحسب ممارسة ديفيد أوركهارت، التي تبناها من الأتراك، فهو لم يصافح يد أي رجل. فقد ظل يؤمن بالمساواة بين كل الأرواح، واحتفظ بمسافته.

***

الفصل العاشر

حدثت رحلة ناخو إلى البيت خلال أفضل الأوقات: الخريف – عندما امتلأت أودية القفقاس بطنين النحل والأطيار التي تغريها الثمار اليانعة التي تملأ الأشجار والشجيرات. هذا وقت الحصاد، لكن الحاصد الواجم وحده هو الذي كان يعمل في القفقاس اليوم. أن يترك خلفه مثل هذا القدر من الخراب على ساحل البحر الأسود: أن يذهب إلى بيته وهو لم ينجح، مصحوبا بالصور الكابوسية للموت على نطاق واسع: ظلت هذه الأحداث تطارد ناخو وتقلقه، وجعلت من رحلته مشقة. كان لوحده، وظل يقارع طيلة الليلة، تحت النجوم، العذاب في عقله. لقد سافر الآخرون من سلالته بالكثير من الأمل. كم مرة رويت له القصص عن رحلات أسلافه في هذه الأمكنة العالية: لقد مر والد جده أحمد بهذه الأنحاء قادماً من الكوبان إلى الغابات المرتفعة لبلاد الشيشان، غريباً كلياً عن المنطقة ولم يكد يبلغ السابعة عشرة في ذلك الوقت. ثم كانت تلك الرحلة السحرية، الملكية التي قام بها جده كازبك وهو بعد طفل صغير، قاطعاً كل المسافة من وادي التيريك إلى بلاط الخان، في شبه جزيرة القرم. لقد أختير كازبك كرفيق لصبي الجيراي، أصلان، أثناء تدريبه مع"أتالق" قباردي.

كانت تلك الحادثة تبدو وكأنها حكاية جنيات بالنسبة لناخو، حكاية ظل يسأل عنها مراراً وتكراراً وهو طفل جالس على ركبة جده، وفي الآونة الأخيرة صارت تعود إليه بنوع من الحيوية التي بدت وكأنها حديثه في ذهن كازبك.

لقد قام كازبك برحلات أخرى: فقد هرب بدوره إلى بلاد الشابسوغ بعد قيامه بالانتقام بذبح قتلة ابنه. لقد أصبح مشهوراً

كبطل في سبيل الحرية: وبعدها قام بإعادة عظمات، الأخ المفقود منذ وقت طويل، إلى قرية الحابسا، في الوقت الذي شاهد فيه أبوه يدفن ولكنه تأخر عن النطق بكلمات الوداع.

كلما تذكر تلك القصة، كان ناخو يحث خيوله على الإسراع بنخزها بالمهاميز، لأنه بات قلقاً على كازبك.

مع دخوله إلى القرية استطاع أن يرى الرجل العجوز جالساً على شرفة منزله مرتدياً ثوباً أبيض مغطى "بالجدوغ" المفضلة لديه، وهي معطف سميك من جلد الخراف، وطاقية باباخ فوق رأسه. نمت لحيته وغدت أكثر كثافة والتمع بياضها أنصع في غياب ناخو، لم ينهض كازبك عندما ظهر الفتى، لأنه رأى من على مسافة بعيدة أن ناخو يسافر لوحده يقود فرسي حمولة. أدرك فوراً ما يعنيه ذلك.

ترجل ناخو وألقى بنفسه مرهقاً عند قدمي جده "سامحني، يا جدي، لقد فعلت كل ما بوسعي. لكن أصلان لم يسمح لي بالبقاء معه...."

مد كازبك يداً معروقة وقديمة إلى درجة أنها رفرفت وانفردت مثل جناح طائر. لامس شعر ناخو الأشقر الكثيف، المتجعد تحت أصابعه. "إذاً، هل ذهبوا إلى تركيا؟"

"آمل ذلك، يا جدي". تردد ناخو في التعبير عن شكوكه، بأن الحاج دانيل وزوجته ربما يكونا قد ماتا في المسيرة القسرية، أو على أحد الشواطئ، أو حتى داخل عنبر سفينة متعفنة كأنها الكفن.

"في البداية قرر أصلان أن يصعد إلى سفينة ويلحق بهما، بصحبة بضعة أناس من شعب الوبيخ... ثم غير رأيه وقرر أن يقاتل مع الشابسوغ الذين تخلفوا." فجأة لم يعد ناخو يحتمل أن يحمل السر.

"يا جدي، يجب أن أخبرك. اسمع. ما شاهدته يجب أن لا يحدث لأي منا......"

نقل ناخو إلى كازبك قسوة ما حدث على الساحل باختصار، ومع ذلك بدون أن يحذف أية تفاصيل مهمة.

بالطبع، كان كازبك قد رأى ذلك المشهد قبلاً: إرادة الموت التي تحل بالرجال عندما يذهب كل شيء آخر وينقطع الأمل. لقد رآها بين الشيشان بعد أن هاجم القوزاق "الأولات" وتركوا العجائز فقد أحياء. لقد كانت معجزة، بل نعمة، أن يتحد هذا العدد من الناس وكأنهم عقل واحد ويتخذوا قراراً بالموت. انتحار جماعي. الدفاع النهائي للمحق الفاضل، أن يختار الموت – بدلاً من أن يتركه يفرض عليه. لقد بارك الله سبحانه وتعالى مثل هذا الخيار.

ولكن فقط إذا كان هو الخيار الأخير.

هنا في بلاد القباردي، كانت الأمور تختلف.

قال كازبك باستسلام "لقد فعلت ما بوسعك"

سوف أصلي داعياً لأن يلتقي دانيل بعائلته مرة أخرى. إذا لم يكن هنا، فإن الله سبحانه وتعالى سيهبهم كل الفرح في مكان آخر".

كان ناخو يرتعش بفعل الصدمة من هول ما رأى ومن شدة الجهد الذي بذله حتى لا يستسلم لإظهار عواطفه.

وقتها أدرك كازبك أن القسم الذي فرضه على ناخو قد كان حملاً مستحيلاً. لأنه في ظل الظروف القائمة، وبوجود الجيش الروسي والقوزاق يحدان من حرية كل فرد في القفقاس، لم يعد هناك فرد يستطيع التصرف بنفسه في القفقاس، بدأ يصلي بصمت، داعياً إلى الله أن يسامحه على كونه طلب أكثر مما يجب من هذا الشاب. رأى أن الرحلة وهذه المهمة قد وصما ناخو طيلة حياته.

"يجب أن تستحم وتستريح. أمر جيد أنك عدت بيننا، يا ناخو. لقد مرضت جدتك مرضاً شديداً: إن عودتك إلى البيت ستفيد نورسان كثيراً." تكلم كازبك بلطف.

فاضت عينا ناخو بجفنيهما المحمرين بالدمع، لكنه بلع ريقه بشدة وانصرف مسرعاً حتى لا يستسلم للحزن.

كان كازبك محقاً في أن يقلق. عاد ناخو تدريجياً إلى ما يشبه الوضع الطبيعي، لكن الطاقة الشابة والطباع المرحة التي كانت جزءاً من شخصيته في الماضي، لم تعد إليه مطلقاً. قرَّبه هذا التغير من عم والده أنور، وهو رجل جدي وغامض أصيب بالإحباط في سنوات شبابه بسبب التزاماته العائلية، ولم تتح له الفرصة ليصبح مقاتلاً كما كان يرغب، مثل كازبك. وعلى أية حال، فقد أصبحت حياته العائلية السعيدة مع زوجته زكية وعائلته الكبيرة، ونجاح مزرعة استيلاد الخيول أكثر من تعويض كافٍ له، وقد عمل بإخلاص إلى جانب كازبك وناخو لسنوات عديدة، يتولى إدارة المزرعة، يشرف على عمال الإسطبلات، ويراقب عمال الحقول.

كان ناخو يفضل صحبة الرجال المسنين على رفقة أبناء جيله ومعاصريه، وأقاربه مثل ابن رسلان، حفيد أنور الوحيد، كريم. فقد كان يعرف أشياء لا يعرفونها: فقد شاهد أهوالاً أعفوا منها هنا في قرية الحابسا.

صار يلاحظ أن الميل نحو الوحدة والذي ظل على الدوام جزءاً لا يتجزأ من عائلته قد بدأ يلامسه هو الآخر. لقد ظل أحمد يتميز بلمحة تحفظ في طباعه: وكان كازبك رجلاً حالماً، بقدر ما هو مقاتل عظيم. لقد أصبح الأمر يشكل صعوبة، ولكن ليس عذاباً، على هذا المقاتل العظيم أن يراقب قوته الجسدية تتضاءل بحيث أصبح يقضي ساعات طويلة وهو يتأمل في ماضيه، بدلاً من أن يحيا حياة نشيطة. لم يكن أنور يشابه أخاه. فقد تعلم مبكراً أن يعيش

ضمن حدود إمكانياته بعدم الإكثار من التفكير وإشغال نفسه في كل الأوقات.

* * *

مرت السنوات. أشغل ناخو نفسه بالعمل في مزرعتهم، يحصد، يساعد في تنشئة الأمهار، يشرف على المشتريات والمبيعات. كان حفيداً باراً مدركاً لمسؤولياته، يقضي كثيراً من الوقت مع المسنين، كازبك وأنور، ولا يتوانى أبداً عن زيارة جناح النساء، حيث كانت جدته نورسان قد وصلت إلى حالة من الكبر والضعف بحيث صارت تقضي معظم وقتها في الفراش. أحياناً، كان يتخيل وهو ينظر إليها وهي غافية في ساعة الغسق السرمدي في وقت موزع بين الليل والنهار، كيف سيكون الوضع لو أن كل شعب القباردي سيجبر على المسير القسري مثل الشابسوغ. كان ينظر إلى تحت، إلى وجه نورسان الرقيق، التي كانت في يوم من الأيام أجمل امرأة في وادي التشيجيم، فيصاب جسمه كله بموجة من رد الفعل الارتعاشي. فقد شاهد أجساداً في مثل ضعف واكتمال جسدها وضعفه.... ليس لدى الجاور أي احترام للحياة.

بدا له وجوده كلهُ في تلك اللحظة مزيفا، حلماً: لم يستطع أن يتخلص من شعوره بعدم الارتياح، خاصة بعد أن شاهد ما حصل لأبناء جلدته الأديغه في الغرب – وما حصل لحركة مقاومة شامل في الشرق.

هنا في القباردي، كانت الجزية تدفع: وطريقة الحياة هي تقديم التنازلات والحلول الوسط. وقد ذاعت شهرة المزرعة فعمت بلاد القباردي كلها، ومع بدء الجيش الروسي في زيادة أعداده لتوجيه الضربات النهائية إلى القبائل الثائرة، فقد ازدادت حاجته إلى الخيول التي تربت في البيئة المحلية. ربما كان هذا القرب نفسه من الجاور هو الذي جعل ناخو يبدو مكبوتاً، حريصاً على واجباته، وغير ميال لأن يفقد السيطرة على نفسه في الغراميات أو الهوايات

الأخرى التي يمارسها أقرانه الشباب. لم يستطع أن ينسى أبداً مقدار الأذى للذي يقدر عليه الروس.

أخذ ناخو يقضي وقتاً متزايداً مع جدته نورسان. فقد أضحى جلياً أنها لن تنجو من فصل الشتاء. فصار يمر ببيتها الصغير بعد انتهاء يوم عمل متعب، فإذا سمحت له بالدخول، يجلس إلى جانبها بصبر وأناة. لم يخض في الكثير من الأحاديث.

لم تكون نورسان تفتح عينيها على الإطلاق "ناخو؟ ناخو؟". كانت تمد يدها لتلمس وجهه بلطف. ثم تسقط يدها على صدرها وتستريح راسمة ابتسامة صغيرة على وجهها. كان مجرد وجوده يجلب إليها السكينة والهدوء، بحيث تنتقل إلى مملكة النوم بسهولة.

في ساعة مبكرة من أحد أيام السنة الجديدة، زارها مثل العادة، فوجد كازبك في غرفة الاستقبال بجناح نورسان. كان جالساً في حالة سكون تام، ممسكاً بأحد مناديل زوجته المطرزة بين يديه. من الواضح أنه لم يسمع ناخو أثناء دخوله: فقد أصبح سمعه ضعيفاً جداً، وانغلقت عيناه مع اندماجه في تلاوة الآيات، أو هكذا أعتقد ناخو. انتظر لحظة، حتى لا يجفل جده أو يقاطع تأملاته.

رفع كازبك المنديل إلى وجهه، و تنفس بعمق. ابتسم وفتح عينيه. لحظتها أبصر ناخو، ونظر إليه إلى فوق بوجه أضاء فيه الارتياح والانفراج –لم تكن لدى ناخو أية فكرة عما يجري. فقد كان التعبير على وجه جده فتياً، كأنما يحمل زهرة رائعة في يوم صيفي جميل، وقد فرغ لتوه من ارتشاف عبيرها الرائع الفواح. لقد كانت الطريقة التي ما زال الزوجان العجوزان يهتمان ببعضهما فيها مؤثرة في النفس بعمق....

قال كازبك "لقد غادرت هذه الدنيا، يا ناخو، الحمد لله... لقد رحمها."

لم تكن بهما حاجة إلى الحديث عما لن تعاني منه نورسان.

أقيمت الجنازة بهدوء. دفنت نورسان بالقرب من تسيما وأحمد، قريبة من جسد ابنها المقتول، إمام. كادت العائلة أن تكتمل. نظر ناخو إلى كازبك، وتأكد أنها ليست فكرة خيالية أن يتخيل أن جده ينظر إلى الأسفل، إلى القبر باشتياق. فقد كان الرجل العجوز يشعر بالتعب الشديد.

عند حلول الربيع، انطلق ناخو لتسليم إرسالية كبيرة من الجياد إلى إسطبلات الجيش الروسي في فلادي كافكاز، عند مضيق داريل. لقد تنامت هذه المستوطنة الصغيرة وتوسعت على مر السنين حتى أصبحت مكاناً يعج بالحركة، شوارع مزدانة بالأشجار على جانبيها ومتنزهات صغيرة على النمط الروسي في تطوير المدن مما أضفى جواً أرقى قليلاً إلى الطرقات الموحلة الكئيبة. ولكن لم يكن هناك أي خطأ حول سبب وجودها. فقد كانت البلدة وستظل محكومة بالثكنات العسكرية، وهي الأبنية البيضاء الطويلة، المطلية باللون الأبيض بأناقة: كانت الشوارع تعج بالمرشحين والضابط الذين هم خارج الدوام. كان المئات من الجنود الروس والقوزاق يعيشون هنا في حالة دائمة من الاستعداد للانتشار.

دفع ناخو ومساعدوه قطيع الخيل إلى زرائب الخيالة، ثم صدرت إليه التعليمات من قبل رقيب الإسطبلات بأن يقوم بتوقيع وثائقه في مكاتب الوحدة.

ركب ناخو متجاوزاً مبنى القيادة العامة، ولا هم له سوى إنهاء معاملاته الورقية، حتى يصبح بإمكانه البدء برحلة العودة إلى بيته قبل حلول الظلام.

لكن الضابط المناوب استبقاه "أنت من الحابساي؟ هل هذا صحيح؟"

"نعم، يا سيدي." أجابه ناخو بطريقة مؤدبة ولكنه رفض أن ينظر في وجه النقيب. بل أشغل نفسه بالتحديق في وثائقه.

"تعال من هنا"

رفع ناخو بصره، وقد فوجئ "لماذا؟"

حدق فيه الروسي وكرر "تعال من هنا" وكأنما التفسير أمر خارج عن المألوف.

أرشد ناخو إلى مكاتب شخصية ذات مقام عالٍ – حسب ما أوحت به فخامة الأثاث، شخصية مهمة جداً. عندما لمح الشخص الذي يشغل المكاتب، جالساً خلف طاولة من خشب الموجينو الملمع بعناية، أدرك أنه لا بد وأن هذا الشخص هو قائد المعسكر.

كان رجل طويل القامة أشقر الشعر يرتدي الزي الرسمي لجنرال في الجيش الروسي منهمكاً في إصلاح أخطاء تقرير مكتوب.

أدى النقيب تحية قائلاً "سيدي، هذا ناخو من قباردي التيريك. لقد قام لتوه بتسليم أربعين جواداً حسب التعاقد معه يا سيدي – لقد أردت أن تضيف توقيعك إلى قسيمة الدفع بنفسك، يا سيدي، أليس كذلك؟"

"نعم –أقصد– لقد أردت أن أقابلك، أيها الشاب"

نهض الجنرال واقفاً ودار حول طاولته إلى جانب ناخو. وفي بادرة غير نمطية ولا معهودة، مد يده مصافحاً.

"مرحباً بك. أنا الفريق كندوكوف. أنا أعرف جدك، هل هو بصحة جيدة؟"

كان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة تشوبها لكنة. كانت معرفة ناخو باللغة الروسية جيدة ولكنها ليست طليقة إلى الحد الذي يمكنه من معرفة أصول الجنرال. ورغم ذلك أصبح لديه شعور بأن هذه ليست لغته الأصلية.

قال ناخو بجمود "نعم" كانت نظرته ثابتة، بعينين زرقاوين صادقتين، لكنهما باردتين "إنه بصحة جيدة، أشكرك على سؤالك عنه، أيها الجنرال".

توجه كندوكوف بكلامه إلى الضابط المناوب "جهز الوثائق أيها النقيب. اطلب من خادمي أن يجهز قليلاً من الشاي القفقاسي الشهي. إن مقابلة حفيد كازبك مناسبة تشوبها الخصوصية".

انسحب النقيب، ولكن ليس بدون أن يلقي بنظرة جانبية جعلت ناخو يعرف أنه محتار وغير موافق على إظهار الود هذا.

"تعال يا ناخو، اجلس. سوف نتحدث بينما يتم الاهتمام بأوراقك".

عاد كندوكوف إلى الجلوس في مقعده، بينما جلس ناخو، بعد تردد قصير قبالته عبر الطاولة. فوجئ بأن بدأ كندوكوف يكلمه بلغة شركسية سريعة.

"أنا كندوك موسى، حاكم مقاطعة التيريك. نعم، أنا أتكلم اللغة الشركسية، ولكنني أصلاً من "الأساتين" – من مواطني أوسيتيا الأصليين. لقد كان والدي "الدار" أي نبيلاً من أوسيتيي التاجور – شمال مضيق الداريل. هل وجدت أية صعوبة في إيصال الخيل إلى هنا؟"

"كلا، يا تحمادا" أجاب ناخو غريزياً بصيغة المخاطبة الملائمة لرجل أكبر منه سناً. كان كندوكوف كبيراً في السن بحيث يمكن أن يكون في سن أبيه "لقد اصطحبت معي فرساننا القبارديين لمساعدتي"

استرخى كندوكوف في جلسته، مرتاحاً ومبتسماً. بعد أن تمكن ناخو من تفحصه، رأى أنه شخص نموذجي من أبناء جنسه: طويل القامة، أشقر، بملامح وأطراف طويلة. الأوسيتيون شعب جبلي عريق، وتقع أراضيهم التاريخية التقليدية إلى الجنوب من القباردا، في الجبال العالية المشرفة على فلادي كافكاز. يقال أن أصلهم يعود إلى بلاد فارس لأن لغتهم فارسية. هناك، في الجبال العالية، وفي الأزمان الغابرة أقاموا أبراجاً حجرية عالية إلى حد غريب جعلوا منها مساكن حصينة، وشاركوا جيرانهم الشيشان الاعتقاد

والممارسة القائلين بأن سلاسل المدافئ العائدة لبيوتهم هي أشياء مقدسة. بعضهم، شأنه في ذلك شأن القباردي، كان يدين بالمسيحية ومارسوا عادات قديمة توحي بأنهم كانوا جميعاً مسيحيين في زمن ما: ومثل القبارديين أيضاً، فقد تنازلوا عن السلطة للروس.

"إن جياد جدك ذائعة الشهرة في كافة أنحاء القفقاس". كان كندوكوف يقول. "حتى في أعالي جبال بلادي يفتخر الناس بامتلاكهم جياد الحابساي قباردين".

جيء بالشاي: قدم خادم كندوكوف الشاي من سماور فضي أنيق إلى ناخو الذي امتلكته الحيرة ولفه الغموض.

قال كندوكوف، متجاهلاً تحفظ ناخو، حتى لا يقال شكوكه "قل لي يا ناخو، كيف يشعر قبارديو التيريك تجاه الهجرة إلى تركيا؟ إلى بلاد مسلمة، إلى "بيت الإسلام" كما يقولون؟"

تمتم ناخو "بيت الإسلام..." لم يرغب في قول الحقيقة مخافة أن يغضب ضابطاً في الجيش الروسي. إضافة إلى ذلك، فهو لم يفهم دوافعه حتى تلك اللحظة.

"تكلم بحرية يا ناخو، أنا لست أسألك باعتباري جنرالاً روسياً ولكن بصفتي الشخصية كمسلم".

مكّن هذا الكلام ناخو أن يجيب بصدق "إن جدي يعارض هذا التحرك بقوة. وأنا بدوري لا أعتقد أنه صحيح، هكذا يشعر معظم القبارديين".

ظهر على كندوكوف الاستغراق في التفكير "هل أنت متأكد؟ ليس هذا ما فهمته! يقال لنا أن العديد من القبارديين متلهفون على الذهاب إذا توفرت وسائط النقل الملائمة. فهل أنت تقول أن هذا غير صحيح؟"

أحسّ ناخو بقدر كبير من التوجس. فهو لا يعرف إلى أي حد يمكنه أن يثق بهذا الرجل على الإطلاق. فهو حتماً لم يصل إلى

رتبة ضابط عالي المنزلة بدون أن يكون ولاؤه لروسيا، المرة تلو المرة. ولكن، من الناحية الأخرى، فالناس يقولون أن الجبلي لا يعبر إلى الجهة الأخرى بشكل حقيقي على الإطلاق... قال بحزم "باستطاعتي أن أخبرك كيف يفكر الحابساي، شعبي، بهذا الموضوع، ولكنني لا أستطيع أن أتكلم عن كيفية نظر القبارديين الآخرين إلى القضية".

بان على كندوكوف الارتياح تجاه هذا الاعتراف، وأصبح ميالاً إلى السرية. "آها! فإذاً أنت لا تعرف. حسناً، سوف أخبرك بمعلومة مهمة..."

ظهر عليه السرور من نفسه بإفراط "لقد تلقيت لتوي هذه الموافقة من رؤسائي على السفر إلى تركيا للتفاوض مع العثمانيين حول إعادة توطين الأمة الشركسية. وذلك يضم شعبي من مسلمي الأوسيتيين، الشيشان والشعوب المسلمة الأخرى في القفقاس. وهكذا، فكما ترى، سوف تنتهي معاناة أخوتي المسلمين. لقد سعيت بقوة نحو هذا الإنجاز، ولمدة طويلة جداً."

لم يكد ناخو يصدق ما تسمعه أذناه. بدأ نوع من القلق يضرب داخل رأسه بما يشبه ضربات الطبل. لم يستطع أن يبعد عن عين عقله منظر المئات المشرفين على الموت وقد غطتهم الرمال. بينما استمر كندوكوف يتحدث بأسلوب ودي مقنع.

"... ربما أنتم غير مهتمين في زاويتكم من التيريك ولكن الشراكسة يعانون الويلات ويموتون في أماكن أخرى من القفقاس، ويتلهفون على إمكانية الانضمام إلى أخوتهم المسلمين في تركيا".

هز ناخو رأسه رافضاً بشكل غريزي. لم يكن ذلك هو السبب....

"إن التهجير المنظم أفضل من الانتظار والموت جوعاً في الموانئ ومحطات القطارات".

ماتت ابتسامة النية الحسنة على وجه كندوكوف عندما رأى التعبير البارد غير المتجاوب على محيا ناخو. تذكر ناخو أخلاقه فجاة وأشاح ببصره. لم يكن هنالك شيء يقال. ولم يكن هناك ما يمكن أن تفعله أية قرية قباردية، إذا كان ذلك هو ما يريده الجيش الروسي.

"التهجير المنظم" هذا تلاعب بالألفاظ لعملية الاكتساح: الخضوع أو النفي.

ربما كان كندوكوف يحاول أن يحذره. ربما لا يجمل به أن يكون عدائياً إلى هذا الحد.

عاد النقيب يحمل الأوراق. نظر إليها كندوكوف نظرة فاحصة عابرة، ووقع بالحروف الأولى ثم مررها إلى ناخو. أدرك ناخو أن العملية برمتها عذر للتحدث إليه.

قال كندوكوف بأقل إيماءة إلى الغموض في نبرته "حسناً يا صديقي، بلغ تحياتي إلى جدك. عرِّج على محطة القطارات هنا وسوف ترى ما ذكرته سابقاً..."

حدج النقيب ناخو بنظرة استغراب. لماذا يمكن للقائد أن يرغب في التحدث مع تاجر خيول شاب أو يخبره بأي شيء؟

"أيها النقيب، اصطحب هذا النبيل القباردي إلى أمين الصندوق وأمِّن له دفعته النقدية على الفور".

الأمر الوحيد الذي استطاع أن يفترضه النقيب هو أن ناخو مخبر مدفوع له من نوع ما. أدى التحية بشكل استعراضي واصطحب "الرجل النبيل" خارج الغرفة بطريقة تفاخر مصطنعة في مشيته.

سأل بنبرة تنتم عن الألفة "ألا تحب الناس الذين هم على شاكلته؟"

"الأوسيتيون؟ إنهم ليسوا شراكسة... إذا كان ذلك ما تقصده."

"لقد كنت أستغرب فقط... أعني، أعرف أن كندوكوف كان في فيلق مرشحي بافلوفسكي وكل هذه الأشياء، ولا بد أنه صغير السن نوعاً ما على رتبة فريق، ولكن رغم ذلك..."

تنشق النقيب بحركة ازدراء.

لم يتمالك ناخو نفسه من الانجراف إلى الحديث "ما الذي تعجب منه؟"

نقر النقيب على أنفه "الولاءات. يجب علينا أن نتدبر أمورنا جميعاً. لا تقل المزيد". وغمز بعينه لناخو ثم تركه لشأنه.

بعد ذلك بفترة قصيرة، وجد ناخو فرسانه ينتظرونه إلى جانب إسطبلات الفرسان. فقال لهم بانزعاج "هيا، لنخرج من هنا".

كان ينوي التوجه إلى البيت رأساً. لكن فضولاً شائناً أجبره أن يذهب ليتحقق مما إذا كان ما قاله كندوكوف ينطوي على شيء من الحقيقة. لم يصدق أنه بالإمكان أن يغادر الشعب الشيشاني أو الأوسيتي أو، وهذا أبعد الاحتمالات، القباردي القفقاس طواعية.

دلّه أحد المارة على الاتجاهات المؤدية، فنزلوا في طريق فرعية متعرجة حتى وصلوا إلى خط سكة حديد مضيق داريل، محطة فلادي كافكاز.

أصيب ناخو بالذهول. لم يكن هناك مجرد العشرات بل المئات من المواطنين الأصليين مخيمين إلى جانب خطوط السكة الحديد ومعهم رزم من ممتلكاتهم مكومة بين العائلات. جلس الأطفال فوق الأمتعة بلا مبالاة: بينما طفق آخرون يلعبون ويتشاجرون في البرك الصغيرة الموحلة: استلقى العجائز متقاربين تحت بطانيات رقيقة. كانت هناك غيمة دوارة من الضباب معلقة فوق فلادي كافكاز على الدوام طيلة فصلي الخريف والشتاء، وبدأت عاصفة مطرية أخرى تهدد بالقدوم أثناء هبوط الغسق.

كان اللاجئون راقدين في العراء المكشوف: لا مأوى، ولا طعام، لا مساعدة ولا تنظيم من أي نوع. لقد انتشرت العدوى. كانت الهستيريا الجماعية التي شهدها في الغرب تطبق على جميع شعوب الإقليم.

لقد فقدوا الإيمان بحقهم في أن يكونوا ما هم عليه, حيثما ماهم. فهل كانوا يعتقدون حقيقة أنهم سيقدرون على استعادة حياتهم السابقة مرة أخرى، إذا تركوا بيوتهم وأوطانهم وتوجهوا إلى ساحل أجنبي ما غير معروف؟

وقتها أدرك ناخو الحقيقة. لقد دأب "الجاور" على استخدام فكرة "بيت الإسلام" حتى يخلصوا أنفسهم من كل هؤلاء المواطنين الثائرين غير المرغوب فيهم. "بيت الإسلام" –هل من الممكن أن ترحب تركيا– العدو اللدود لروسيا بهم بأذرع مفتوحة؟ لماذا، إذا كان ذلك يعني إعطاء روسيا منفعة على شكل مناطق فارغة من السكان؟

أصيب ناخو بالارتباك والحيرة، وشعر بخوف رهيب.

***

لم تصل أية أخبار من أصلان. حاول كازبك أن يرسل خبراً عن طريق بعض المهاجرين الشيشان إلى الأقرباء البعيدين في القسطنطينية –إلى ستناي، والدة ناخو، التي تزوجت مرة أخرى واستقرت هناك. لم يسمع كازبك إن كانت رسائله قد تم استلامها، أو إذا كانت الظروف تسمح للشراكسة في القسطنطينية أن يجروا أية استفسارات عن الناس القادمين حديثاً. بدا وكأنه ليس بالإمكان عمل أي شيء....

بعد بضعة أسابيع، حضر غريب شركسي إلى قرية شعب الحابسا. كان ناخو يعمل في الحقول عندما ركب هذا الرجل الذي يرتدي ملابس رجل الدين التركي باتجاهه، وسأله عن الطريق إلى بيت كازبك.

سأله ناخو بلهفة "هل تحمل أخباراً إلينا؟ سيكون جدي في غاية السرور... سوف آخذك إليه."

"آه، إذن أنت هو الابن! اسمك ناخو، أليس كذلك؟"

امتطى ناخو جواده، وابتسم له موافقاً.

"الحمد لله والشكر، أنت شاب حسن المظهر – إنني أرى صورة أمك فيك" ابتسم الإمام، وهو رجل نحيل البنية في حوالي الثلاثين من عمره، بلحية مشذبة بعناية، في وجه ناخو بطيبة قلب.

وجد الملاحظة محيرة تماماً: فهو لم يشاهد أمه منذ غادرت البيت – لم يكن يحمل إلا ذكريات مبهمة جداً عن امرأة رائعة الجمال بوجه غارق في الحزن.

لقد دأبت جدته نورسان على أن تقول له بأنه صورة طبق الأصل عن أبيه المقتول. وكان كازبك يقول الشيء نفسه. استمر ناخو في العدو خبباً – وهو يفكر في هذا التناقض والتضارب. ربما استمر جداه في ذلك القول لأنهما أرادا أن يبقيا فكرة أبيه حية في قلبه.

قدَّم الزائر نفسه قائلاً "أنا تاب أنور. أنا لست غريباً عن هذه الأنحاء. إن أصل عائلتي يعود إلى وادي التيريك".

قال ناخو بأدب "تلك مصادفة" غير متأكد تماماً بعد من تقييمه لهذا الرجل وأكثر أدباً من أن يطرح أسئلة.

"أنا "حجي".... لقد قضيت سنوات عديدة في دراسة القرآن بتركيا وتحضير نفسي حتى أصبح إماماً لمنطقة الحابساي."

فوجئ ناخو "إمام الحابساي؟"

وجد تاب أنور ردة فعل ناخو مضحكة "أرى أنه لم يكن لديكم رجل دين ليرشدكم..."

لم يجبه ناخو، تذكر الغارات التي كان يشنها المريدون التابعون لشامل، على شكل هجمات انتقامية على القرى القباردية التي ترفض الانضمام إلى "غزواته". تذكر أيضاً أن جده ظل يتحدث دوماً عن الأفكار المغلوطة التي كان رجال الدين يحملونها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال أنه "لا رهبنة في الإسلام".... وعليه فقد كان دور الأئمة ينحصر في رعاية المساجد، وليس في وضع القوانين.

تمتم ناخو "إننا مسيرون "بالخابزه""، وكأنما يخاطب نفسه.

نظر إليه تاب أنور مطولاً "إن الخلاص في يد الله سبحانه وتعالى. وبصيغة أكثر واقعية، فإن سلطان تركيا هو أفضل لنا في الحياة الآمنة".

بحلول هذا الوقت كانا قد وصلا إلى بيت كازبك، مما مكن ناخو من تجنب المزيد من النقاش. دخل ناخو إلى البيت بشيء من التردد وانعدام الحماس، ليحيط جده علماً بأن رجل دين ما، شركسي، قد جاء من القسطنطينية زائراً له.

تنبه كازبك، الذي كان راقداً نصف نائم على أريكة، من فوره

"هل هناك أية أخبار من "الحجي" دانيل؟ هل جاء ليرد على استفساراتي؟ أدخله إلى هنا، يا ناخو، وأمر الخدم أن يحضروا المرطبات..."

دخل تاب بطريقة استعراضية وتبادل الرجلان تحيات الاحترام.

"يا حجي. لقد تشرفت بوجودي في بيتكم. أعتقد أنك كنت تعرف عائلتي..." قال تاب أنور ذلك وأراح نفسه على الوسائد ورتب ثوبه الصوفي الفخم حول رجليه.

"تاب أنور؟ آه نعم. لا بد وأنك ابن تاب حميد الذي ذهب إلى تركيا للدراسة."

تتكر كازبك أيضاً أن تاب أنور يمت بصلة قرابة إلى تشيجيم أنزور –عائلة– زوجته نورسان. أشعرته مقابلة الغريب الذي لديه علاقات تشكل روابط بينهما بالراحة...

"يا حجي.... إنني أجيء لك بأخبار طيبة لحفيدك. إن عائلته – أقصد عائلة والدته الجديدة في القسطنطينية مزدهرة الأحوال جداً."
التمعت عينا تاب أنور بالفخر وهو يصف فخامة الصالونات الثمينة والساحات الجميلة لبيت زوج ستناي. لقد أصاب شامرزا عمر قدراً كبيراً من التوفيق في بلاط السلاطين. كان لديه النفوذ، المركز القوي السامي، والامتيازات.

"لقد جئت إلى هنا لكي أقنع ابنك، وأقنعك، يا "حجي"، بأنه يجب على ناخو أن يهاجر من فوره إلى القسطنطينية، يجب أن يصطحب عائلته معه... كل أفراد عائلته. سيكونوا محظوظين جداً إن هم فعلوا ذلك".

أحمر وجه ناخو حرجاً. فقد توقف البحث في موضوع عزوبيته ضمن عائلته المقربة. لم تعد لدى كازبك رغبة في تزويجه بعد الصعوبات التي تحملها. وعليه فقد بدت هذه المحادثة مزيفة – تصل إلى حد الوقاحة، لولا أن الذي يتحدث إليهما هو رجل دين.

نظر ناخو إلى جده. وكما توقع تماماً، فقد بدأ كازبك يتميز من الغضب.واضح أن تاب أنور لم يشاهد الإمارات واستمر في الثرثرة، وهو يمسد لحيته الأنيقة بثقة كبيرة في النفس، وكأن كل كلمة ينطق بها تؤخذ على أنها أقوال مقدسة. ولكن، وعلى أية حال، ليس في القباردا – وليس في وادي التيريك تحديداً!

"لا بد وأنك ترى الفوائد، كونك "حجي" بشخصك، في معيشتنا داخل مجتمع مسلم. نحن هنا معرضون للكثير جداً من التواصل مع "الجاور". إن عاداتنا سوف تبلى...."

لم يعد كازبك يستطيع أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك. رفع عصاه التي يستعين بها على المشي، وضرب بها تاب أنور على كتفه في عمل يتصف باعتداء رهيب على رجل الدين.

زمجر صائحاً "أيها الحمار! يا ابن الحمار!" بدا وكأن كل التنافس القديم مع فتية التشيجيم في أيام شبابه عاد ليندفع في شرايينه "اخرج من بيتي! سوف أطلق عليك النار إذا وقعت عيناي عليك مرة أخرى!"

نهض كازبك على قدميه وهو يرتجف – قفز ناخو واقفاً ودعم الرجل العجوز، الذي استغل عودة القوة إلى ذراعه اليمنى ليحسن قبضته على عصا التمشي وطوح بها إلى الأعلى ليوجه بها ضربة أخرى إلى الإمام المزوَّق. لكن تاب أنور لم يكن شيخاً – مقاتلاً على النمط التقليدي للمريدين– كان محدثاً ذرب اللسان حلوه، معتاداً على الجلوس معقود الساقين في صالون مريح والشعور بالنقاء النفسي. لذلك فقد هرب من الغرفة.

ساعد ناخو جده كازبك على العودة للجلوس على وسائده. كان الرجل العجوز يتنفس بصعوبة وصدره يصفَّر بينما كانت العروق على جبهته تنبض بجنون.

"يا جدي! هذا الطبع – طبعك العنيف هذا! سوف يقتلك في يوم ما. استرح الآن– لا بأس عليك".

خلَّص عصا المشي من بين أصابع كازبك المعروقة ذات العقد وأرخى الحزام الذي على وسطه عقدة أو اثنتين، وقال بهدوء "لدى إمامنا الجديد الكثير ليتعلمه"

بصق كازبك الكلمات من حلقه "إنه قذارة. إنه يمثل حثالة الأرض كلها. إن الرجال على شاكلته سيجلبون الدمار والمصائب إلى شعبنا".

أمسك كازبك بذراع ناخو بقوة ورجاه بشغف "أنت لن تستمع إلى هذه القذراة، هل ستفعل يا ناخو؟ لا يمكنك أن تفكر بالتخلي عن بلدك – عن أرضك- عن شعبك!"

من زوايا ذاكرته، استعاد ناخو ذكرى لعبه مع جرو صغير عند أسفل بيت رجل عجوز – أحمد، جد أبيه. تلك كانت إحدى أواخر ذكرياته عن أمه، وهي واقفة أمام الرجل العجوز وتطلب الإذن منه في الزواج مرة أخرى ومغادرة قرية التيريك. تذكر ناخو مقدار حزن الرجل العجوز – أحسّ، بطريقته الطفولية الخاصة، بالغضب تجاه شامرزا عمر لأنه يأخذ أمه بعيداً عنه ويتسبب في مرض أحمد العجوز وحزنه. صمم على أن لا يسمح بحدوث ذلك مرة أخرى.

قال ناخو وقد ظهر في صوته تصميم حازم جديد "لا تقلق لذلك يا جدي، ليست لدي أية نية للمغادرة. لكن يجب علي أن أذهب لأطمئن على زائرنا – فهذه ليست طريقة لائقة بالتعامل مع ضيفنا! حقيقة.... مثل هذه العصبية، وفي سنك...." ابتسم بتساهل وقبل يده بدفء حقيقي.

خرج ناخو وهو يفكر. لقد حان الوقت لإرساء جذوره واختيار زوجة.

راقبه كازبك وهو يخرج وقد حلت بخطواته عزيمة جديدة. سرّه ذلك التغير كثيراً، لكن ذلك لم يقلل من الرعب الشنيع الذي بدأ يتسرب إلى شرايينه. فقد أصبح يشعر بالبرد طيلة الوقت في هذه الأيام.

ربما عرف ناخو أن تاب أنور قد أثر في كازبك تأثيراً عميقا. وقد كشف المزيد من الأسئلة أن رجل الدين لم تكن لديه أية فكرة عن مكان تواجد الحاج دانيل وكان مراوغاً وغامضاً بشكل خاص عما حصل لحمولة السفن الأولي من شعب الشابسوغ الذين وصلوا إلى تركيا. كما ظهر أن حياته في القسطنطينية كانت جولة

مفرحة طويلة من الحوار، الدراسة، والمعيشة المنعزلة في أجنحة مريحة فخمة – داخل مدرسة دينية في جنوب المدينة.

اعترف ناخو معتذراً، بينما هو يرافق تاب أنور إلى حدود القرية "إنني آسف على انفجار أعصاب جدي".

ظهرت خيبة الأمل بالقدر المناسب على تاب أنور. "لقد سمعت بالطبع عن سمعة كازبك العظيمة كمقاتل ثائر مع الشابسوغ. لا بد وأنه كان يشعر بقدر هائل من المرارة. إن الحرب قضية يائسة، يا ناخو. متى سيتعلم الشراكسة هذه الحقيقة؟ يجب أن نتخلى عن هذا الصراع غير المجدي ضد قوات "الجاور" العملاقة، وأن نعيش بسلام بين أخوة مسلمين... في تركيا".

حدق ناخو في الأرض لفترة طويلة، غير قادر على اتخاذ القرار في ما يرد به على ضيفه. يفترض أن يكون رد فعله المباشر هو الغضب على سماع مثل هذا الكلام. لكن كانت لديه اهتمامات أخرى أكثر التصاقاً بشخصه. في النهاية نظر إلى الأعلى . "لقد شاهدت والدتي وعائلتها. فهل هم سعداء في تركيا...؟ هل هم سعداء حقاً..؟ هل تحدثت عني....؟"

"طبعاً تحدثت. إنها متلهفة على رؤيتك" قال الإمام بأسلوب تطميني "يجب أن تذهب إليها يا ناخو. اذهب حتى ولو لأجل الزيارة."

"لا أستطيع أن أترك جدي في هذا الوقت بالذات.. لكنني أحب أن أذهب في زيارة. هناك جنرال أساتيني ذاهب إلى هناك قريباً. بإمكاني أن أصاحبه". ظهر التفاؤل في نبرة ناخو. لم يكن بحاجة إلى أن يضيف أنه بحاجة إلى موافقة جده أولاً، الأمر الذي لن يكون سهلاً.

افترق الرجلان. أسرع ناخو عائداً إلى البيت، وهو يحاول أن يتخيل كيف كان شكل أمه وما يمكن أن يكون عليه استقبال عائلتها له.

أثبت التحضير للزواج على أنه تحويل مفيد للأفكار. فقد ابتهج كازبك بدرجة ملحوظة عندما أعلن ناخو نيته المفاجئة في العثور على عروس، وقدح كل من زكية وأنور وأولادهم العديدون زناد أدمغتهم في عملية توفير قائمة قصيرة منتقاة من المرشحات.

لم يكن ناخو يتزوج بدافع الحب، تحديداً. بل هو مقدم على الزواج حتى يثبت لنفسه أمراً ما: فقد كان إحساسه بالواجب عظيماً جداً، وقد أشعره الوفاء بذلك الواجب بقدر كافٍ من السعادة. كذلك عرف أن جده سينظر إلى قضية زيارته المزمعة إلى تركيا بمنظور مختلف إذا كان متزوجاً.

وعليه، فعندما أشعرت عائلة أمير الحابسا عائلته أن لا مانع لديها من تقدم ناخو لطلب يد ابنة عم لهم من الميسوستي، سرّ سروراً عظيماً، فقد كانت ديسا تعيش في كنفهم في قرية الحابساي كجزء من تدريبها لدى "الأتالق". كانت عائلتها من "وَرْق" "الأبراق".

كانت الفتاة خجولة، وهي تصغر ناخو بخمسة أعوام. لكن التقارير الواردة من نساء العائلة أشارت إلى أنها لؤلؤة: شعر داكن، بشرة بيضاء، نحيلة القوام جداً، وتنعم بنظرة متفائلة سعيدة إلى الحياة. أدرك كل من ناخو وديسا أن هذا التحالف بين العائلتين اللتين كان تاريخهما متداخلاً جداً سيجلب الكثير من الفرح لكل المسنين.

سمح لناخو أن يزور ديسا بعد أن تم التفاوض على كافة إجراءات الخطوبة. راقب كازبك من الشرفة انطلاق الشاب راكباً للقيام بزيارة "البسالوخ" الأولى له.

نخر كازبك قائلاً "يختلف الأمر عن أيامي، لقد اضطررات إلى القتال من أجل نورسان..."

جمع ناخو أعنة جواده الأسود الرائع وضحك على تعليق جده "أعرف يا جدي، لقد سمعت قصة الخطيفة مرات عديدة".

قال كازبك بكبرياء "لم تسمعها مني!"

"كلا يا جدي. لقد أخبرتني بها جدتي."

"إذن أنت تعرف كيف تتصرف؟ ما يليق بك قوله؟" كان كازبك يتكلم بنبرة خشنة لكنه أحسّ بلحظة حنو على هذا الشاب الجدي الذي لم يكن له أبوان أو جدة ينصحونه في هذا الوقت.

"أعتقد ذلك، يا تحمادا. فإن ديسا ليست غريبة عني تماماً، كما تعلم."

"هيا انطلق إذن"

ركب ناخو إلى حافة نهر التيريك حيث قيل له أن ديسا تقوم تجمع التوت البري مع العديد من قريباتها. ابتعدت النساء الأخريات عندما شاهدن ناخو قادماً على صهوة جواده. فوجئت ديسا وشعرت بشيء من الحرج من خفة رفيقاتها في الابتعاد وتركها لوحدها مع هذا الخاطب: فإن القواعد تقضي بأن تكون معها مرافقة عندما يحضر أي شاب لتقديم احتراماته وإظهار إعجابه.

ابتسم لها ناخو "الواضح إنني أتمتع ببعض الامتيازات!" قال مازحاً، فقد أحس فجأة بقدر من التوتر العصبي الحاد، عندما واجهته هذه الجميلة ذات الشعر الأسود والعينين الزرقاوين. لقد شاهد مراحل نموها لمعظم سني حياتها، ولكنها في هذه اللحظة بدت له وكأنها شخص جديد مثير. أشار إلى صخرة ملساء أدفأتها الشمس فوق حافة النهر حيث يمكنهما الجلوس لفترة قصيرة. أطاعت ديسا بخجل، وجلس على مسافة مقبولة منه، لكنها لم تجرؤ على النظر إلى الأعلى في وجهه. كانت ضئيلة الجسم: نسي كم هي صغيرة الحجم.

"آمل أن يكون في السماح لي بالتحدث إليك بمثل هذه الحرية مجاملة لي، يا ديسا" قال ناخو بلهجة رسمية.

كشرت قليلاً: "أنا لست متأكدة"، وكشف عن فجوات صغيرة جميلة بين أسنانها البيضاء.

"أعرف أن الجميع يرغبون في هذا الزواج، ولكنه الأمر سيكون لطيفاً لو لم يكن هكذا" – احمر وجهها، وقد خشيت من التسبب في الإيذاء.

"هل ترغبين في القول "متوقع إلى هذه الدرجة"؟" تناول ناخو يديها، وقد قطب حاجبيه بفعل الجهد الذي يبذله للتعبير عن نفسه في مسائل حميمة كان قد ركنها جانباً لسنوات طويلة.

"إنني كبير السن، يا ديسا. لقد كانت لدي واجبات كثيرة أقوم بها أشغلتني عن تعلم الكثير مما يتوجب معرفته لاستمالة الفتيات الجميلات الصغيرات مثلك. لم استمع أبداً إلى ثرثرة ومشاغبة الشقيقات، ولم أسمع صوت الأم في بيتي، لسنوات عديدة. لست ملماً بمثل هذه الأمور. لكنني أعدك، بأنه إذا تزوجتني. فإنني سابذل قصارى جهدي لإسعادك. لكن الشيء الأكثر أهمية هو "– وقبل أطراف أصابع يديها بمجرد لمسة عابرة من شفتيه.

قالت ديسا بخجل "نعم؟"

"هل أنت واثقة من أنك راغبة في هذا الزواج؟"

تكلم ناخو بقدر كبير من التواضع الصادق بحيث أحسّت ديسا بدفقة من الثقة تعزز كيانها.

"ناخو، إذا تزوجنا فسوف أكون لك الزوجة التي تريدني أن أكونها. ستكون أنت "تحمادتي"."

"حسناً إذن، إذا كنت راغبة. فسوف أبذل أفضل جهودي لتشريفك. ستصبح سعادتك، ورفاهيتك موضع اهتمامي الأول".

نظرت ديسا إلى قدميها. "ذلك أمر لطيف منك قوله يا ناخو". ألقت إلى صديقاتها بنظرة سريعة، اللاتي تظاهرن بالانشغال لكنهن

لم يفوتن حركة أو إيماءة واحدة من هذا اللقاء، رغم أنهما كانا بعيدين لعدة ياردات باتجاه ضفة النهر إلى أسفل. سحبت نفساً عميقاً. "إذن أرجو أن تقدم احترامات إلى عائلتي بعد انقضاء بضعة أيام – ليس بتسرع كبير، حتى لا تبدو متلهفاً أكثر مما يجب، وليس بعد أيام كثيرة جداً حتى لا تحرجني بترددك. وأحضر لي هدية. ثم لا تلمسني أمام صديقاتي... فقط عندما نكون لوحدنا".

ضحك ناخو. قد تكون ديسا ضئيلة الجسم لكنها كانت تحمل أفكاراً كبيرة، ووجد أن هذا الأمر يرفع من معنوياته.

***

الفصل الحادي عشر

تم زواج ناخو وديسا بدون احتفال كبير بعد مجرد أسابيع قليلة من لقائهما. لقد كان التوقيت مهماً لأن تاب أنور نجح في الحصول على موافقة الحاكم العام باصطحاب ناخو معه إلى القسطنطينية. رغم ذلك، فقد تم الالتزام بالإجراءات بدقة، بالموسيقى، والولائم، وبإخراج ديسا في موكب مع خادماتها، في إرث العائلة: فستانها المصنوع من الحرير والأطراف المحيكة باليد، وقد ارتدت أفضل مجوهراتها. لم يخفِ الإمام فرحته بهذا الزفاف والاحتمالات المستقبلية للعروسين الشابين أثناء وليمة الزفاف.

"إننا نرسل ناخو بعيداً عن فراش زفافه مصحوباً ببركاتنا ودعواتنا، في هذه الرحلة الأكثر أهمية وتبشيراً بالتوفيق التي يقوم بها في مستقبله الجديد" قال تاب أنور بطريقة منغمة. "ندعو له بالسفر الآمن، ونرجو أن يعود لنا بأخبار طيبة من أهلنا في بيت الإسلام".

رفعت ديسا الصغيرة رأسها وقطبت حاجبيها. ما السبب في لهفة رجل الدين على إبعاد زوجها الذي زف إليها حديثاً عنها، ولماذا هو يحتفل بهذا الانفصال؟ لكن ناخو فهم السبب، وأمسك بيدها بقوة.

"لا تقلقي، ستكونين بأمان مع جدي وأعدك أنني سأعود بأسرع ما يمكنني. بالإضافة إلى ذلك، فسوف أتمكن يا ديسا من شراء بعض الحاجيات الراقية لأضيفها إلى مهرك".

قالت بسرعة "طقم شاي من الفضة، بعض الأقمشة المذهبة، بضعة شباشب دمشقية، وقليل من خيوط الحرير من أجل مطرزاتي".

ضحك ناخو. فقد كان معجباً بالطريقة التي تمارس بها ديسا تفكيرها على الدوام، وتنتظر قدوم اللحظة الملائمة حتى تطرح آراءها أو طلباتها. كانت تلك في العادة متواضعة، إلا في هذه المناسبة، لأنه في الواقع، أحسَّ بأنها محقة في طلب تعويض مجدي عن غيابه بهذه السرعة بعد زواجهما مباشرة.

انطلق الفريق كندوكوف وناخو القادم من الحابساي في طريقهما إلى القسطنطينية بعد بضعة أسابيع مصحوبين بثلة صغيرة من فرسان القوزاق كمرافقين، وبضعة من الكشافة الشراكسة لتعجيل طريقهما نحو ميناء سوخوم كاله على البحر الأسود.

قامت صفة من التعامل الرسمي المتبادل بين الرجل الأساتيني والشاب القباردي، فقد صمم كلاهما على أن يبرهن أحدهما للآخر بأنه رجل يتمتع بالنزاهة. لكن الجبال أثبتت أنها مساوٍ عظيم بين الناس. شاهد ناخو الرجل الأساتيني في أفضل حالاته، كجندي خشن صلب وكقائد جدي لجنوده. ووجد كندوكوف في ناخو شاباً سريع البديهة، متوازن العقل منصف، وفارساً لا يعرف الخوف. فقد أرسله لعدة مِرات أمام الطابور لتسلق الممرات، حتى يمكن جواده من اقتفاء الأثر خلف فرس القباردي ذات المشية الواثقة، والتي كانت تدوس أفضل مواطئ القدم بدقة، في أسلوبها المعروف عن رسنها تقليدياً عبر الزمن.

كانت الرحلة عبر البحر الأسود آمنة، واستغرقت أقل من أسبوعين. عندما صعد ناخو إلى باخرة روسية بحرية في ميناء سوخوم كاله، ألقي به في أحضان القنوط، إذ تذكر جهوده غير المثمرة مع أصلان في محاولة العثور على العائلة الشابسوغ، وشاطئ كوابيس الموت في سوتشي. كان يمر بلحظات يعجب فيها

مما إذا كانت التجربة كلها مجرد هلوسات. فهي لا تشبه هذا العبور الهادئ في شيء، ولا في هذه القمرة النظيفة المنسقة، هذا الوصول المخطط له بدقة إلى جالاتا، في مرسى جيد في الميناء، ولجنة استقبال مؤلفة من زوج أمه، أخوين نصف شقيقين غير معروفين بالنسبة له. وعربة مكشوفة.

لاحظ كندوكوف القباردييين الذين تبدو عليهم مظاهر الثراء واقفين في مجموعة صغيرة منعزلة على رصيف المرسى في جالاتا، يتقدمهم خادمان يرتديان طربوشين أحمرين مزوقين بالشرّابات ويحمل كل منهما شمسية ومهشة ذباب. كان بينهم وجيه مهيب أبيض الشعر، وإلى جانبه رجلان بالغان بملامح مشابهة، واضح أنهما شقيقان.

قال كندوكوف "أقاربك، كم هو لطيف منهم أن يحضروا لاستقبالك"

ابتسم ناخو، وقد عززت لجنة الإستقبال هذه من اطمئنانه وثقته، بينما كان ينظر إلى الأسفل ليشاهد الكتلة الفوارة من التجار، الباعة، الحمالين والمحتالين تملأ الأرصفة. "لقد أرسل أحد البحارة رسالة مني عن طريق قارب المرشد في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم. سوف أستأذنك في الافتراق عنك الآن، يا سيدي".

"سوف نتقابل، يا ناخو، لتبادل الآراء ومقارنة الانطباعات، بعد بضعة أيام".

"حسناً جداً"

"آمل أن تسمع تقارير جيدة..." لكن تعليقات كندوكوف اللطيفة وقعت على آذان صماء. لأن ناخو كان قد حمل حاجياته القليلة وانطلق مسرعاً في نزوله عن ممر السفينة.

لم يتذكر شامرزا عمر بشخصه، مع أنه تذكر بصعوبة رجلاً جاء ليزور والدته بضع مرات قبل أن تغادر القباردا تمهيداً لزواجها الثاني.

لم يعد شامرزا عمر يبدو كشركسي نموذجي بدنياً لسبب واحد بسيط: فقد أدت معيشة المدينة إلى أصابته بالسمنة. إذ ظل الأديغه بطبيعة وجودهم ومعيشتهم، أناساً صلبي العود، يراعون كمية طعامهم ولا يحملون أية شحوم فوق عظامهم. كذلك فوجئ ناخو عندما رأى أن شامرزا وولديه يرتدون لباس الأتراك. قفاطين ومعاطف مذهبة الأطراف ومزينة بالشرّابات، ولم يعودوا يرتدون التشيركيسكا. ولكن بمجرد أن خاطبه شامرزا عمر، أدرك ناخو أنه رجل فاضل.

"إن مشاهدتك أمر مبارك! ما كان يجدر بنا أن نؤجل لقاءنا هذه المدة الطويلة. فقط لو أنك تعرف كم صلّت والدتك من أجل التئام الشمل هذا!" عانق ناخو بقوة، ثم قدمه إلى ولديه، إسماعيل وبرهان. لم يستطع ناخو أن يقاوم إغراء البحث عن أوجه الشبه العائلي، لكنه شعر أنه لا يوجد الكثير من القواسم المشتركة مع هؤلاء الرجال ذوي اللكنة الناعمة الميالين إلى السمنة. بأيديهم البيضاء وعماماتهم الحمراء الشديدة النظافة.

لم يتمكن ناخو من التمتع بالفرجة على مناظر وأصوات المدينة بينما هم منطلقون بسرعة كبيرة في العربة المكشوفة خلال الشوارع الضيقة المزدحمة لمنطقة الميناء. فاحت رائحة السخونة والزيت من المقاعد الجلدية الملمعة جيداً. كانت الضجة التي يثيرها هذا الحشد البشري في المدينة تشتت الأفكار. كادت اللغات التي لم يسمعها من قبل في حياته، والتي تؤدى بنبرة تصل حد الصراخ أن تسبب له الصمم. بينما هم يغادرون منطقة القرن الذهبي، أفضت الأسوار، المكاتب، والقصور والساحات إلى شوارع أكثر هدوءاً مزنرة بأشجار يعلوها الغبار؛ بدا كل شيء باهتاً وناعساً في حرارة النهار. هنا كانت الدرابزينات العالية والمصاريع الداكنة الألوان تحمي بيوت التجار ورجال المال، السياسيين والعملاء الأجانب.

بين هؤلاء، وقف مقر إقامة شامرزا عمر، المبني على مسافة بعيدة خلف جدار مرتفع يحميه من بحلقة المتنزهين القلائل في

الشارع. أشرعت البوابات على اتساعها لدخول العربة. المنزل عبارة عن عمارة عالية جداً، مطلية باللون البني الضارب إلى الحمرة، مؤلفة من ثلاثة طوابق تحيط بساحة مركزية مربعة حيث تثرثر نافورة صغيرة ويمنح الرواق ذو الأعمدة بعض التخفيف من الحرارة.

غادر الرجال العربة وتحلق الخدم حولهم يحملون الماء، المناديل، المشروبات الباردة، وأثواب للتبديل.

كانت ستناي، والدة ناخو تستريح على فراش نهاري في جناحها. اصطحب شامرزا عمر ناخو خلال دقائق من وصوله عبر غرف مفروشة بطراز رسمي وممرات ذات بلاط لماع إلى جناح النساء. سحب ستائر الحرير الموسلين إلى الخلف حتى تتمكن ستناي من رؤية ناخو وهو قادم نحوها.

قال بصوت ضعيف "آه، أنت أشقر الشعر. لقد كان شعر إمام أكثر قتامة"

وجد ناخو نفسه يحدق في عينين زرقاوين تشبهان عينيه كل الشبه. بات احتمال الوضع صعباً.

فقد كان شيء آخر يتعلق بها باهتاً وعجوزاً. أورثته خيبة الأمل هذه، وعتمة البيت شعوراً بأنه محاصر وكأنه يعاني عقدة الأماكن المغلقة، فأصيب بقليل من الذعر. فقد ظل خياله ينطوي على مخيلة لصورة باهتة لأحدى الآلهة، نموذج للجمال والفضيلة طيلة حياته، وها هي الحقيقة ماثلة لعينيه: روح ناحلة، ذاوية، ضعيفة.

جاء صوتها متهدجاً: "ما ظننت أبداً إنني سأراك مرة أخرى. لقد تحتم علي أن أغادر، هل تعرف ذلك؟ لقد كنت صغيرة السن جداً....."

"الحمد لله والشكر، يا أمي" بات ناخو يدعو الله بصوت عالٍ حتى تساعده المشاعر الحسنة في المضي بهذه المقابلة "إن الإمام تاب أنور، وكازبك، وأنور يهدونك جميعاً تحياتهم، وانظري...." بحث داخل كيسه بعصبية ثم أخرج بعض المخرمات القصبية الملفوفة داخل شال محاك. "لقد أرسلت لي زوجتي ديسا هذه، مع وافر الاحترام وأفضل التحيات".

"إذن! تزوجت أخيراً!" في هذه الآونة فقط استعاد صوت ستناي قليلاً من حيويته، ثم أجلست منتصبة فوق وسائدها، بمساعدة شامرزا عمر. "أخبرني عن نسبها...." تحسست أصابعها بتردد من فوق الدثار باحثة عن يد ناخو بينما كان هو يحدثها عن أقارب ديسا. ظلت ستناي تطأطئ برأسها طيلة الوقت، مشيرة إلى أن السنين الطوال لم تمحو شيئاً أو أحداً من الحابسا من ذاكرتها.

"لقد فهمت أنك استغرقت وقتاً طويلاً حتى تستقر في حياتك. لقد كانت دربنا طويلة وصعبة أنت وأنا، يا ناخو. لقد ترتبت على كلينا واجبات ثقيلة. لقد كنت مضطرة للمغادرة، وأنت اضطررت للبقاء. لكن اسمع..." ومال إلى الأمام "إن عمر رجل فاضل وسيفعل كل ما بوسعه لمساعدتك الآن. إنني اسمع العديد من القصص.. القصص الرهيبة، وكل ما أريده قبل أن أموت هو أن أعرف أنك مستقر بطريقة مرضية".

"ولكنني مستقر بشكل طيب يا أمي! لا حاجة بك لأن تقلقي. إن مزرعة الاستيلاد مزدهرة و –"

توتر جسم ستناي الناحل لشدة المجهود الذي بذلته. انحنى زوجها إلى أسفل ليعترض، ليأخذ ناخو بعيداً عنها حتى يمكنها أن تستريح، لكن المرأة العجوز كانت قد انتظرت مدة طويلة ولم تشأ أن تضيع دقيقة واحدة. "استمع إلى أمك. سوف يصبح وضعي الصحي أسوأ. أريدك أن تعدني بأنك لن تسمح لأبنائك بأن ينشأوا بدون أب، ولزوجتك أن تصبح أرملة كما كنت. لقد سمحت

باستمرار الأوضاع طالما كان جدك حياً، وكنت أنت أعزباً. لكن ساعة كازبك سوف تأزف، وكذلك ساعتي في يوم ما.." وضعت يدها على صدرها "إنه هنا، يا ناخو، إنه ضعف ما.." تنفست ستناي بعمق وصعوبة عدة مرات، ثم جاء كل الكلام في اندفاعة واحدة، ذلك الخطاب الذي تدربت عليه خلال سني نفيها. "اترك ذلك المكان الملعون، يا ولدي العزيز. لدي هذه العائلة الرائعة هنا، ولقد بقيت آمل طيلة حياتي، أن أتمكن من مساعدتك في يوم من الأيام، ولقد ربيت أولادي على المعرفة القائلة بأنه سيطلب منهم أن يفعلوا هذا من أجلي. ليست إرادة الله أن يموت المؤمنون هناك في أرض القفقاس بعد اليوم.... الخونة، الجاور، القوزاق، فليأخذوها! سيوفر الله أرضاً جديدة لك هنا – وما لن يوفره لك الله، فإن زوجي وأبنائي سيساعدونك في الحصول عليه."

أنبّها شامرزا عمر بقوله "والآن، يكفي هذا، يا امرأتي الطيبة!" وأراح زوجته على وسائدها.

"يجب أن أصر، يا ناخو، على أن نتركها تستريح لوهلة."

نظر إليه ناخو، واعتراه القلق. أطلق شامرزا عمر إشارة تطمين بيده "هناك وقت. الكثير من الوقت"، همس له "إنها مهتاجة اليوم، بسبب قدومك. ولكن امنحها يوماً أو اثنين وسوف تصبح أكثر هدوءاً، وتستعيد قوتها".

امتلأت نفس ناخو بالارتياح. فقد أصيب بالصدمة في البداية لكون أمه غريبة عنه كلياً، امرأة عجوز مريضة. ولكن مع توالي حديثها، أعادت نعومة صوتها أصداء مدهشة عن أيام نسيها منذ زمن طويل، عندما كانت تروي له قصص النارتيين ومغامرات أقاربه بنفس ذلك الصوت الترتيلي، وتحتويه بين ذراعيها.

الآن وقد عثر على أمه، لم يكن يرغب في موتها لوقت طويل قادم.

***

جلس الجنرال كندوكوف ينتظر في ردهة انتظار الجنرال عمر باشا. كان الجنرال التركي قائد حملات محنكاً من أيام حرب القرم، والحملات على الفرس بعدها. وقد كان واجبه الآن الإشراف على إعادة تنظيم الجيش التركي، وزيادة قوته – فمع أن معاهدة باريس قد ضمنت حياد البحر الأسود ومنحت تركيا المزيد من الحماية على تجارتها وموانئها، إلا أن تركيا ما زالت بحاجة إلى جيش بري حسن التدريب للحفاظ على أمنها.

لم يكن كندوكوف يحترم الجندي التركي العادي واعتبر أن عمر باشا يواجه مهمة ميئوساً منها.

أدخل كندوكوف إلى غرفة استقبال مؤثرة. أهم ما فيها طاولة مستديرة هائلة الحجم، مصنوعة بشكل فني بكل أنواع الحفر في الخشب. أضيئت مصابيح نحاسية صفراء ثقيلة باهرة بينما أغلقت مصاريع الغرفة لتحجب حرارة النهار. كان الجنرال عمر باشا جالساً بأسلوب فخم خلف طاولة مكتب فرنسية مزينة من خشب الموجينو، على طراز لويس السادس عشر. وقد تعلم، مثل العديد من القادة العسكريين التأثير القوي الذي يخلفه المكتب الخالي من الأوراق. فإن ذلك يوحي بالقوة الفائقة والسيطرة التنظيمية المتفوقة في نفس الوقت.

وقد كانت طاولة الجنرال عمر باشا مساحة مهيبة من الجلد المراكشي الأحمر المشغول. كان الجنرال التركي يتحدث، أي يتناقش مع ضابطين ذوي رتبتين رفيعتين واقفين بينه وبين كندوكوف. عند دخول كندوكوف استدار الرجلان نصف استدارة لينظرا إليه. عرف فوراً من وجهيهما ووقفتهما أن هذين الرجلين من الشراكسة.

فوجئ الرجلان برؤية أساتيني يرتدي الملابس الغربية، وليس بزيه الروسي أو حتى مرتدياً "تشيركيسكا" شركسية.

بدا على الجنرال عمر باشا السرور من اختياره لهذه الحبكة، وقال بنبرة مسترخية "مرحباً بك يا جنرال كندوكوف. أنت ترى هنا اثنين من أبناء وطنك يخدمان في جيشنا! اسمح لي أن أقدم لك الجنرال حسني باشا برزج والجنرال علي باشا صفر".

تبادل الرجال جميعهم التحيات والتحيات العسكرية. استطاع كندوكوف أن يتحقق من أن برزج هو من شعب الوبيخ، وأن صفر من البزادوغ، من الشراكسة الغربيين الذين اكتسحتهم قوات القيصر مؤخراً. وكان قد سمع أن القتال في وادي مزيتما ضد هؤلاء الناس كان طويلاً وشرساً.

"لدينا العديد من الشراكسة المخلصين في تركيا" قال الجنرال عمر باشا بنعومة، وهو مضطجع مستلقياً في مقعده ليفسح لكرشه الضخم المجال ليتنفس قليلاً. "لطالما نظرنا إلى جيراننا القفقاسيين المسلمين كأخوة. لقد أصبح العديد منهم رعايا مخلصين للسلطان – أليس ذلك صحيحاً، يا حسني باشا؟"

خاطب المتحدث من بين الجنرالين، وهو رجل طويل القامة ناحلها، يعلو وجهه العديد من الندوب، وقد هاجم الشلل يده اليسرى – لا شك في أنه قد نجا من العديد من مواجهات القتال بالأيدي مع الجنود القوزاق والروس.

كانت لغة حسني برزج التركية تئن من ثقل اللكنة بقدر ما كان صوته متحشرجاً، بحيث أصبح من المستحيل معرفة ما إذا كان يتكلم بصدق أم أنه كان ينطق بأشكال من الخطابة غيبها صماً. فقد خرجت كلماته بلهجة رتيبة جارحة مستهجنة.

"أمر طبيعي يا صاحب السعادة، فكلنا أخوة في الإسلام" قال الجنرال حسني برزج.

حدق رفيقه، علي صفر، مطولاً وبقوة في كندوكوف، الروسي باللباس المدني. كان بمقدور كندوكوف أن يشعر بعيني الرجل تحفران فيه. أدرك أنه بالنسبة لهذا الشركسي، فأن كندوكوف يمثل

الخيانة في أحقر أشكالها: فقد انحاز إلى صف الروس وأصبح مسؤولاً عن موت بني جلدته.

كان علي صفر قائد حملات وصاحب تجربة عميقة، أشيب الشعر، طويل القامة مثل رفيقه حسني برزج لكنه بدا وكأنه أفضل حظاً منه في ميادين الحرب، إذ لم تظهر عليه أية آثار للجراح. لم يغفل كندوكوف عن أن الرجل حينما بدأ يتكلم، أخذت يده تعبث بمقبض سيفه وظهر عليه الإغراء: لا يمسك أعصابه إلا قوة الإرادة المطلقة. كانت الكراهية ترن وتتجاوب في صوته. التمعت عيناه مثل الكهرمان الأسود المصقول وهو يسأل: "كم من الوقت تستغرق زيارتكم لنا، إذا كان يحق لي أن أسأل؟ لا أقصد أن أسيء الأدب" استمر في الكلام، وهو يصارع لكبت مشاعر بغضاء رهيبة "إنني فقط أرغب في دعوتك لمشاهدة بعض الشراكسة الآخرين هنا في القسطنطينية...."

تعجب كندوكوف من كلماته، المختلفة عن أسلوبه ونهجه. بدا على الجنرال علي صفر المرض، وتكونت لدى كندوكوف شكوك حول إمكانية البحث عن جمع أية أخبار إيجابية من هذين الضابطين. فهما لن يقتنعا بأنه لا يقصد إلا الخير لأبناء قومه...

"لقد قاربت مهمتي هنا على الانتهاء، وربما أضيف أنها انتهت إلى نجاح" قال ذلك بأكثر ما استطاع من التفاؤل "والفضل في ذلك عائد لصاحب السعادة." اختص الجنرال عمر باشا بانحناءة ونظرة احترام. "ربما أمدد الاستمتاع بكرم ضيافتكم يا سيدي، ليومين إضافيين لزيارة بعض الأوسيتيين الموجودين هنا في المدينة. إنني أوسيتي كما تعلم، ومسلم متمسك بديني والحمد لله."

أعجب الجنرال عمر باشا بما يشاهده: مواطن من القفقاس في خدمة القيصر، ومسلم متمسك بأهداب الدين! أصبح على ثقة من أن هذا وضع يمكنه أن يستغله... تبادل ابتسامة مع الجنرال حسني باشا تنم عن قناعة واضحة.

"أنت على منتهى الرحب والسعة لتبقى المدة التي ترغب فيها، يا كندوكوف، وسوف نتغاضى عن حقيقة أنك ترتدي الزي العسكري الروسي في موطنك، أليس كذلك أيها السادة؟"

ضحك الجنرال حسني باشا برزج بطريقة مقنعة: حاول الجنرال علي باشا صفر أن يضحك لكنه فقد مرحه في نوبة من السعال.

"سامحني يا صاحب السعادة... يبدو أنه غبار في حلقي..." أدى التحية العسكرية وغادر الغرفة. أومأ عمر باشا إلى برزج أن بإمكانه اصطحاب الضيف والمغادرة. بسط حسني برزج ذراعاً آمرة باتجاه كندوكوف قائلاً: "تفضل أنت أولاً"، وتبع الجنرال الروسي خارجين من الغرفة.

كان علي صفر قد اختفى باحثاً عن خادم وكوب من الماء. ضبط حسني باشا وضع قفازيه وحملق فيما وراء كندوكوف بينما عاد صديقه إلى الظهور في نهاية الممر. قال بهمسة خفيفة إلى درجة أن أحداً ما كان ليعرف أنه تكلم "تعتقد أن لدينا معلومات مفيدة لك، يا كندوكوف. إذا كان الأمر يلائمك، تواجد في هذا العنوان الساعة العاشرة".

اقترب شاب تركي حاملاً صينية عليها كوبان. شرب الجنرال علي صفر الماء كله بسرعة، أعاد الكوب وترك قطعة ورق مربعة صغيرة على الصينية. التقط كندوكوف بطاقة العنوان مع كوب المرطب وقد أصابه الفضول، ثم دسها في جيبه بسرية.

في ساعة متأخرة من ذلك النهار، حضر مراسل إلى منزل شامرزا عمر، يحمل ملاحظة موجهة إلى ناخو. قال لزوج أمه "يريدني كندوكوف أن أذهب معه لزيارة بعض ضباط الجيش الشراكسة".

تمكن ناخو من خلال الأسابيع القصيرة التي قضياها معاً، من بناء الثقة بالرجل المسن، وأسرَّ إليه بالكثير من ماضيه بما فيه

مخاوفه من حملة تهجير جماعية مخطط لها بإشراف السلطات الروسية.

شعر شامرزا عمر بالحزن لسماعه تحارب ناخو، لكنه لم ينفي مخاوفه.

قال في إحدى المرات، بينما هما جالسان قرب النافورة يتحدثان في أمور شتى. "اسمع، إن لدى والدتك نصيبها من الأحزان الخاصة بها. أن تشهد مقتل والدك إمام، بينما هي حامل بطفله – أمر ليس هناك امرأة يمكنها أن تنساه أبداً... وكلما ازداد هزالها، تعاودها هذه الذكريات. إنني راغب في مساعدتك على الاستقرار هنا – سأفعل كل ما بوسعي، لكن الشراكسة كأمة ينبغي لهم أن لا يتخلوا عن أراضيهم. من الخطأ بحقهم أن يجري إجبارهم على الخروج بالقوة. لدي العديد من الأقارب والأصدقاء الذين يرغبون في البقاء في القفقاس، وذلك حقهم."

في هذه الآونة، قرأ شامرزا عمر الملاحظة التي أملاها الجنرال الأساتيني، ثم قال:

"احترس ياناخو. لقد تم تدريب هذا الرجل في موسكو. مهما يقول، فإن مصالحه ليست مصالحك."

"لا أستطيع أن أرفض الذهاب... لقد أمن لي السفر الآمن لزيارتكم ولم أره منذ قدومي إلى هنا. أولاً يعتبر رفضي الذهاب من باب قلة الأدب؟"

هز شامرزا عمر رأسه "ولكنك لا تعرف حقيقة الطبيعة المحددة لمهمته هنا، هل تعرفها؟"

غرق ناخو في التفكير. لقد نام إلى جانب كندوكوف في الجبال: لقد سمع أسبابه وكان يؤمن بأن لديه نوايا حسنة. لكن حتى الرجل الفاضل يمكن أن يزج به في الخديعة.

تتبع الإرشادات في وقت متأخر من تلك الليلة إلى فيلا تركية في حي جالاتا. كانت مسكناً لشركسية هي زوجة حسني برزج الوبيخ وأولادها. قلما كان حسني برزج يشاهد هناك أثناء دوامه الرسمي، لذلك فقد شكلت مكان التقاء سرياً ومفيداً له حتى يتكلم مع كندوكوف.

كان حسين برزج يرتدي ثوباً تركياً حريرياً ويدخن سيجاراً ضخماً. أدخل ناخو وفوجئ على الفور بأن الرجل كان يشرب البراندي، كما كان يفعل زميله، علي صفر. أجريت خطوات التعارف بسرعة: ظهر على كندوكوف السرور لحضور ناخو...

"أنا سعيد برؤيتك! هل أقاربك بخير؟"

"نعم يا سيدي. إنهم بأحسن حال."

حضر خادم إليهم حاملاً صينية مترعة بالأكواب الزجاجية. ألقى ناخو بنظرة باتجاه كندوكوف. قال الرجل "عصير فواكه" بوضوح، وأشار ناخو خفية إلى أنه يفضل نفسي الشيء.

أشار علي صفر إلى أنه يفضل أن يتولى حسين برزج الحديث. ظهرت عليه العصبية - إن لم يكن الخوف. أصيب كندوكوف بحالة من الغموض والحيرة. نظر إلى ناخو باحثاً عن انطباعاته تجاه الضابطين، لكن التعبير على وجه القباردي لم يشي بشيء.

"نريد أن نكون صادقين معك، أيها الجنرال." لم تحسن الكحول من صوت حسين برزج المتحشرج.

"إن علي باشا صفر وأنا ضابطين ذوا رتبة عالية في الجيش العثماني وعليه فإن ولاءنا في زمن الحرب لا يمكن التشكيك فيه. لكن لدينا ولاءات أخرى أكثر عمقاً تجاه شعبنا".

تدخل علي صفر، متحدثاً بصوت خفيض وكلمات سريعة "إنه ذلك الولاء بالضبط هو الذي يرغمنا على أن نخبرك بأن ما تقوم به أمر خاطئ."

"خاطئ؟" لم يستطع كندوكوف أن يصدق أذنيه.

صرح حسين برزج قائلاً "إنه لا يخدم مصالح الشراكسة. إنه يخدم فقط احتياجات الجيش العثماني."

أصيب كندوكوف بالدهشة. فهذين الرجلين ضابطين برتبة عالية في الجيش: وهما يخرقان كل قاعدة في النظام بإفشائهما آراءهما إليه بهذه الطريقة.

"أيها السيدان – أرجوكما أن تفسرا مقصدكما بوضوح أكثر. هل أنتما تقولان إنني لا أخدم مصالح المهاجرين المساكين الذين يرغبون في الاستقرار هنا؟" نظر باتجاه ناخو طالباً الدعم.

قال ناخو "استمع إلى ما لديهما بالكامل". وهو يعاني من إحساس بأنه لا يحيط كثيراً بما يجري في هذا الاجتماع.

"لاشك عندي بأن ما سيقولانه أمر في منتهى الجدية".

بدأ حسين برزج يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بقلق "لا تسئ فهمنا. نحن على ثقة بأن نواياك شريفة. لكننا نعرف حقائق السياسة. إن أبناء شعبنا الذين قدموا إلى هنا قبلاً، في العام الماضي، بالآلاف، يعانون من صعوبات جمة عظيمة. إن شبابهم يجري تجنيدهم في الجيش ويشحنون إلى الأقاليم القصية. أما بالنسبة للنساء......"

تدخل علي صفر "إننا خجلان من التحدث في الموضوع. يستغل الأتراك سوء أوضاعهن ويبيعون البنات الشركسيات إلى نير العبودية. يجري بيعهن مثل الأفارقة في الأقاليم القصية حيث لا توجد لهن حماية تذكر."

شعر كندوكوف بالانفراج الفوري "آه، أرى ما ترميان إليه! ولا داعي لأن تقلقا أيها السيدان. لأن الجنرال عمر باشا نفسه قد بحث معي هذه الإساءات وهذا هو بالضبط سبب وجودي هنا. لتأسيس اتفاقية رسمية بين الحكومة الروسية والعثمانيين. نحن نريد

لهذه العملية بكاملها أن تنفذ بأسلوب أفضل تنظيماً – حتى يتمكن شعبنا من البدء بحياة جديدة – حياة صحية متكاملة على الطريقة الإسلامية....."

بدأ قلب ناخو يخفق بعنف. فقد جاءت هذه الأخبار تأكيداً لأسوأ مخاوفه، وبدت وعود كندوكوف ليس فقط فارغة ولكنها خطيرة. لم يجرؤ على التكلم. حدق الجنرالان الشركسيان في بعضهما بعضاً. تغضن وجه حسين برزج وهو يتناول جرعة أخرى من البراندي. واضح أنه لم يكن بدوره مقتنعاً.

قال بحزم "آسف، أيها الجنرال. ولكننا نرى الأمر على حقيقته. نحن نرى أنه تم تضليلك باحتراف وخبرة. فلا تركيا ولا روسيا تهتمان برفاهية الشراكسة. إن روسيا تريد أن تستولي على أراضينا وتركيا بحاجة إلى المقاتلين الشراكسة لتوسيع جيوشها. تلك هي الحقيقة التي تقف خلف "اتفاقك" المشين".

ردد علي صفر أصداء كلماته "يجب عليك أن تصدقنا! إذا كنت راغباً فعلاً في خدمة شعبك. أي من الشعوب الجبلية، سواء كان أوسيتياً أو شركسياً أو قبائل مسلمة، فبالتأكيد، وأنت تعرف هذه الحقيقة – ستفعل كلما تقدر عليه لتخلق صعوبات أمام القبائل في مغادرة أراضي وطنها. ألغ اتفاقيتك!"

خطا علي صفر نحو الشباك ونظر إلى الخارج. أشار إلى الرجال بالتوقف عن الكلام بينما كانت مجموعة من الأتراك تتلكأ، وقد انهمكت في المحادثة في الشارع الواقع تحتهم.

خفض كندوكوف صوته. "أنا آسف أيها السادة – الأخوة. فأنا لا أرى الأمر حسب طريقتكم. صدقوني، إنني أفعل ما يمليه عليه ضميري.... إنني هنا لأتمم مهمتي. هناك الآلاف الكثير من شعبنا ينتظرون نتائج هذه الرحلة. أنا آسف."

ران الصمت على حسين برزج، وقد امتلأت تعبير وجهه بالاحتقار. رأى كندوكوف ذلك. إنهما لن يصدقا أبداً أنه يعمل من أجل رفاهية شعبه – فقد رأيا فيه مجرد أداة في يد الروس.

لكنه كان يعرف أن الشراكسة لن ينتصروا مطلقاً. فقد علمته روسيا منذ أيام صباه: جعلت منه جندياً خريجاً من الكلية الحربية، علمته السياسة، علمته الحقائق عن خارطة الدنيا الأكبر بكثير. وعليه فهو يثق بصانعي السياسة في سانت بطرسبرج والقيادة العليا للجيش في موسكو – ألم تجر معاملة شامل بكل كرامة واحترام منذ استسلامه للقيصر؟

ليس الروس وحوشاً – خاصة جنودهم. إنهم شجعان، مخلصون، ولديهم إحساس عميق بالواجب واحترام للمهمات. لقد سمح لكندوكوف والعديد من أمثاله في الجيش أن يحافظوا على دينهم وممارساتهم الإسلامية. وذلك يثبت صحة آرائه فيهم.

قال حسين برزج بإطلاق نداء أخير.

"على الأقل، تحدث مع بعض الآخرين من أبناء شعبك القاطنين هنا في هذه المدينة. يوجد الكثير من الأوسيتيين هنا. قد يغير ذلك رأيك. وتذكر – لقد قيل لك كل هذا بمنتهى السرية والتكتم. إن ظهور بعض الأفراد الذين يحتلون مناصب رفيعة وموثوقة مثلنا بمظهر الناكر لجميل العثمانيين لا يخدم قضيتنا."

"أمر طبيعي. لا حاجة بكما للقلق. كل ما قيل هنا تم قوله بين الأخوة."

"وأنت أيضاً، يا ناخو. هل تفهم؟" تحدث إليه حسين برزج بحدة. شعر ناخو بالإساءة إليه في البداية، لكنه أدرك أن هؤلاء الرجال يشعرون بالفزع ولا يمكنهم أن يثقوا بأحد من مجرد منظره، حتى لو كان أديغه مثلهما. ففي نهاية الأمر، فهما لم يلتقيا به من قبل أبداً.

"يستحسن أن أغادر" جاءت نبرة كندوكوف مختصرة، وقد خاب أمله من هذه الانتكاسة، ومغموماً من عدم مصداقية ما قيل. "هل أنت قادم، يا ناخو؟"

قال بلباقة "إن عربة زوج أمي تنتظرني. سوف أذهب بطريقي الخاص."

تردد كندوكوف. كان سيقول المزيد لناخو، حتى يقنعه بأن لا يأخذ بكلام الجنرالين الشركسيين على محمل الجد أكثر مما ينبغي، لكن اللحظة لم تكن ملائمة. استأذن في الانصراف بعجالة. فإن مثل هذا الكلام يشكل إهانة للباب العالي ومن المحتمل أن يتسبب بحصول عواقب لا يمكن التفكير بها لخطته إذا انتشرت مثل هذه الأفكار والأحاسيس. أصيب بصدمة، لكنه ظل على تصميمه للمضي قدماً رغم كل ذلك.

راقبه ناخو من الشباك بينما قام كندوكوف بلف معطف حول جسمه إمعاناً في التخفي وخطا مبتعداً باتجاه ثكنات الجيش.

ألقى علي صفر بنفسه على إحدى الآرائك "أنا لست أثق بذلك الرجل. لقد بقي على سلم رواتبهم مدة أطول مما ينبغي بكثير."

استدار ناخو نحوه بحدة "على سلم من؟ هل تقصد السلطات العثمانية؟".

ضحك حسين برزج بمرارة وهز رأسه نفياً "حتى أنا لا يمكنني الجزم بذلك. كلا. إن كندوكوف جندي أفضل تدريبا بكثير من أن يقوم بمثل ذلك. إنه أداة في يد موسكو بكل معاني الكلمة. لم يكن الأوسيتيون انفصاليين أبداً في هويتهم كما كنا نحن على الدوام. إنهم شعب من الأقلية ومسيحيين إضافة إلى ذلك، معظمهم على أية حال. لذلك فإن التآمر مع "الجاور" يناسبهم.

سلّم ناخو بهذه الحقيقة "لكن كندوكوف صادق في رغباته أيها السادة. لقد أمضيت معه وقتاً طويلاً وأستطيع أن أشهد أيضاً على أنه مسلم متمسك بدينه. ولكن، إذا سمحتما لي بالتحدث بحرية...."

تبادل الضابطان لمحات سريعة. لقد أفلت الأمر من يدهما بطريقة ما. لقد قاما بإطلاق نداءهما إلى كندوكوف، ولم يكن هنالك المزيد مما يمكن المخاطرة به. لقد تخلف ناخو: أخذا ينظران إليه على أنه شخص مستقل مع استمراره في الكلام، وليس واقعاً تحت نفوذ كندوكوف.

اعترف ناخو "إن ما قلتماه الليلة يؤكد أسوأ مخاوفي وشكوكي الشخصية. لم أسافر مع كندوكوف إلا لضمان سلامتي أثناء الرحلة إلى هنا وكذلك رحلة عودتي. إنني أشعر بالامتنان لاعترافكما. إن نداءكم لا يقع على آذان صماء في حالتي."

تنهد علي صفر بعمق وشرب جرعة أخرى من كاسه. لوح بذراعه في إشارة قرف باتجاه كندوكوف الغائب. "بإمكانه أن يشحن كل الأمة الأساتينية خارج بلادها إذا شاء. طالما أنه يترك الشراكسة بحالهم."

نخر حسين برزج "أنت تعرف بقدر ما أعرف أن العثمانيين لا يعرفون الفارق. فهم يعتقدون أن كل القفقاسيين الشماليين شراكسة – حتى الشيشان، بارك الله فيهم".

"يتمتع كندوكوف بنفوذ عظيم هناك أيضا، بإمكاني أن أخبركم ذلك" قال ناخو "لقد شاهدت مجموعات كبيرة من الشيشان وقد تهيأوا للرحيل متحمسين، من تأثير مركزه ورأيه".

انحنى علي صفر إلى الأمام وتكلم بهمس خشن "وهكذا، فقد فشلنا مع الأساتين. والآن، يجب أن نقلق من احتمال إفشائه سرنا. ماذا إذا قام بالوشاية عنا للوزارة؟ سنكون من الهالكين. ماذا تعتقد، يا برزج؟"

"يا علي صفر، لقد كنا ندرك حجم المخاطرة، لقد شربت أكثر مما ينبغي قليلاً ونسيت أننا اتفقنا على أن الأمر يستحق منا هذه المخاطرة." تناول الكأس الفارغة من يد صديقه

"ليس هناك الكثير مما يمكننا عمله حول الموضوع، أليس كذلك؟"

ظهر على وجه علي صفر بعض اللؤم، وهو يفرك يديه ببعضهما بعصبية. "أستطيع أن أفكر بطريقة....."

نهض ناخو واقفاً، لن يبق في ذهنه شك أن هذين الشركسيين يائسان، ليس فقط بشأن المستقبل بل على سلامتهما الشخصية. لكنه ببساطة لم يستطع أن يصدق أن كندوكوف خائن من ذلك النوع الوضيع. نعم، هو مغرور به، ولكنه شريف بشخصية وصدقه.

قال، محاولاً أن يخرج الضابطين من حالة الوجوم التي انتابتهما "لا أصدق أنكما جادان" والتي أدرك أنها ناتجة بشكل كبير عن تثبيط الهمة والكثير من الكحول. "لا تقوما بأي عمل متطرف إلى هذا الحد. إن كندوكوف لا يكسب شيئاً من خيانتكما. ما الذي يدعوه إلى القيام بأمر كهذا؟"

ظهر حسين برزج متهكماً. "أنت لا تعرف طريقة عمل العثمانيين. يا ناخو. خاصة "السيراسكير". إنه يشرف على كافة القوات العسكرية وهو يعرف أن الجيش بحاجة ماسة إلى مجندين جدد للدفاع عن البلقان. إذا قام كندوكوف بالإبلاغ عنا فسوف نصبح في عداد الأموات خلال أسبوع. وهذا الأمر يشملك أنت، يا صديقي" دفع بأصبعه في صدر ناخو لتوكيد كلامه.

لم يتحرك ناخو، بات غارقا في التفكير – شاهد حسين برزج تخوفه وابتسم – لكن ابتسامته جاءت شبيهة بتكشيرة الرجل المشنوق، مجرد خلجة، عمل ناتج عن ردة فعل. أضاف حسين، وهو يفقد حيويته "ولكن نعم، ربما. ربما من غير المحتمل أن يشي بنا." لم تخفف نبرته القدرية شيئاً من مخاوف ناخو.

بقي علي صفر على توتره وعصبيته لكنه لم يكن مستسلماً بذلك القدر، تمتم قائلاً:

"ليتني أمتلك نفس مقدار ثقتك" ثم نظر إلى أعلى باتجاه ناخو، الذي شاهد آخر بريق من الأمل في عيني الجندي العجوز.

"حسناً يا ناخو. يبدو لي، من فهمي لمجمل الأوضاع على واقعها، أن كلاً منا سيشعر براحة أكبر إذا أنهيت عملك هنا وغادرت استنبول على الفور. أقل ما يمكننا تحقيقه هو إخراجك سالماً – إننا نعتمد عليك في إحباط مخططات كندوكوف بشأن القباردي".

انتصبت قامة حسين برزج بدوره عندما سمع كلمات علي صفر "اتفقنا! كلما أسرعت بالعودة، كلما كان الضرر الذي يحققه هذا الأساتيني أقل. إن شعبنا أناس شرفاء، مستقيمون صريحون. سوف يصدقون أي شيء يقوله لهم هذا الخائن المعسول الكلام".

أدرك ناخو أن هذا الكلام صحيح. كان يتمنى في قلبه أن يؤمن بنوايا كندوكوف الطيبة. لكن الدلائل على عكس ذلك كانت تتعاظم.....

قال بصوت خفيض. "لقد كنت أخطط أن أمضي شهراً آخر هنا".

مرة أخرى، اصطدمت واجباته بمشاعره الشخصية. إن هذا الموقف في منتهى الإلحاح والعجلة، ومع ذلك فقد كان يرغب حقيقة في قضاء بعض الوقت مع والدته. مجرد وقت قصير. كرر القول "يجب أن أفكر، يجب أن أفكر".

عندما رفع رأسه لينظر إلى الجنرالين الشركسيين، وجدهما صامتين، بائسين، ومتعبين أكثر من القدرة على مناقشة أكثر من ذلك.

شعر ناخو بالخجل لأنه وضع مشاعره الشخصية الخاصة قبل حاجات شعبه بينما كان هذان الرجلان يخاطران بحياتهما. أدرك

لحظتها أنه لأجل خاطرهما، ينبغي عليه أن يغادر استنبول بأسرع ما يمكنه تدبير سفره.

***

على الرغم من كل نواياه للسفر، إلا أن ناخو تكاسل في بيت أمه. فقد سره أن يرى أن ستناي تزداد حماساً وقوة في كل يوم يراها فيه. بدا الأمر وكأن كل الأحاديث عن القفقاس أعادت إليها روحاً أنثوية شابة. علق جميع أفراد العائلة على تلك الظاهرة، بما فيهم أصغر أبنائها، برهان. كانوا مجتمعين كلهم، يتناولون حلوى العسل ويشربون الجلاب في الحديقة الواقعة خلف البيت البني، الذي يفوح في أرجائه أريج الياسمين.

قال برهان "لقد جئت بالحمرة المزدهرة إلى خديها، نحن ننسى أنها كانت فتاة ريفية قبل أن تجيء إلى استنبول"

"نعم، وكانت طاهية ممتازة، وحائكة ماهرة –وتمتلك جميع مواهب المرأة الشركسية الأصيلة، من كافة الاعتبارات والنواحي. هكذا كانت جدتي نورسان تقول لي باستمرار".

ناكفها إسماعيل قائلاً "والآن كل ما على أمي أن تفعله هو أن تأمر الخدم بإحضار الأشياء من البازار"

ظل ناخو يجسد الدبلوماسية، فقال بجدية "ما أردت أن ألمح إلى أن حياتها هناك كانت أفضل".

أمسكه برهان من ذراعه "لديك مكانة خاصة في قلبها، يا ناخو. وهذا أمر منطقي – فقد كنت وليدها البكر. إننا في غاية السعادة بوجودك معنا هنا. إن رؤية أمنا في هذه الحالة أمر مدهش بديع".

"مسكينة نورسان" تذكرت ستناي المرأة الجميلة الغامضة المليئة بالأسرار التي كانت طيبة في معاملتها لها. "وماذا حل بالأخ الآخر، ذلك الذي عاد إلى منطقة الكوبان؟"

"تقصدين عظمات؟ لقد ورث حصة العائلة الأصلية من الأمير. أعتقد أن لدينا العديد من الأقارب ذوي الدرجة البعيدة ما زالوا يعيشون في ذلك الإقليم في شيء من الأمان، على ما يبدو."

طلب منه إسماعيل "اشرح لنا الصلة..." وهكذا شرح ناخو مرة أخرى شجرة عائلة أحمد الكوباني، أولاده الثلاثة، كازبك، عظمات وانور، كيف أصبح كازبك بطلاً وحارب مع الشابسوغ، وكيف أن أنور ما يزال حياً ويدير مزرعة الاستيلاد التي تملكها العائلة مع أولاده العديدين، وكيف قام الابن عظمات، حسب تقاليد الأديغه العريقة، بالخروج عن العائلة ليبني لنفسه حياة في زاوية أخرى من الجبال، وأصبح وريثاً لثروة هائلة.

قال إسماعيل "حسناً، إن ذلك يثبت المثل القديم القائل- "إن الرجل الذي لا يتحرك من جانب مدفأته يخرج ويعود بجثة ضفدعة وهو يظن أنها أعجوبة. بينما يعثر الرجل الذي يسافر بعيداً على كيس من الذهب لنفسه".

وقتها غرق كل من ناخو وستناي في الضحك، لأن هذه عبارة كثيراً ما كان كازبك يستخدمها. وهكذا انهمك الرجال في رواية الأمثال القباردية لتسلية أمهم وإبقاء الضوء مشعاً من عينيها.

قال برهان مناكفا لناخو "إذا أرسلت طفلاً ليؤدي مهمة، فهو بدوره سيرسلك لإنجازها. هل قالت لك أمي ذلك أبداً؟"

هز ناخو رأسه نفياً، بينما هزت ستناي قبضتها في وجه برهان.

لكن المزاح توقف تدريجياً عندما ظهر شامرزا عمر عند بوابة الحديقة. نهض إسماعيل وقد فوجئ

"لقد عدت مبكراً يا أبتِ، ألم تكن حاضراً في القصر اليوم؟"

"نعم، لقد كنت، لكن أمراً ما قد طرأ..." نظر شامرزا عمر إلى زوجته "هل تسمحين لي بأخذ ناخو معي للحظة أو اثنتين؟ إنها مجرد قضية صغيرة..."

سمحت ستناي لهما بالذهاب، لكنها أمسكت بيد إسماعيل.

"لقد حدث أمر سيء ما. بإمكاني أن أشعر به داخل عظامي. إسماعيل، احملني وأعدني إلى سريري".

حملها إسماعيل بين ذراعيه.

اصطحب شامرزا عمر ناخو إلى مكتبه "لن يزعجنا أحد في هذا المكان...."

"لقد اكتشفت شيئاً ما في القصر. ما هو؟"

ظل ناخو لعدة أيام ينتظر حدوث هذا الأمر، بتخوف.

"ليس في القصر، يا ناخو، لا تسألني عن مصادري... لدي العديد من الأصدقاء في مراكز عليا. يجب عليك أن تغادر في الحال. يجب أن نرتب أمر عودتك إلى القفقاس".

وقف ناخو قريباً من زوج أمه في ركن ضيق "الأمر يتعلق بالاجتماع... هناك من عرف به".

وضع شامرزا عمر إصبعاً على فمه "لقد قلت لك أن الأمر يمكن أن يكون خطيراً. لقد ذكر اسمك في أحد إيجازات وزارة الدفاع. إنهم لا يعرفون علاقتك بهذه العائلة حتى الآن ولكن عندما يجري استجواب برزج وصفر، فسرعان ما ينكشف...".

"لكن كندوكوف سيبرئ ساحتهما وساحتي".

هز شامرزا عمر رأسه نفياً "لقد غادر المدينة. منذ أربعة أيام مضت. ربما يكون قد أخبر عنك بنفسه – كيف ستعرف؟ صدقني، هذا الأمر خطير."

"إذن يجب علي أن أحذر الجنرالين..."

سحب شامبرزا عمر نَفَسه "لا يوجد متسع من الوقت لذلك!" جاء همسه كالفحيح.

"إذا كانت هناك تهمة، فهي ستكون الخيانة العظمى! سيكون العملاء السريون التابعون للــ "سيراسكير" يراقبون الفيلا التي يملكها برزج بحلول هذا الوقت، سواء كان جنرالاً أم لم يكن! لقد قمت بحجز مكان لك على سفينة تبحر الليلة... يجب أن نكون في جالاتا خلال ساعة واحدة".

كان عقل ناخو يعمل بسرعة سببت له الدوار "لكنني لا أستطيع أن أترك هذين الرجلين بدون أن---".

استهلك شامرزا عمر آخر قطرة من ضبط النفس مع ناخو "حتى لو تمكنت من تحذيرهما، فليس لديهما مكان يذهبان إليه. إن لديهما عائلات هنا... لقد كانا يدركان حجم المخاطرة..."

وقتها تذكر ناخو النظرة الأخيرة في عيني علي صفر، وأمله في أن يقوم ناخو بكل ما يستطيع لإحباط جهود كندوكوف في القباردا.

قال شامرزا عمر، وهو يقبض على ذراعه بقوة "عليك أن تثق بي، وتفكر في الخطر الذي قد يحيق بوالدتك نفسها..."

أحنى ناخو رأسه باحترام، وأسرع مغادراً ليقدم احتراماته النهائية لستناي. وهو يدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يتسبب رحيله المفاجئ في تحطيم قلبها.

* * *

قضى الجنرال حسين باشا برزج عدة ليالٍ من الأمن والهدوء في بيته بحي جالاتا. ثمانية ليالٍ تحديداً. وكان قد بدأ يطمئن: كان كندوكوف صادقاً ونزيهاً في نهاية المطاف.

استمتع ورحب بهذه الإجازة القصيرة قبل أن يعين في باطوم بالشرق. إذ كان يجري إعادة تنظيم القوات التركية لحماية الموانئ الواقعة ما بين الحدود الروسية وسامسون بقدر أكبر من الكفاءة. وذلك تحسباً لأن يقرر الروس أن يقوموا باعتداءات على العثمانيين

عن طريق البر، خاصة وأن الأسطول التركي يمتلك الأفضلية على البحر الأسود.

ظل الجنرالات والجيوش يغيرون مواقعهم في الخفاء، مقتربين من بعضهم بعضاً أكثر فأكثر. وانطبق ذلك على الروس والأتراك بنفس المقدار، منتظرين اللحظة المواتية.

كانت شؤون حسين برزج منظمة بشكل جيد، إذ يفترض في زوجته وأولاده أن يسكنوا لدى الأقارب طيلة فترة غيابه. كل ما تبقى عليه هو إنهاء قراءة إيجازاته حول الإصلاحات العسكرية التي يفترض فيه أن يبدأ في تطبيقها. كان ممتلئاً بالفضول والحماس حول فكرة تبني نظام وحدات الفرق في المناطق عن البروسيين... ولكن هل يفترض أن يكون النظام بموجب الفرق أم الألوية؟.

لم يصل إلى أكثر من ذلك. إذ اندفع خادم مرتجف إلى صالونه، وسقط عند قدميه. "يا باشا –جنود–"

اندفع إلى داخل الغرفة نقيب من مرتب الشرطة العسكرية التركية مصحوباً بضابطين ضخمي الجثة.

كانت الأخبار التي يحملها الضابط مختصرة. "الجنرال حسين باشا. أنت مقبوض عليك. لقد تلقيت أمراً بأخذك إلى الحامية العسكرية في باكركوي انتظار لمحاكمتك عسكرياً. تفضل من هنا رجاءً."

تحرك حسين باشا ببطء. كم كان غبياً، حتى يفكر بأنه لا غبار عليه. ستة، سبعة، ثمانية أيام منذ عقد الاجتماع... مجرد اربعة أيام منذ مغادرة كندوكوف الأساتيني.

صاح قائلاً "ما معنى هذا الهراء؟" لتهدئة أعصابه. تصرف بوحي من غريزته كلياً عندما حاول أن يصل إلى مسدسه عبر طاولة المكتب لكن الضابطين الحارسين أمسكا به بدون احترام من ذراعيه ووضعا الأصفاد في يديه.

فحَّ النقيب في وجهه "هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع الخونة. مهما كانت رتبهم.. يا جنرال". ثم استطرد هازئاً. "لدينا أساليب قديمة جداً، تقليدية جداً في التعامل مع الخونة... ولكنك تعرف ذلك، أليس كذلك يا جنرال؟"

اقترب الجندي التركي أكثر منه، متعالياً في طربوشه الأحمر وزيه العسكري الأنيق الأزرق المائل إلى الرمادي. احتفظ حسين باشا بالصمت. إذ لا يستحق هذا الحثالة المصاب بالرهاب من الأجانب المتبقي من العهد القديم إضاعة الكلمات سدى عليه. كان النقيب بقايا وحشية من العقلية التي أنتجت القوات الإنكشارية المرعبة – هؤلاء المنتمين إلى القوات الخاصة القديمة، مهملين في ملابسهم ووقحين، وكانوا يمثلون القانون بأنفهسم حتى أمر السلطان نفسه بحل تشكيلاتهم، وأعمى عينيه عن ذبحهم.

لكن العقلية ظلت حية. وبات من باب السخرية أنه هو، الجنرال حسين باشا برزج المنفي الإصلاحي المخلص من شعب الوبيخ – سيتم تعذيبه وشنقه من قبل بقايا أقل الكوادر العسكرية التي تتمتع بثقة السلطان العثماني وأكثرها عنفاً.

سيصعد معه الجنرال علي باشا صفر على نفس منصة الشنق حتماً. لن تحدث أية محاكمة. سيتم إخفاء موته وموت علي صفر من قبل نفس الأتراك الذين وثقوا بهم طالما أنهم كانوا مفيدين، وقادوا آخرين من نوعهم إلى نفس المصير.

بينما كان حسين برزج يقاد إلى الخارج وسط صرخات خدامه، بدأ يصلي ويدعو بشكل محموم أن يكون ناخو القباردي قد حمل تحذيره على محمل الجد، وهرب ليقول الحقيقة.

* * *

بموجب معاهدة باريس لم يكن يسمح للروس بالاحتفاظ بأية قواعد بحرية في البحر الأسود، وهكذا انتقل مركز العمليات إلى أوديسا، وهي ميناء جميل قديم يقع على مصب نهر الدنيستر، إلى

الغرب من شبه جزيرة القرم وفي مكات ملائم "للذهاب لنجده" الشعب المسيحي السلافي في أقاليم البلقان، رغم أنهم من الناحية الفنية كانوا محكومين من قبل الأتراك.

هنا كان الجنرال كوتزوبوف يقرأ تقارير حول الأعداد المتزايدة من المهجرين الشراكسة الذين يجري إعادة توطينهم في الأقاليم الغربية من الإمبراطورية العثمانية، إلى البلقان. لم تبد سياسة رؤسائه منطقية بالنسبة له. فهذه السياسة تؤدي إلى تسليم كوادر قتالية قيمة من الشراكسة إلى تركيا، وهم مقاتلون ذوي تجربة سوف يسببون له مصاعب هائلة في يوم من الأيام. يحتمل أن يكون هذا آخر منصب له في الحملات الميدانية: فهو رمادي أشيب الشعر، في بداية الستينات، ويزداد إحساسه بالكبت. لم يكن يعجبه ما ينطوي عليه الوضع. فقد كان الجيش الروسي منهمكاً حالياً في محاولة احتواء الأنشطة التركية العدائية على جبهتين: إلى جهة الغرب، هنا في البلقان، وهناك في الشرق على سواحل البحر الأسود وفي بلاد الشراكسة. إذا لم يحافظوا على يقظتهم ويراقبوا سير الأمور، فسرعان ما سيصبح نصف القوات الروسية القفقاسية مقيداً في مواقع أمنية ودفاعية. وذلك لا يترك الكثير من الجيش ليقاتل به...

بدا وكأن الشراكسة يسببون المتاعب لروسيا أينما تم توطينهم، داخل الإمبراطورية أو خارجها.

لم يكن شديد السرور في مشاهدة الدور الذي يلعبه ضابط أصغر منه سناً قاتل معه في بلاد الفرس، في هذه التقارير المثيرة للحنق: الفريق الجنرال كندوكوف، الأوسيتي. ومن أجل ذلك السبب استدعاه من ميناء أوديسا عند وصوله، قبل أن يتوجه عائداً إلى القفقاس، حتى يسمع من فمه مباشرة، بشكل غير رسمي، ما الذي يخطط له بالضبط.

كان كندوكوف إنساناً محبباً إلى النفس: طويل القامة، أشقر البشرة، عريض المنكبين، حاد الذكاء. وضابط متميز. ليس خطؤه إن كان مسلماً: فالعديد من الأوسيتيين الآخرين يدينون بالمسيحية. فذلك هو ماضيه: ورغم هذا فهو ما زال عسكرياً ممتازاً. أحدث تأثيراً مهيباً عند دخوله إلى غرفة كوتزوبوف. لقد واتته الفترة التي قضاها لدى الباب العالي: فقد كانت بشرته ملوحة بلفحة صحية وظهر لائقاً وبصحة جيدة، ومزوقاً بزي لوائه الرسمي. بات كوتزوبوف مسروراً لرؤيته.

"مرحباً بك في أوديسا! أنا سعيد لكونك معنا. يا كندوكوف."

نزع كوتزوبوف الفلينة عن زجاجة الفودكا التقليدية وقدم لضيفه كأساً صغيرة من البلور.

"لقد قمت برحلة في غاية النجاح، أشكرك يا سيدي".

تكلم كندوكوف بإيجاز عن اتفاقيته مع الأتراك لغاية التهجير المنظم لعدة آلاف من شعوب القفقاس. لم يظهر كوتزوبوف الإعجاب "أنا لا أتفق معك في كل هذا على الإطلاق، يا كندوكوف. ما كان يجدر بك أن تذهب إلى القسطنطينية!"

كاد كندوكوف أن يرفع يديه يائساً. في كل مكان يذهب إليه، يقف ضده أكثر الشخصيات المثيرة للدهشة- ومع ذلك، فهذا هو هنا، يخدم الروس بمقدار مذهل بينما هو يساعد مواطنيه القفقاسيين! كانت ثقته بنفسه تتعرض لهزة عميقة...

"ولكن لماذا؟ لقد نفذت السياسة الموضوعة لحكومتنا - لقد عجلت في رحيل الشراكسة عن القفقاس - حصلت على شروط تفضيلية لهم - إنني فخور بإنجازاتي! فهل أنت تقول لي-"

برقت عينا كندوكوف الباهتتان. فقد عمل لساعات طويلة شاقة على العمل الكتابي، وهاهو كوتزوبوف، الرئيس التنفيذي للقيادة

العسكرية، بدلاً من أن يقدم له صراعاً تنظيمياً، ومحاصراً بالمشاكل المتعلقة بالمدنيين، يخبره أنه قد ارتكب غلطة!

لم يكن كوتزوبوف قد أصبح رمزاً عسكرياً راقياً بغمغمة كلماته. "الأمر هو ذلك بالضبط – السياسة الروسية الموضوعة – هي ما اعترض عليه. ما هو نفع الأرض بدون سكانها؟ ما نفع بلاد الشراكسة بدون الشركس؟ لا تحتاج روسيا إلى المزيد من الأرض الفارغة من السكان. لدينا ما يكفي من الأرض في روسيا – وكلها خالية من الناس!"

انحنى كندوكوف فوق طاولة المكتب واضعاً يديه على خاصرتيه، بينما يزداد غضبه بمرور الدقائق. وأبدى حجته: "هراء! قضية ذات مدى قصير! لدينا القوزاق والأقنان الأرثوذكس الذين يستوطنون في الأراضي..."

"نعم "الأينوجورودني" – وهل شاهدت ما يحدث للبساتين والمساطب الشركسية بعدما يرحل الشابسوغ والبزادوغ عنها؟ إنها تتحول إلى برية في مدى عامين! لا يخدم القوزاق والفلاحين الأرض بنفس الطريقة. كان الله في عوننا. لأن الأقنان المرحلين لديهم الكثير ليتعلموه...."

استمع كندوكوف إلى حجة كوتزوبوف، وهو يحاول أن يبقي مبادئه العالية والمتعلقة به في مقدمة عقله بحزم. لقد كان إيمانه هو الذي يبقيه محافظاً على طموحاته: فقد أراد لمسلمي القفقاس أن يكونوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم. كذلك، فإن "المشروع" يخدم تطلعاته الشخصية بطريقة لطيفة.

لكنه كاد يدرك أن الأرض المقهورة تعني شعباً مقهوراً. إن الإنتاجية العالية للناس هي التي تعطي للقفقاس قيمتها، وكما كان كوتزوبوف يقول. لقد تعلم كندوكوف في المدارس العسكرية الروسية العكس تماماً مما كان هذا المتمرس بالحروب يقول له. لقد أصبح على قناعة بأن أغلبية الجبليين قد أصبحت ملتزمة بالثورة

إلى درجة أنهم أصبحوا عالة على أملاك القيصر. في نهاية النقاش، دافع كندوكوف عن نفسه بقوله "إنني مجرد جندي بسيط، يطيع الأوامر، يأمرونني بالعمل وأنا أعمل. أنا لا أطرح أية أسئلة." كان بإمكانه أن يضيف أن الأتراك قد عرضوا عليه شروطاً مغرية مقابل الخدمة التي كان يؤديها لهم. لكنه لم يستطع. لأن ذلك الجزء من الاتفاقية بقي سرياً.

هزَّ كوتزوبوف رأسه بقوة. "ذلك تفسير مغرق في البساطة وأنت تعرف ذلك. لا تتظاهر بالحياء معي. أعلم أنه كان لك دور في وضع أسس هذه السياسة. لقد عرفتك لسنين طويلة ويحق لي القول بأن سياستنا – بالأحرى سياستك- خاطئة وقد كانت خاطئة منذ البداية. كان الأجدر بنا أن نحاول أن نستميل القبائل ذات الكبرياء إلى صفنا ونجعلهم جزءاً منا بدلاً من تسليمهم إلى أعدائنا. ها! سرعان ما سيصبح أطفالهم الجنود الذين سيتوجب علينا أن نقاتلهم، مراراً وتكراراً!"

قال كندوكوف بعناد "أعتقد أنني قد فعلت الشيء الصائب.." لكن حماسه كان قد فتر. أحسَّ بالحماقة. فقد كان الدافع لتصرفاته هو منظر تلك الصفوف الطويلة من الناس الذين يموتون جوعاً في محطة القطار في فلادي كافكاز. والشائعات حول الانتحارات الجماعية على الشواطئ الخالية..."

"حسناً جداً" نفض كوتزوبوف كتفيه. "ولكن فكر فيما قلته.وتذكر كلماتي".

"حسناً أيها الجنرال. سوف أفكر فيه ملياً قبل النوم." تكلم كندوكوف بسرعة، لأن رأسه يكاد ينفجر من الأفكار المتصارعة التي تزعجه.

لم يعتقد كوتزوبوف أنه يحمل سيماء رجل جاهز للنوم مطلقاً.

قال بتراجع "أمامك رحلة طويلة. لا بد وأنك متلهف على العودة إلى فلادي كافكاز..."

"إنني متلهف حقاً. الوداع، يا كوتزوبوف. أشكرك على كل شيء... من يعرف متى سنلتقي مرة أخرى".

"الوداع يا كندوكوف. ابعث بتحياتي واحتراماتي إلى فلادي كافكاز، أنتم تسمونها تيرك كاله، أليس كذلك؟"

برقت صورة في ذهن كندوكوف: لتاجر خيول قباردي شاب، ناخو من الحابساي - واقفاً في مكتبه وسط ضباب ووحل مضيق داريل. شاب واسع الحيلة ويتحدث الروسية بطلاقة وقد تمسك بموقفه بكبرياء وكرامة عظيمين عندما استجوبه كندوكوف. شاب لامع الذكاء رافقه إلى القسطنطينية لمجرد زيارة أقاربه. سيعود هذا الشاب حتماً. وهو حتماً لا يريد أن يغادر القفقاس... لن يفعل ذلك أبداً. إنه من الطراز المنتج المتعاون الذي يصفه كوتزوبوف.

وهو إلى ذلك مسلم، من الصعب عليه أن يندمج في روسيا الأم. على أية حال، فقد عرف كندوكوف أن ما يهم ناخو في قرارة نفسه أكثر من الدين هو "الخابزه" التي نشأ عليها. والتي كانت تشكل معضلة أكبر حجماً وهي ما تجاهله كوتزوبوف، وربما هو نفسه، بمنتهى الحماقة.

* * *

عقد اجتماع هائل في الأراضي المرتفعة لغرب بلاد الشراكسة، في قرية صغيرة مدمرة، ضم القوات الثائرة المتبقية. كان يفترض في القرية أن تكون مسكناً ريفياً مثالياً: فهي تحط كنسر فوق صخرة شاهقة تطل على منظر يحبس الأنفاس يشرف على الشواطئ البيضاء تحتها إضافة إلى الاتساع العريض للبحر الأسود، وكانت هذه القرية تستحم على الدوام في أنوار الفجر وأشعة شمس الغروب المتألقة، بالأحمر، والذهبي، والألوان التي تضج بالحياة: بقعة من الأرض تليق بالفردوس.

لكن فلول الشراكسة الأحرار كانوا ينتظرون في هذه اللحظة وهم في حالة من الذهول بينما انهمك قادتهم في بحث مصيرهم. في

وسط الحشد المتجمع جلس أصلان، نجل الحاج دانيل، وقد أسند ظهره إلى جذع شجرة وهو يكاد يموت من شدة الإعياء. راقب الوجهاء الكبار وهم يدخلون واحداً تلو الآخر إلى المركز الاجتماعي الكبير المبني من الخشب. كان ذلك هو "المجلس" الأخير الباعث على الإشفاق الذي تعقده القبائل الغربية – وهو إجراء تافه بالمقارنة مع اجتماعات المجالس الكبرى التي شهدها في صباه، والتي كان يترأسها منصور بك، وحضرها جد ناخو، كازبك والرجلين الإنجليزين. كان منصور بك قد انتقل إلى رحمة الله منذ زمن طويل. كل ما تبقى له من تلك الأيام المفعمة بالأمل قبل حوالي عشرين عاماً، هو حفنة من الرجال الذين كان والده قد قاتل معهم.

كان أصلان يعرف أخبارهم جميعاً: فهم الذين أبقوا الأمل المجيد لتلك الأزمنة حياً. عاد جيمس بيل إلى أعماله التجارية في القسطنطينية قبل سنين طويلة، وعاد شقيقه جورج إلى انجلترا وظل يتبرع بمبلغ من المال بين الفينة والأخرى من باب الحنين إلى الماضي، إلى أنشطة ديفيد أوركهارت. كذلك عاد جون لونجوورث، الصحفي الطويل القامة، إلى بلاده ليمارس مهنته في لندن ولم يسمع به في الدوائر الشركسية بعد ذلك الوقت.

كل تلك المغامرات، كل تلك الأعمال الجريئة، وتصل كلها إلى هذه النتيجة. أحسّ أصلان بفرح صميمي داخلي لأن أباه ليس موجوداً بينهم ليشهدها.

أدخل السيد بك، أحد قادة البزادوغ، إلى داخل قاعة المجلس محمولاً على حمالة صنعت على عجل، لم يعد قادراً على الركوب بتهوره الشهير في سالف الأزمان: عجوز، مغضن الوجه، مستلق على حمالة بسبب قلبه الضعيف، الذي يؤلمه وبسبب عدم الانتظام بعد العديد جداً من المعارك. وقف إلى جانبه صديقه وحليفه القديم في القتال، إسلام جري الأبزاخي، الذي كان قد ركب مع الإنجليزي

لونجوورث وأرغمه على أن يصك أسنانه غيظاً من الحسد على براعته في الفروسية وبرود أعصابه الرهيب.

كذلك مر من أمامه هنا الحاج حيدر حسن وكوستار أوغلو إسماعيل، المندوبان اللذان تم إرسالهما إلى انجلترا وعادا منها بحمولة سفينة من الأسلحة.

كان العديد من الأسلحة التي يحملها البزادوغ والشابسوغ من بقايا تلك الشحنة التي ما زالت صالحة للاستخدام.

جميعهم ينتظرون شامز بك، الذي حل محل منصور بك وهو شخصية ذات نفوذ عظيم بين القبائل الغربية.

أراح أصلان رأسه على جذع الشجرة، وقد نال منه الإرهاق حتى لم يعد يقوى على المراقبة، ودخل في نوم مضطرب عميق.

"لقد جاؤا" لكزه جار له ليفيق، فشاهد أصلان شامز بك ورجل دين يرتدي ملابس ثمينة يقتربان من قائمة الاجتماع. سبَّب منظر رجل الدين الذي يرتدي الأثواب التركية الغالية الثمن ويعتمر العمامة، رعدة من الخشية. تحامل على نفسه ونهض بأكثر ما يمكنه من عدم الظهور، تسلل من خلال الحشد حتى استطاع أن يحشر نفسه عند عتبة قاعة الاجتماع، بحيث يمكنه أن يسترق السمع للمداولات.

نهض شامز بك واقفاً على رجليه ببطء ليخاطب رجال المجلس، ويملي على الناس الصمت

"أيها الأخوة. تعرفون جميعكم المسار الذي تختطه هذه الحرب، ليس لدي الكثير لأضيفه إلى رسائل المبعوثين بالأمس. إن الروس يطبقون علينا من كافة الجهات. لقد أنزلوا قوات جديدة على الشاطئ وهناك قوة كبيرة تتحرك باتجاهنا من الشمال. لقد عاد المبعوث الذي أرسلته إلى الجنرال جايتمان خاوي الوفاض. لا

يرغب الروس في التفاوض حول السلام. يقولون أن الوقت متأخر جداً على ذلك.

تزايد نزول الصمت الثقيل على كافة أرجاء القاعة أثناء تدفق هذه الحقائق المريعة.

تدحرج رأس شامز بك إلى الأمام بينما هو يغمغم "لا حاجة بي لأن أخبركم بأن هذا هو اليوم الأشد صعوبة..." أشار إلى الجمهور المحتشد خارج غرفة المجلس: الجنود الجرحى والمرهقون المستلقون إلى جانب عائلاتهم القليلة الباقية على قيد الحياة.

"إن شعبنا ينتظر منا أن نقرر ما إذا كنا سنقودهم إلى العبودية أم إلى الهجرة. لم يعد بإمكاننا أن نؤجل قرارنا يوماً واحداً آخر".

نهض الإمام المعسول الكلام الجالس بين الوجهاء المستمعين واقفاً على قدميه. مسَّد لحيته البيضاء بيدين متوترتين مرتعشتين وأخذ يطلق الدعوات بصوت راعش: يا الله، نحن عبادك المخلصين. لا تحرم الخاطئين منا من رحمتك. هبنا بركاتك..." مسح رجل الدين بعينيه كبار السن والمقاتلين. خفض أصلان بصره بسرعة حتى يتجنب عينيه – لكنه رأى أن معظم الآخرين قد انحنوا حتى استقامت ظهورهم أفقيا من اليأس والتسليم. ازدادت صلاة الإمام قوة ووضوحاً وأعلن "لقد كتب الله سبحانه وتعالى المستقبل على جباهنا. يجب علينا أن نغادر هذه البلاد. هذا هو قدرنا. إن مقاومة المصير الذي قضى به الله خطيئة. لقد أجبرنا الكفار على اختيار طريق المنبوذين. سوف تقودنا هذه عبر البحر إلى استنبول.... أرض السلطان المباركة. خليفة رسولنا محمد عليه صلوات الله....."

استمر الإمام يتكلم بصوته الرفيع الواثق في نفس الوقت، بينما كان الغضب في صدر أصلان يمور ويغلي. فهل تخلف عن الرحيل، وتخلى عن عائلته، حتى يرى هذا الشيخ العجوز الذي لم

يعاني صعوبات يوم واحد في حياته، يعظهم عن اليأس والعقاب على الخطايا؟ أية خطايا؟ أهي أن يولد الإنسان من الشابسوغ؟ امتلأ فمه بالمرارة واحمرت عيناه من الدموع الغاضبة الحرى.

ظل الإمام مستمراً في هذيانه، يرسم صورة باعثة على اليأس لمستنقعات الكوبان التي تقرر أن تخصص للثوار الذين أصروا على البقاء في أراضيهم مثل بعض قبائل البزادوغ، ويتحدث بصفاقة عن "الطرق المفتوحة نحو الجنة الحقيقية على الأرض – في تركيا، طبعاً!

شعرت قلة من الآخرين بنفس مشاعر أصلان. أصبح على وشك أن يضع يديه على أذنيه، في عمل تجديفي أقرب إلى الكفر، حين دفع مقاتل آخر الناس بكتفه وتجاوزه إلى داخل الباب لينفجر في خطبة مشحونة بالعواطف. لقد قاتل أصلان إلى جانبه عدة مرات في الأشهر الماضية: رجل فاضل ثابت القلب والجنان، اسمه ناورز.

"لقد سمعنا هذه الموعظة من إمامنا لسنوات طويلة حتى الآن، ما هذا – "وأشار ناورز بيده بعنف– "أهو اجتماع رجال أم نسوة عجائز وعرافات؟"

كان بإمكان أصلان أن يستشعر وتيرة الغليان العاطفي تتصاعد في القاعة بينما كان ناورز يحدد موقف الثوار: لا استسلام، بل قتال حتى الموت–

لم يدر أصلان بنفسه إلا وهو يصرخ "إن ناورز محق! لم نكن عبيداً أبداً! أبداً!".

تعرف عجوز من الشابسوغ على أصلان– "أصلان ابن الحجي دانيل" التمعت عينا الرجل تقديراً لموقفه – وصرخ بدوره : "الأفضل لنا أن نموت على أراضينا من أن نصبح عبيداً في تركيا أو على ضفاف الكوبان!"

إلا أن الحاج حيدر بنفسه نهض واقفاً وتكلم بصوت أثقله الحزن "أيها الشاب! إنك لتخطئ الغروب ظناً منك أنه انبلاج الفجر! نحن قد وصلنا نهاية الطريق، وليس بدايتها. لقد خرج ثلاثة من أبنائي إلى القتال ولم يعد واحد منهم... تريد أن تقاتل؟" وهز قبضته العاجزة. "إذن كل ما يترتب عليك عمله هو الذهاب إلى الوادي الذي يلينا!"

انتشرت في الغرفة غمغمة مبتلاة بالهلع كأنها وميض البرق، أصاب الجمع. "إن الروس هناك! هناك! قريبون جداً!"

وتمسك أصلان بطرف الباب. كان يشعر بالدوار. مدَّ الرجل المسن الذي تعرف عليه يداً ملتوية وأسنده ثم همس له في إذنه بلطف "إثبت أيها الشاب".

استدار الحاج حيدر نحو شامز بك، وقال له بيأس "أنت زعيمنا المختار. أصدر قرارك – ولكنني أرجوك أن تصدره بسرعة."

لكن إسلام جري، وهو ما يزال في عنفوان حياته، لم يكن ليسمح للقرار بأن يتخذ بهذه السرعة. تذكر مجالس الحرب العظيمة: سخافة الآمال المعقودة، عبثية حياته، التي قضاها كلها كمقاتل. أحزنه أن النقاشات ما زالت مستعرة – أن البزادوغ والشابسوغ ما زالوا يجادلون بعضهم بعضاً.

نهض وقال ذلك كله بطريقة مقيتة، موجهاً بعضاً من هجومه على الحاج حيدر الحزين، الذي انهمك مثله في قتال لا ينتهي "أنا لست خائفاً من القول بصراحة ما يعترف به كل واحد منا لنفسه، نحن جميعاً على خطأ. ما كان يجدر بنا أن نشن الحروب على جيوش القيصر. آباؤنا من قبلنا ونحن أنفسنا – جميعنا قاتلنا وعيوننا مغمضة. لقد خدعنا وتم الإيقاع بنا من قبل السلطان ومن الإنجليز الغرباء على خوض حرب ما كان يمكن لنا أن نكسبها"

شعر شامز بك أن مزاج الحشد بدأ يتحول مبتعداً عن القرار الذي أراد أن يخرج به منهم.

"ألم تكن أنت الذي صرخ بأعلى الأصوات بيننا مطالباً بالحرب؟ ألم تساعد الإنجليز وتساعد في جلب ملح البارود والأسلحة من تركيا؟ لماذا تتكلم وكأنك مولود منذ البارحة فقط؟"

إذا كان شامز بك يهدف إلى تخجيل إسلام جري إلى حد الخضوع، عن طريق الحصول على اعتراف أكثر شمولية منه عن مثالياته غير الواقعية إلى حد ميئوس منه، فإن الخطة انقلبت إلى ضدها. لأن إسلام جري لم يكن ينوي أن يتصرف كما يريد له.

اقترح أمراً لا يمكن التفكير فيه. سلام متفاوض عليه مع الروس: "لقد كان السلطان هو الذي حركنا لدرجة الاعتقاد بأننا قادرين على محاربة روسيا! أنا لا أريد أن ألقي بثقلي كله إلى جانب "العصملي" فجأة، أدرك أصلان جدوى هذا الرأي، رغم أنه كان يستمع من خلال ضبابية الإرهاق والقلق – لقد كان ذلك في نهاية المطاف هو كل ما ظل يفعله أصدقاؤه القبارديين لسنوات. لقد قابل هذا المقاتل العظيم إسلام جري العديد، العديد من الناس. لم يكن غبياً – فقد ركب مع الإنجليز، ارتحل إلى تركيا، ورأى الكثير من الدنيا. كان الدوار يلف رأس أصلان وعلى الرغم من شدة كراهيته "للجاور" بعاطفة عميقة، إلا أنه لمح بعض المنطق في خطة إسلام جري.

السبب الذي جعله يقف إلى جانب إسلام جري للحظة، هو لهفة الإمام على ترحيلهم جميعاً عبر البحر الأسود. كان الاكتشاف الرهيب قبل سنتين، على ذلك الشاطئ قرب سوتشي، ما زال محفوراً بالنار المتقدة في ذهنه. لم يسمع ولو كلمة عن عائلته منذ اليوم الذي تركهم فيه، وهم مدفوعين قدماً من قبل القوزاق باتجاه تركيا. مدفوعين إلى الأمام، إلى مكان ما، في يوم ما، نحو مذبحة رهيبة مشابهة.

طبيعي أن ناورز استأنف الصراخ "كيف تجرؤ – كيف يجرؤ أي شخص على تقديم مثل هذه النصيحة الجبانة؟ اصمدوا وقاتلوا! اصمدوا وقاتلوا!"

لكن إسلام جري كان يمتلك عناد وتصميم رجل يدرك أن هذه هي فرصته الأخيرة ليقدم نتاج أساليب التفكير المؤلمة. "لقد فعلها الجورجيون.... إن عددهم أكبر من عددنا.... ومع ذلك لم يقاتلوا.... احتفظوا بلغتهم... احتفظوا بثقافتهم وعاداتهم...."

كان أصلان يلاقي صعوبة في الاحتفاظ بكل هذه الأفكار متجانسة داخل رأسه. كان متعباً، متعباً إلى درجة مميتة، من القتال، من الجدال، من الاستماع إلى تاريخه يعاد استظهاره. من كل شيء. كان يريد السلام فقط.

في هذه اللحظة كان الإمام واقفاً على قدميه، يداعب مسبحته ويذكر كل واحد بغضب أن الجورجيون مسيحيون، وعليه فالأمر بالنسبة لهم مختلف كل الاختلاف.....

لم يقتنع إسلام جري على الإطلاق: "وماذا في ذلك؟" قال ببرود "أنت تعرف كما يعرف كل شخص في هذه الغرفة أن أجدادنا بدورهم كانوا مسيحيون وليس قبل زمن طويل جداً! لم يكن الشراكسة على الدوام أعداءً المسيحيين في الماضي! لسنا مجبرين على ذلك....

غرقت كلماته في ثورة عارمة من الموافقة. اندفع ناورز واقفاً على قدميه وكان على وشك أن يسحب "القاما" لولا أن قفز أصلان واقفاً مع العديد من الآخرين قربه وأمسكوا به عنوة. أجبر ناورز على الجلوس. ألقى إليه إسلام جري بنظرة ملؤها الاحتقار الكامل.

لقد أثبتت وجهة نظه بطريقة عملية جداً. طالما كانت ردود فعل الرجال مثل ناورز، فإن الشراكسة لم يكن لديهم مستقبل.

أمسك أصلان بناورز بقوة وأصغى باهتمام إلى كلمات إسلام جري. ربما أثرت عليه صداقته مع كازبك وناخو بقدر غير متوازن.... لكن ما قاله إسلام جري صحيح... فإن الأتراك يعتبرون الجبليين برابرة. لقد اعتنى الروس بشامل وأسرته عندما استسلموا – وينطبق ذلك بصدق على الكثير من القبارديين والأوسيتيين، والقرشاي والبلقر... إن أهل الداغستان الآن، وبعد كل هذه السنوات من الثورة، غير معرضين للطرد من بيوتهم وأوطانهم.

همس ناورز في أذن أصلان بوحشية "هذا صحيح! لكن الروس طامعون في حقولنا وشواطئنا! من بحق الجحيم يطمع في كومة من الصخور في أفاريا؟!"

"…. إنني أفضل أن استسلم لأولئك الذين يحملون السلاح ضدي على الذين باعوني الأسلحة ورفضوا أن يقاتلوا إلى جانبي!" كان إسلام جري يختتم خطابه بهذه العبارة.

عند هذه المرحلة، كان الحاج حيدر قد وصل إلى حافة البكاء. فقد تخلى عنه المرتزقة البولنديون وجنح مقاتلوه عندما أنفق كل نقوده. دفن رأسه بين يديه. لم يكن أي من الأجانب محقاً – ولا حتى داود بك. لقد آمن بالأتراك، وقد ترك الأتراك كل هؤلاء الشباب الرائعين حتى لاقوا حتفهم. وضع كوستار أوغلو إسماعيل، الجالس إلى جانب الحاج حيدر، يده على كتفه، وشد عليه حتى يشعره بالدعم.

وصل صوت إسلام جري إلى حد الخشونة "تمسكوا بأراضيكم... إنني أتوسل إليكم أيها الأخوة".

ظهر الغضب على وجه شامز بك من هذا النداء العاطفي المطول. "هذا ليس خياراً، يا إسلام جري. إما أن نذهب إلى تركيا أو يعاد توطيننا في مستنقعات الكوبان تحت الإصبع الروسي. إذا بقينا هنا فسوف نموت".

"فإذن ليكن خيارنا هو الكوبان!" قال إسلام جري "سوف نتدبر أمورنا. سنظل على الأقل في قفقاسنا الحبيب. وسنعود في يوم من الأيام إلى جبالنا- إذا لم نعد نحن، فسيعود أطفالنا!"

اندفع شاب متجاوزاً أصلان عند مدخل الباب – فارس، يحمل رسالة إلى شامز بك، قاطع فعاليات "المجلس" بدون كياسة.

"يا شامز بك، لقد أرسلني قبطان السفن التركي لأخبرك هذا – إننا ننتظر داخل البحر منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالي. إذا لم تحضر شعبك بحلول الغد، فسوف نشرع أشرعتنا إلى مكان آخر".

استشاط شامز بك غضباً – ليس من جلافة المراسل بقدر ما هو من واقعة انكشاف أمره بشكل شبه قطعي.

صاح فيه "اخرج من هنا! اخرج! هذا مجلس للوجهاء وكبار السن ولا يسمح لك بالدخول إلى هنا!"

لكن الحشد كان قد تلقى الرسالة وبدأ يغمغم غاضباً، غير عابئ بالوجهاء ولا بقواعدهم.

"غادروا الغرفة – غادروا، أي شخص ليس عضواً في المجلس!" أمر شامز بك مسترقي السمع والشهود المتواجدين في طرف الغرفة.

إن كان يعتقد أن كلامه هذا منع أي شخص من رؤية ما يجري، فقد كان مخطئاً.

انجرف أصلان إلى الخارج بفعل اندفاع الناس مبتعدين عن قاعة المجلس. دفعه ناورز باتجاه رأس أحدهم: "هل رأيت؟ ما الذي قلته لك! إنني أشم رائحة مؤامرة! لقد قرر شامز مصيرنا مسبقاً!"

اقترب الرجل الشابسوغ العجوز الذي كان قد ساند أصلان منه "أين هو والدك، أيها الشاب؟ "الحجي" دانيل؟ كم كان رجلاً رائعاً......."

هزّ أصلان رأسه في أسى. تنهد الرجل المسن "ما الذي بقي لنا حتى نبحثه؟ البلاد محتلة، إما أن نغادر أو نستسلم. الزعماء! إنهم الملومون على كل هذا! إنهم لا يكفون عن الجدل....".

مشى نحو زوجته العجوز وبدأ يكوم بضعة رزم على ظهر حمار. راقبه أصلان أثناء ذهابه، في تكرار لرحيل أبيه وأمه العزيزين، اللذين انطلقا نحو ما أملا في أن يكون نهاية أيامهما، في سلام، بتركيا. رقد ودفن وجهه في العشب الأخضر البارد، وهو يعرف بالضبط ما سيدفع شامز بك إلى حدوثه في المجلس.

عندما خرج الوجهاء من قاعة المجلس بعد فترة من الوقت، ظل أصلان مستلقيا حيث هو.

تدافع العديد من الآخرين قدماً إلى حيث وقف شامز بك فوق جرف صخري حاد، يشير بيديه إشارات عديدة، بينما هو يشرح ما سيحدث.

تقاطرت الكلمات نحو أصلان، الذي كان حزيناً ومنهار المعنويات إلى درجة لم يستطع أن يفعل شيئاً أكثر من أن يتدحرج قليلاً إلى أحد جانبيه ويريح رأسه على مرفقه.

وجد الأمر مضحكاً، لكن مراقبته للرجل العجوز وهو يتكلم، وتضيع كلماته وسط الريح الخفيفة القادمة من البحر، لم تفعل شيئاً أكثر من التأكيد على أنه لم يكن صادقاً بل ويتعامل مع الوضع من ناحية نفعية بدون اعتبار للمصلحة العامة.

"منتصف الليل.... وقف إطلاق النار.... الأراضي الممنوحة... السلطان العظيم... السفن... ابقوا سوية... السفن..."

كان يفترض فيهم حمل أقل كمية ممكنة من الأمتعة على الإطلاق، وطعام من أجل الرحلة. كان شامز بك يحاول أن يخبرهم بأن الرحلة كلها ستكون منظمة وتحفظ كرامتهم. ضغط أصلان بوجهه في التراب وبكى.

* * *

الفصل الثاني عشر

آخر شخص توقع ناخو أن يراه مرة أخرى في قريته على الإطلاق هو الفريق الجنرال موسى كندوكوف. لكنه كان واقفاً أمامه. كان الوقت بعد ظهر يوم جمعة في أواخر الصيف بعد عودته من تركيا. كان ناخو قد أدى صلاة الجمعة في مسجد الحابسا مع الرجال الآخرين من عائلته، لكنه لاحظ توتر الناس الذي ألهاه تدريجيا عن صلاته. تجمعت همهمة وزاد حجمها تدريجياً خلف ظهره، إلا أنه أجبر نفسه على عدم التلفت إلى الوراء حتى انتهت الصلاة. عندما خرج من المسجد خلف كازبك وأنور، أصيب بالدهشة حين شاهد جمعاً كبيراً من القبارديين قد تكوّن على الضفة الخضراء لنهر التيريك.

رفع كازبك العجوز، المتكئ على كتفه، عصاه ذات العقد باتجاه الإمام، تاب أنور، قائلاً "لا عجب أنه لم يؤمنا في الصلاة اليوم. لقد كان مشغولاً....."

"اللعنة على عينيه! ذلك هو الحاكم بكامل ملابسه الرسمية وجوقته!" شتم ناخو بصوت منخفض، مما جعل الرجلين المسنين كازبك وأنور، يبتسمان.

قال أنور "نعم، حقاً، يا له من موكب مهيب" وهو يدير عينيه بعدائية على رتب الملازمين والمرافقين وخيالة القوزاق الحراس الذين اصطفوا خلف الجمهور.

- أسرع رسلان، نجل أنور وهو يتجاوزهم "ستبقون لتستمعوا، ألن تفعل يا أبت... يا حجي؟"

زمجر كازبك "لا أعتقد ذلك، لدى الوغد المتباهي حشد من الشيشان والأساتين خلف ظهره، والآن يعتقد أنه بإمكانه أن يجيء إلى هنا ويسحرنا بأكاذيبه. حسناً، أنا واحد من الناس الذين لن يستمعوا إليه".

اختار رسلان أن لا يجادل. فقد أصبح كازبك أكبر سناً من أن يقاومه أحد، على الأخص في العلن. بالإضافة إلى ذلك، فلا أحد يستطيع أن يضمن أو يتكهن، بناء على أدائه في الماضي، أن لا يقوم بهجوم عصبي ما على تاب أنور أو على الضابط الروسي، وهو إحراج كان رسلان وباقي الوجهاء يريدون أن يتجنبوه بصدق.

قال ناخو، وهو الدبلوماسي على الدوام "سآخذك إلى البيت يا جدي".

اقتاد جده بكبرياء بعيداً عن الحشد. بينما هما يبتعدان عن الحقل، كان بإمكان ناخو أن يسمع تعليقات القرويين الذين يعرفون كازبك منذ القدم. "إنه مغادر: إنه غير مهتم." كانت إهانة كازبك للحاكم العام واضحة للجميع حتى يراها، وشكلت موقف الكبرياء الأخير لمقاتل طاعن في السن.

صاح به أنور "أنا سأبقى، وأنت ارجع يا ناخو" وضحك حتى بانت نواجذه من احتمال قيام جدال.

وجد لنفسه بقعة مريحة فوق تلة صغيرة وجلس بمساعدة عصاه.

جلس الخطباء على كراسي صغيرة واطئة في وسط التجمع. أصغى أنور بانتباه إلى ملاحظات تاب أنور الافتتاحية، التي شرح فيها أن لدى حاكم التيريك خطة في غاية الأهمية يود أن يشرحها لممثلي جميع القباردييين. انشغل أنور في مسح الاجتماع بعينيه، محصياً من كان موجوداً، وأهم من ذلك، من كان متغيباً. بعد ذلك بفترة قصيرة، عاد ناخو إلى الظهور، رافعاً يده أمام جبينه تحت

أشعة الشمس الخفيفة حتى وقع بصره على عمه ودفع الناس بمرفقيه حتى وصل إلى مكان قريب منه.

همس له أنور "هل تعرف ماذا، يا فتاي؟ إن أمير الحابسا ليس موجوداً هنا، ولم يحضر "وَرَق" أي من القرى إلا القلة القليلة. لقد كان كازبك محقاً في الذهاب إلى بيته".

"وهل أنت مندهش، يا "تحمادا"، بعد كل جهودي التي أخبرتهم فيها الحقيقة حول المؤامرة؟"

التمعت عينا أنور السوداوان من الإثارة وهمس "صه. استمع إلى الإمام – ها هو ينطلق متحدثاً عن "بيت الإسلام" وخلاصنا مرة أخرى. آه، الحمد لله، لقد أنهى خطابه."

تنحى تاب أنور جانباً. سرت في جنبات الجمهور غمغمة من عدم الاقتناع بينما اتخذ الفريق الجنرال كندوكوف موقعه على المنبر في وسط الجمهور. اعترف ناخو لنفسه بأن الرجل جريء ووقح حتى يتحدث إلى تجمع من عدة مئات من العائلات الثرية، التي تمتلك الأراضي، في قلب قباردا الصغرى. أي جنون، أي تحد مذنب دفعه إلى القيام بهذا الإعلان في هذه القرية التي يقيم فيها رجل واحد هو الأكثر قدرة على تكذيبه؟

ظهر كندوكوف في هيئة جيدة، أشقر، وسيم، لائق بدنياً. كان زيه الرسمي رائعاً، ممتلئاً بالأوسمة البراقة. تحدث بلهجة قباردية سليمة "أيها الأخوة، صحيح أنني جنرال روسي. لقد خدمت روسيا جيداً كما فعل بعض من أمرائكم. ولكنني كنت على الدوام وما زلت مسلماً وقفقاسياً مخلصاً. إن هذا الزي الرسمي يعطيني الامتياز لكي أخدمكم وكل المسلمين من أمثالكم في القفقاس".

دأب تاب أنور على تمسيد لحيته البيضاء وعلى وجهه مسحة من النشاط والخفة وارتفاع المعنويات، وقد علت شفتيه ابتسامة رضى. في مؤخرة الجمهور، نخع أنور العجوز في حلقه بصوت عالٍ، ثم بصق.

استدار العديد من الرؤوس للنظر إليه. سعل أنور مرة أخرى ليضيف الإقناع إلى مقاطعته الحسنة التوقيت.

مدَّ كندوكوف يداً ملبسة بقفاز أبيض على نحو قاطع، فوضع فيها أحد المساعدين لفة من الوثائق مربوطة بشريط قانوني أحمر. عقد ناخو يديه فوق صدره. فكل هذا جزء من الملهاة الدرامية، هذا العرض العمومي للصفة الرسمية.

"لدي هنا الموافقة الكاملة للحكومة الروسية على تهجير الشعوب القباردية إلى تركيا، بدون معارضة أو ممانعة. لقد أعطيت السلطة – في الواقع، الصلاحيات الأوسع الممكنة – لاصطحاب أكبر عدد ممكن من آلاف العائلات المسلمة التي قد ترغب في الذهاب معي إلى تركيا".

زمجر أنور مرة أخرى "يبدو وكأنه يسدي معروفاً كبيراً، أليس كذلك يا ناخو؟"

قيلت هذه العبارة بصوت عالٍ بما يكفي لإزعاج العديد من المراقبين الآخرين، الذين استدار بعضهم غاضباً على سماع هذه الكلمات الخالية من الاحترام. ولكنهم عندما رأوا أن أنور هو الذي تكلم، عضوا على شفاههم.

كلهم، عدا واحد، نادى بصوت عالٍ "ومتى نغادر، أيها الجنرال؟"

ابتسم كندوكوف لهذه الملاحظة ورفع يده طالباً الهدوء، واثقاً من الاستماع إليه.

لم يستطع ناخو أن يستمر في الاستماع. فقد بدأت أذناه تنبضان من شدة غضبه. نظر حواليه إلى كل الناس الطيبين الذين عرفهم خير معرفة، أبناء مراد، قبارديون من وادي موطن والدته، البولتي المجاورين، التشيجيم، الباخسان، الميسوستي. كان قد عمل كل ما بوسعه لينشر الحقيقة كما شهد عليها. استمر كندوكوف في

إغراء الناس بكلماته التي تدرب عليها جيداً حول وعود الأراضي، خطط إعادة التوطين المنظمة جيداً، رغبات السلطان المخلصة....

كان الغضب يتجمع تدريجياً في رأس العجوز أنور مثل ضغط البخار. تعثر لكنه ناضل حتى وقف على قدميه ثم صرخ فيه "أخبرنا يا قندق موسى – لماذا أصبح السلطان على هذه الدرجة من الكرم بهذا الشكل المفاجئ؟ لماذا يفكر في الشراكسة فجأة بينما لم يرفع إصبعاً لمساعدتنا خلال السنوات الماضية في حربنا ضد أسيادك؟ أين كان الأتراك بينما كان "الجاور" والقوزاق يذبحوننا؟"

ران الصمت على الجمهور. فعل كندوكوف ما بوسعه "سوف أخبرك يا تحمادا. إن السلطان هو خليفة سيدنا وولينا، الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم. ذلك هو السبب. إنه ملزم من خلال دينه الأوحد الصادق أن يحافظ على أبنائه، وأن يهبهم الملاذ".

لكن رجلاً آخر من الباخسان لم يقتنع وكرر طرح السؤال. جاهد كندوكوف في الإجابة حتى قاطعه تاب أنور، في محاولة لإنقاذه.

أمر رجل الدين "أوقفوا هذا التشهير! لقد دأب السلطان منذ سنوات طويلة على دعوة المؤمنين لكي يرتحلوا إليه. وأنا أطلب منكم منذ سنوات أن تنضموا إليه – أن أبواب "بيت الإسلام" مفتوحة على مصراعيها على الدوام. لكن أمراءكم ونبلاءكم لا يريدون أن يستمعوا – ولماذا؟ لأنكم إذا رحلتم جميعاً، فلن يتبقى لهم رعايا حتى يسودوا عليهم!"

جلس تاب أنور بشكل مفاجئ، وهو يمسح وجهه وأحس بسرور طاغ لتمكنه من التنفيس عن كراهيته الممتدة لسنوات طويلة.

ظهر على كندوكوف شيء من الدهشة من جراء هذا الهجوم العنيف على القبارديين ذوي المكانة الرفيعة والذين ما كان ليختار أن يعاديهم هو نفسه.

أفرد يديه في إشارة اعتذار "انظروا، أنا مجرد رجل عسكري ذو أهداف محدودة. لا يمكنني أن أعلق على الأهداف السياسية العريضة لحكومة أجنبية."

نظر أنور حوله باحثاً عن ناخو، الذي ذاب وسط الجمهور بينما كان هو يصرخ، والواضح أنه لم يرغب في أن يراه كندوكوف. سحب أنور رداء التشيركيسكا الذي يرتديه ناخو "ما هي مشكلتك أيها الفتى – لماذا لا تتكلم وتسمع صوتك؟"

تصلب ناخو من شدة السخط "سأفعل في الوقت الملائم....." همس لعمه وهو يصيخ السمع بتركيز – كانت عيناه تومضان غضباً. لقد كان كندوكوف يعدهم بالهجرة معهم بنفسه – بأن يقود قافلة المهجرين بمرافقة عسكرية.

"سوف أبقى معكم على الدوام! ليست لدي نية في العودة! إنني أنوي أن أجعل من تركيا وطني!" الرجل شيطان ماكر في الإقناع المزيف.

تلقى الحشد هذا الإعلان بموجة من الضجيج. أصبح بمقدور ناخو أن يحس بأن الحشد بدأ يميل مقتنعاً. اشتعل قلبه داخل صدره وهبت فيه النار، ولكن لا، لم تكن هذه هي اللحظة المناسبة. ليس بعد، ليس بعد...

نهض أحد "الوَرْق" القلة الحاضرين، وهو من عائلة مامكغ، واقفاً على قدميه ليتكلم. هدأ الجمهور.

"ربما تكون قد أقنعت آخرين، لكنك لم تقنعني." كان الصوت المحترم يحمل في طياته السلطة. "لا أعرف فحوى "الخابزه" عند الأساتين، ولكن بالنسبة لنا، فإن التبشير بالتخلي عن الوطن هو التحول إلى خائن. لقد ظلت هذه أرضنا منذ الزمن المغرق في القدم... كيف لنا أن نعرف مدى مصداقية وثائقك؟ كيف نعرف أنك لم تقم بحياكة مؤامرات أخرى مع أسيادك في موسكو أو في

استنبول؟ يوجد بيننا من يريدوننا أن نعتقد بأن هذا الأمر ليس أكثر من كارثة جماعية."

تلا ذلك موجة من الصراخ. أصغى ناخو، حتى يستطيع أن يقرر ميل الجمهور. قرر أن نصفه يؤيد كندوكوف، ونصفه الآخر ضده. في كل ناحية من حوله، كان القبارديون الذين هم في العادة هادئون ومتزنون، يلوحون بأذرعهم ويشدون أكمام بعضهم بعضاً. كان تاب أنور في وسط تلك العمعمة يحاول أن يلقي خطبة لكن كلماته غرقت في الفوضى التي بات تهدد بالإحاطة بالاجتماع. في نهاية الأمر اكتفى تاب أنور برفع يديه وخفض رأسه، راجياً عودة النظام. صمت الحشد، من باب الاحترام.

فجأة، وقعت عينا كندوكوف على ناخو. نهض واقفاً وأشار.

"إن رجلكم النبيل المبجل على حق في أن يتحداني. إنني احترم الرجل الذي يؤدي واجبه. لكن يوجد هنا رجل يستطيع أن يشهد لصالحي. هناك – في وسطكم تماماً. إنه ناخو!"

إنشق الجمع. وقف ناخو ساكناً، يصغي إلى عبارات كندوكوف المتملقة له.

"لم تراود عائلته أية أفكار حول المغادرة. نحن كلنا نعرف عن شجاعة كازبك، عن شهرته، والاحترام الذي يحظى به وحظي به والده أحمد من قبله. إن ناخو يعرف دوافعي المخلصة، إسألوه!"

دفع أنور بقبضته في ذراع ناخو "اذهب أيها الفتى، أرهم ما تعرفه".

مشى ناخو ببطء نحو وسط الساحة، مصمماً على أن يبسط للقبارديين نوع الخيانة التي أعدت لهم، مرة واحدة وإلى الأبد. بينما كان يصعد إلى المنبر، صافحه كندوكوف بقوة – كان ناخو سيسحب يده من قبضته، لكن الأساتيني كان قد أمسكه من ذراعه.

"ها نحن نلتقي مرة أخرى، يا ناخو! أخبرهم إنني أقوم بهذا العمل من أجلهم، وليس من أجل الكسب الشخصي! وأنه ليس لدي سيد سوى ما يمليه علي ضميري!"

حدق ناخو بقوة في عيني كندوكوف. أدرك أن الرجل قد ضاع حتى من نفسه: فهو يصدق أكاذيبه نفسها.

واجه ناخو الجمهور "هذا صحيح، ما يقوله صحيح" بدأ بهدوء. "لقد ذهبت إلى استنبول لزيارة أقاربي. لزيارة أمي. أنتم تعلمون أن والدي إمام قد قتله القوزاق، وأنها تزوجت مرة أخرى وذهبت إلى تركيا حينما كنت طفلاً. لقد ساعدني الفريق كندوكوف على زيارتها. وكانت غايته لدى الباب العالي هي كما أخبركم اليوم".

بدأ الجمهور يتمتم – هل أحسّ ناخو بنبرة ارتياح بينهم؟ التقت عيناه بعيني أنور، الذي كان يحدق فيه غاضباً، غير واثق من الطريقة التي سيقلب فيها رأي الناس.

استمر ناخو في هدهدة الناس "نعم، هو صحيح...." وشرح كيف رافقه كندوكوف وعقد عدة اجتماعات مع السلطات التركية للتهيئة لعملية تهجير منظمة وخالية من العقبات. وقف كندوكوف وتاب أنور على مسافة منه إلى الوراء، عاقدين يديهما على صدرهما، في حالة استرخاء، يشعرون بأنه تم الانتصار لهما.

ثم أضاف ناخو بنعومة "ولكن" مجبراً الجمهور على أن يحبس أنفاسه حتى يسمع ما يقوله. "ولكن يتوجب علي أن أخبركم بما حدث. ذهبت في استنبول مع كندوكوف لمقابلة جنرالين شركسيين وكذلك قابلت أديغه آخرين كانوا قد هاجروا من قبل. سوف أخبركم بما رأيته، وبعدها يمكنكم أن تصلوا إلى استنتاجاتكم الخاصة. أليست هذه هي "الخابزه" عندنا في التيريك؟"

لو أن عصفوراً طار من فوقهم، لسمع كل رجل رفيف أجنحته.

سرد ناخو كل التفاصيل عما حصل: كيف خاطر الجنرالان بمركزيهما، للمطالبة بعكس مخططات كندوكوف: وكيف اختفى الجنرالان بعد مغادرة كندوكوف مباشرة، وكيف خشي زوج أمه من المؤامرة، وكيف تم إخراجه على جناح السرعة.

عاد الجمهور إلى التمتمة مرة أخرى، فرفع ناخو صوته: "لقد خاطر هذان الجنرالان الشركسيان بحياتهما ليفعلا ما فعلاه، مدركين تمام الإدراك أنهما سيعاملان معاملة الخائنين من قبل السلطان. لماذا؟ لأنهما عرفا السبب الحقيقي خلف هذا الاندفاع نحو الهجرة".

صاح فيه الجمهور مناشداً "ماذا؟ لماذا؟".

"لأن السلطان بحاجة إلى جنود جدد. كل شاب شركسي وكل شخص لائق بدنياً ممن هاجروا إلى تركيا في السنوات الخمس الأخيرة يخدم حالياً في جيش السلطان! ليس لدى العائلات أية نقود – لم تعط لهم أية أراضي، كما يقول هو! إن بناتنا يجري بيعهن للعبودية! ذلك أيها الأخوة، هو ما رأيته، وما سمعته."

انفجر الضجيج من حوله، لكن ناخو لم يكن قد أنهى خطابه. أخرج من جيب "التشيركيسكا" خطاباً بحركة استعراضية – صفحة واحدة بسيطة، غير مربوطة بأي شريط رسمي.

"هذه رسالة من شامرزا عمر، زوج أمي. هذين الجنرالين الشركسيين اللذين ذكرتهما؟ لقد تم شنقهما من قبل "جندرمة" السلطان الخاصة في غضون أيام من مغادرة فندق موسى. لقد اغتيلا لمنعهما من عدم التشجيع على هذه العملية الشريرة. هذه الهجرة!"

قفز ناخو نازلاً عن المنبر، ممسكاً برسالته عالياً، داعياً أي رجل يرغب في قراءتها إلى الاقتراب. جلس تاب أنور مصعوقاً غير قادر على الكلام. قفز الفريق كندوكوف، وقد ابيضت شفتاه من

الغضب، إلى قدميه وبدأ يثرثر مخاطباً القباردييين. لكنهم أداروا له ظهرهم عن آخرهم وتحلقوا حول ناخو متدافعين ليسمعوا المزيد.

بدأ المرافقون القوزاق يتململون في سروجهم. واستبدت العصبية بالجنود فأخذوا يعبثون ببنادقهم.

عاين كندوكوف المشهد. تفرق القبارديون، بعضهم ليتبادلون نقاشات على نطاق أصغر، وأصيب آخرون بحالة من القرف فذهبوا لفك عرباتهم وأخذ عائلاتهم إلى بيوتها. وقف في منتصف الميدان ناخو الحابساي، محاطاً بحشد آخر من المزارعين، كلهم يصغون بينما هو يردد محتويات خطاب شامرزا عمر. مرة تلو الأخرى، لكل من أراد أن يستمع.

أدرك كندوكوف أنه فقد كل مصداقية له في هذا المكان. فركب فرسه وقاد الثلة المرافقة مبتعداً، حتى لا يتسبب الذعر المجرد في الزج بهم في واقعة تنقصها الحكمة. بينما هو يمر راكباً، مرَّ بناخو وحدجه بنظرة ملؤها التقريع. أشار إليه بعصاه العسكرية وهتف قائلاً: "مهما يكن رأيك فيَّ، فإن العملية كلها مسألة وقت". ظل على موقفه المتعالي، كندوكوف، حتى النهاية.

لم تبد العملية كرد انتقامي سريع للآخرين. ضرب أنور على ظهر ناخو بفخر "أحسنت! أحسنت! لم يعد يهم إلى أين يذهب في بلاد القباردا بعد الآن، فهو لن يصل إلى أية نتيجة أبداً!"

لكن ناخو سمع ما قاله كندوكوف. ظل يستذكر كلامه في كل مرة يجيئه فيها أحد في ذلك الصيف، ليخبره بنبرة انتصار أن كندوكوف قد حاول في تجمع شعبي آخر في قباردا الكبرى وفشل. قيل له أن الحاكم حاول لمرتين آخريين، ثم انسحب.

استذكر ناخو الكلمات مرة أخرى "إنها مجرد مسألة وقت" عندما سمع أن عشرة آلاف من الشيشان والأوسيتيين قد تبعوا الفريق كندوكوف إلى تركيا، كما وعدهم، بمرافقة عسكرية كاملة.

تناقصت فرحته عندما أخبر لاحقاً بشكل رسمي أن الحاكم الروسي للقفقاس قد أعطى كندوكوف ثلاثين ألف روبل "لأجل المصاريف والخدمات المقدمة".

علقت القضية في ذهنه عندما اكتشف، من رسائل أخرى تلقاها من المخلص شامرزا عمر، أن كندوكوف قد لقي استقبال الأبطال في تركيا، وأنهم قدموا له التشريفات العسكرية التكريمية الكاملة عند الحدود البرية. ثم أعطي رتبة جنرال الجيش العثماني. ظل يخشى في مؤخرة عقله، أن يكون كندوكوف على حق.

فقد كان الموضوع مسألة مجرد وقت "بالنسبة لكل الشعب الشركسي. أصبح ناخو الآن على ثقة منه.

***

سلك شامز بك وحشد الشابسوغ طريقهم نزولاً إلى السفن الراسية في الخليج. كان أصلان يساعد الرجل العجوز الذي وقف إلى جانبه في الحشد أمام قاعة المجلس: لأنه كان وحيداً، واحتاج إلى يد تسنده على الممر الحاد المنحدر.

ثرثر العجوز أثناء نزولهما غير المنتظم على المنحدر "أين هي عائلتك، أيها الشاب؟" أين هو الحجي دانيل العجوز، بارك الله فيه؟"

قال أصلان، بما يناسب الموقف من الغموض "لقد ذهب قبلي"

هز العجوز رأسه "أعرف. لقد توفيت زوجتي في إحدى غارات الجنرال بابيتش. احترق بيتي، وذهب ابني ليقاتل – لم أسمع منه شيئاً بعد ذلك أبداً. أخذت كنتي الأطفال وذهبت مع العائلات الأخرى. لم أستطع أن أغادر... انتظرت، في حالة عاد ابني."

كان أصلان قد سمع حكايات شبيهة مئة مرة. فقال "انتبه إلى موقع خطاك هنا يا "تحمادا"

تطوع الرجل العجوز قائلاً "حَنَفْ. إن اسمي هو حَنَفْ".

تدبر الصف الطويل من المهاجرين أمر النزول عن الممر الصخري ببطء وانتشر الناس على الشاطئ. كان هناك أسطول من السفن الضخمة، ذات القعر المنبسط، راسية في المياه الضحلة للميناء – قوارب على طراز "كشيرمي" اليوناني. لم يكن أصلان يعرف الكثير عن السفن والبحر، لكن الرائحة النتنة الصادرة عن هذه السفن والتي كان يحملها إليه نسيم المساء البارد لم تكن توحي بالكثير من الثقة. لكل واحدة منها قمرة صغيرة، هي أشبه بهيكل سفينة متعفن، مركزه في وسط السطح الأمامي، وقد أصبح واضحاً أن المسافرين يتوجب عليهم أن يحشروا أنفسهم بأفضل ما يمكنهم في الفسحة الكائنة حول هذه القمرة وعلى السطح الخلفي.

سقط العديد من الشابسوغ على ركبهم فوق الرمال وحملوا حفنات منها إلى وجوههم. لكن أصلان كان قد تجاوز الحزن في هذه المرحلة. رأى خطراً داهماً هائلاً في الصعود غير المنظم وأصابه القلق من أن لا يمتلك شامز بك ولا الإمام، القوة لمنع حدوث كارثة، على الرغم من كل تخطيطهم المسبق. فقد كان الشابسوغ في حالة منهكة، هشة. ولن يحتاج الأمر إلى الكثير حتى تنهار أعصابهم ويستولي عليهم الهلع.

كذلك كان الربابنة والبحارة الأتراك لكل سفينة مصدراً محتملاً للمتاعب. عندما شاهدوا الموجة الهائلة من الناس اليائسين ذوي الهيئات المشعثة، بدأوا يصرخون بالتعليمات التي سببت الحيرة للحشد وناقضت بعضها بعضاً. كان الغسق قد بدأ يحل: سرعان ما يبدأ المد بالارتفاع. أصبح واضحاً في نظر الناس القبليين أن قاعدة السفر هي من يصل أولاً، يحظى بالسفر أولاً – وكما خشي أصلان، فقد صدرت صرخة رعب. دفع أولئك الذين لديهم الطاقة بالآخرين إلى الأمام. بما أن شامز بك قد أوصلهم إلى الطرف، فقد تساقطوا فوقه بنوع من الجنون والهستيريا.

صاح أصلان "تمسك بي جيداً، أيها الرجل العجوز!" وكان يحمل حنف على ظهره، إلى جانبه كانت امرأة شابة تحمل إلى صدرها طفلاً صغيراً وتمسك بيدها الأخرى صبياً صغيراً. بدون أن يفكر، سحبها أصلان باتجاهه، بينما كانت امرأة ضخمة الجسم تهجم باتجاههم ومعها ولدين صغيرين، كل من جانب، وتدفع بمتاعها أمامهم، بحيث كادت تطيح بالأم الصغيرة وترسلها طائرة.

بدأت المجموعة الصغيرة تخوض في المياه باتجاه أحد القوارب، مدفوعة إلى الأمام بالناس المتلهفين خلفهما. أفلت الطفل الصغير من قبضة أمه. صرخت بصوتٍ عالٍ، وقد خشيت الأسوأ على الفور. سقط حنف عن ظهر أصلان عندما اندفع إلى الأمام ليمسك بالطفل.

تحشرج صوت حنف "لا أستطيع السباحة!"، وهو يتخبط في الماء، ويختفي للحظات مرعبة، عندما تدافعت الأيدي والسيقان من حوله وفقد موطئ قدمه.

شعر أصلان بالذعر يمسك بخناقه، ولكن في تلك اللحظة وبينما هو يصارع الماء وهو نصف مختنق وقد أمسك بساق الصبي الصغير، ظهر ناورز العنيف الوحشي في الماء وأمسك بحنف العجوز من خلف ياقته كأنه قطة ضعيفة يراد تخليصها من بؤسها. فكر أصلان للحظة أن ناورز سيفعلها – سيغرق الرجل العجوز في البحر مرة واحدة وإلى الأبد، لكن ناورز استطاع أن يلقي بحنف دفعة واحدة فوق أحد كتفيه وتمكن من سحب أصلان ليوقفه منتصباً.

"إليك!" بصق أصلان كمية من الماء ودفع بالصبي الصغير وأعاده إلى ذراعي أمه. "امسكي بهما كليهما بقوة!" شكل هو وناورز حصاراً بشرياً حول هؤلاء الأغراب، الرجل العجوز، المرأة الشابة وطفليها نصف الميتين. قاموا بدفعهم وحملهم إلى الأمام نحو حافة القارب. رفع ناورز نفسه فوق الجانب وانحنى

إلى الأسفل ليأخذ طفلي المرأة منها. لكنها كانت مرتعبة في هذه اللحظة إلى درجة أنها لم تقبل بإفلات أي منهما. اضطر أصلان إلى رفعها وهي تحمل ثقل الطفلين، وتمكن ناورز بطريقة ما من إنزالها على السطح.

سقط حنف مستلقيا إلى جانبها. كان قد ضرب رأسه عندما حمله ناورز إلى السطح فسقط فاتحاً يديه ورجليه. بدأ الدم ينزف من جبينه الأبيض ذي العروق الزرقاء. ولكن رغم أنه كان مذهولاً. إلا أن حنف كان في تلك الحالة القصوى، مثل أصلان، حيث منحته الرغبة في الحياة شجاعة خارقة للطبيعة. مسح جبينه ببساطة، ثم مد يده لمساعدة المرأة الفتية وسحبها إلى جانبه إلى أمان جدار القمرة. إذ لو أنهم ظلوا قرب طرف السطح، لتعرضوا لخطر الإصابة من الناس الآخرين المتساقطين فوقهم.

عمل أصلان وناورز مثل العفاريت. وقفا عند حافة القارب، يتناولان الأطفال والأمتعة، حتى من أحضر خروفاً أو جدياً. أصابتهم الضجة التي أحدثها الناس بصراخهم بالصمم. ساء الوضع أكثر عندما بدأ البحارة في كل قارب يرفعون المراسي وينشرون الأشرعة بعد أن يطلقوا وابلاً من الشتائم.

لم يقدر أحد على أن يجنب عينيه النظر. كان هناك أناس متمسكين بجوانب القوارب، بجنزير المرساة، ببعضهم البعض. تساقط غير المحظوظين واحداً إثر الآخر، سقطوا إلى الخلف، حاموا ربما مرة أو مرتين، ثم غرقوا، غرقوا، غرقوا. رأس واحد، ثم آخر، اختفت ذراع، حتى أصبح البحر في النهاية بلا ملامح.

انهار أصلان من الإرهاق. فقد علاقته بالزمن. عندما أفاق، كانت الظلمة ما تزال سائدة. والقوارب صامتة بشكل غريب، الأمواج لا تكاد تبين. حتى الحيوانات لم يصدر عنها أي صوت. شعر بالامتنان، وغاب عن الوعي مرة أخرى.

عندما أفاق مرة تالية، كان السبب هو سماع بكاء امرأة. كانت المرأة ذات الطفلين قد أصيبت بحالة قريبة من الجنون لشدة يأسها، وكان حنف العجوز يحتضنها، ويهزها جيئة وذهاباً. فقد مات الطفل بين ذراعيها أثناء نومها. كان هناك بحار يحاول أن ينتزع الطفل منها.

فحّ فيه أصلان "ما الذي تفعله!" ثم قفز إلى قدميه وضرب البحار بقبضتيه. سرعان ما انفجرت ضجة: أمسك ناورز، الذي ما كان بعيداً أبداً عن أي نزاع، بالبحار التركي وكان على وشك أن يكسر ذراعه لولا أن فصلهما رجال آخرون.

توسل إليه أصلان "اتركها بحالها لحظات قليلة!"

بصق البحار وأطلق وابلاً من الكلمات التتارية القريبة من التركية. "يجب إلقاء جميع الجثث من السفينة حالاً! لدينا أوامر بذلك – وإلا فسوف تموتون جميعاً!"

لم يفهم أصلان ما عناه البحار بكلامه. فقد ظهر له على شكل تهديد قاس غير إنساني. حضرت العجائز وتحلقن حول المرأة الشابة. أدى الشراكسة مراسيم الجنازة حسب العادات المحترمة عبر الزمن ثم انزلوا الجسم الصغير في البحر.

في ذلك الوقت أدرك الشراكسة أنه لا شامز بك ولا الإمام قد ركبوا معهم في أي من "الكشيرمات". إذا كانوا قد ركبوا أية سفينة على الإطلاق، فقد كانوا في وسائل راحة أفضل من هذه السفن بكثير، فهذه تفوح منها رائحة الماء الآسن المتجمع في قعر السفينة وهي مليئة بالجرذان.

سرعان ما أمر البحارة الأتراك الرجال بتشكيل مجموعات تحزيم، لمعالجة الماء الذي يتسرب إلى داخل الهيكل العفن.

كثيراً ما فكر أصلان، في الأيام التي تلت بالطفل الصغير، لأنه يبدو أنه مات في آخر لحظة من الصفاء، تحت سماء تضيئها

النجوم، آمناً بين ذراعي أمه المحبة له. ذكرى فردوسية، لأن الشمس كانت تجيء مع كل فجر، ويتجدد عذابهم.

بدأ الناس مثنى وفرادى يسقطون مرضى من العطش والأمراض. كان الطعام لديهم قليلاً، ومصادر المياه الحلوة محدودة، وما من ملاذ من الشمس. مع تحرك القوارب إلى مسافة أبعد في المياة المفتوحة أصبحت نتانة رائحة المرض أسوأ باطراد. شرب بعض الرجال ماء البحر بعد أن دفعتهم الحمى والعطش إلى حافة الجنون، مما عجل في نهايتهم. أحياناً كانت تقع مشاجرات بين البحارة والمهاجرين – فيقوم البحارة بضرب الرجال لإجبارهم على رمي جثث موتاهم في البحر. ولم يكونوا يلمسون الجثث بأنفسهم مخافة أن تصيبهم الحمى.

صباح أحد الأيام، استيقظ أصلان وزحف عبر السطح كما كان يفعل دائماً باتجاه الحاجز، لينعم برؤية شيء من اليابسة. كالعادة، لم يكن هناك شيء سوى الامتداد المائي القاسي، طيور البحر، والشمس. طيور أكثر من المعتاد... بدأ اللحم على ذراعيه يتخدر.

اقترب ناورز منه. "انظر"

أشار باتجاه خلف مركبهما. أحصى أصلان: كان هناك ثلاث مراكب في أسطولهم الآن، وليس أربعة. فقد غرق أحد مراكب الموت هذه أثناء الليل، وكانت الطيور العملاقة آكلة النفايات تنقض على بقايا الطعام والأشياء الأخرى، التي تطفو فوق المياه العميقة.

بحلول هذا الوقت كان مركبهم يحتوي نصف الشراكسة الذين تعلقوا متسلقين. مات الأطفال في البداية، وكان حنف أحد العجائز القلة الباقين على قيد الحياة.

فقد أصلان علمه بالأيام، لكنه كان يعتقد أنه قد مرّ أسبوعان قبل أن يتمكنوا من إلقاء نظرة على سواحل تركيا. بدا قريباً بشكل

يدغدغ الأحاسيس، ولكن بحلول الليل، كانت اليابسة ما تزال بعيدة المنال.

أصبح في هذه اللحظة جاهزاً للنوم. زحف حنف العجوز إلى جهته، فهو مثل كل شخص آخر يصبح أكثر نشاطاً مع ابتراد الجو في بداية المساء. همس له "يا أصلان. هنالك شيء لا بد لك من معرفته."

"وما ذلك، يا "تحمادا". "

"لسنا قريبين من استنبول بأي شكل. لقد كنت أتحدث مع شخص آخر من الشابسوغ معتاد على السفر في البحر. لقد راقب النجوم – لقد اتجهنا إلى الجنوب، وليس إلى الغرب، عبر البحر الأسود...".

تكلم أصلان بغير حماس "لم يعد هناك شيء يفاجئني"

حاول المهاجرون طيلة الصباح التالي، أن يشغلوا أنفسهم "بالتوضيب". أخذت العائلات تعبث برزمها، يقلّب أفرادها ممتلكاتهم الثمينة بين أيديهم ويتمتمون وقد كاد الجوع والمرض والكآبة يذهب بعقولهم. ثم يعودون إلى التوضيب، يربطون الخيوط، ينسون ويفكونها مرة أخرى. كانت هناك صفة استحواذية غريبة لكل هذه الأنشطة، وكأنما كان الناس يحاولون أن يعيدوا إحياء بصيص من الأمل في مكان ما من أعماق أفئدتهم.

كانت المرأة الشابة التي مات طفلها تمسك بابنها الصغير في حضنها، وتحاول أحياناً، بغياب ذهن كلي، أن ترضعه. لكنه كان مفطوماً، وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن قد بقي لديها حليب تغذي به أي رضيع. انزلقت القوارب إلى مياه أكثر ضحالة مملوءة بالرمال. غرقت حفنة من الشراكسة عندما قفزت في الماء، اخطأوا في تقدير العمق وتلهفوا على الوصول إلى الشاطئ أكثر مما يجب.

كاد أصلان يضحك "لماذا؟" بينما هو يخوض في الماء باتجاه اليابسة حاملاً الأم الصغيرة وابنها بين ذراعيه. فقد أصبحا خفيفي الوزن إلى درجة لا تضايقه، وكان جسم أصلان خدراً إلى درجة ان الوزن بدا وكأنه لا شيء.

مشى حنف متخبطاً إلى جانبه "لماذا؟ ماذا تعني بقولك لماذا؟" قال بحشرجة، منزعجاً.

حدق أصلان أمامه "لماذا نحن مستعجلون لمغادرة المركب؟ يمكنك أن ترى بنفسك – لا يوجد شيء هنا. مجرد المزيد ممن هم على شاكلتنا...."

كان الشاطئ مليئاً بالجثث. على طرفه، تمكنت عصابات من المشردين ذوي الهيئات الرثة الناجين من رحلات عبور سابقة، من إقامة أبنية آيلة للسقوط من الأخشاب الطافية التي يحملها المد إلى الشاطئ، وبعض الخرق التي تحركها الريح. بينما كوَّمت عائلات أخرى حزم متاعها لتوفير بقعة صغيرة من الظل،وتزاحم أفرادها على الجهة الظليلة من الأكوام.

امتدت الرمال لمسافة أميال. لم يكن هذا شاطئاً، إنه طرف الصحراء.

بدأ أصلان ينوح "آه أيها القفقاس، تركناك من أجل هذا! أي جنون، أية خديعة! أي حقد وأي مكر من الإنسان ضد أخيه...."

بدا على حنف أنه تشرَّب قوة ونشاطاً مفاجئين. فقد انسل متخذاً طريقه بين مجموعة من الرجال، يخوضون على طرف البحر ويلعنون قدرهم. "ماذا حدث لشامز بك". كان أحدهم يصرخ "أو الإمام! أنا لم أرهما منذ أن وطئنا اليابسة."

ضحك حنف بصوت عالٍ. "ليس من المحتمل أن تراهما، يا صديقي! بإمكان الرجال الذين لديهم المال أن يأكلوا الحلويات، حتى في الجحيم!"

عرف أصلان فجأة ما يجب عليه عمله. فقد كان يفكر فيما سيحدث لأبيه، الحاج دانيل، لو أنه تمكن من الوصول إلى هذا الحد، وقد رفعت الفكرة من معنوياته. مع أنه كان غريباً تماماً عن هذه المجموعة من الرجال إلا أنه أقحم نفسه في وسطهم وأسكتهم.

"توقفوا عن هذا الهذر! هلموا بنا نساعد النساء والأطفال ليصلوا إلى الشاطئ ثم نعد مخيماً! ليس الآن وقت الكلمات ، بل العمل! إذا لم يكن لدينا قادة، يتوجب علينا أن نصبح قادة أنفسنا!"

توجه الرجال نحو الأمواج وقد شعروا بالخجل، وبدأوا يساعدون الضعفاء في مشيهم المترنح نحو الشاطئ. لم يحضر أحد لمساعدتهم. لم يشهد على هذا النزول مجرد ممثل واحد عن الدولة التركية وأصبح جلياً أنه لا توجد أية مصادر للأغذية، لا إسكان، ولا أية موارد من أي نوع.

أفرغت القوارب حمولتها بسرعة: ألقى البحارة بالناس إلى البحر وهم يستقوون على الضعيف والمريض ثم رفعوا المراسي، منسحبين بأسرع ما أمكنهم. مرة أخرى، على أطراف تركيا، غرق العديد من الأنفس.

حتى ناورز أثبت أنه مفيد في هذه الأوضاع. حلت بالناس حالة نفسية جديدة من التصميم القدري – ربما كان مصدرها جزئياً هو حالة الانفراج من الوجود على الأرض اليابسة، واحتمال وجود فرصة صغيرة للعثور على المياة العذبة ومصدر للطعام بأية وسيلة ممكنة.

بدأت النسوة بإشعال النيران من الأخشاب الطافية، لغلي مياه البحر والعناية بالمرضى. وجه ناورز والعديد من الرجال الأقوياء مهاراتهم القتالية إلى استعمالات مفيدة، مثل بناء الأكواخ. في الساعات ثم الأيام التي تبعت. امتلأ المدى الأبيض للشاطئ بعلامات هي عبارة عن حفر، ملاجئ بدائية كثيراً ما حفرت بالأيدي العارية من قبل الرجال لراحة النساء والأطفال القلة الباقين

على قيد الحياة. حمل بعض مقاتلي الشابسوغ بنادقهم ومشوا عبر الفراغ اللاهب نحو أراضي بعيدة ملأى بالأعشاب والشجيرات القصيرة بحثاً عن الطرائد. ذبح بعض من الخراف والماعز المتبقية، لتوفير أقل القليل من الغذاء لأكثر عدد يمكن إطعامه. احتفظ بباقي الماعز لتقديم الحليب للمرضى والصغار.

في غضون بضعة أيام، وبما يشبه المعجزة، دخلت إلى الشابسوغ روح من التصميم على البقاء أحياء. لقد كانوا يحيون – لا أكثر من ذلك، لكن الكثيرين بينهم عادوا مرة أخرى إلى تأدية صلواتهم.

كان حنف هو الذي تطرق إلى موضوع المقبرة. أصر عليها بقوله " أنها قضية مهمة، يفترض فينا أن نخصص مساحة معينة، وأن نحفر الحفرة عميقة جداً. وأنا أحب أن تكون هناك". أشار إلى منطقة على الشاطئ قريبة من البحر، كأنما يختار أفضل بقعة ليبني عليها بيته".

مازحه ناورز بخشونة "حسناً أيها العجوز، إذا كان ذلك هو المكان الذي ترغب بأن تدفن فيه، فذلك يناسبني جيداً. وكلما كان ذلك أسرع. كان أفضل أيها العجوز المناكد!"

أمضى أصلان وناورز الكثير من الوقت سوية. فقد قاتلا جنباً إلى جنب في مرات عديدة في الماضي، لكنهما لم يكونا قريبين أحدهما من الآخر قبلاً: كان أصلان رجلاً معتدلاً، ولد في كنف "حجي" ثري كان وجيهاً شديد الاحترام. أما ناورز فهو جوهرة غير مصقولة، أبلى في الحرب بلاء حسناً وأثرى ولم تكن له أية علاقة بأحد على ما يبدو.

لكن حتى هو كان يشعر بالإجهاد. ربما كانت عملية حفر المقبرة هي التي أشعرته بذلك، عندما بدأ يضع أوائل الجثث المهجورة على الشاطئ في مرقدها الأخير. بدأ يسعل، وكلما تكلم، بدأ نَفَسهُ ينقطع ويضطر إلى الدق على صدره ليتمكن من

الاستمرار. ما بين نوبات السعال، كان يقول "سوف اقتل شامز بك، إذا وقعت عيناي عليه في يوم من الأيام، سوف أقتله بيدي العاريتين...."

بين الفينة والأخرى، كان بعض رجال الشابسوغ يجتمعون سوية في حلقة، مدفوعين بحاجة مشتركة، ويبحثون ما يجب عمله تالياً. وكانت هذه الاجتماعات تنتهي إلى ترداد غامض لمصيرهم. إذ يقول أحد الرجال "أنا من أنصار العودة"، وكأنه يمتلك قارباً في الميناء.

قال ناورز معتداً برأيه "لقد حذرت "المجلس". بأن الأتراك لا يمكن الوثوق بهم."

قال غريب "أنت بحاجة إلى المال حتى يمكنك أن تعود! من هو الذي يمتلك المال؟"

قال آخر "ها! ومن هو الذي سيعطيك سفينة؟ هل تعتقد أن الأتراك سيسمحون لنا بأن نبسط أشرعتنا؟ الأمر واضح – لقد أبرم السلطان اتفاقية مع قادتنا لجلبنا إلى هنا.... الله وحده يعرف لماذا!"

صاح آخر "لا، أعتقد أن الأمر كله من صنع الجنرالات. لقد خططوا لهذه الرحلة الصغيرة مع شامز بك...."

تدخل أصلان "آه، لا بد وأن آخرين اشتركوا فيها، هناك المئات من الشراكسة على هذا الشاطئ. لقد خطط الجميع لشقائنا! واستفاد الجميع ما عدانا!"

ويستمر النقاش طيلة المساء، بدون التوصل إلى استنتاج، حتى يصبح كل رجل متعباً إلى درجة لا يتمكن فيها من قول أي شيء، ثم يبتعدون واحداً بعد الآخر في العتمة لينام كل إلى جوار قريبه.

صباح أحد الأيام، ربما بعد أربعة أو خمسة أيام من تأسيسهم المخيم، كان أصلان راقداً في حفرته، يفكر إنه ربما كان بصحة جيدة بما يؤهله الآن ليقترح عملاً ما.

دعا إلى مجلس لهذه الغاية بالذات من تجمع العائلات الأقرب إليه. وقال "أعتقد أنه يتحتم علينا أن نرسل اثنين أو ثلاثة من أفضل مقاتلينا لياقة بدنية كمجموعة استكشاف، ليعرفوا أين نحن، يعلم الله أنه لا بد من وجود نوع من الحياة خلف هذه المتاهة البرية."

وافقه أحدهم "تلك فكرة جيدة، على الأقل نستطيع الآن أن نرحل ومعنا تموين من الماء. لا يمكننا أن نبقى هنا إلى الأبد. وفي نهاية الأمر، نحن لدينا بنادق..."

قال ناورز وقد بدا عليه النشاط والحماس "نعم، أنا أتطوع"

اعترض أصلان "كلا، أنت لست لائقاً صحياً بما يكفي"

كان ناورز على وشك أن يشاغب حول الفكرة، حينما شاهد أحد الشابسوغ الذين تكلموا سحابة ترتفع في المدى، إلى جهة الغرب.

قال آخر مضيفاً "زوار"

ركب أربعة من الخيالة الأتراك خلال اللاجئين القاطنين على الشاطئ بخطوة جليلة فخمة. جاء في المقدمة باشا سمين يرتدي ملابس تنبض بالألوان، بينما ارتدى الآخرون طرابيش حمراء زاهية تابعة للجيش التركي.

بينما كان الباشا يقترب من مجلس الرجال، صار طبيعياً أن ينهض الشابسوغ الآخرون المتواجدون على الشاطئ بتثاقل ويتبعوه مثل طيور النورس التي تلاحق أثر قارب يمخر عباب البحر بأقصى سرعته.

وهكذا تحملق جمهور حوله ليسمعوا ما لدى الباشا ليقوله – آملين أن يكون هذا هو الخلاص.

تحركت شفتا الباشا الشهوانيتان إلى داخل وخارج فمه بشيء من القرف من منظر ورائحة الرعاع. شاهد أصلان القرف على وجه التركي: فرد عليه بنظرة من كراهيته المهلكة.

"هل يستطيع كل واحد منكم أن يفهم اللغة التركية؟" نهق الباشا بصوت حاد كشف عن ضعفه.

افترق الحشد بشكل غريزي وتقدم بضعة من الوجهاء من بين الشابسوغ إلى الأمام, لم يكن هؤلاء الرجال يتمتعون بالقوة الكافية للقيام بعمل الشاطئ لكن أصلان، وناورز وأولئك الآخرين الذين تسلموا زمام المبادرة حتى اللحظة، كانوا سعداء في رؤية الرجال المسنين يعاودون تسلم أدوارهم المستحقة لهم بصفتهم الناطقين باسم الشعب.

قال أحد المسنين "بعضنا يفهمها. ويمكننا أن نترجم للآخرين."

"حسن، جيد" قال التركي "أنا سليمان باشا، حاكم هذا الإقليم! هل كل واحد هنا مسلم؟"

أجاب الوجيه المسن، وقد تملكه الحيرة "نعم، أيها الحاكم، كلنا مسلمون. نحن شراكسة".

"إذا كنتم جميعاً مسلمين فلماذا إذن لا تذهبون إلى المسجد وتصلون خمس مرات في اليوم كما يفعل المؤمنون الأتقياء؟"

قوبل هذا الانتقاد بصمت مشوب بالذهول. ثم انطلقت غمغمة غاضبة بين الجمهور.

طبعاً، كان ناورز أول من صرخ "مسجد؟ نحن لا نعرف حتى أين تقع أقرب قرية!"

صرخ آخر "ماذا عن الأرض التي وعدنا بها!"

تقدمت امرأة وأمسكت ركاب جواد سليمان باشا المزوّق. "نحن جائعون يا سيدي. إن أطفالنا يموتون من الجوع. ليس هناك طعام ولا حليب في المسجد".

تراجع سليمان باشا باندفاع غريزي، وقد شعر بالرعب من لمستها. غضب لأنه أخذ على حين غرة، وشعر بالإهانة لأن هذه المرأة الفلاحة لمسته.

أشار إليها بسوطه "ليست هذه هي الطريقة الإسلامية. لا يسمح للنساء أن يكن بصحبة الرجال، خاصة إذا لم يكن محجبات. أبعدوا هذه المرأة!"

امتلك وجيه مسن آخر الشجاعة الكافية ليدافع عنها "ولكن يا سيدي، في بلادنا لا يتم الفصل بين الرجال والنساء. ولا يغطين وجوههن. إن تقاليدنا تختلف..."

أصيب سليمان باشا بالصرع لشدة غضبه "إنسوا أساليب الكفار! انسوا "تقاليدكم!"" قال بسخرية. "هذه ليست روسيا! يجب على النساء أن يرتدين الخمار ويجب أن لا يخاطبن الرجال".

بدأت الفتاة الشابة التي فقدت وليدها تبكي، مصدرة نواحاً طويلاً، خفيضاً، وهي واقفة خلف أصلان قريبة منه.

اكتفى ناورز من هذا الموقف، ومع أنه لم يكن يحق له أن يتكلم بينما يقوم الكبار بتمثيل شعبه، إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه. "بإمكاننا أن نرى إننا لا ننتمي إلى بلادكم. نحن نريد أن يسمح لنا بالعودة إلى بلادنا. سنغدو وممتنين لو أنك تساعدنا بتوفير السفن لعودتنا إلى بلادنا، أيها الحاكم. العديد منا جاهز – بإمكاننا أن نغادر على الفور – هذا اليوم!"

صعدت من الحشد صرخة موافقة خشنة أحاطت بالحاكم من كل جهة. تكورت شفتاه من شدة جهلهم.

رفع يديه، وصاح "الله أكبر!" مصدوماً، محنقاً "أنتم تتكلمون بالترهات! لا أحد يستطيع أن يغير ما اتفقت عليه دولتان عظيمتان في معاهدة! يجب أن تصبروا. إن تضحياتكم سوف تكافأ، وسوف تزدهر أوضاعكم...

شد عنان فرسه بقوة وجعله يدور بشكل مفاجئ، رافعاً ذيله، وبهذه الطريقة، مخلياً دائرة بحيث اضطر الشراكسة إلى الابتعاد عنه. "اسَتمعوا إليّ! باسم السلطان العظيم، خليفة رسولنا محمد صلوات الله عليه، قد أمرت بعمل قائمة بجميع الأولاد والرجال القادرين على الخدمة العسكرية. هؤلاء الذين توجد أسماؤهم على القائمة سيتم تجنيدهم على الفور. كل من يتطوع سوف يكافأ – وستنعم عائلته بحماية الدولة!"

بدأ الضباط الواقفون خلف سليمان باشا بالدفع وسط حشود الشراكسة، يفصلون الناس إلى مجموعات من بضع مئات في كل بقعة. أصيب الناس بالصدمة، واعترتهم حيرة مطبقة، والتصقوا ببعضهم بعضاً مثل الحيوانات بحثاً عن الطمأنينة والإيضاحات. بينما كانت كلمات الباشا تترجم وفهم الناس المغزى الكامل لخديعته، تصاعدت حدة وحجم المحادثات الغاضبة بينهم، لكنها كانت جميعاً تتصف بالاضطراب، وليس بالتحدي.

أطلق أصلان نظرة باردة حادة باتجاه ناورز "إذا لم نكن متأكدين قبلاً، فنحن الآن نعرف. هذا هو السبب الذي أرسل السلطان من أجله القوارب إلينا. إنه بحاجة إلى جنود لجيوشه!".

راقب سليمان باشا الرجال يتشاورون بلغتهم الأجنبية: لم يعترض إليه أحد. شعر بالسرور: لا فائدة ترجى، فليس لهم أي مخرج، وكلما كان فهمهم للموضوع أسرع، كلما كان الأمر أسهل عليهم.

قال، وهو ينفخ صدره لإعلان نهائي "أخيراً، لقد تلقينا شكاوي من القاطنين في سامسون حول بعض السرقات. إنني أحذركم – كلكم– أي شخص يلقى القبض عليه وهو يسرق الدجاج أو ما شابهه سوف يجري شنقه في ميدان البلدة!"

وقف رجال الشراكسة صامتين أزاء هذا، وقد عقدوا أيديهم على صدورهم، رؤوسهم محنية. أدارت النسوة ظهورهن - ومشت كثيرات منهن مبتعدات ببساطة عن الجمهور.

صاح الباشا: "ابقوا على هذا الشاطئ حتى نستكمل قيد الجنود من بينكم! بعدها سوف نقرر إلى أين ننقلكم".

لم يستجب أحد لتعليماته. انتظر الحاكم لحظة، مغضباً من هذه السلبية. فقد أدرك أنها لا تنطوي على الاحترام، مما زاد في كراهيته.

وقف أصلان وناورز كتفاً إلى كتف. لم يكن لدى أي منهما أية عائلة، وعليه فلم يكن هناك مفر من أنهما سيؤخذان ليقاتلا.

فجأة، خطا أصلان خطوة إلى الوراء وسط الحشد، وأمسك بشخص قريب منه "أين هو حنف؟ حنف؟ انتشرت همسته بين الحشد. في هذه الأثناء تسلل أصلان رجوعاً خلال الحشد حتى لقي المرأة الشابة مع طفلها، وهي تهزه بلطف، لم تكن تبكي في هذه اللحظة، بل كانت تدندن بأغنية حزينة لطفلها.

"انصتي إلي، ليس لدي الكثير من الوقت" همس أصلان بصوت خفيض وبسرعة، لأن أحد أفراد الدورية التركية كان يتحرك وسط الحشد على بعد عشرة أشخاص منه، وسرعان ما سيتم ملاحظته.

قالت ذاهلة "ما الذي تريده؟ لا تأخذ ابني!"

في تلك اللحظة ظهر حنف عند مرفقه. أمسك أصلان بذراعه بقوة.

"حنف، استمع إليَّ جيداً، أنا لا أستطيع أن أجعلها تفهم... يفترض فيك أن تقول أنك أبي. وإنها ابنتك وهذا الطفل حفيدك. هل فهمت؟ إذا كنت سأؤخذ إلى الخدمة العسكرية، فسوف يتم الاعتناء بك. هذه هي الفرصة الوحيدة التي أستطيع أن أهبك إياها.

فهل ستفعل ذلك؟"رفعت الفتاة رأسها، وقد فهمت الوضع فجأة."أنا لا أعرف اسمك"

"أَصلان، ابن "الحجي" دانيل.... إن حنف يتذكر عائلتي... سوف يخبرك عني"

في تلك اللحظة، لمس سوط جندي تركي كتف أصلان، فاستدار بسرعة.

قال باللغة التتارية "أنا جاهز، إنني فقط أقوم بتوديع شقيقتي.

همست له "ماريان، كان الله معك."

قبّل أصلان وليدها الصغير، وانضم إلى المجندين الذين شكلوا صفاً متعرجا لتسجيل أسمائهم.

***

رقد ديفيد أوركهارت في السرير، يملي على هارييت رسالة. كانت موجهة إلى أمير ثائر في الداغستان. يشجع فيها إعلانه لدعم الشراكسة الثوار.

"هل أنت جاهزة يا هارييت؟ لقد كتبت معظمها، إنها فقط الفقرة الأخيرة التي راجعت تفكيري فيها، وأود منك أن تضيفي لي...."

"لا تقلق، سوف أتدبر كل شيء. دعنا ننهي هذا، وبعدها يمكنك أن تستريح".

لوّح ديفيد بيده إشارة على الضيق. إن الوقت يداهمه. "التاريخ أولا بالطبع، الثلاثون من نيسان، عام 1863.. الآن.." إنني أرسل إليك راية، كما سبق وأرسلت إلى الشراكسة. إنها الراية نفسها، مع هذا الاختلاف. وهو أن النجوم التي وضعت إشارة إلى القبائل الصغيرة في الغرب، هي الآن النجوم التي تمثل الشعب كله. هنالك

ثلاثة نجوم: واحد لبلاد الشراكسة، واحد للداغستان، وواحد لجورجيا".

كتبت هارييت بسرعة. وقد امتلأت عيناها بالدموع. فقد سبق وقرأت الرسالة التي استغرقت ديفيد كامل فترة الصباح لتحضيرها. أكد فيها أنه يتوجب على رجال القبائل أن يتجاهلوا جميع الكتابات عن الحرب في صحيفة اللندن تايمز لأنها تدار من قبل السفير الروسي بشحمه ولحمه.

كان يعتقد أن بلاده قد خدعت وجرت خيانتها بنفس القدر الذي حدث مع بلاد الشراكسة.

تلقى ديفيد أوركهارت في الشهور الطويلة اللاحقة، تقارير عن المقاومة المتهاوية للشراكسة، وهو طريح الفراش معظم الوقت.

كان الجنرال بابيتش "قاهر الشابسوغ" يتحرك عبر الساحل الغربي طارداً آخر المواطنين إلى خارج بلادهم. أبيد العديد من القبائل التي تسكن السواحل مثل البشكو، أختسيبسو، أجيب والجيغيت، إبادة شبه كاملة. عندما انتشرت أخبار هذا العمل، قامت جماعة كبيرة من الشراكسة الذين تجمعوا في أبيغو، بإلقاء أنفسهم في مجري سحيق في نوبة جنون مفاجئ. بعد أن تم صدهم لأربعة أيام، أطلق الروس النار داخل المجري حتى لم يبق شركسي واحد حياً.

يوم الحادي والعشرين من شهر أيار سنة 1864، جمع الجراندوق نيكولاي، شقيق الكسندر الثاني جنوده في فسحة داخل دغل مليء بالأشجار ليقيم صلاة الشكر على هزيمة الشراكسة وأرسل برقية إلى القيصر يهنئه فيها على انتهاء الحرب.

نشر ديفيد أوركهارت في حزيران من عام 1864 عدداً من "الصحافة الحرة" يحمل على غلافه حافة سوداء من الحداد على مصير تشيركاسيا الحرة.

انهارت صحته كلياً، وغادر هو وهاريبيت انجلترا، في الشهر نفسه، إلى حبسه الاختياري في الشاليه الذي يملكه في ميليز، بسويسرا – البلد المحايد في قلب أعلى جبال أوروبا. لم تطأ قدما ديفيد الأرض الإنجليزية بعد ذلك مطلقاً.

***

أثبت زواج ناخو أنه سعيد ومثمر: فقد حملت له زوجته ديسا أربعة أبناء أصحاء في نفس الفسحة الزمنية من السنوات. جلبت له زوجته السعادة عن طريقين: أعادت إليه ثقته في مستقبله، وسره أن يرى معنويات كازبك وقد عادت إليها الحيوية، لعلمه بأن سلالته مضمونة. يبدو أن الكبار كانوا فيما يبدو على هذه الشاكلة جميعاً. أربعة أولاد أحفاد: وكلهم ذكور! لا شيء يمكن أن يدخل السرور إلى قلب شركسي أكثر من ذلك. كذلك كان كازبك سعيداً لأن لدى الأولاد الصغار أم مثل ديسا، التي لم تكن مثقلة بأفكار عن مصيرهم المحتوم مثلما كانت زوجته نورسان.

لم يكن حب كازبك لذكرى نورسان يقل بسبب مقاومتها للأمومة. فقد ثبتت صحة رأيها في نهاية الأمر. لم تكن مخاوفها نتيجة إخفاق منها في إحساسها بالواجب، أو بسبب نفسية ثائرة، مدمرة، فقد كانت نورسان على الدوام ربة بيت راقية، امرأة ذات مواهب متميزة متفوقة في الحرف وإنسانة محبة. لكن كازبك توصل إلى استنتاج مؤداه أنها موهوبة فعلاً بالرؤيا المستقبلية وأدرك منذ لحظة ولادة إمام إن المأساة تترصده.

كثيراً ما كان ناخو يراقب جده وهو يغفو على الشرفة كما يفعل الرجال المسنون على الدوام. في هذه المرة كان هناك أربعة أطفال يلاعبون كلباً صغيراً أمام الجد... ليس مجرد واحد. بات ناخو يعجب كيف يعيد إليه منظر أطفاله نسيج ذكريات طفولته بطريقة تختلف عن الاستذكار البسيط. كان يراقب ابنه البكر، المسمى حسن وهو يجعل كلبه المدلل يقفز إلى فوق محاولاً

الإمساك بعصا يحملها فيستحضر على الفور فوق لسانه، طعم الحساء الساخن الذي كانت تسيما تحضره له ولجد أبيه أحمد حتى يتعشيا سوية في يوم خريفي مائل إلى البرودة - مثل هذا اليوم بالضبط. أو قد يزحف أحد الأولاد إلى داخل الحظيرة بين أرجل أحد الأمهار، غير هياب ولا خائف تماماً مثلما كان هو في نفس العمر. كان ناخو يغمض عينيه ويتذكر جد أبيه أحمد وهو يرفعه عالياً في الهواء فوق رأسه، بحيث يشعره بالدوار والخوف، ومع ذلك يمتلئ حبوراً لأن يداعبه رأس العائلة.

لقد دفع ثمن هذه الاستمرارية. فقد كانت مزرعة الاستيلاد تتعامل حالياً مع جيرانها الروس بشكل منتظم. لقد كلف ذلك الأمر كازبك وناخو الكثير من مراجعة الروح، من أجل إيجاد طريقة للتعامل التجاري مع "العدو" - ضباط من الجيش الذي دمر حياة العديد من أقدم أصدقائهما.

لم تصل أية أخبار من الشابسوغ - لا من الحاج دانيل، ولا من أصلان، ولا من أي من الثوار الآخرين، موسى بك، أصلان جري، شامز بك... الذين كان يعتقد أنهم توفوا، بسبب صمتهم. كل ما سمعه ناخو من الضباط الروس ذوي الرتب العالية هو أن آخر القوات المتمردة قد هزمت، وأن الإقليم قد تم إخضاعه وأصبح آمناً.

انتظر ناخو بصبر بينما كان زبون جديد من بياتيجورسك يقوم بتقييم الأحصنة في الحظيرة. وقف إلى جانب المسكوفي بزيه الرسمي الأنيق، وشعر، ليس للمرة الأولى، بهجمة مفاجئة من الكراهية المكثفة نحوه. قمع ذلك الإحساس، كما فعل في مرات عديدة مشابهة.

"ربما تعتقد أن الجياد العربية صغيرة الحجم، يا صاحب السعادة" أجبر ناخو نفسه على إدارة العمل، بلغة روسية طليقة، "لكنني أطمئنك إلى أنها قوية وطويلة الاحتمال. إنها تمتلك جميع

الصفات الحميدة لخيولنا القباردين المحلية بالإضافة إلى الجمال الاستثنائي والتكوين الصلب".

ضرب الزبون، وهو رجل اسمه الكونت ستروجونوف طية بنطال الفروسية بسوط الركوب. "إنها جميلة، لا شك في ذلك. ولكن فيم نفعها، عدا عن الإعجاب بها؟"

تفحصت عيناه الرماديتان خيول ناخو، ثم تمعن في مربي الخيول بنفس الفضول. إن هؤلاء الرجال القبارديون أصحاب وسامة بلا شك. أصبح الكونت ستروجونوف مهتماً بمعرفة شيء ما عن خلفية ناخو. فقد كانت درجة اتقان ناخو للغة الروسية مفاجئة، كما كانت آدابه الراقية تشير إلى أكثر من سعة العقل العادية.

استمر ناخو في "بيع" منتجات مزرعة أحمد للاستيلاد بثقة من تدرب عليها. "لقد بعنا عشرة من جيادنا الرمادية إلى سانت بطرسبرج. وقد علمت أنها تستخدم في جر بعض العربات الأوروبية الفخمة هناك – إن المالكين معجبون بطريقة الجياد العربية ذات الخطو العالي. وكذلك فإن لدى هذه الجياد قدرة احتمال جيدة على جر العربات"

أعجب الكونت ستروجونوف بمعرفة ناخو بالأذواق الأرستقراطية. فقال بقليل من السخرية "تخيل ذلك" حدجه ناخو بنظرة باردة. "لقد بعنا كذلك عشرات من الجياد العربية إلى "ستانيتزا" المزدوك. وهي مرغوبة وشائعة بين ضباط "سلاح الخيالة". "

أخرج أحد عمال الإسطبلات جواداً رائعاً وهو يقوده – أحد أفضل أحصنة القباردين الفحول. بدا على الكونت ستروجونوف اهتمام أشد.

"هذا أقرب إلى نوع الأحصنة التي أفضلها. إنه يبدو رائعاً! كم يبلغ من العمر؟"

لم يستطع ناخو إلا أن يجد في نفسه بعض الاحترام لرجل يهتم بالجواد الكريم، فأجاب بنبرة أكثر دفئاً بقدر بسيط "سيصبح في الثامنة هذا الشتاء. إنه والد أغلب أمهار مجموعة القباردين التي عرضت أن أبيعها لك".

"جيد، هذا جيد جداً" بدا على الكونت ستروجونوف وكأنه سوف يستسلم للإغراء...

"هل ترغب في رؤية المزيد من الجياد العربية، يا صاحب السعادة؟"

"ولم لا؟" كان الكونت مهتماً بشكل جدي صادق، لذلك اصطحبه ناخو إلى جولة في الإسطبلات. لم يستغرق إتمام صفقة طيبة وقتاً طويلاً، وقبل أن يبدأ الكونت رحلة عودته إلى مسكنه على الجانب الآخر من التيريك، قدم له ناخو بعض المرطبات، جرياً على مألوف عادته.

كان كازبك جالساً في الصالون، سعيداً بسماعه نتيجة مفاوضات ناخو. تم تقديم الكونت ستروجونوف وزاد فضوله أكثر لدى سماعه لغة الرجل العجوز الروسية – المدينية الراقية بكل وضوح في اللهجة ومخارج العبارات. يوجد الكثير من التاريخ هنا، وهو ما يرغب في الحصول عليه. لكن اللحية البيضاء والأثواب البيضاء التي يرتديها هذا الوجيه تشير إلى أنه "حجي"، وسينطوي الإلحاح على شيء من انعدام اللياقة.

جامل الكونت الرجل العجوز قائلاً "إن حفيدك رجل أعمال حاذق، وليس بسيطاً! لقد باعني بعض الجياد العربية بالإضافة. حتماً لم تكن بي نية للشراء عندما قدمت إلى هنا....

ابتسم له كازبك، وعندما تكلم مطولاً، فوجئ الكونت لكونه يسمع صوتاً يحمل ذبذبات قوية متماوجة.

كان جسمه مشدوداً وواضح أنه لا يزال قوياً، برغم كل سنواته المتقدمة. لا شك في أن تاريخه كان حافلاً بالأحداث....

"أيها الكونت ستروجونوف، لقد أسدى إليك ناخو صنيعاً. ليست هناك سلالة خيول يمكن مقارنتها بالجواد العربي من حيث النوعية. لقد حسَّن موجوداتنا من الخيول على مدى أجيال حتى الآن، وسوف يستمر في التحسين. اعتبر نفسك محظوظاً..."

أجابه ستروجونوف، وهو يفكر بمبلغ الروبلات الكبير لذي وافق على التخلي عنه لتوه "لا أعرف شيئاً عن كم أنا "محظوظ"، لكنني حتماً سعيد. سوف أحاول أن أفعل ما فعلتم – أزاوج الجياد العربية مع جيادكم القباردين والأنواع الروسية الأخرى. سوف نرى!"

انحنى ناخو أكثر مقتربا من جده حتى يتأكد من أنه يسمعه "لقد اشترى ضيفنا الفحل شمَّر، ذلك المهر الذي أعطيته أنت الاسم، بالإضافة إلى خمس مهرات".

سأل الكونت "شمَّر، هل هذا اسم شركسي؟"

ما كان بمقدور ستروجونوف أن يعرف بأن كازبك كان قد قابل رجلاً من طرازه قبلاً: روسي رفيع المولد ويتمتع بذكاء يتجاوز قضايا الطبقات الاجتماعية، التربية والعرق. كان ستروجونوف شخصاً ودوداً، يوحي بالثقة. تذكر كازبك صديق العائلة الروسي، الكونت باسل فاسيليفيتش، الذي أنقذ حياته عندما كان شاباً صغير السن والطاعون الذي أطاح بشعب القباردا. كان هذا الروسي من نفس الطراز، ولكن من الطبيعي أن كازبك لم يكن ليتذكر أي شيء عن الطبيب باسل العجوز، وعليه فلم يكن الموضوع يستحق أن يذكره لهذا الرجل....

مرة أخرى، أدرك كازبك أن أحداث شبابه كانت واضحة وكأنها الأمس، بينما الأمس نفسه كان صعباً على التذكر.

أجاب كازبك "لا"، بعد توقف عن الكلام، والذي انتظر الآخرون خلاله بأدب، مفترضين أنه أصبح غامضاً بعض الشيء بسبب سنه. "الاسم عربي. إنه اسم القبيلة العربية التي أعطتني الحصان لذي نَسلَة".

ثار الاهتمام في صدر ستروجونوف. "هل زرت البلاد العربية؟"

ابتسم كازبك بنفسه: زرت البلاد العربية! لو أنك تعرف فقط، أيها الكونت!

ظهر على كازبك أنه لم يسمع: قاطع ناخو هذه المحاولة في الحميمية. "يا جدي، لقد كتبت تاريخ التوليد لسعادته." قال بسرعة، ثم استدار نحو الكونت "إن شمَّر حصان صقلاوي لأنه من نسل الأفراس الأصلية التي أحضرها جدي من بلاد العرب. بالنسبة للخيل العربية، فإن المواليد تتبع الأمهات في نسبها على الدوام".

قال الكونت "كم هذا مثير للاهتمام،" ومع هذا فقد أصيب بشيء من خيبة الأمل لأنه لم يحصل على المزيد من تاريخ العائلة. أضاف بشيء من عدم الارتياح "كل هذا جديد عليَّ. حسناً، أمامي رحلة طويلة. سوف أتوقع استلام الجياد في وقت ما من الشهر القادم – هل هذا صحيح؟"

نهض ناخو واقفاً بسرعة ووعد بقيادة القطيع شمالاً قبل نهاية الشهر، طالما استمر الطقس الجيد.

استوى كازبك في جلسته، وهو يراقب الرجلين يتحادثان ويتصافحان. أحسّ بفيضان مفاجئ من الفرح يغمر قلبه – ربما هكذا يجب أن يكون الوضع، أن يتعايش القباردي والروسي جنباً إلى جنب، بتعاون. ولكن يجب أن يتوفر عامل الاحترام المتبادل، كما هو واضح بين هذين الرجلين. ولكن هل سيكون بمقدور ناخو أن يثق بالكونت والآخرين من أمثاله؟ بعد كل الذي رآه؟.

لقد كان الأمر مستحيلاً بالنسبة لكازبك نفسه. فقد كانت لديه تجارب سيئة عديدة جداً. فقد عرف العديد جداً من الروس ذوي الأنفس الوضيعة – بدءاً بالأمراء ووصولاً إلى اللصوص الحقراء. النوعية السلافية المتغطرسة، المبالغة في الوحشية.

بدأ كازبك يجاهد للوقوف على قدميه. أمر حتمي بالنسبة له أن يكون واقفاً حتى يودع هذا الروسي إلى خارج أرضه. بدا له الأمر فجأة غاية في الأهمية، أن ينهض ويودع هذا الكونت في طريقه بكل احتفالية.

لكن الكونت ستروجونوف كان قوياً أكثر مما ينبغي بالنسبة لكازبك. فقد تطاول فوقه، وعندما تناول يده داخل قبضته القوية بلطف زائد، أخل بتوازنه، بحيث وجد كازبك أن من المستحيل عليه أن يجد في نفسه القوة أو الزخم في جسمه الهرم حتى ينهض بثبات.

قال الكونت بعطف واحترام "أرجوك يا "حجي". لا حاجة بك لأن تنهض. سوف أقوم بتوديعك هنا".

لم يتراجع التضخم في صدر كازبك. لم يجرؤ على التكلم، بل اكتفى بأن هز رأسه في كبرياء صامتة بينما كان الكونت يستأذن في الانصراف ومشى باتجاه الشمس المشرقة. تبع ناخو الروسي، بعد أن ألقى نظرة خلفية على جده، ليتأكد مما إذا كان بخير.

قال كازبك "لقد أحسنت عملاً، يا ناخو"

تنهد كازبك بعمق وعاد إلى الجلوس والغوص في وسائده. راقب الرجلين وهما يسيران باتجاه البوابة، كان الطقس دافئاً، والهواء ساكناً، يوم صيفي رائع وكان كل أهله بخير. وهو أيضاً بخير ماعدا الألم الذي بدأ ينتشر في صدره واليقين المطلق بأنه لن يحيا ليشاهد غروباً للشمس مثل هذا: خفوت جميل لا يكاد يصدق للضوء. لقد كان جاهزاً: لقد أكرمه الله. لقول الحقيقة، وهو متعب

من كثرة تذكره للأيام الخوالي. أغمض عينيه وصلى طالباً القناعة المطلقة، أن تمتزج كلها لتصبح واحدة.

عندما عاد ناخو، وجد جده مستلقياً بهدوء وسلام ووجهه ملتفتاً نحو الشمس، بينما كانت الابتسامة تبهت على شفتيه تدريجياً. جلس ناخو إلى جانب الرجل الذي يحبه، مدركاً أنه قد مات، وبكى. رفع يده واحتضنها، وهو يمسح دموعه بأصابع كازبك. كان جسد كازبك ما زال دافئاً، وذراعه ثقيلة في قبضة ناخو – ولكن ليس بالثقل الحامل للجثة.

فقد كان كازبك يمتلك المادة التي تصنع الرجل العظيم، في عروقه، عظامه، وقوته الخشنة الظاهرة في ملمس الجلد نفسه. بدا في موته مكتمل الحضور، كأنه شكل قدَّ من الصخر، إلى درجة أنه بدا كالنصب التذكاري.

* * *

الفصل الثالث عشر
وادي التيريك
1877

كان ناخو يستمتع باستراحة مستحقة له تماماً بعد أن أتم بذر ذرته الربيعية. خرجت زوجته ديسا لتحضر له طعام غذائه حسب مقتضى العادة التي تناوبت عليها الأزمان والأجيال عند الظهر، وكانا جالسين تحت شجرة صفصاف يستمتعان ببرودة ظلها. ولأن هذا تقليد محترم عبر الزمن، فقد فهم ناخو أن لدى ديسا خبراً مهماً يتعلق بالأسرة تود أن تخبره به. كانت وجبة غذاء اليوم شهية بشكل خاص – جبنة محمرة، خبز طازج وقطعة كبيرة من كعكة العسل المفضلة لديه – وكانت ديسا قد تأنقت في لباسها بعناية خاصة. منديلها الأبيض يومض في النور حول وجهها المزدهر، وهسهست العملات الفضية التي تزين قبعتها الجميلة بمرح فوق جبينها. حتماً لديها صنيع تريد أن تطلبه منه.

قال ناخو وقد انفرجت أساريره "هيا، اسمعيني". فقد كان هو وديسا صديقين في المقام الأول، لكن الذي لم يتوقعه ناخو من الزواج هو أن يعثر على كل هذه السعادة – إن لم يكن اللهو– في صحبة هذه الزوجة الصغيرة الحادة الذكاء، المفعمة بالحيوية والنشاط. وهي متعة لم يقلل مرور السنوات من روعتها.

ألقت إليه ديسا بلمحة خاطفة من عينيها السوداوين، وقالت بمرح وجذل "إنني سعيدة للغاية لأن يكون لي زوج قوي الملاحظة إلى هذه الدرجة. إنني لا أتوقف عن الدهشة أبداً من سرعتك في ملاحظة ما يجري".

نفض ناخو كتفيه وقال "هذا ذكاء طبيعي..."

ردت عليه "وهذا ما آمل أن يرثه أطفالك، إلى جانب تواضعك غير المصطنع!"

أحاط ناخو كتفيها بذراعه ثم قال" ناوليني قطعة أخرى من هذه الحلوى اللذيذة، هل أنامحق في تفكيري بأننا ربما تهل علينا البركة ونرزق بطفل مثير للاهتمام آخر مع قدوم الخريف؟".

احمر وجه ديسا خجلاً "لا أعتقد ذلك يا ناخو...."

"أنا آسف..." أنهى ناخو وجبته بهدوء ثم قبلها. "لم أقصد أن أكون وقحاً." جاء اعتذاره صادقاً "يعلم الله أن لدينا ما يكفينا لإبقائنا منهمكين طيلة الوقت".

تنهدت ديسا مرة أخرى. ابنة، تولد لها متأخرة بعد أبنائها الأربعة... كانت تحب أن ترزق بابنة أخرى حتى تشاركها سنوات شيخوختها، لكن الواضح أن الله سبحانه وتعالى قرر أمراً آخر في هذه اللحظة.

اضطجع ناخو على الحشائش، وقد استرخى كتفاه العريضان بتثاقل، بينما عيناه الزرقاوان الرماديتان نصف مغمضتين بسبب أشعة الشمس.

"الأمر في غاية الصعوبة، يا ناخو"

"ما هو ذلك الذي في غاية الصعوبة؟"

كما هي عادتها، أطلقت ديسا كل همومها في اندفاعة واحدة:

"سيعود مجيد من عند "الأتالق" في العام القادم. وحسن يقترب من سن الزواج. سوف اضطر إلى البدء في البحث عن عروس له بعد قرابة السنة".

نهض ناخو جالساً مندهشاً. فقد ظل على الدوام يعجب من قدرة النساء على التخطيط المستقبلي.

"هراء، إنه ما يزال مجرد صبي!"

وضعت ديسا يداً حانية على ذراعه "أنا لا أقول على الفور. أعلم أنني أقلق على المستقبل البعيد. لكنه أمر مهم بالنسبة لي... سوف أضطر في يوم من الأيام إلى البحث عن عرائس لكل أولادنا. لقد غادر العديد من العائلات، يا ناخو، الأمر في غاية الصعوبة...."

"مهما كان السبب الذي يقلقك، فإنه لا علاقة له بأولادنا". قال ناخو بعجالة. لم يرغب في بحث هذه القضية الحساسة مع زوجته: والحقيقة هي، أن هذا الموضوع كان الشاغل الرئيس لجميع الآباء والوجهاء في الحابساي، هذا الانجراف إلى البعيد. "ما الذي يضايقك؟"

"لقد قبض على ابن عمنا كريم وهو يعبث مع فتاة قوزاقية. ليس الأمر جدياً، لكن رسلان يريدك أن تكلمه. إنه حانق، وهو يعتقد أنك ربما، لكونك العم الذي يحبه أكثر من الجميع، يكون لك بعض التأثير – كما أنك أصغر سناً أيضاً..."

"هذا أمر صعب على أحد وجهاء القرية! ابنه!" نهض ناخو وبدأ يتمشى جيئة وذهاباً، فقد تملكته الحيرة. "يجب على كريم أن يكون أكثر إدراكاً! هذا عار على عائلتنا!"

جلست ديسا في هدوء، وهي تلف دثارها حول جسدها الدقيق. ثم قالت بهدوء:

"ألن تعاود التفكير في الموضوع، يا زوجي؟"

نظر ناخو إلى الأسفل، نحو يديه الخشنتين نتيجة العمل الشاق. إنه يحب أرضه، ولا شيء في الدنيا سيفرقه عنها. لكنه فهم مدى صعوبة الأمر على ديسا لأن تعيش حياة سعيدة هنا. لقد ذهبت اثنتان من شقيقاتها إلى تركيا: وتوفي والداها في فصول الشتاء الأخيرة. ولم يكن أحد منهما يصغر في السن، كما أن ابنهما البكر أصبح على عتبة الرجولة. إنها محقة، فالنساء محقات على الدوام

في هذه المسائل: لا بد من وجود نقطة رجوع. لأن تصرف قريبهما السيء لم يكن حادثة منعزلة.

"سوف أكلمه"

ظهر على ديسا السرور، فتركت الحديث في المسألة لتهدأ. "لا تبق هنا لأكثر مما يجب، إن أنور يتوقع أن تقوم بزيارته".

قال ناخو "هل هو يعلم بأمر هذه الفضيحة؟" إذ بات جلياً أنه تخوف من فكرة قيام العجوز أنور بإثارة مشكلة.

"ولا كلمة. لا أحد يرغب في مضايقة الرجل العجوز".

لم يستطع ناخو أن يمنع نفسه من الضحك. "أنت تقصدين، أن لا أحد يريد أن يخاطر بأن يتسبب له بنوبة! يبدو أنه استولى مؤخراً على مزاج جدي كازبك العنيف!"

ابتسمت ديسا، وقالت بمحبة "وحده القريب المفضل يستطيع أن يتفوه بمثل هذه الأمور..."

أعادت ديسا توضيب سلتها وسارت عائدة نزولاً في الممر المؤدي إلى بيتهما قرب الحظائر.

راقب ناخو ظهرها المستقيم وخطواتها السريعة، فخوراً بزوجته، التي كانت، برغم هزالها البدني تمتلك مصادر لا تنضب من القوة في شخصيتها.

تحول الإعجاب بسرعة إلى الوجوم. كثيراً ما كانت أفكار ناخو تتقلب بهذه الطريقة - ربما فقط لأنه كان رأس عائلة نامية ويتحمل العديد من المسؤوليات...

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، توجه لزيارة أنور، عم أبيه، العجوز المهيب ذو الشعر الأبيض النقي الذي يجعل عينيه الحالكتي السواد تبدوان أكثر حدة من ذي قبل. فكر ناخو كيف يقول الناس أن عيني الرجل لا تتغيران أبداً، مهما أصبح طاعناً في السن

– كم كان ذلك صحيحاً في حالة أنور! خاصة وأنه أصبح أسير فراشه، كان العجوز يحب أن يزوره ليقدم له احتراماته بشكل منتظم، ويبقيه على اطلاع بما يثرثر الناس حوله في قرية الحابساي.

صاح فيه "هل بعثت تلك الإرسالية إلى بياتيجورسك؟"

نعم يا "تحمادا". قال ناخو بصبر وأناة. كان معتاداً على معاملته كصبي ولم يشعر بالإهانة. فقد كان كازبك يفعل ذلك طيلة الوقت. "وقد تلقينا طلبية كبيرة من الثكنات الموجودة في كيزليار أيضاً. بالأمس فقط".

"حسناً – حسناً". ألقى أنور بمسبحته من يد إلى الأخرى في نفاذ صبر. لم يكن رجلاً عميق التفكير أبداً، وكان يحيا بتجاهل السنين ببساطة والتفكير بأنه ما زال في عنفوان الشباب.

"انظر إليَّ هنا" انحنى إلى الأمام وغرز اصبعاً ناحلاً في صدر ناخو" إنهم يعتبرونني مغفلاً في هذا المكان!"

"أنا واثق من أن هذا ليس صحيحاً، يا "تحمادا". نحن نقدر اهتمامك، وأنا أقدر نصيحتك قطعاً...."

وقد نطق ناخو بالحقيقة. نسي الجميع كم أصبح أنور طاعناً في السن، فقد بلغ التسعين على أقل تقدير– لأنه كان صلب العود ونشيطاً كأنه جرو ثعلب وقادراً مثله على التسبب بالمشاكل.

كان صوته لا يزال مفعماً بالحيوية: من بين أولاد أحمد الكوباني، كان أنور أكثرهم شغفاً بالحياة بقدر غرائبي. وقد ظلت مزرعة الاستيلاد شغفه الأول، ولا يتقدم عليها سوى إخلاصه لرفاهية عائلته ونجاحها. "إذن، استمع إليَّ الآن. لم يكن كازبك يحب أن يرى رجال الدين يتحكمون في الوطن، وهكذا أنا. إن ديانة الرجل هي شأنه الشخصي. إن ابني روسلان يميل إلى التشدد في أواخر أيامه، الأمر قد بدأ يقلقني يا ناخو..."

لم يتمكن ناخو من أن يمنع نفسه من الابتسام. فهذا هو أنور يتكلم عن ابنه، رجل في ستينات عمره، وكأنه يمر في "مرحلة" مقلقة من حياته! وما يخفف الوقع هو رؤية الجانب المضحك في هذا لموقف – مع أن ناخو لم تكن تعجبه الحقيقة أكثر مما تعجب أنور.

لم يتوقف إمام الحابساي، تاب أنور، عن جهوده في إقناع عائلات "الورَق" بمغادرة قراهم. ظل ناخو على ثباته لأنه مثل جده كازبك، كان يؤمن بأن واجب كل قباردي هو أن يحمي أرضه المتوارثة. لكن روسلان مسلم متشدد ويسير شؤون أسرته بمنتهى التشدد. ربما كان روسلان يعتقد أنه من المهم له أن يشكل مثالاً يحتذى للقرية بصفته أحد الوجهاء.

"لقد كان روسلان جدياً طيلة حياته... أفترض أنه هذا هو رد فعله على الثائر في داخلي" علق أنور، كما كان يفعل عندما ينتقد ابنه المتميز "لكن تقواه تثير لي أعصابي، يا ناخو".

لوَّح أنور بيده في علامة ضيق.

تمتم ناخو "لا يجدر بنا أن ننقد سلوك الآخرين..." وهو يحاول أن يسيطر على ضحكه من الموضوع، بجهد أكبر.

قال أنور "هراء! كان يجب عليك أن ترى رجال الدين الشيشان أيام كنت صبياً. أمر مخيف، كانوا رجالاً شجعاناً، وليس مثل هؤلاء الشريرين ذوي العقول التافهة الذين ينشرون الإشاعات ويثرثرون..... إنهم يستمتعون بالسلطة أكثر مما يجب، في هذه الأيام، إنهم يصابون بالسمنة وهم جالسون يثرثرون ويصدرون الأحكام! هم ليسوا متواضعين. أنا لا أحب هذا الوضع... إن تاب أنور وروسلان متلازمين كأنهما عصبة لصوص...."

قال ناخو وقد تملكه القلق "صه، يا "تحمادا"، إنك تتمادى في كلامك".

اضطجع ناخو إلى الخلف، وقد عقد ذراعيه فوق صدره "أنا لست خائفاً من أحد ولا من أي شيء، يا ناخو. أريد فقط أن أترك بحالي لأحيا في سلام، بالأسلوب القديم...."

انفجر ناخو ضاحكاً "يا "تحمادا"، ليس فيك أي عنصر مسالم، والحمد لله! إنك لتبدو مثل الرعد – يفترض فيك فعلاً أن تهدأ قليلاً!"

"هيا امضِ من هنا" قال أنور، متظاهراً بأنه يدفع ناخو بعيداً عنه. "وهناك أمر آخر" وشبك إصبعه بين الأزرار على صدر ناخو، حتى يقربه من أذنه: لا تقسو على الشاب. لم يقصد كريم أي سوء لأحد... فالأمر ليس سهلاً، أن يكون الابن الأصغر. الشاب المسكين، إن والده متعصب بشدة تجاه هذه الأمور... ويرى الجانب الأسوأ على الدوام. لا ضرر في أن يتسلى الشاب قليلاً مع حبيبة من "الجاور"."

هتف فيه ناخو "إنني مندهش منك! أنت من بين كل الناس – أنت تكره الجاور!"

نفض أنور كتفيه "بعض هذه العائلات يعاني شظف العيش، لقد كانوا مقاتلين جيدين، هؤلاء القوزاق. أنا أكرههم طبعاً. ولدي سبب مقنع لكراهيتهم! لكنهم تركونا نعيش في سلام لعدد كبير من السنوات. أشك في أن يحمل كريم نفس الكراهية التي أحملها أنا أو تحملها أنت".

"حسناً، ينبغي عليه" قال ناخو بقسوة. لكنه بعد أن فكر في كلمات أنور، بات يعجب مما إذا كانت لا تحتوي على شيء من الحقيقة.

على مبعدة قليلة من بيت أنور، عثر على المتهم، كريم الشاب، ينتظره بشيء من الرهبة.

"عمي؟ الا تركب معي لمسافة قصيرة؟ هنالك شيء أريد أن أريك إياه..."

وافق ناخو، وقد احتفظ بإصدار الحكم عليه، كما وعد أنور أن يفعل. "إنها أمسية رائعة، أيها الشاب، سيكون الركوب معك ممتعاً. كيف هي فرسك؟"

"إنها رائعة – فائقة الجمال – سوف أسابقك".

انطلق الابن الأصغر لروسلان مثل سهم ينطلق من قوسه على فرسه القباردين القوية. كان ناخو قد انتقاها له: لأن كريم كان يعمل بجدية في مزرعة الاستيلاد ولديه كافة مزايا الفارس الماهر.

"أوف" صرخ ناخو وسحب عنان فرسه بعد عدو مسافة بضعة فيرستات.

"على رسلك! لقد عملت يوماً كاملاً في الحقول أيها الشاب، أنت بحاجة إلى وجود ابن عمك في البيت ليمارس معك هذه الرياضة!"

أدار كريم فرسه وعاد إليه خبباً "إنني بشوق إلى عودته" قال بمرح.

هو شاب طيب القلب، وسيم بسمرة محببة مثل كل الرجال الذين هم في جانبه من العائلة – نحيل، عصبي المزاج، شجاع.

"انظر – هل ترى ما يفعله القوزاق هناك، يا عمي؟"

كان الفارسان قد وصلا إلى منخفض في ضفة التيريك، وهي مخاضة طبيعية حيث خاض في السابق أنور وأصدقاؤه الثوار عبر التيريك ليقوموا بغارة جريئة على عربات التموين الروسية. كانت هناك ركائز خشبية يجري دقها إلى مسافة عميقة في الطين والصخر الصلصالي على الضفة الشمالية، إضافة إلى أعمدة ضخمة مرصوفة فوق بعضها استعداداً لعمل نوع من البناء.

قال ناخو "ما الذي يجري؟" وقد انزعج بحدة، ليس لأنه لم يكن يرى بعينيه، ولكن لأنه احتاج إلى الوقت ليستوعب أهمية هذا التطور.

"إنها أساسات لبناء جسر، يا عمي، ملائمة، أليس كذلك؟ سوف نوفر ساعة من الوقت على الأقل، عندما نأخذ محاصيلنا إلى السوق."

"همم، محتمل جداً."

اكفهر وجه كريم "أريدك أن تعلم، إنه غير صحيح. إنه أمر في منتهى الظلم، ذلك الذي يتهمني به والدي...."

"مواعدة فتاة قوزاقية تقصد؟"

أومأ كريم برأسه موافقاً، ثم اعترض بقوله "الأمر يختلف بالنسبة لهم. مسموح لهن بالتحدث و ..... البقاء بصحبة الرجال من غير أقاربهن. خلافاً لنسائنا. لقد كانت موجودة في الحظيرة عندما مررنا بها ونحن نقود الخيل باتجاه "الستانيتزا". لقد توقفت لسؤالها عن الاتجاه – أردت فقط أن أتمرن على التحدث بالروسية."

"لقد فهمت". بات ناخو يعجب لماذا طلب منه أن يقوم بهذه المقابلة، فهو نفسه لم يتصرف بهذه الطريقة مطلقاً، ولم تكن لديه ذكريات شبابية عن العبث الشبابي. فقد كانت الظروف صعبة في شبابه وكانت ذكرياته عبارة عن كوابيس.

كان كريم يقدم اعترافاً طوعياً كاملاً "على طريق العودة – حسناً، لقد قدمت لنا قليلاً من الماء. ربما ما كان يجدر بي أن أتأخر وأبقى كل ذلك الوقت ولكن – "

"لقد كنت فقط تمارس شيئاً من المجاملة."

رفع كريم رأسه بسرعة، عيناه بحيرتان داكنتان، ولكنهما بريئتان كما لا يمكن أن تكون إلا عينا الشاب البريء غير المجرب على تلك الدرجة من الصدق. "فهل كان ذلك على تلك الدرجة من الخطأ؟ لقد كانت مجرد فتاة من مزرعة. هم أيضاً يعملون بجد. وقد كان اليوم حاراً – "

"لا يا كريم. لم يكن ما فعلته خطأ. ولكن الاستمرار في مقابلتها سيكون خطأ. نحن مختلفون. يجب أن نبقي أنفسنا بعيدين عنهم ونجعلهم يعرفون إننا مختلفون. ينبغي عليك أن تتمتع بقدر أكبر من الكبرياء. بالإضافة – "

انتظر كريم "نعم يا عمي؟"

"ليس من قباردي أصيل يصاب بالعطش أثناء رحلة ركوب"

سبب هذا التعليق ألما لكريم أكثر من أي تأنيب حول ميوله العاطفية. فقد كان يرغب في أن يكون أصيلاً في عاداته حتى النخاع. أحنى رأسه وظهرت عليه التعاسة المطبقة.

في نهاية المطاف، قال له ناخو "أشكرك على أنك أريتني الجسر. فهذا أمر مهم. أريد أن أفترض أنك احتفظت بالأمر لنفسك، أليس كذلك؟"

"نعم يا عمي؟"

"كان ذلك تصرفا حكيماً. والآن دعنا نركب عائدين إلى البيت يا كريم. لن أقول المزيد عن هذه الحادثة، وطبيعي إنني سأتكلم مع أبيك والوجهاء الآخرين دفاعاً عنك، وأقول لهم أن لدينا تفاهماً حوله. وهذا صحيح، أليس كذلك؟"

أجاب كريم "نعم يا عمي" وهو يعرف أن هذه الإجابة تسرّ عمه. ولكنه كان معجباً بتلك الفتاة القوزاقية في أعماق قلبه. وقد تجرأ حتى على التفكير في جعلها زوجة له. ضرب فرسه بالسوط وانطلق يعدو مبتعداً بأكثر ما تجرأ على إظهاره من الشجاعة.

أدرك ناخو أنه لن يطول الوقت قبل أن تصبح قرية الحابساي في حالة غليان حول موضوع بناء الجسر.

أجبر بعد بضعة أيام على استقبال الإمام، تاب أنور في صالونه، وسماع إعلانه وحكمه عليه.

"ما كان يجدر بنا أن نسمح لهؤلاء الكفرة "الإيمانسز" أن يباشروا في البناء. إنهم يلوثوننا بطريقة حياتهم من البعد بما يكفي".

لم يستطع ناخو أن يمنع نفسه من التفكير بأنه منذ وصول تاب أنور إلى الحابساي، فقد أصبح في المحصلة حديث أكثر مما هو ضروري عن التلوث والشر. وأن التفكير الدائم في المحظورات أبقى عقول الناس كلها متعلقة بشدة بالإغراءات، بدلاً من الاستمتاع الطبيعي بالأشياء الطيبة في الحياة. لم يعجب بتاب أنور أبداً، وكن مرأى إمارات الشراهة في محيط خصره الذي يكبر باطراد، مصدر قرف بالنسبة إليه. فقد كان القباردیون مشهورين بأساليبهم المقلة في الطعام، وإعجابهم بالرشاقة والقوة البدنية.

"ولكن يا حجي، إنهم يمكنون شعبنا من العبور بسهولة أكبر. خاصة عندما يكون التيريك في حالة فيضان كامل، سيكون العبور أكثر أماناً بكثير. يمكننا إيصال محاصيلنا إلى السوق بوقت أسرع. وهذا هو أحد أشكال التقدم، حتماً!"

تناول تاب أنور قطعة أخرى من الطعام ورشف من كوب الشاي المخصص له. "سوف يبدأ أطفالنا بالعبور إلى جهتهم. سرعان ما سيبدأوا بالرغبة في إدخالهم في مدارسهم. مدارسهم المسيحية!"

لم يكن ناخو قد فكر بهذا الأمر. كان ولداه الأصغران ما يزالان يقيمان لدى "الأتالق" في الجلاخستني. تخيل لو أنه منع من إرسالهما حسب الطريقة التراثية المتوارثة والمحترمة عبر الزمن....

"نعم، أنا أفترض أن ذلك ممكن الحدوث. ولست على ثقة من أنه أمر سيء، يا "حجي". أنت تعرف كم استفادت عائلتي من معرفتها باللغة الروسية..."

تضيقت عينا تاب أنور "لم أفهم على الإطلاق كيف تمكنت عائلة أحمد الكوباني من إجادة التحدث بلسان "الجاور" إلى هذه الدرجة".

"كان هناك مستكشف روسي في يوم من الأيام... وهو طبيب، رجل فاضل، اسمه باسل. أصبح على علاقة صداقة حميمة بجد والدي. وهكذا بدأت مسيرة التعلم... علم كازبك عندما كان هذا صبياً، وقد تأكد كازبك من أننا تعلمنا منه اللغة عندما كنا صغاراً جداً...."

بدا على تاب أنور الاستياء. "هكذا تبدأ العملية. هكذا يبدأ العفن في التكون. ألا ترى، نحن مسلمون. ويجب على المسلمين تعلم القرآن الكريم. إن ما ينبغي على أطفالنا أن يتعلموه هو اللغة العربية، وليس الروسية. لسنا بحاجة إلى كتاب آخر غير القرآن الكريم".

حاول ناخو أن يناقشه بأن تجرأ على القول "لكن الرسول عليه الصلاة والسلم يقول "أول شيء خلقه الله سبحانه وتعالى هو الذكاء"

كان تاب أنور مستعداً بالكامل لمثل هذا القول، فردد بنبره ترتيل "من يعرف نفسه يعرف ربه، انظر إلى دخيلتك. كل هذا التوق والتعطش إلى التقدم والمعرفة هو ببساطة نوع من المتعة الغرائزية الثقافية. هذا هو ما أقصده – هذا ما ينتج عن الاتصال "بالجاور". إنني مقتنع أكثر من أي وقت مضى أنه يجب علينا جميعاً أن نهاجر إلى استنبول قبل فوات الأوان".

بالنسبة لشخص دأب على اقتراح معرفة النفس. فقد كان تاب أنور شديد الحماس لأن يجعل كل شخص آخر يشاركه رؤيته للعالم. حاول ناخو أن يشير إلى آرائه الخاصة بألطف أسلوب ممكن.

مازح أنور مداعباً "إنني ما زلت أذكر كيف طردك جدي من المنزل عندما اقترحت هذا الأمر في الماضي.. هل تذكر، يا "حجي". "

كان تاب أنور رجلاً ماكراً – وواضح أنه كان يتوقع هذه المقاومة المستمرة من ناخو. "نعم، لقد كان العجوز كازبك، رحمه الله، رجعياً من الطراز القديم في هذا المجال. لكن انظر كم من العائلات استطعت أن أقنعها بالقيام بالرحلة. إنني ما زلت آمل بأن تقوم بهذا التحرك في يوم من الأيام، يا ناخو. إن أخويك غير الشقيقين في استنبول ثريين وهما أصحاب نفوذ. سوف يتم الاعتناء بك عناية ممتازة. إنني أؤكد لك – وسوف تتمكن من النجاة بدينك!" رفع تاب أنور يديه كأنه يوجههما نحو الفردوس.

لكن ناخو لم يكن ليتخلى عن إحساسه القباردي بالتوازن. لأن الدين لم يكن قضية تطرف لأي فرد من عائلته على الإطلاق – وعليه فقد تمسك بمثال كازبك، وهو الحاج الذي عاد وعاش في سلام لسنين عديدة بين أبناء شعبه، بدون كل هذا النفاق وضيق الأفق. قال بنبرة متوازنة: "إذا هاجرت، يا حجي، فلن يكون ذلك بسبب تتعلق بالإيمان. لست بحاجة لأن أعيش في تركيا حتى أظل مسلماً. إن الروس لا يطلبون منا أن نغير ديننا – هل هم يفعلون ذلك؟"

ظهر التعبير الواجم على محيا تاب أنور وكأنه اشتعل بحماس جديد. أخيراً، استطاع أن يعثر على نقطة الضعف لدى ناخو. فهو

مثل كافة أفراد عائلته، مصدر كبرياؤه هو استقلاله الفكري، وإيمانه بأنه يمكنه أن يستمر في تطبيق أساليب الحياة القديمة غير منقوصة.

"طبعاً لا. ليس بعد، على الأقل...." هز تاب أنور رأسه، وقرر أنه حان وقت انصرافه، خاصة وأنه عرف كيف يستفيد من ميزته المعرفية.

***

الفصل الرابع عشر
بلاد عبر القفقاس
1877

تفحص الجنرال قندق الخارطة التي تظهر الأمكنة المحتملة لإعادة تجمع جنوده الشراكسة والأتراك.

إن الأراضي المرتفعة للأناضول تشكل ميادين معركة قاسية، بسبب العواصف الثلجية التي تهدد بدفعهم من سماوات رمادية، درجات الحرارة المنخفضة التي تشل رجاله عن الحركة بسبب إصابتهم بقضمة الصقيع، ومشكلة التموين التي تضعف أكثر جنوده لياقة. سوف تهزمهم قلة الطعام إذا لم يهزمهم المرض - لقد كان العدو أقل المشاكل التي تعترضهم.

لم تكن الحرب ضد روسيا تسير بشكل جيد. لقد دعا قائده الأعلى أحمد مختار إلى عقد مجلس حرب يوم الرابع عشر من تشرين الأول ولكنه رفض بعناد أن يقبل نصيحة ضباطه، بالتفاوض على الاستسلام.

كان هو، كندوكوف، ومعه جنوده الشراكسة، يعتقدون أن أحمد مختار محق في صموده. لأن دورياته لم تشاهد أية إشارة على تحرك الروس إلى الأمام لاستغلال مكاسبهم الأخيرة. لقد كان مهماً بالنسبة للنجاح الكلي للحملة التركية أن يتراجع الجيش ويعاود تجمعه بأسلوب منظم، وأن يتمسك بقلعة قارص- وهي الهدف التالي الواضح لهجوم روسي متوقع - لأطول وقت ممكن، بينما يلتجئ بقية حرس المؤخرة الأتراك إلى جبال سوغانلي. لكن انتهى الأمر بمختار باشا في موقع يائس على مرتفعات ألابا. وحده تفكير كندوكوف السريع، بتحريك خيالته إلى الجنوب، أدى إلى إنقاذ خمسة إلى ستة ألوية وألف وخمسمئة من الخيالة. في هذه الأثناء،

خمسة إلى ستة ألوية وألف وخمسمئة من الخيالة. في هذه الأثناء، أجبرت قوة كبيرة من الجنود الأتراك تحت قيادة الحاج رشيد، وهو الباشا الأعلى رتبة الذي يقود الأتراك، على أن تستسلم فوق جيفت-تيبه، حيث كانت قد حوصرت من كافة الاتجاهات بالوحدات الروسية. وهكذا فقد ألقى الباشوات السبعة، وستة وعشرين لواء مشاة، و252 ضابطاً، مع فرقة من الخيالة وثمانية آلاف رجل، أسلحتهم على الأرض. وهكذا وجد قندق نفسه، والذي كان سابقاً الفريق كندوكوف في الجيش الروسي، في الجنوب بمنطقة كاغيزمان منتظراً التعليمات الجديدة، ويحدق بوجوم في خارطة لا تتحدث إلا عن المكاسب الروسية. كانت القوات التركية المتبقية تحاول أن تتمسك بالمواقع الحسَّاسة، وهي تلك الممرات الجبلية التي ستندفع من خلالها القوات الروسية تحت إمرة الجنرال الأرمني تيرجوكاسوف، بدون شك، باتجاه الغرب وتستغل تفوقها. وبعدها، سرعان ما ستسقط قلعة قارص، وبعدها أرضروم، ثم الله وحده يعلم، ربما حتى تسقط باطوم. كل ما فعله الأتراك في سبيل التحديث، إعادة التسليح واستعادة القوة، ينهار تدريجياً.

ومع ذلك فقد أدرك قندق أن أحمد مختار كان مصيباً في شن هجمومه ضد روسيا من الأناضول. فقد كان احتلال ميزة استراتيجية هنا في منطقة عبر القفقاس، صحيحاً، لأنه سيقيد الجنود الروس في الوقت الذي يفترض فيه أن الأنظار مركزة على غربي البحر الأسود، على التقدم الروسي في البلقان.

لكن الجيش التركي لم يكن قوياً بعد بما يكفي لأن يقف في وجه جيش القفقاس الروسي. كان يفترض في كندوكوف أن يعرف: فهو الذي قام بالتدرب على قيادته، خدم فيه، وأصبح الحاكم العام لإقليم التيريك، وعمل كل ما بوسعه للحفاظ على كفاءته.

حضر ضباطه الكبار من أجل الإيجاز النهائي. نهض قندق واقفاً وتحلى بوجه شجاع.

"حسناً، أيها السادة، أعتقد أننا سنخوض القتال في الصباح. سوف ينشغل تيرجوكاسوف كلياً بمجرد أن نحتل هذه التلة. أريدكم أن تبذلوا كامل الجهد للهجوم على هذا الموقع..." كانت ريشته تخط بعمق على الخارطة، بينما هو يشرح مواقع انتشار الجنود.

تكلم أحد الضباط الأتراك للإيضاح "يا صاحب السعادة. لن ندخر وسعاً. ولكن هل سنتمكن من الحفاظ على هذا الموقع؟ إن بطاريات المدفعية الروسية موجودة في مدى رماية خطوطنا وسوف تسبب لنا التأخير حتماً. ألا يجدر بنا أن نفكر في إمكانية تحويل طريقنا؟"

ظل التعبير على وجه قندق جامداً "هل ترى هذا الطريق؟ المسمى إيسيك الخاص. يجب علينا أن نستعيد السيطرة عليه قبيل الظهر إذا كنا سنتمكن من التغلب على بطاريات المدفعية التي ذكرتها. فهل سنتمكن من عملها أيها السادة؟"

لم يكن سؤاله بحاجة إلى إجابة. لقد كان تحدياً. لم يكن قندق قد أخبر جنوده بمسألة الاستسلام في جيفت – تيبه. فقد أشارت آخر التقارير السرية إلى أن مختار باشا قد توجه عائداً إلى قارص على رأس عشرة آلاف جندي مشاة لتقوية دفاعات القلعة، وكان يتقدم مرة أخرى لمواجهة هجوم روسي في جبال سوغانلي. وعليه فقد كان واجب قندق أن يساعد في هذا الهجوم المضاد بتقييد حركة إسماعيل حقي – أحد أكفأ قادة تيرجوكاسوف، الذي كان قد بدأ تحركه للانضمام إلى قوات تيرجوكاسوف الرئيسة.

قال قندق عند نهاية الإيجاز "حسناً إذن، لديكم فترة استراحة لبضع ساعات. اقترح أن تحسنوا الاستفادة منها بالحصول على قليل من الراحة. سأراكم جميعاً عند الفجر. ليلة سعيدة".

بينما كان الضباط يخرجون صفاً، استدعى قندق مساعداً صغير الرتبة ليعود.

"أصلان بك. هل اسمك أصلان بك؟ أرجوك أن تبقى. أرغب في التحدث إليك".

"نعم يا سيدي، أنا في خدمتك سيدي".

ألقى قندق نظرة فاحصة على الضباط الشركسي الذي ميز نفسه في الاشتباكات الأخيرة مع العدو. طويل القامة، رشيق الجسم، رهيب، وجهه محفور إلى درجة سيئة من جراء الإصابة السابقة بالجدري وهناك ندبة عميقة عبر جبينه – إصابة غير قاتلة من رصاصة. ومع ذلك فقد كانت سيماؤه ذات كبرياء ووجهه راقياً، ليس فيه أثر للقسوة. لا شك أنه كانت لديه قصة ليرويها.

"تعال اجلس معي لبرهة. سوف نتناول كأساً من الشراب قبل أن نأوي إلى الفراش. أنت شركسي. ألست كذلك؟ لقد حارب رجالك بشجاعة فوق مرتفعات "الاجا".

"نعم يا سيدي. أنا من الشابسوغ".

ابتسم قندق وبدأ يتكلم بلغة أصلان الأصلية. "لقد خمنت ذلك. لقد مضت مدة طويلة لم أتكلم فيها اللغة الشركسية! إنني أوسيتي، أفترض أنك تعرف ذلك. يسمينا العثمانيون شراكسة كلنا".

كان أصلان لا يزال واقفاً بهيئة الانتباه، حذراً من تودد قندق. فقد مضى وقت طويل منذ أن صادف أي شيء قريب من المصداقية من أي ضابط أعلى منه رتبة، بحيث بات نصف متوجس من خيانة جديدة أخرى.

كان قندق منطلقاً في دردشة مسترخية. "خذ مثلاً وحدتك. ربما لدينا مجرد حفنة من الشراكسة الأصليين على شاكلتك. البقية هم أوسيتيون أو شيشان أو بلقر... ومع ذلك فقد سموها الخيالة الشراكسة!"

بات أصلان يستغرب لماذا يخبره هذا الضابط العالي الرتبة بما هو واضح، فأجابه بجفاء "الأقرب إلى الحقيقة، هو أنه عندما

تصل أخبار هزائمنا إلى بلاد الشيشان، فأنها ستضع نهاية لآخر محاولات المقاومة، يا سيدي".

اشتعل وجه قندق "هل هذه المعلومات شائعة بين الخيالة؟ بأن الأمور لا تسير بالشكل المطلوب؟"

هز أصلان رأسه نفياً "كلا يا سيدي. إنني فقط أذكر ذلك للتدليل على أن لدينا كيساً مليئاً بخليط من الرجال، وكيساً مليئاً بالقضايا المختلطة هنا، يا سيدي. لقد حدث الأمر من قبل، وسوف يحدث مرة أخرى...."

"قبلاً؟" اصبح قندق مهتماً بتجارب هذا المقاتل القوي، الذي يعرف أكثر مما يفترض فيه أن يعرف.

"لقد خدمت قبل سنتين على الجبهة في أرضروم. ألقى جنودي القبض على قافلة عبيد من الجورجيين. حضر شخص من السفارة البريطانية وكتب تقريراً عن الحادثة. لقد قرأت تقريره: لقد أطلق على جميع العبيد اسم الشركس، ورغم أنه نفسه تحدث إليهم بمساعدة مترجم جورجي".

"يطلق اسم الشركس على جميع الجبليين الشقر – شراكسة" قال قندق. "يحصل تجار العبيد على أسعار أعلى بتلك الطريقة...." لم يخف قرفه من الوضع.

قال أصلان وقد ثبت عينيه في عيني قندق "أعرف يا سيدي". لم تكن هوية تجار العبيد ذات أهمية – أتراك، أرمن، روس، قوزاق. كلهم يدعون أن بضاعتهم من الشراكسة لأن نساء الأديغه هن الأروع جمالاً. اتجهت أفكار أصلان نحو إحداهن، فتاة كانت مرة بلا اسم معها طفلين صغيرين، ذوى جمالها قبل حتى أن يتفتح ويزهر. ماريان وطفلها – كان يرسل لهما النقود باستمرار، لكن حَنَفْ كان قد توفي منذ زمن طويل.

كان أصلان متعباً "هل هذا كل شيء، يا سيدي؟"

لم يكن قندق قد اقتنع بعد. كان هناك شيء ما يضايقه في هذه الليلة. ألح عليه "من أين أنت بالضبط؟"

أدرك أصلان أن الرجل يشعر بالوحدة – أو ربما أكثر احتمالاً، كان متخوفاً من المعركة في الغد، والتي كان يعرف أي مغفل أنها ستكون هزيمة. اللعنة، لقد كان لديه ملء الحق في أن يندم على أفعاله السيئة، في ليلة مثل هذه.

كل إنسان لديه ما يندم عليه.

"لقد أخبرتك يا سيدي، أنامن الشابسوغ. كان والدي يدعى "الحجي" دانيل، وهو الذي حارب مع أسد القفقاس، كازبك. كان ذلك أثناء حملات الثلاثينات، يا سيدي".

"كازبك! من إقليم التيريك! إنني أعرف ذلك الجزء من بلاد القباردا جيداً. لقد كنت أعرف العائلة معرفة وثيقة، أو بالأحرى حفيد لكازبك، وهو مربي خيول شاب رائع اسمه ناخو...."

انهارت تحفظات أصلان. امتلأت عيناه بالدموع عند مجرد ذكر اسم صديقه. في هذه اللحظة كان قندق قد انطلق في ذكرياته عن منطقة الجبال ولم يلحظ اضطرابه لحسن الحظ.

"لقد كنت حاكماً لإقليم التيريك منذ العام 1855- بعد استسلام شامل. بلاد جميلة. لم تكن لدى القباردي رغبة في الهجرة في ذلك الوقت. وكانت عائلة كازبك معارضة بشكل خاص للهجرة، وكان لديهم تأثير عظيم على الناس. الحابساي! هذا كان اسمهم! لقد أفشل ناخو الشاب هذا جهودي في ذلك الوقت".

مرر أصلان يده عبر وجهه المهترئ. فقد كان ألم التذكر شديداً جداً: لم تكن به رغبة في بحث ماضيه.

"أتوقع أن يفعل ذلك، يا سيدي".

"لقد قررت في نهاية الأمر أن أنحاز كلياً إلى جانب تركيا" اعترف'قندق بصوت خفيض.

"عندما خرجت من البلاد، كان الناس الذين في صحبتي على الغالب من الشيشان والأوسيتين. بالكاد أي من القبارديين......"

أصبح أصلان مجبراً على السؤال. فقد نظم هذا الرجل عميلة أجلاء آلاف العائلات من الجبال عندما كان يعمل لحساب الروس. كانت حقيقة معروفة للعلن أن غضبه على سوء معاملة المهاجرين قد أدى إلى تحوله ضد أسياده الروس. فهذا هو الفريق كندوكوف السابق، الشهير. فهل يعرف ما حدث حقيقة؟ يقال أن عائلته مستقرة بشكل جيد في تركيا، خلافاً للآخرين....

"هل تلوم الناس الذين بقوا في الوطن أيها الجنرال؟ أنا أحد الناس الذين يرغبون لو أن عائلتي قد بقيت! خاصة وأنا أعرف ما أعرفه!"

حدّق قندق بحدة في هذا الشركسي، الذي كان في أوقات غير هذه سيكون رجلاً في عنفوان حياته، لديه عائلة ومزرعة ومستقبل. إنه يحمل كل إمارات المقاتل الذي سيقاتل حتى النهاية، لأن البطولة هي كل ما تبقى له – الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها خدمة القفقاس.

تناول قندق جرعة طويلة لاسترضاء نفسه وتحدث ببطء. وقد كان الوقت متأخراً جداً على قول أي شيء ما عدا الحقيقة غير المزوقة. "يتمنى الكثير من الشركس لو أنهم لم يهجروا إلى تركيا مطلقاً. لم أقل هذا لأي شخص. إنني نادم على ما فعلته. لقد كنت أظن في ذلك الوقت إنني أخدم مصالح شعبي العليا. لكنني خدعت من قبل رؤسائي، في روسيا، واستغفلت من قبل الأتراك".

رفع رأسه ونظر إلى الأعلى، لكن أصلان ظل على وقفته مثل صخرة، غير متأثر. مجرد رعشة بسيطة جداً تحت جفنه كانت الدلالة الوحيدة على توتر أعصابه.

أصبح قندق مرغماً على مشاركة هذا الرجل شعوره بالذنب، الذي يمكن بكل سهولة أن يموت إلى جانبه في هذه الوقفة اليائسة.

"لقد استعبدت تركيا شبابنا، أرسلتهم للقتال في منطقة البلقان كأنهم مرتزقة": نظر إلى أصلان مرة أخرى "هل خدمت في البلقان، يا أصلان بك؟"

"نعم يا سيدي. لفترة. قد تطوعت للذهاب إلى هناك.... باحثاً عن عائلتي... فقد كانت عائلتي ضمن الشابسوغ الذين أرسلوا بالسفن إلى هناك مباشرة".

شعر قندق بالأسى. "يا للعار. يا للعار. لقد كانت سذاجة مني أن أعتقد بأن الأتراك سوف يحترمون اتفاقياتنا. لقد أفني نصف مليون شركسي بين الجيشين المتحاربين. هذه صفحة سوداء في التاريخ العثماني." استمر في التمتمة، وقد عقد ذراعيه فوق صدره، وكأنما يريد أن يواسي نفسه بغضبه الأخلاقي. "هل عثرتم عليهم... على عائلتك؟"

"كلا يا سيدي. لقد توفوا أثناء العبور..."

لم يكن قد تبقى لدى أصلان أية مشاعر تسجل الغضب. فقد كان يفكر فقط في والديه الميتين، كجثتين ملقاتين بغير احترام فوق شاطئ مكشوف. فكر فقط بالأطفال الذين ألقي بهم في البحر الأسود من السفن التابوتية العفنة. فكر فقط في الخدمة العسكرية التي حولته الآن إلى آلة مقاتلة لا تعرف الصف ولا يمكن إيقافها، ألقيت هنا في الأناضول لأنها أقرب ما تكون إلى عودته إلى قفقاسه الحبيب.

قال أخيراً "حسناً يا سيدي. إذا أحسنّا في خدمة تركيا الآن، فإن الذين سيحيون من بعدنا ستتم معاملتهم بشكل أفضل. سيكون الأتراك مدينين لنا. فهل يعني ذلك أي شيء؟"

نهض كندوكوف واقفاً ليصافح أصلان باليد. "آمل ذلك يا أصلان. أتمنى لك حظاً سعيداً غداً أرجو أن تبلغ أفضل أمنياتي إلى خيالتك "الشركس".

"أشكرك يا سيدي. سنفعل أفضل ما بوسعنا" خطا أصلان خارجاً نحو ليلة أناضولية صافية، مفعمة بالصقيع.

***

اتخذ ناخو موقعه مع رجال قريته في مسجد الحابساي لأداء صلاة ظهر الجمعة. كان يشعر بالفخر لوجود ابنه البكر حسن راكعاً في هذه اللحظة إلى جانبه. وسيم أسمر البشرة، بعينين زرقاوين تشعان ذكاءً، وتعبير مضطرب، متفكر على وجهه، تماماً مثل جد جده، أحمد الكوباني. أصبح لدى ناخو خمسة أطفال الآن، أربعة منهم أولاد أصحاء. لقد أحسن الله تعالى إليه. راقب الشاب الفتي بينما تاب أنور يمشي باتجاه المنبر لإلقاء موعظة يوم الجمعة.

همس لأبيه "هل سيتكلم لمدة طويلة، يا أبتِ؟"

حدجه ناخو بنظرة جدية، مما فاجأ حسن. فقد توقع أن يتخذ أبوه رأياً مسترخياً حيال رجال الدين، كما هي طريقة العائلة، لكن ناخو كان جدياً بشكل يختلف عن شخصيته المعتادة هذا اليوم.

استمر تاب أنور في الطنين بينما كان الصبي حسن يصغي إليه نصف إصغاء، فهو صغير جداً على الفهم. راقب ناخو رأس الصبي وهو يتدلى، فذهب إليه قلبه إشفاقاً. كيف سيمكنه أن على يفهم ما سيحدث؟ لقد كانت هذه هي نقطة التحول.

احتوى صوت تاب أنور على طارئ جديد "يا أخوتي في الإسلام، إنني سعيد برؤية هذا العدد الكبير منكم هنا في هذا اليوم. لا أستطيع أن أجمع مثل هذا العدد في بيت الله كل يوم جمعة لكن يوم الجمعة هذا مهم، وأنا سعيد لأنكم حضرتم جميعاً. ما لدي

لأقوله ليس طويلاً ولا هو معقد. لقد سمعتموني كلكم وأنا أتحدث عن "بيت الإسلام". وهذا يمكن أن يعني المسجد الذي نحن جالسون فيه الآن، بيت الإسلام. أو يمكن أن يعني "الأمة" المسلمة، والتي تدل في اللغة العربية على الأمة الإسلامية...."

توقف تاب أنور حتى يتأكد من أنه يحظى بانتباه كل الحاضرين. "لقد ظلت رسالتي في الحياة هي أن أجمع القطيع كله في "بيت الإسلام". هذا البيت العظيم للإسلام هو تركيا والسلطان هو آخر خليفة لسيدنا الرسول محمد، عليه صلوات الله عز وجل.

"لقد بقينا تحت حكم الكافر الروسي طيلة هذه الأعوام، لكننا لم نشعر بتأثيراتهم الشريرة علينا بسبب نهرنا العظيم التيريك. فقد ظل يفصلنا ويوفر لنا عاملاً من الأمان. والآن أيها الأخوة، فهذا الأمر لم يعد قائماً ولن يستمر بعد اليوم. إنهم يطالبوننا بأن ندخل أطفالنا في مدارسهم. سرعان ما سيدخلوا بيننا ويتخذوا من بناتنا عرائس لهم. وسيجد أبناؤنا بناتهم جذابات... سوف يتخفف عرقنا وسرعان ما سيختفي..."

دفع ناخو الصغير حسن الذي سرح في أحد أحلام اليقظة. لكن حسن أدرك، بعد التجمع، أن جميع الرجال كانوا هادئين جداً، على الأخص والده الذي لم يقل شيئاً مطلقاً بينما هما يتخذان طريقهما عودة إلى مسكنهما على ضفاف التيريك. كان الطقس بارداً: وحسن سعيد بارتداء "البوركا" الدافئة و قبعة الفراء البيضاء. لم يكن قد رأى قريته تبدو على هذا القدر من الجمال قبلاً كما هي الآن، تتلألأ تحت غطاء خفيف من الثلج، بينما السماء زاهية باللون الأزرق الداكن الرائع.

قال حسن بفخر "لقد ركبت مع كريم بالأمس"، في محاولة لرفع معنويات ناخو. "كل المسافة إلى ذلك الممر الضيق. هناك صيد رائع وفير. يا أبتِ." وكان مسروراً حقيقة لأن ابن عمه الأكبر منه سناً قد تواضع وأظهر بعض الاهتمام به.

استدار ناخو "أن كريم فارس ماهر". قال بحزم "ولكنني أمنعك من قضاء الكثير من الوقت مع ابن عمك. إنه - إنه أكبر منك بعض الشيء ولن يرغب في أن يضايقه صبي صغير".

لم يزعج حسن نفسه بالدردشة مع أبيه أكثر من ذلك، بسبب شعوره بالألم العميق الذي سببه له هذا الصدّ الشديد. وصلا عائدين إلى الساحة سوية بصمت، وشعر حسن بالانفراج لأنه سمح له بالذهاب إلى جناحه لأنه كان يتجمد من شدة البرد من ناحية، ومن الناحية الأخرى يشعر بالإهانة.

راقب ناخو الصبي وهو ينصرف وود لو أنه يرفس نفسه لأنه كلمه بخشونة. لكنه كان مضطرباً جداً، ويشعر بالضغط يتعالى من كل الجهات. ربما يصبح لكريم تأثير سيء على ابنه. فقد أصبح تودده إلى الفتاة القوزاقية وعائلتها أمراً شائعاً.

لقد كان تاب أنور محقاً لمرة واحدة. فإن الجسر هو مجرد البداية. فقد حضر مسؤولون روس يطلبون قائمة بأسماء جميع الأطفال في القرية ويتحدثون عن خطط للتدريس القسري - كأن القباردبين لم يعلموا أبناءهم على مدى القرون!

كان هناك زبون قديم، الكونت ستروجونوف الروسي، واقفاً ينتظر على شرفة منزل ناخو. لقد تطورت تربيته للخيول على مدى السنوات إلى شغف - مع أنها لم تصبح على نطاق تجاري في منزلة مزرعة الاستيلاد التي أنشأها أحمد الكوباني أبداً.

شعر ناخو بالسرور لرؤيته. فقد قامت بين هذين الرجلين "هدنة" بعيدة لكنها محترمة من قبل كليهما - احترام صحي، ثقة متبادلة، كانت في أوقات أخرى يمكن أن تتطور لتصبح صداقة.

قال الكونت ستروجونوف بتودد "هل كان ذلك هو ابنك، يا ناخو؟ فتى حسن المظهر."

وكان بدوره مرتدياً ملابس دافئة هي معطف وقبعة من فراء الاستراخان: بغض النظر عن الطقس، فقد ظل الكونت ستروجونوف يراعي اللياقة "كما يفترض"

"نعم، ارجوك أن تتفضل بالدخول لتناول بعض الشاي. ما هي الأخبار من بياتيجورسك أيها الكونت؟"

سعل الكونت بأدب داخل منديله الحريري. كان ناخو يعرفه بما يكفي لأن يدرك أنه يختار كلماته بعناية فائقة.

"نجاحات عظيمة لجيشنا في بلاد عبر القفقاس". قال ذلك وهو يلقي إلى ناخو بلمحة جانبية "لقد فقد الأتراك قارص..."

رشف ناخو شايه في صمت. لقد كان الوضع يتطور الآن ليشكل صورة. صورة لم يكن مطلقاً يرغب في رؤيتها. قال "ستكون حدود روسيا باتجاه الجنوب أكثر أماناً الآن".

"صحيح، ولكن الحملة لم تنته بعد".

أضاف ناخو بمرارة "كلا، رأيي هو أنها ما زالت في بدايتها.: لقد كانت هذه الحملة أملنا الأخير. أعتقد أن الضغوط سوف تتزايد علينا نحن معشر المسلمين لنهجر أوطاننا وننضم إلى أخوتنا الأتراك. ألا تعتقد ذلك، أيها الكونت ستروجونوف؟"

"هذا بالضبط هو سبب وجودي هنا، يا ناخو. إذا كان هنالك أي شيء يمكنني أن أعمله لمساعدتك".

فجأة، شاهد ناخو جزءاً آخر من الصورة

قال بطريقة واقعية "أنت تريد أن تقدم لي عرضاً لشراء خيولي. فهل تريد أن تشتري الأرض أيضا؟"

لم يحمر وجه الكونت ستروجونوف "يا عزيزي ناخو. لقد تعاملنا تجارياً عبر السنوات بشكل طيب. إنني أكن أشد الاحترام

لمهاراتك. سوف أعرض عليك سعراً أفضل بكثير مما ستحصل عليه من كثيرين آخرين. دعني أتكلم على سجيتي. لقد كنت-"

رفع ناخو يده معترضاً "إعفني من إعلانات الصداقة، أيها الكونت. أنا أتفهم الوضع. إذا لم أتحرك بسرعة، فسوف أخسر الفرصة السانحة ويحتمل جداً أن يباع قطيعي في المزاد العلني. إنني أحب أن أبقي الأفراس الولاّدة مع بعضها..." لم يضف إلى قوله أنه يثق بالكونت في الاستمرار بعمله بشكل طيب.

وهو يفضل ذلك، على أن يبيع لتاجر خيول قوزاقي لا يحترم مقامه، ولا ما استطاع أن يحققه.

"حسناً إذن. ليس الأرض. أتخيل أن المزارعين القوزاق سيقدمون لك عرضاً أفضل مني عليها، كما أنني لا أستطيع أن أضغط على مواردي كثيراً."

"لن تباع الأرض مطلقاً. إنها ليست ملكي حتى أبيعها. أعطني بعضَ الوقت لأفكر في الأمر ملياً". نهض ناخو ومدَّ يده إلى ستروجونوف". أشكرك على تفهمك، أيها الكونت".

بات الكونت ستروجونوف محرجاً من موقفه "هذا لمصلحتي، يا ناخو". فقد كانت مزرعة الاستيلاد التي يمتلكها في تيرسك تتحول إلى مؤسسة ذات شأن، وحتى ناخو كان يعرف ذلك.

لطّف ناخو من موقفه قليلاً "سوف يتم الاعتناء بجيادي بشكل حسن. وتلك نعمة".

صاحب الكونت إلى عربته: أصبح الآن بإمكان الزوار أن يسلكوا طريقاً وعرة شقت حديثاً، تقسم أراضي الحابساي، وتؤدي إلى الجسر المقام عبر التيريك. راقب العربة وهي ترتعش فوق الحفر المتجمدة في الطريق الترابية، ثم تستدير في منحنى باتجاه النهر. ثم ابتدأ يعمل في عدة الخيل في الإسطبلات، ليلهي نفسه

بشيء يفعله، بينما كانت فداحة ما يجري تتخذ مستقرها داخل أفكاره.

لقد كان يتمعن في موضوع هجرته. فقد حان الوقت أخيراً ليعترف بالهزيمة.

سقط خيال من الظل عبر مدخل الزريبة. اقترب منه قرويان، يشكل تنفسهما القلق نفثات بيضاء قرب فميهما. لم يكن أي منهما رجلاً ثرياً، لكنهما جاران ودودان، مخلصان، لطيفان، ومجدان في عملهما.

قال أحدهما "اسمح لنا بدقيقة، يا ناخو، هل صحيح أن الإمام قد أقنعك بالهجرة؟".

قال الرجل الآخر "لقد عرفت عنه المبالغة، لذلك فكرنا في أن نسألك مباشرة، إذا كان ذلك لا يسبب لك أية إساءة".

أضاف الأول "لقد شاهدنا الروسي مغادراً".

لم يتمالك ناخو نفسه من الابتسام على الرغم من جدية الموقف. فليس من أمر يحدث في قرية الحابسا بدون أن يعلم به الجميع. هذه الألفة في الحياة في قباردا الصغرى - هل سيفقدها إلى الأبد؟ كان ذلك أمراً يستحيل التفكير فيه.

توقف ناخو عن العمل "يا أخوتي، إن أسبابي للتفكير في التحرك إلى استنبول ليست لها علاقة بمواعظ تاب أنور" ظهر على الرجلين الانفراج "إذن أنت لا تعتقد بأنه يتوجب علينا جميعاً الرحيل".

"كل ما أقوله هو، لا تقرروا شيئاً بناءً على قراري. لدي عائلة في تركيا. إذا ذهبت، فهو للانضمام إليها. يتوجب علينا أن نتوصل إلى قرار بالاحتكام إلى ضمائرنا...."

قال أحد القرويين "يقول تاب أنور أنه سيتدبر أمر السفر بحراً، يجهز الأوراق وكل تلك الإجراءات الرسمية..."

عاد ناخو لاستئناف عمله. لم يكن بمقدوره أن يخبر هذين الرجلين، عن ماهية مخاوفه. كيف يمكنه أن يتحدث عن الأخطار التي تقع أمامهما، لرجلين قد لا يمتلكان خياراً غير مواجهة التهجير؟ سيكون ذلك معناه مصادرة الأمل.

"إذا سافر تاب أنور معنا، وقتها أعتقد أنه ستكون لدينا فرصة في أن نلقى معاملة طيبة. ولكن دعونا لا نستعجل اتخاذ قرارنا، أيها الأخوان. دعونا ننتظر ونرى" واختتم كلامه.

أبقى تاب أنور حملته على ناخو قائمة طيلة أشهر الشتاء. قدَّم رسائل من ستناي وزوجها شامرزا عمر، يتوسلان فيها إليه أن يكلم ناخو. "يا ناخو ،إنها تتقدم في السن. إن عدم معرفتها بما سيحل بك تسبب لها المتاعب، إنها تريد أن تراك مرة واحدة أخرى، لكي تساعدك لبناء حياة جديدة... إن الموقف مختلف جداً عما كان عليه قبل عشر سنوات. إن الشراكسة محترمون على ما ساهموا فيه بتركيا...."

وجد ناخو في هذا أقوى شكل من الإقناع. كان عقله في حالة فوران، يمتلئ بالأمل أحياناً، وفي أحيان أخرى يملؤه الحزن. هناك مثل قباردي قديم يقول "ستموت من الندامة إذا جعلت من الغريب سيدك..."

قال تاب أنور في واحدة أخرى من زياراته العديدة إلى ناخو "أرأيت، إنك تمتلك الخيارات! إن مخاوفك كلها لا أساس لها من الصحة!

انظر إلى ما تكتبه عائلتك هنا: لقد توسط شامرزا عمر نيابة عن قرويي الحابساي لدى مكتب المدير - أي دائرة الهجرة. إنهم يقولون أنك ربما ترغب في الانضمام إلى عائلات قباردية أخرى استقرت في المقاطعات الجنوبية لبلاد الشام. لقد أوجدوا مجتمعاً

مزدهراً يسمي عمان. هذا مجرد اقتراح، طبعاً...." أمسك تاب أنور بالرسالة قريبة من صدره، ونظر إلى ناخو نظرة طويلة ثابتة.

"فكر في الأمر، يا ناخو، يبدو أنهم بحاجة إلى عمال لبناء خط حديد عظيم. هو الخط الحديدي الحجازي - لربط المدينة ومكة! يا لها من خطة! ستوفر عملاً طيباً لشبابنا!"

جادله ناخو "سوف يحتاجون إلى الأرض، وليس إلى الخطوط الحديدية."

"نعم، نعم، سوف يتم منحها من قبل السلطات العثمانية لهم مقابل أتعابهم. هذه خطة جيدة، يا ناخو، وسيكون القرويون ممتنين جداً لعائلتك إذا قمت بترتيب الأمر لهم".

أصبح ناخو يشعر بالحبل يضيق على عنقه بشكل متزايد، طيلة الوقت.

كانت هناك أوقات ينام فيها إلى جانب ديسا ويصحو باكياً منتحباً لأن ذكرياته عن تلك المرأة الهزيلة والجميلة رغم ذلك، في حديقة باستنبول، تطارده بحدة وبلا هوادة. كثيراً ما كان يتذكر والدته، خشيتها عليه، ارتفاع معنوياتها المفاجئ بالضحك الأنثوي مثل الفتيات، وكان يتمنى يائساً أن يشاهدها مجرد مرة واحدة أخرى. فقد كانت زيارته الأخيرة والوحيدة إليها قصيرة، وتعمها الفوضى، وغير مكتملة. فتدمع عيناه. بعدها كان يزحف بسرية عبر الممر إلى حيث نام أطفاله باسطين أطرافهم بكل البساطة المفعمة بالثقة التي ينام بها الشباب. فكان ناخو يقف فوق رأس حسن، يجاهد حتى يتصالح مع قلقه، مع أحزانه.

بعد مضي شهر، عاد الكونت ستروجونوف وحثه على إتمام صفقة البيع. فقد أتمت السلطات الروسية إحصاءها للقرى، وتم إصدار الإعلان: يجب على جميع العائلات القباردية أن ترسل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والثانية عشرة إلى

المدارس الإقليمية حيث سيتم تدريسهم اللغة الروسية والمبادئ الأساسية للدين المسيحي.

أصبحت القرية في حالة قريبة من الفوضى الشاملة. جلس الرجال في صالونات بعضهم البعض، يتجادلون مع وضد التعليمات وما يجدر بهم أن يفعلوه تجاهها.

أرسل روسلان يستدعي ناخو. وكان جلياً أنه قد تم تحريضه من قبل الإمام حتى يمارس كل ضغط ممكن على ابن عمه، حتى يتبع القضية الإسلامية.

"اجلس معي يا ناخو. إنني مضطر لأن أخبرك إنني قد قررت أن أرتحل مع تاب أنور وأن آخذ عائلتي معي إلى استنبول".

"روسلان! كيف يمكنك أن تفعل ذلك! سيغضب أنور ولن يذهب معك مطلقاً!"

سيطر روسلان على غضبه بشكل جيد جداً، بالنظر إلى وقاحته. "اسمع يا ناخو. إن والدي يعيش في عالم من الأحلام، عالم أيام شبابه عندما كان كل شيء مختلفاً. استمع إلي: يجب أن تشكّل مثالاً يحتذى به بقية القرويين. إنهم يحترمونك. أنا لا أرغب فقط في أن تطيع رغبات الكبار والوجهاء. أنا أريدك أن تفهم، وترى المنطق....."

قال ناخو بهدوء واتزان "يا "تحمادا"، ليس من السهل علي أن أقرر بسرعة. لقد شاهدت أشياء...."

تخلى روسلان لمرة واحدة عن كبريائه، وأمسك بذراع ناخو. لقد كان الرجل في صورة أبيه: وكان روسلان يحترمه. لم يتوقف عند ذكرياته الماضية عن القتل والفوضى. ربما لذلك السبب احتفظ هو وناخو ببعض التحفظ في علاقتهما ببعضهما.

"استمع إليَّ يا ناخو، لا تجبرنا على شق العائلة. نحن أقارب، يجب أن يكبر أبناؤنا سوية. كما فعلنا نحن." لم يزعج نفسه بذكر أن معظم أولاده أنفسهم يرفضون أن يهاجروا معه.

لقد كانت هذه حجة قوية لو أنها كانت صحيحة. هز ناخو رأسه، حزناً أكثر مما كان رفضاً، وذهب روسلان إلى بيته. ربما كانت نعمة أن العديدِ من نسله سيبقون في الوطن.

أصبح ناخو يستيقظ في الليل بانتظام أكثر الآن، ويتصارع مع ضميره. إن الأرض تمثل كل شيء: وهكذا كان جده قد علمه. ولكن ما نفع الأرض، إذا فقد الشخص إرثه الثقافي؟ يقيناً. إن البقاء على قيد الحياة لا يعني شيئاً في نهاية الأمر، إذا مات تاريخ الإنسان؟ إن الرجل الذي لا تاريخ له هو إنسان ضائع.

ذلك أيضاً هو ما قاله أنور، في اليوم الذي غادرت فيه الجياد.

"لقد أنشأ أبي، أحمد الكوباني، مزرعة الاستيلاد هذه. لقد قطع كل المسافة قادماً من الغرب، عبر الجبال، ليستقر هنا بين أخوته القبارديين. لقد تم قبوله. اذهب يا ناخو. اذهب إلى حيث سيتم تقبلك. لأنني أخبرك يا صبي، هذه هي النهاية بالنسبة لوجودنا هنا. انظر". رفع أنور يداً مرتعشة، بينما مرت تيليجا أخرى، عربة سفر روسية تجرها الخيول، عبر القرية، ملأى بالموظفين والقساوسة، ماضية في طريقها لرسم قائمة أخرى من الأسماء، ولإصدار مرسوم آخر باسم التقدم.

لقد أخلت الرصاصات والمدافع المجال للريشة والورق. فإما أن يندمج القرويون، يتخلون عن ديانتهم، يتخلون عن "الخابزة"، أو يتخلون عن أراضيهم وبيوتهم. أو هكذا صار الأمر يبدو بالنسبة لناخو.

توفي العجوز أنور أثناء الشتاء. أنزلت آخر صلة بالماضي في مكان راحتها الأبدية. لقد دفن على الأقل إلى جانب أخيه كازبك،

ووالديه أحمد وتسيما، في أراضي وادي التيريك التي عملوا فيها بجد وقوة. كان هناك جانب من الأحقية في ذلك.

في صباح يوم ربيعي جميل، ساعد ناخو وأولاده الأربعة وابنته، زوجته وأمهم ديسا وطفلتها الصغيرة "بابوشكا" في تحميل عرباتهم استعداداً للانضمام إلى القافلة الطويلة من المهجرين، الذين تجمعوا تمهيداً لتهجيرهم إلى "بيت الإسلام".

كانت هناك أكثر من ثلاثين عائلة تسافر مع تاب أنور، بمن فيهم عائلات ابن أنور، روسلان. كلهم ما عدا أصغر أبنائه، أفضل خيال في العائلة، كريم، الذي رفض أن ينضم إليهم. كان يحب وادي التيريك وقرر البقاء فيه. لا شك في أنه سيتزوج يوماً ما ويواصل نسب العائلة في الجلاخستني. بوجوده ووجود نفر قليل من الشباب الذين اتخذوا نفس القرار، سيبقى هنا فريق حيوي من الأديغه و "خابزتهم"، إلى الأبد في القفقاس.

لكن مزرعة استيلاد الخيول التي أنشأها أحمد الكوباني، لم يعد لها وجود. ليس في إقليم التيريك على أية حال.

خلف عربات ناخو، كانت ستة جياد عربية بيضاء مربوطة في صف طويل. كان الأمل معقوداً على شحنها إلى تركيا للبدء في مزرعة للاستيلاد مرة أخرى. كانت ذيولها تتطاير كالريش في الريح: جلس الشاب حسن وأشقاؤه الثلاثة على مؤخرة العربة يراقبون الأفراس، ينادون عليهن، ويقصون على بعضهم بعضاً القصص والنكات. أي شيء يغطي على أصوات النسوة اللاتي ينتحبن باكيات في العربات والأطفال الذين يقرأون القلق في وجوه أمهاتهم ويبدأون بدورهم في العويل.

جلس ناخو في المقدمة إلى جانب ديسا. بدا على زوجته التوجس وظهرت صغيرة الحجم جداً، وقد تكومت كل ممتلكاتها الدنيوية على ظهرها. كانت تحتضن ابنتها الطفلة وتبتسم في وجهه بقلق بين الفينة والأخرى.

"كلما زاد عددنا، كلما كان ذلك أفضل". قال ناخو، وهو يشد على يدها.

أعطى تاب أنور الإشارة، وتدحرج الصف الطويل من العربات باتجاه الغرب تاركاً قرية التيريك خلفه. لمرة واحدة عمل الأئمة و"الجاور" يداً بيد.

***

الخاتمة

بنى أمير حكيم ثري بيتاً كبيراً مرفوعاً في الغابة.
حتى يجعله آمناً، دعم البيت بستة وعشرين
عمود من أفضل أنواع البلوط. بعد بعض الوقت
تعب أحد الأعمدة من عمله وعجب لنفسه
"هنالك خمسة وعشرين عمود آخر
يدعمون هذا البيت. حتماً إذا مشيت مبتعداً،
فلن يؤثر ذلك على سلامة البيت."
وهكذا ابتعد العمود، ولكن، ألا تعلمون!
كان العديد من الأعمدة الخمسة والعشرين
قد توصلوا إلى نفس الاستنتاج،
أنهار البيت وتفرقت أعمدة البلوط القوية.
ضعيفة في فرقتها.

***

صدر في الثلاثية

- سيوف الشيشان
- كازباك

يتبع في ملحمة القفقاس

- قصة البلقان (مأساة الشابسوغ)
- الثورة
- الشتات
- ضياع في بلاد الشيشان

صدر للمؤلف
محيي الدين عزت قندور

في الرواية

- عملية اختطاف الطائرة
- الصدع
- سيوف الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- الأسطورة
- تحالفات خطرة
- ضياع في بلاد الشيشان

دراسات

- المريدية، دراسة الحروب القفقاسية (1819-1859)

المؤلف في سطور

محيي الدين عزت قندور شركسي هاجر أجداده خارجين من القفقاس الى تركيا العثمانية وبعدها الى الأردن ، حوالي نهاية القرن التاسع عشر .
ذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية كمراهق وأكمل دراسته الجامعية بكافة مراحلها في أنديانا وكاليفورنيا حيث تخرج بدرجة ماجستير في الدراسات الدولية ودكتوراه في الاقتصاد والتاريخ .
عمل قندور في إدارة الأعمال مع شركات متعددة الجنسيات في نيويورك ولندن لحوالي خمسة وعشرين عاماً كمدير تنفيذي و/أو مستشار .
في بداية السبعينات قضى أربع سنوات في هوليوود ككاتب نصوص سينمائية ، ومنتج ومخرج . كتب عدة أعمال غير روائية وست روايات منشورة ، والتي تشكل الثلاثة الأخيرة منها هذه الثلاثية «كافكاز»

Triple Conspiracy

رواية
NOVEL

بعض ما كتبته وسائط الاعلام العالمية حول

" ثلاثية القفقاس"

أسلوب الدكتور قندور المفعم بالحيوية، يقطع مثل السيف القوزاقي عبر عين العقل. فقد حيكت في ثلاثية القفقاس مئة سنة من تاريخ العائلة في مادة الاساطير، نستطيع الآن أن نرى أن المقاومة المسلحة في بلاد الشيشان والقفقاس لم تكن أمراً مستجداً لأن للتاريخ طريقة وحشية في تكرار نفسه.

(Minerva Press - London) مجلة مينيرفا لندن

يروي ابن المهاجرين القبارطيين الذي يبحث عن جذوره، قصة شعبه في أسلوب ملون جذاب يما هي الأحداث التاريخية بالأساطير العائلية ... ممتع ومثير بدرجة عالية.

(Pravda-Moscow) برافدا

أثناء قراءة هذا الكتاب - السيرة ذات الابعاد الملحمية عبر ثلاثة أجيال من تاريخ عائلة قفقاسية، تشعر وكأنك تشاهد انتاجاً سينمائياً ضخماً ضمن أروع تقاليد هوليوود. لم يتحقق هذا من خلال موهبة المؤلف وحدها، بل أيضاً جراء انغماسه الشخصي في كل ما يصفه. ففي نهاية المطاف، فقد كان لاسلافه دور في مأساة الجبليين ...

(Literary Journal) المجلة الادبية

مؤلف ألمعي ... لقد حول محي الدين عزت قندور صفحات تاريخ وطنه الاصلي الى نص جذاب بفكر متعمق.

(Red Star Journal) النجم الأحمر

من خلال بحثه عن الحقيقة التاريخية، واضح أن المؤلف قد بحث في مجلدات من وثائق الأرشيف التي لم تصبح متوفرة إلا مؤخراً .... موضوعي ومتوازن .... عمل جميل.

(Trud-Moscow) الأعمال الأدبية

آن كتاب قندور ملائم للعصر. رسالته واضحة: ليس للتاريخ معنى إلا إذا تعلم شخص دروسه. هل تستطيع الأمم القفقاسية أن تتجنب كارثة مثل يوغسلافيا السابقة، أم أن الوطنية الإنفصالية العرقية نفسها ستقود الى كارثة أخرى.

(Russian News) الأنباء الروسية

ISBN 9953-36-744-2

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١